الأستاذ الدكتور محمود الذوادي

التخلف الآخر

عولمة أزمة الهويات الثقافية
في الوطن العربي والعالم الثالث

الأطلسية للنشر

إهـــــــــداء٢٠٠٦

الأستاذ الدكتور/ محمود بن الحبيب الذوادي

الجمهورية التونسية

التخلف الآخر

عولمة أزمة الهويات الثقافية في الوطن العربي والعالم الثالث

للأستاذ الدكتور محمود الذّوادي

الأطلسية للنشر

سحب من هذا الكتاب في طبعته الأولى
1000 نسخة
جانفي 2002

86 ، شارع بورقيبة أريانة

الاهــداء

إلى أخي العزيز المرحوم حمادي
وإلى وسيمة وجميل وطلال

توطئة

إطلالة على أصول فكرة "التخلف الآخر" ومراحل تطورها

تـدور فصـول هذا الكتاب حول ما نسميه **بالتخلف الآخر**. وهي ظاهرة لغوية ثقافية نفسـية تنتشـر في مجتمعات العالم الثالث المعاصرة. نركز هنا في المقام الأول على دراسـة التخـلف الآخر بمجتمعات المغرب العربي ثم تعقبها في الأهمية على التوالي دراسـة التخـلف الآخر في مجتمعات الوطن العربي الأخرى وبقية مجتمعات العالم الثالث.

فالمجـتمعات الـنامية لا تشـكو فقـط مـن معـالم التخلف الإقتصادي والإجتماعي والتكـنولوجي والعـلمي والصناعي بل هي تشكو أيضا من **نوع آخر من التخلف** وهو **التخـلف الـلغوي الـثقافي النفسـي**(التخلف الآخر). أي أن هذا الأخير يتكون، في نظـرنا،من معلميْن رئيسيين:**معلم لغوي ثقافي ومعلم نفسي**.فماذا يعني عندنا مصطلح **التخـلف** فـي هذيـن المعلمين؟ نحن نرى أن اللغة والثقافة الوطنيتين،مثلا، تصبحان **متخلفتين** في مجتمعهما إذا لم **تُستعملا بالكامل** في كل شؤون مجتمعهما. فاللغة العربية وهـي الـلغة الرسمية للمجتمعات المغاربية،أصبحت متخلفة في العصر الحديث بسبب الاحـتلال الإستعماري الفرنسي لهذه الشعوب والذي أدى إلى **تهميش أو إقصاء اللغة العـربية** عـن تسيير العديد من شؤون تلك المجتمعات. وبعبارة أخرى، فلغة المجتمع **تتخـلف** كـثيرا أو قـليلا كنـتيجة لمقدار تقصير مجتمعها في استعمالها.**فاللغة مادة إجـتماعية** تحـي وتـنمو وتنهض إذا كانت علاقتها بتسيير كل شؤون حياة المجتمع علاقـة عضوية وحميمة.ويصيبها،من جهة أخرى، الهزال والغربة وربما الاندثار في مجتمعها إذا وقع تهميشها أو إقصاءها عن إدارة كل شؤونه.

أمـا معلم **التخلف النفسي** في ظاهرة التخلف الآخر، فهو يعني عندنا **شعور إنسان مجـتمعات العالم الثالث بمركب النقص والدونية** إزاء الغرب، ومن ثم الرغبة في تقـليده بـدون حدود أحيانا.فموضوع كتابنا، إذن، ذو علاقة حميمة بكتابات كلّ من فرانـتز فـانونFrantz Fanon وألـبار ممي Albert Memmi حول **إنسان العالم الثالث المسـتعمر والمقهـور وتصـوره التحقيري لنفسه** في تلك الظروف. ونعتقد أننا نسـتعمل فـي هذا الكتاب إطارا فكرياparadigm من العلوم الإجتماعية -أوسع من مـنظورهما النفسـي- لتحليل وضع أفراد المجتمعات النامية الواقعة تحت الهيمنة الإستعمارية بوجهيها القديم والحديث.

يجمع الكتاب بين الجانبين **الميداني والنظري** في تحليله لظاهرة التخلف الآخر.وهذا ما تنادي بتبنيه العلوم الإجتماعية المعاصرة. ففصول الباب الرابع من الكتاب يغلب عـليها الجـانب الميداني.إذ تقوم بملاحظة ملامح التخلف الآخر بالمجتمع التونسي وتمدنـا بمعطيـات ميدانية حول تلك الملامح. وفي المقابل، فإن فصليْ الباب الأول مـن هذا الكتاب يُركزان على الجانب النظري لظاهرة التخلف الآخر. فيستعملان مفهـوم "**الـرموز الثقافية**" للتعمق في فهم طبيعة التخلف الآخر ولكسب الرهان في التـنظير السوسيولوجي حوله.أما فصول الباب الثاني والثالث فهي تجمع، وبطريقة شـبه متسـاوية أحيانا، بين الجانبين الميداني والنظري الفكري في معالجتها لمعالم التخـلف الآخر. فالفصل الثاني من الباب الثالث مثال بارز لهذا التوجه التوفيقي بين الـنظري والميدانـي فـي معظـم فصول الكتاب. ففصل "في سوسيولوجيا أسباب نجـاح/تعثر توطين اللغة في كل من المجتمع الجزائري والتونسي والكيباكي" يُرسي إطـارا نظـريا حـول التكوين اللغوي الثقافي الإيديولوجي للقيادات السياسية لهذه المجـتمعات الـثلاثة لتفسـير **تحمس** أو **تردد** تلك القيادات السياسية إزاء التوطين الفعـلي للغات الوطنية في الواقع الميداني لهذه المجتمعات. كما يتجلى هذا التوفيق بين الميداني والنظري في دراسة التخلف الآخر كظاهرة ذات مؤشرات ميدانية، من ناحية، وكمفهوم سوسيولوجي فكري، من ناحية أخرى. ولعل الجدول الثاني في هذا الكتاب أفضل ما يلخص ويبرز المعالم الرئيسية للتخلف الآخر **كظاهرة لغوية ثقافية نفسية وكصياغة مفاهيمية** تنتمي إلى الرصيد الفكري للعلوم الاجتماعية المعاصرة. ويمكـن الحديث عن ثلاث مراحل مررنا بها أثناء البحث والتفكير في ظاهرة/مفهوم التخلف الآخر[1].

المرحلة الأولى:(1975-1982)

نشـرنا فـي هذه الفترة ثلاثة مقالات في مجلة **الفكر** التونسية تركز كلها على مدى انتشـار اسـتعمال التونسـيين للكـلمات والعـبارات الفرنسية في عاميتهم العربية التونسية(الفرنكواراب) وما لذلك من انعكاسات سلبية على شخصية التونسي وهويته الـلغوية الـثقافية. وأدى بنا التحليل لظاهرة الفرنكواراب إلى أنه يمكن الحديث عن صـنفين من **ظاهرة الفرنكواراب:صنف ذكوري وصنف أنثوي.** وقد تركز اهتمامنا البحـثي عـلى هـذا الصـنف الأخير من الفرنكواراب.فنشرنا أول دراسة في هذا الموضـوع بمجـلة **شـؤون عـربية** بعنوان "جذور ظاهرة الفرنكواراب الأنثوية بالمغرب العربي" في نهاية عام1982[2].

المرحلة الثانية:(1982-1990)

تمـثل هذه الفترة **ميلاد مصطلح التخلف الآخر** وقرب اكتمال مواصفاته كظاهرة أو كمفهـوم بحثي يمكن استعماله في التنظير وفي البحوث الإمبريقية من طرف علميْ

---

[1] نستعمل مصطلح "التخلف الآخر كظاهرة ومفهوم في نفس الوقت

[2] مجلة **شؤون عربية**، العدد22ديسمبر1982، ص124-137

الإجتماع والنفس الإجتماعي على الخصوص.فمجلة **المستقبل العربي** نشرت لنا في يـــناير 1983 أول دراسة كتبناها حول ظاهرة التخلف الآخر وكان عنوانها:" التخلف الآخـــر في المغرب العربي"[3]. وتأثرا بمواضيع مقالات المرحلة الأولى المشار إليها سابقا، فإن التركيز في هذه الدراسة الأولى عن التخلف الآخر انصب على **الجوانب اللغوية الثقافية لظاهرة التخلف الآخر لمجتمعات المغرب العربي المعاصرة.**

واســـتمر الانشـــغال بمحاولـــة فهم أفضل وأشمل لظاهرة التخلف الآخر.وهذا أمر طـــبيعي في المسار الفكري والبحثي خاصة حول الظواهر/المفاهيم التي لم تزل في بدايـــة نشأتها. فالباحث يحتاج إلى الوقت والجهود المكثفة لكي ينضج فكره ويستقيم تحـــليله ويهـــتدي إلى أبعاد جديدة تسمح بتعديل صياغاته الأولى أو بالإضافة إليها. وهـــذا ما حدث في مسيرة مفهوم ظاهرة التخلف الآخر إذ نشرنا الدراسة الثانية بعد ثـــلاث ســـنوات، في مجلة **المستقبل العربي** بعنوان:التخلف الثقافي النفسي كمفهوم بحـــث فـــي مجـــتمعات الوطن العربي والعالم الثالث"[4]تبرز هذه الدراسة أن ظاهرة التخـــلف الآخـــر في المجتمعات النامية ذات طبيعة مزدوجة تتمثل في **تخلف لغوي ثقـــافي وتخـــلف نفسي** تشكو منهما تلك المجتمعات. وهكذا تعرّف المثقف العربي خاصـــة عـــلى مفهـــوم التخلف الآخر وعلى حركة تطوره بقراءته لمجلة **المستقبل العربي**. إن أبرز إضافة أتت بها هذه الدراسة إلى مفهوم التخلف الآخر هي التأكيد، مـــن جهـــة، عـــلى أن الجانـــبين الثقافي والنفسي لهذا المفهوم/الظاهرة يؤثران في بعضـــهما الـــبعض بحيث يكونان **نسقا لغويا ثقافيا ونفسيا** مترابط العناصر. ومن جهة ثانية، فقد سمح هذا التصور الجديد لمفهوم التخلف الآخر بإمكانية استعماله في الـــبحث الإمبريقي والتحليل الموضوعي للظواهر الإجتماعية والنفسية بطريقة أكثر نضجا ومصداقية من الصياغات السابقة لهذا المفهوم المشار إليها سابقا.

المرحلة الثالث:(1990-2001)

نعكف منذ بداية التسعينات من القرن الماضي على دراسة ما نسميه **بعالم الرموز الثقافية:** اللغة،العقائد،الفكر،المعرفة/العلم، القيم والأعراف والتقاليدالثقافية،الأساطير. لقدركزناجهودنا البحثيةعلى إماطة اللثام عن **الجوانب الميتافيزيقية للرموزالثقافية**[5].

---

[3] **المستقبل العربي**،العدد47، يناير 1983 ص20-41 نجد نصها في الفصل الأول للباب الثالث من هذا الكتاب

[4] **المستقبل العربي**، العدد83، يناير1986، ص25-43 كما نشرت هذه الدراسة في كتاب: **نحو علم اجتماع عربي**، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ص 163-184.انظر نصها في الفصل الأول من الباب الثاني لهذا الكتاب.

[5] في الدلالات الميتافيزيقية للرموز الثقافية، مجلة **عالم الفكر**، المجلد الخامس والعشرين عدد3، يناير/مارس199، ص9-43 وانظر DHAOUADI,M. Toward Islamic Sociology of Cultural, Symbols Kuala Lampur, A S. Noordeem 1996 p.228.

ونعـــني بذلـــك أن لتـــلك الرموز الثقافية لمسات ميتافيزيقية تتشابه في طبيعتها مع الكائنات الماورائية مثل الآلهة والملائكة والأرواح. ويتجلى هذا التشابه في السمات الـــتالية: ١)الطـــبيعة اللامادية لكينونة الرموز الثقافية.2) انعدام وجود عاملي الوزن والحجم فيها.3) أزلية أو طول أمد حياة الرموز الثقافية. 4) سرعة تنقلها وانتشارها. لقـــد اســـتفدنا من اكتشافاتنا للعديد من **التجليات الميتافيزيقية** للرموز الثقافية الأمر الذي مكننا من التعمق في تحليلنا لظاهرة التخلف الآخر. فلهذا الأخير جانب لغوي ثقافي كما رأينا. فمثلا، إن استعمال لغة الآخر وثقافته بدل اللغة والثقافة الوطنيتين هـــو ســـلوك يـــؤدي إلى حالة **تخلف** لهما.إذ اللغة والثقافة تتطوران وتنموان عند استعمالهما بالكامل في كل الأنشطة الفردية والإجتماعية في المجتمع.إن انتشار لغة الآخـــر وثقافـــته عـــلى حساب لغة القوم وثقافتهم يقود إلى **أمرين:أ)**طول أمد بقاء تأثيرهما ونفوذهما على القوم المبتلين بالتخلف الآخر لأن الرموز الثقافية تتمتع **بأمد حياة طويل** وأحيانا أبدي.

ب) يرتكـــز مفهومـــنا لمنظومة الرموز الثقافية على **أرضية إيبستيمولجية** تساعد كـــثيرا على فهم وتحليل طبيعة ظاهرة التخلف الآخر. فالجنس البشري **يتميز** عن غيـــره مـــن بقية الأجناس الحية بمنظومة الرموز الثقافية. وبتعبير إيبستيمولوجي، **فالرموز الثقافية هي جوهر الإنسان** وأهم ما تنطوي عليه ذاته ومن ثم تأتي أولوية إحكـــام عمـــلية التنشـــئة الرموزية الثقافية للأفراد والجماعات في منظومة الرموز الـــثقافية التي يتميز بها مجتمعهم. فعدم تعلم الإنسان و تجذره في منظومة الرموز الـــثقافية **تفقـــده إنســـانيته** كمـــا تشـــير إلى ذلك قصة الطفل الذي تربى في عالم الحيوانـــات. إن النظر إلى الرموز الثقافية باعتبارها بيت القصيد في ذاتية الإنسان والقوة الفاعلة في حركة مسيرته تفسر مدى مصداقية ما يذهب إليه البعض من أن **الغـــزو الرموزي الثقافي هو أخطر أنواع الغزو جميعا.**لأنه يهاجم من ناحية، تلك المقومات الرئيسية الذاتية التي ترتفع بالكائن الإنساني من حالة الحيوانية إلى حالة الإنســـانية. ويهـــدد، من ناحية أخرى، حق المجموعات البشرية في الانتساب إلى مـــنظومة رمـــوز ثقافيـــة تميزها عن غيرها، فتحدد هويتها ونمط حياتها.ومن ثم فانتشـــار ملامـــح التخلف الآخر في مجتمع ما طالما يقود أفراده ومجموعاته إلى **شعور بالغربة** مع إنسانيتهم داخل منظومة رموزهم الثقافية الأصيلة.وعلى مستوى آخر، فملامح التخلف الآخر تنطوي في نهاية الأمر على عملية **إرباك وعدوان على معـــالم الشخصـــية الفردية والهوية الجماعية** ذات الرباط الوثيق بالرموز الثقافية الأصيلة للمجتمع الأم. نُشرت كل فصول هذا الكتاب كدراسات ومقالات في مجلات عربية مختلفة من المشرق والمغرب العربيين. نُشر أولها في عام1976 وآخرها في النصف الأول للسنة الأولى من القرن الحادي والعشرين. أي أن محتوى هذا الكتاب هـــو حصـــيلة كتاباتنا المتواصلة لمدة **ربع قرن حول التخلف الآخر.** وقد حُررت نصوص هذه الفصول في مجتمعات مختلفة ومتباعدة عن بعضها البعض. فقد كتبنا أولها في كندا وآخرها في تونس. وأثناء هذه الفترة ساهمت كتاباتنا بالمملكة العربية

السعودية وماليزيا حول التخلف الآخر في إضافة جزء كبير من فصول هذا الكتاب. ونظـــرا للتباعد الزمني والمكاني لميلاد هذه الفصول، من ناحية، ولكونها كُتبت في الأصل كدراسات ومقالات مستقلة عن بعضها البعض، من ناحية أخرى، فإننا نرى أنــــه من الواجب القيام ببعض التعديلات فيها وذلك لتحاشي التكرار قدر المستطاع ولـــتدعيم الـــرباط الفكري القوي بينها.وتمثلت هذه التعديلات في حذف أو إضافة بعض الفقرات أو الأجزاء منها وإليها أوهما معا في نفس الوقت. وهكذا **تبقى وحدة فصول الكتاب منيعة وقوية.** فموضوع كل الفصول هو التخلف الآخر في مجتمعات الوطـــن العـــربي ومجـــتمعات العالم الثالث على العموم. إن ربع قرن من التفكير والكـــتابة فـــي موضـــوع التخـــلف الآخر سمح لنا بإنشاء"**مفهوم التخلف الآخر**" للاستعمال كأداة بحث في العلوم الإجتماعية الحديثة المهتمة بقضايا التنمية والتخلف فـــي المجتمعات النامية على الخصوص. وقد عملنا، من جهتنا، على التعريف بهذا المفهـــوم عـــلى **مســـتوى علم الإجتماع العالمي**[6]. وهو في نظرنا، مفهوم وقعت صـــياغته فـــي تربة واقع مجتمعات المغرب العربي والمشرق العربي وبقية العالم الـــثالث. ومـــن ثـــم، فهـــو يمثل **محاولة جادة لتوطين العلوم الإجتماعية في هذه المجـــتمعات.** إن تقديم هذا الحصاد الفكري **باللسان العربي** يجسد، من جهة، فكرة **مقاومة التخلف الآخر والقضاء عليه.**ومن جهة أخرى، فإن نشر هذا الكتاب باللغة العربية حول موضوع جديد بالنسبة لأدبيات التخلف والتنمية في العلوم الإجتماعية الغربية المعاصرة يُعطي بحق **دلالات أعمـــق لمعنى توطين العلوم الإجتماعية في الوطن العربي.**

---

6 Dhaouadi,M. An Operational Analysis of the Phenomenon of the Other Underdevelopment in the Arab World and the Third World ,
International Sociology, vol.3 n°3, September 1988,pp.219-234 نشرت تلك الدراسة في كتاب :
Globalization, Knowledge and Society by M. Albrow and E .King (eds) London, Sage Publication,1990,pp.193-208(علما أن كلا من المجلة والكتاب هما من نشر الجمعية العالمية لعلم الإجتماع. انظر أيضا الفصل الثاني الذي كتبناه حول التخلف الآخر في كتاب : Skair, L., Capitalism and Development, London, Routledge, 1994,pp.140-164
كما يشر لنا هذا العام (2002) كتاب باللغة الإنجليزية حول التخلف الآخر.

الباب الأول

حول طبيعة عالم الرموز الثقافية
والتأثيرات
بين المجموعات البشرية

الفصل الأول
مفهوم عالم الرموز الثقافية عند الإنسان
وفهم عمليتي التأثير والتأثر الثقافيين

أولا :الرموزالثقافية كأداة فهم للغزو الثقافي

إن القـول المشـهور"بأن غزو ثقافات الشعوب أخطر من غزو العساكر لأرضيها" قـول ذو مصداقية عالية . ومنه تأتي أهمية الندوات والبحوث والمؤلفات المعاصرة حـول أخطـار ما يسمى بالإمبريالية الثقافية التي تفرضها خاصة الثقافات الفرنسية والإنجـليزية والأمـريكية على الكثير من مجتمعات العالم المعاصرة وفي طليعتها مجتمعات الوطن العربي وبقية بلدان العالم الثالث.

ورغـم صحة تلك المقولة إلا أنها طالما تبدو أو تُـتَّهم بأنها مقولة ذات ظلال إيديولوجيـة وذلـك لافتقارها في أغلب الحالات إلى تصور إيبستيمولوجي ومنهجي يخلصـانها مـن الضـبابية الـتي طالما تحجب عن كل من ضحايا الغزو الثقافي وأصحاب الثقافة الغازية أنفسهم الوجه الحقيقي للغزو الثقافي ، وذلك حتى إذا كانت نيـة الطـرفين حسنة . إذ إنه حسب مطالعاتنا لما كتب في موضوع الغزو الثقافي حديـثا ولمـا سـمعناه من المناقشات والتحليلات بهذا الصدد **فإن التراث المعرفي المجمّـع بخصـوص قضية الغزو الثقافي يخلو أساسا من بعض عناصر إطار التحليل لعالم الرموز الثقافية كما هو مطروح في هذه الكتاب** . فالغزو الثقافي كما تقع معالجته من طرف العلماء والمفكرين المحدثين يقتصر عندهم على العموم على التحـليل الوصـفي لأدوات الغـزو الثقافي والمتمثلة في هيمنة اللغة والفكر والقيم ...للـثقافات الفرنسية والإنجليزية والأمريكية على فئات وقطاعات متعددة في كثير من مجتمعات العالم اليوم.

فعلى مستوى أول **هناك نقص في الدقة** في طرح مسألة الغزو الثقافي كما توحي بذلـك عـبارات " الاستلاب الثقافي " و " الغزو الثقافي الصهيوني " و " الإمبريالية الإسـتعمارية الـثقافية" [7] والتحـليل والفهـم العلميان لأخطار ظاهرة الغزو الثقافي يتطلـبان طـرحا يحدد ويحصر بأكثر ما يمكن من الدقة الأسس الرئيسية للظاهرة المدروسـة . **فاسـتعمالنا لعـبارة " عالم الرموز الثقافية" عند الإنسان يندرج في رأيـنا في محاولة علمنة الفضاء الرموزي الثقافي عند الإنسان** . ويتمثل ذلك في إبراز:

1-أن الإنسان يمتاز عن غيره من الكائنات الأخرى بعالم ضخم من **الرموزالثقافية:**

---

[7] انظر الفصل الأول من الباب الثالث من هذا الكتاب.

" **اللغة والفكر والمعرفة/العلم والعقيدة والقوانين والقيم والأعراف الثقافية...**"*
وبقدرة فائقة في استعماله لتلك الإمكانيات والطاقات الرموزية . وهذا ما جعلنا نطلق عليه بأنه **كائن رموزي ثقافي بالطبع** أولا وقبل كل شيء .
2-أن مسألة ضخامة حجم الرموز الثقافية عند الإنسان ليست قضية شكلية أو كميّة فحسب . إنما هي أيضا نوعية أو كيفية إنها عمق جوهر الإنسان ذاته . **إنها روح هذا الكائن العاقل** . فعليها يتوقف ، إذن ، فك ألغاز طبيعة الإنسان . ومن دون إعطائها الأولوية والمركزية في دراساتنا العلمية للإنسان لا يمكن لجهود علماء النفس والاجتماع وغيرهم أن تتقدم في إرساء رصيد معرفي يتصف بالمصداقية العلمية المطلوبة لفهم السلوك الفردي و الجماعي للإنسان .

فمقولة "الغزو الثقافي للأفراد والجماعات هو أخطر أصناف الغزو جميعا" يصبح لها، إذن، مدلول أكثر دقة وتعمقا في طبيعة الأشياء بالنسبة إلى ظاهرة الغزو الثقافي التي تحدث بين الشعوب. إذ إن هناك فرقا في تقييم انعكاسات هذه الظاهرة على الأفراد والجماعات بين من يعتبر، من جهة ،أن عالم الرموز الثقافية يمثل مركز الثقل في تركيبة الإنسان ومجتمعه وبين من يهمش دور عالم الرموز الثقافية في فهم الإنسان والمجتمع من جهة أخرى . فالغزو الثقافي عند الأول سوف ينظر إليه على أنه **أخطر** ما يمكن أن يتعرض له الإنسان ككائن ذي خصوصية ثقافية . فالأمر يبعث على الفزع المفرط عند هذا الفريق لأن **الغزو الثقافي يعني المسّ بأهم ما يميّز به الإنسان وأعمق ما في كينونته** . فانتشار لغة أجنبية وفكرها وقيمها يمثل أرضية لإمكانية نجاح عملية الغزو الثقافي بين الشعوب.أما بالنسبة إلى الفريق الثاني فلا حاجة للانزعاج من كيد آثار الغزو الثقافي . فالأولى عنده أن يجمع الناس أمرهم ويقفوا بالمرصاد لأخطار الغزو الإقتصادي وما يصحبه من استغلال لموارد البلاد التي تسقط ضحية السيطرة الأجنبية على حركية اقتصادها.
وعلى مستوى ثان، فالمهتمون بمسألة الغزو الثقافي من المفكرين والأكاديميين لا يكاد يجد المرء في بحوثهم وتحاليلهم أية إشارة إلى ما أطلقنا عليه هنا **الجوانب الميتافيزيقية للرموز الثقافية عند الإنسان**[8]. فاللغة ، كمثال، ليست أداة تواصل مع الآخر فقط في هذا العالم الحسي المحكوم بقيود الزمان والمكان . ففي الديانات التي عرفتها البشرية عبر تاريخها الطويل استعمل الإنسان اللغة في تضرعاته وابتهالاته إلى الإله فاللغة هي أحد الرموز الثقافية الرئيسية التي يلوذ بها الكائن الإنساني للاتصال بالعالم السرمدي . وبواسطة اللغة المكتوبة على الخصوص استطاع الإنسان أن يصون فكره من التلاشي والاندثار رغم غوائل الدهر. فاللغة تمكّن فكر الإنسان من حظوة كسب رهان نوع من الأزلية . وهكذا يشترك مع الإله في اكتساب شيء من صفة الخلود التي ينفرد بها ألإله في معناها **المطلق** . فمن

---
* يمثل ذلك تعريفنا الخاص لمفهوم " الرموز الثقافية" الذي نستعمله في هذا الكتاب.
[8]–انظر مقالنا التأسيسي،"في الدلالات الميتافيزيقية للرموز الثقافية" بمجلة عالم الفكر،25 العدد3مارس 1997ص9-43

وجهة النظر هذه **يدخل الإنسان بمساعدة مهاراته اللغوية عالم الميتافيزيقيا** التي لا تعترف بوجوده تلك الرؤية الوضعية المعاصرة .

ثانيا : الرموز الثقافية حبلى باللمسات الماورائية

إن اللمسات الماورائية لا تكاد تخلو منها الرموز الثقافية الإنسانية الرئيسية .فالدين كـــرموز وشـــعائر ثقافية تتجلى فيه بوضوح الملامح الميتافيزيقية . وأما ما نسميه القيـــم الـــثقافية كالحـــرية والصدق والعدل والمساواة ...فهي رموز ثقافية حبلى بالدلالات الميتافيزيقية خاصة عندما نحاول تشخيص مدى تأثيرها في سلوك الفرد والجماعـــة فـــي ظروف تداس فيها قداسة تلك القيم . فالتاريخ يشهد بأن التحولات والثورات الكبرى التي عرفتها المجتمعات والحضارات البشرية طالما كانت حصيلة للـــتأثير الجارف للقيم الذي لا يكاد يوقف زحفه مكر أشد الطغاة . فالثورة الفرنسية في عام 1789 والثورة الرومانية عام 1989 مثالان على مدى قوة الطاقة الجبارة الماردة التي تختزنها **القيم كرموز ثقافية دافعة ومحركة للسلوك الإنساني**. فانهزام القوة العسكرية والمادية للطغاة والمستعمرين أمام صمود هؤلاء الذين التفوا حول بعضهم البعض للدفاع عن قيم العدل والمساواة والحرية ...يؤكد أن القيم تتمتع بنوع مـــن الذخيـــرة الـــرموزية (المعنوية) التي تضفي عليها شبه **صفات القوة الإلهية الضاربة التي لا يستطيع إحباط عملها أحد.**

فمن هذا المنطلق تتجلى اللمسات الميتافيزيقية لعالم القيم كرموز ثقافية مؤثرة وحاســـمة في توجيه السلوك الإنساني عند الفرد وعند الجماعة على السواء . وهذا فـــي نظـــرنا **ما تشكو منه أدبيات القيم الثقافية لعلماء الأنثروبولوجيا والإجتماع المعاصـــرين**. فهم طالما ركزوا اهتماماتهم على وصف القيم كرموز ثقافية تهدف أساسا إلى المحافظة على استقرار النظام الإجتماعي (ordre social) للمجتمع[9]. وحتى عند دراسة القيم الثقافية كعامل للتغيير الإجتماعي في المجتمعات لا يكاد المرء يجد في أدبيات العلوم الإجتماعية الحديثة تعمقا علميا يطرح الجوانب الميتافيزيقية للقيم كـــرموز ثقافية [10] والتي من دون طرحها يصعب – في رأينا – استعمالها استعمالا موضـــوعيا كمفـــاهيم ومصـــطلحات علوم اجتماعية تساعد على تعزيز مصداقية تفسيرات وتنبؤات علوم الإنسان والمجتمع .

ثالثا: أنماط التأثيرات الثقافية بين المجموعات البشرية

الـــتأثيرات الثقافية التي يتعرض لها الأفراد والجماعات والشعوب يمكن تصنيفها تصنيفا مبسطا **إلى ثلاثة أنواع** :1/ الانصهار الكامل في رموز ثقافة الغير.

2/ والتأثر المتوسط برموز ثقافة الآخر.

3/ التأثر الخفيف برموز ثقافة الآخر.

---

9 Guy Rocher ; Talcott Parsons et la sociologie américaine, Le Sociologue.29 (Paris:P. U. F 1972)

10 المصدر نفسه ص R. Boudon . La Place du désordre : Critique des théories du changement social (Paris : P.U. F. , 1984)

فليس من المبالغة في شيء القول اليوم بأن **الرموز الثقافية للحضارة الغربية المعاصرة** هي الوحيدة التي لا يكاد يستثني من تأثيرها **الخفيف** أي مجتمع من المجتمعات. أي أن هذه الحضارة تنفرد اليوم **بهيمنة العولمة الثقافية** . والسبب في ذلك يرجع إلى سلسلة من الهيمنات التي مارستها وتمارسها الحضارة الغربية ابتداء بحملتها الإستعمارية الواسعة النطاق ومرورا بثورتها الصناعية والإتصالية ثم إنجازاتها العلمية في كل الميادين في العصر الحديث وتصديرها لإنتاجها الصناعي والإلكتروني إلى كل البقاع في القارات الخمس.ومما ساعد بالتأكيد في انتشار رموز الثقافة الغربية أكثر من غيرها هو انتشار معرفة اللغتين الإنجليزية والفرنسية وثقافتهما بين أهل المجتمعات المستقبلة لصناعة المجتمعات الأكثر تقدما. وهذا ما يفسر في نظرنا إلى حدّ كبير **الغياب شبه الكامل** لأي تأثير جدير بالذكر بالنسبة إلى **رموز الثقافة اليابانية** في البلدان المستوردة للبضاعة اليابانية. وذلك بالرغم من ضخامة حجم الصادرات اليابانية لكل أصناف العربات والسيارات والإلكترونيات ذات الجودة المعروفة. فرموز الثقافة اليابانية لا ينتظر منها أن تكسب رهان الانتشار مثلما هو الحال بالنسبة إلى رموز الثقافات الفرنسية والإنجليزية والأمريكية طالما أنها لم تعمل على نشر تعليم لغتها وثقافتها بين الشعوب . أما التأثر **المتوسط** برموز ثقافة الآخر فهو الصنف الأكثر انتشارا في المجتمعات في العصر الحديث . فكنتيجة للتجربة الإستعمارية التي عرفها العالم الثالث في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين على الخصوص ، انتشرت لغات المستعمرين (الإنجليزية الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية ...)وثقافتهم بين العديد من فئات تلك الشعوب المحتلة . فظهر بين تلك الفئات التي تأثرت بثقافة المستعمر صنفان من الإزدواجيات اللغوية والثقافية [11] :

أ-**الإزدواجية اللغوية الثقافية المتزنة**، وهي التي يتساوى فيها طرفا الإزدواجية من حيث قدرة الفرد على استعمال اللغة الوطنية ولغة المستعمر بالتساوي، من جهة، والتمكن من معرفة الثقافة الوطنية وثقافة المستعمر بالتساوي أيضا، من جهة أخرى . والدراسات تؤكد في هذا المجال أن ظاهرة الإزدواجية اللغوية الثقافية المتزنة ظاهرة **نادرة** جدا بين الأفراد والمجموعات البشرية[12] . ولعل أقرب ما يمثل هذا الصنف من المجتمع التونسي المعاصر هم خريجو ما يسمى **بالمدرسة الصادقية** في فترة ما قبل الإستقلال على الخصوص. فإزدواجيتهم اللغوية والثقافية التي يغلب عليها الاتزان. فهي إزدواجية عربية فرنسية لغة وثقافة.

ب- **الإزدواجية اللغوية الثقافية غير المتزنة**، وهي تلك الإزدواجية التي يتفوق فيها تكوين الشخص في لغة وثقافتها على لغة أخرى وثقافتها . ويأخذ هذا الصنف من الإزدواجية شكلين في مجتمعات العالم الثالث وغيرها المعاصرة :1/ أن يكون

[11] انظر الفصل الثاني من الباب الثالث.

[12] Leclerc, J., Langue et société(Québec, Canada Mondia éditeurs, 1986) , p. 184

الـتفوق فـي الإزدواجية لصالح اللغة والثقافة الوطنيتين أو2/ أن يكون التفوق في الإزدواجيـة لصالح اللغة والثقافة الأجنبيتين .ويمثل هذين الفرعين من الإزدواجية غير المتزنة في المجتمع التونسي المعاصر بعض خرجي جامع الزيتونة، من جهة، وخـريجو مـا يسـمى مـدارس البعـثات الفرنسـية (Mission)، من جهة أخرى. فالزيتونيون الذين ينطبق عليهم الصنف/ من الازدواجية اللغوية الثقافية غير المتزنة هـم عـلى العموم هؤلاء الذين تلقوا تعليمهم الابتدائي عادة في المدارس المزدوجة الـلغة والـثقافة (عربية ، فرنسية)ثم التحقوا في دراستهم الثانوية أو العالية بالتعليم الزيـتوني. **وهكـذا يتضـح سبب تفوق تكوينهم في اللغة العربية وثقافتها على نظيـره في اللغة الفرنسية وثقافتها**. وأما تكوين خريجي مدارس البعثات الفرنسية فتـتفوق فيهـا اللغة الفرنسية وثقافتها تفوقا كبيرا على تكوين هؤلاء التونسيين في الـلغة والـثقافة العربيتين[13] . **فالإزدواجية اللغوية الثقافية غير المتزنة هي، إذن، الأكـثر انتشـارا في المجتمع التونسي المعاصر قبل الإستقلال وبعده** . ولا ينفرد بذلـك المجـتمع التونسي وحده بل إن ظاهرة الإزدواجية الثقافية غير المتزنة هي الأكـثر شيوعا بين أفراد المجتمعات في القديم والحديث . فالمجتمع الكندي الحديث يعترف رسميا باللغتين الإنجليزية والفرنسية وثقافتهما .ولكن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال أن الكندي العادي هو شخص ذو إزدواجية لغوية وثقافية متزنة، بل إن الأكـثر دقة هو القول أن أغلبية مواطني المجتمع الكندي اليوم ينتسبون إلى صنف الازدواجيـة الـثقافية والـلغوية غيـر المتزنة . ولا يختلف الأمر في الأساس في المجـتمع السويسري والمجتمع الهندي والمجتمع الروماني وغيرها من المجتمعات المعاصـرة فـي الشـرق والغـرب. وتتفق هذه الملاحظات حول الحضور الأكثر لظاهـرة الإزدواجيـة الـلغوية والثقافية غير المتزنة في المجتمعات الإنسانية مع إشـارتنا السابقة الذكر والمتمثلة في أن الإزدواجية اللغوية والثقافية المتزنة ظاهرة نـادرة. **وليـس هـناك ما يدل، رغم تقارب الشعوب وتكاثف تفاعلاتها في عصر العولمـة، أن هذا النوع من الإزدواجية اللغوية والثقافية سوف يصبح هو السائد في المجتمعات البشرية المستقبلية** .

فمـن مناقشـة ظاهـرة الإزدواجيـة للغوية والثقافية بصنفيها وفرعيها يتبيّن أن مسـاهمتها فـي عملية ما أطلقنا عليه الغزو الثقافي أو الانصهار الثقافي تختلف من صـنف إلى آخـر ومن فرع إلى فرع . فالفرع (2) من صنف **الإزدواجية اللغوية الـثقافية غيـر المتزنة (ب) ، المشار إليه أعلاه هو بالتأكيد الأكثر ترشحا لخلق الظـروف المهيأة لبروز معالم الغزو الثقافي في صورته الأكثر خطرا على الأفراد والجماعات** . فتفوق تكوين هؤلاء في اللغة والثقافة الأجنبيتين يقترن بما يطلق عليه الباحـثون اليوم ظاهرتي " **الاستلاب الثقافي** " أو " **الاغتراب الثقافي** (L'aliénation-

[13] أطلقنا على تلك الظاهرة عبارة "التخلف الآخر" أو " التخلف الثقافي النفسي " أنظر الفصل الأول من الباب الثاني.

(culturelle)[14]. وحدوث ذلك ليس بالغريب من وجهة نظر **مقولتنا** بالنسبة **إلى مركزية عالم الرموز الثقافية** في تركيبة الإنسان . فرموز اللغة والفكر والثقافة الأجنبية هي المسيطرة على عالم رموز الإنسان "المغترب" ثقافيا . فهو يسكن ويحيا في المجتمع الـــذي ولد فيه ولكنه يتكلم ويفكر ويتثقف بلغة " الآخر " وفكره وثقافته. هو موجود بجسمه في مجتمعه وفي حيّه ولكن عقله وروحه موجودان مع "الآخر ". **فهـــو مثال لـــلقطيعة بين الجسد والروح** وما يصاحب ذلك من تمزق جارح للذات "المغتربة ". إن مسلســل "الإغــتراب الــثقافي " للإنســان الذي تغلب على تكوينه اللغة والثقافة الأجنبيــتان لا يمكـــن أن تكون له نهاية من دون القرب و التجذر في اللغة الوطنية وثقافــتها. إذ إن عـــالم الرموز الثقافية له الصدارة كما بيّنا في كينونة الإنسان. **ولا ينـــتظر أن يزحزح شبح الإغتراب الثقافي إلا تجذر في "عالم رموز " اللغة والفكر والــثقافة الــتي ينــتمي إليه الإنسان " المغترب"**. وهي عملية تحوّل انتماء ثقافي ليســت باليســيرة ، وطالمـــا تكـــون أرضـــية النجاح فيها أرضية هشّة . فالعلوم الإجــتماعية الحديـــثة تجمـــع على أن **تغيير الجانب الثقافي في شخصية الإنسان والمجـــتمع هـــي عمـــلية بطيـــئة وصعبة** . ومن هنا جاء المفهوم السوسيولوجي المشهور : الهوة الثقافية Cultural Lag لعالم الإجتماع الأمريكي أغبون (Ogburn)[15]. فـــبطء عمـــلية التغيير في عالم الرموز الثقافية وصعوبتها عند الإنسان ترجع إلى طـــبيعة مكانة الرموز الثقافية في تكوين هوية الإنسان . فكينونة الإنسان تتلخص ، كمـــا أشـــرنا، فـــي عـــالم رموزه الثقافية . إذ هو أولا وقبل كل شيء **كائن ثقافي رمـــوزي بالطـــبع**. فالـــرموز الثقافية تمثل عمق الإنسان ذاته. فتبديلها أو محاولة تغييـــرها تعـــني مسّ **أعمق عنصر في الطينة البشرية**. فعالم الرموز الثقافية عند الإنســـان لا يبدو أنه عالم يتصف بالسطحية و الشكلية ، بل هو عالم متى تجذرت عناصره في الشخصية الإنسانية تصبح محاولة زحزحتها من أعماق كينونة الإنسان معضـــلة قـــد لا تفـــلح في حسمها حتى أحدث الخبرات التي تكسبها اليوم مختلف إختصاصات علوم الإنسان والمجتمع . فصعوبة تغيير قيم الناس وعقائدهم ومواقفهم و عقلياتهم ، بعد تقدم السن بهم على الخصوص ، توحي وكأن هناك **قـــوى غيبية** تعارض عملية التغيير في ذلك الصنف من عالم الرموز الثقافية لدى الإنسان.

وليـــس مـــن المجازفة في شيء من **وجهة نظر إحصائية** القول في هذا الصدد أن ظاهـــرة **"الاغـــتراب الثقافي " ذات انتشار أوسع في المجتمعات النامية في العصر الحديث**. ويرجع ذلك إلى سببين رئيسيين :

---

14 W.K Ruf, "Dépendance et aliénation culturelle , dans- W.K Ruf [et al.] Indépendances et interdépendances au Maghreb, avant propos de M.Flory, collection du C.R.E.S.M.(Paris: Centre nationale de la recherche scientifique , 1974), pp .233-279

15 Ogburn, W.F,Social Change with Respect to Culture and Original Nature(New York Free Press 1992

(1) فـــترة الإحـــتلال الإســـتعماري (2) استمرار حضور جاذبية الرموز الثقافية الغـــربية لدى فئات مختلفة لشعوب العالم الثالث على الخصوص. فمجتمعات دول الجــنوب عـــرفت، كما هو معهود، التسرب الإستعماري الغربي الكاسح لفترات بلغ بعضـــها عـــدة قـــرون. فتعرضـــت القارة السوداء، على سبيل المثال، إلى الهجوم الإســـتعماري لجـــل الحمـــلات الإستعمارية الغربية التي عرفها التاريخ في القرون القليـــلة الماضية. فكان الإستعمار البرتغالي في أنغولا، والإستعمار الإيطالي لليبيا، والإســـتعمار الإســـباني لمـــا يســـمى اليوم بمنطقة الصحراء الغربية، والإستعمار الهولـــندي لجـــنوب إفـــريقيا، والإستعمار البريطاني والفرنسي لما تبقى من القارة تقريـــبا. ولـــم تقتصـــر تـــلك الغـــزوات الإســـتعمارية على المكاسب الإقتصادية والإستراتيجية العسكرية لكل دولة مستعمرة بل **شمل الاحتلال الإستعماري نشر لغة المســـتعمر وثقافته، من ناحية، وتقليص دور اللغة والثقافة الوطنيتين، من ناحية ثانيـــة.** وهناك اتفاق شبه كامل بين الباحثين على **أن الاستعمار الفرنسي كان يركز أكثر من نظيره البريطاني على أهمية جانب الاستعمار الثقافي** في عملية الاكتساح الإســـتعماري للشـــعوب[16]. وبعبارة أخرى، فإن المستعمر الفرنسي عمل بجدية أكثر فـــي هجومـــه على عالم الرموز الثقافية للمجتمعات المحتلة. فحاول في الجزائر، مـــثلا، إحلال اللغة الفرنسية وثقافتها محل اللغة العربية وثقافتها بدرجة مكثفة كادت تهـــدد تلك المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية تهديدا يصعب بعده أي تدخل يمكن أن يضمن العلاج **لتصدع الشخصية الجزائرية** .

إن رهان الاحتلال الفرنسي على الجانب الثقافي يفصح بما لا يدع مجالا للشك عن رؤيـــته الواضـــحة بخصوص **مركزية " عالم الرموز الثقافية "** في دنيا الإنسان . **فاحـــتلال لغـــة المجموعـــات البشـــرية وفكرها وثقافتها هو أفضل ضمان لكسب تبعيـــتها، وبالتالي استمرارية ولائها.** فغزو الشعوب والقضاء على رموزها الثقافية الذاتيـــة هـــو خيـــر ســـبيل لتخليد ارتباطها بالغازي عبر الزمان ، ودون أيّ تقيّد بحضـــور المســـتعمر ماديا كقوة عسكرية أو إداريا في الوطن (أي المكان). وذلك يعـــني فـــي النهاية أن تبديل الرموز الثقافية لمجتمع ما ذي خصوصية ثقافية معينة بـــرموز مجـــتمع آخـــر ذي خصوصية ثقافية معينة أيضا، تضفي على تأثير هذه الأخيـــرة بالنسبة إلى المجتمع المغزو ثقافيا **" دلالات شبه ميتافيزيقية** . إذ إنها من ناحيـــة تأثيـــراتها لم تعد تتطلب الحضور المادي لصاحب الرموزالثقافية الغازية . فوجوده يصبح من نوع الوجود الغيبي (الميتافيزيقي). ومن ناحية ثانية ، فاستمرار تبـــني الرموز الثقافية في عمق الشخصية الجماعية يؤمّن لتأثيراتها في هذه الأخيرة **طـــول الأمـــد** وربما حتى **الأزلية والخلود.** إن استمرار حضور تأثير رموز الثقافة الغربية في مجتمعات العالم الثالث لفترة ما بعد الاستقلال يمكن اختصار أسبابها في ثلاثة عوامل رئيسية :

[16] Calvet,L.J., Linguistique et colonialisme (Paris, Payot 1974) pp.84-85

1/ اســتمرار تأثير الأجيال التي تلقت ثقافتها في المرحلة الإستعمارية على مجرى الأحداث وأخذ القرارات الحساسة في مجتمعاتها.

2/ انتشــار الرموز الثقافية الغربية عن طريق الاستيراد المكثف للبضاعة الغربية و بواسطة **ثورة الاتصالات** .

3/ جاذبية المشروع الغربي للحداثة والتنمية .

أمــا تأثير العامل الأول (1) على الخريطة الثقافية للمجتمعات النامية المستقلة فدور رعيــل ثقافــة الفترة الاستعمارية لا يزال دورا حساسا . **فالقيادات السياسية** في الكــثير مــن هــذه الــدول **قيــادات ذات تكويــن ثقافي يرجع عموما إلى العهد الاستعماري**. وكذلك الشأن بالنسبة إلى النخب المتعلمة والمثقفة في هذه المجتمعات. وكمــا رأيــنا **فــنفس الاستعمار الثقافي أطول** بكثير من كل الملامح الاستعمارية الأخــرى مــثل الاحــتلال العســكري والإقتصادي والإداري إذ إن استعمار عالم الــرموز الــثقافية للإنسان لا يضاهيه أي نوع من الاستعمار من حيث مدى قدرته عــلى الثــبوت والاســتمرار، وأنــه قد لا يعرف نهاية كما بينا. فقد رحلت القوى العســكرية ورجعــت الــثروات الإقتصــادية إلى ملك أهلها واصبح تسيير الهياكل الإداريــة بــأيدي الفــئات الوطنية ولكن حضور الرموز الثقافية للمستعمر القديم لم يعــرف الــرحيل الكامل في أي مجتمع نام غادرته عساكر المستعمر منذ الحرب العالمية الثانية . وحتى في المجتمعات النامية التي أخذ فيها القرار السياسي لصالح توطيــن اللغة والثقافة الوطنيتين ، فإن مقاومة بعض الفئات المتعاطفة مع بقاء لغة "الآخــر" وثقافته لعملية التوطين اللغوي والثقافي ما زالت قائمة على قدم وساق. فبروز ظاهرة الفرنكفونيين منذ أحداث نوفمبر 1988 بالجزائر مثال حيّ على ذلك [17]. أما سطو الفرنكفونيين بتونس المستقلة فهي لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا على كــل المســتويات . فأصــحاب القرار السياسي في العهد البورقيبي كانوا لا يخفون ولاءهــم للغة والثقافة الفرنسية. فــالفرنكوفونيون مستمرون اليوم في المقاومة على العديد من الجبهات : في الإدار و في التعليم الثانوي والعالي و في المؤسسات وفي لافتات لغة الشارع[18].

فمــن وجهــة النظر العلمية تعتبر مقاومة الفرنكوفونيين هنا، في شمال إفريقيا، أو مقاومــة الأنجلوفونيين في بعض المجتمعات الإفريقية التي استعمرتها بريطانيا ، ظاهــرة تتماشــى مــع طــبيعة الأشياء كما يقول ابن خلدون. فلغة هؤلاء وفكرهم وثقافــتهم يغلب عليها عند أصحاب الفرنكوفونية اللغة الفرنسية و والثقافة الفرنسية والفكــر الفرنســي. ويغــلب عليها عند أصحاب الانكلوفونية اللغة والثقافة والفكر الإنجليزي/الأمريكي. فانتماء عالم رموزهم الثقافية هو انتماء لعالم الرموز الثقافية

---

17 انظر مجلة المجاهد (الجزائر 22ديسمبر1989) ص38-40

18 إن الحملة التي تعرض إليها وزير التعليم العالي الــتونسي محمد الشرفي في سنة 1989شاهد على استمرار الصراع اللغوي بين المعربين والفرنكفونيين في المجتمع التونسي.

الفرنسية أو الإنجليزية / الأمريكية . و"عالم الرموز الثقافية للشخص أو للجماعة هو ، كما وضحنا، **مركز الثقل** بالنسبة لشخصية الإنسان وهوية المجتمع، نظرا لمركزية عالم الرموز الثقافية فإن الدفاع عنه قد يصبح **عملية لا شعورية** لا يكاد الشخص يقدر على تبرير شرعيتها على مستوى عالم الشعور . فيكون سلوك المتعاطفين مع استمرار صدارة الثقافة الفرنسية أو الإنجليزية في مجتمع ذي انتماء ثقافي آخر **وكأنه سلوك توجهه قوى غيبية** لا يتناسق منطقها مع منطق المعطيات الثقافية التي ينبغي أن يسترجعها المجتمع المستقبل .

(2) إن ظاهرة الاستيراد المكثفة للبضاعة الغربية التي عرفتها وتعرفها خاصة المجتمعات النفطية منذ السبعينات جعلت العديد من المحللين لظاهرة انتشار الرموز الثقافية الغربية ينظرون **إلى البضاعة المستوردة كعامل مهم في بث الرموز الثقافية الغربية** بطريقة غير مباشرة في المجتمعات المستوردة . وهناك اعتراف بأن دور ما يطلق عليه الشركات المتعددة الجنسيات في تلك العملية دور حساس، **فالطفل العربي**، مثلا، يقضي العديد من الساعات أسبوعيا أمام الشاشة الصغيرة **يشاهد الصور المتحركة ذات الإخراج الغربي**، وخاصة الأمريكي منه، سواء كان ذلك عن طريق البث التلفزي المباشر أو عن طريق أشرطة الفيديو أو بواسطة الأنترنات . أما الشاب والشابة العربيان فقد أصبحا معرّضين أكثر من ذي قبل لسماع الأغنية والموسيقى الغربية بواسطة أشرطة الكاسيت والفيديو والفيلم . وبالتأكيد فإن بضاعة السيارة المتزايدة انتشارا عبر مجتمعات العالم الثالث تحمل ، مع استعمالها العملي من طرف إنسان المجتمعات النامية ، دلالات رمزية للثقافة والحضارة الغربيتين. فسيارات بيجو الفرنسية، وفولفو السويدية ، وفيات الإيطالية، وفورد الأمريكية ...لا تقتصر عند مستعمليها على ما توفره لهم من عون ورفاهة في قضاء حاجاتهم اليومية ، وإنما لا بد أن تقترن عند هؤلاء (الفلاح والتاجر والموظف والوزير) برموز التقدم والتطور والنهضة الغربية . ومما زاد في مدى تفشي رموز الثقافة والحضارة الغربيتين هو نوع طبيعة البضاعة الغربية المصدرة إلى مجتمعات العالم الثالث، والقائمة طويلة وطويلة جدا بهذا الصدد. فهناك فوط البامبرس (Pampers) لـلطفل الصغير ولعب (FisherPrince) للأولاد ، وطفل شعر الرأس للكبير والصغير والمتمثل في كل أصناف الشامبو (Shampoo) . وهناك أيضا علب الطعام بكل أنواعها التي أصبحت تحتل حيزا هاما من رفوف محلات بيع السلع الإستهلاكية والبقالات ، خاصة بمجتمعات الجنوب الثرية بموار النفط. فنمط الحياة الإستهلاكي المتزايدة ملامحه بالمجتمعات النامية ساهم فيه بالتأكيد توفر البضاعة الغربية المستوردة بأحجام ضخمة في أسواق تلك المجتمعات . ومن ثم يمكن القول إن أسباب التأثير الثقافي في "الآخر" في العصر الحديث لم تعد أسبابا تقليدية ممثلة في انتشار لغة "الآخر " وفكره وثقافته في هذا البلد أو ذاك . **وإنما أصبح التأثير الثقافي بين الشعوب اليوم حصيلة لشبكة من العوامل** . وليس من المبالغة التأكيد أن بضاعة " الآخر " المستوردة تلعب دورا بارزا في نشر رموز

ثقافــة هــذا " الآخــر" بين فئات المجتمعات المستوردة . وهكذا يتضح في عصر العولمــة أن الحــركة الإقتصادية بالمجتمع المستورد تساهم بدور كبير في انتشار الرموز الثقافية للمجتمع المُصَدِّر . وظاهرة الاستيراد في مجتمعات العالم الثالث لا تقتصــر عــلى البضاعة وإنما تشمل أيضا العنصر الإنساني المتمثل ، خاصة ، في مجيء دفعات السيّاح والبعثات الأجنبية التي تأتي للمساعدة في ميادين متعددة : في بناء السدود وتخطيط المستشفيات وتدريب الكوادر الأهلية في الميادين المختلفة . وكــل المؤشرات تدل أن أغلبية الفئات التي تأتي إلى المجتمعات النامية لغرض أو لآخــر هــي فــئات غربية . ودورها في نشر رموز الثقافة الغربية أصبح ظاهرة معروفة ، أدى ببعض المحللين الناقدين إلى إماطة اللثام عن مخاطر الرموز الثقافية والســلوكيات البشــرية للســيّاح على القيم الثقافية للمجتمع المستقبل لفئات السيّاح المختلفة التي يأتي معظمها من المجتمعات الغربية الصناعية.

3) أمــا عامل جاذبية المشروع العربي للحداثة فيساهم بدوره في تسهيل نشر رموز الــثقافة الغــربية فــي مجتمعات العالم الثالث. فالحداثة في نمطها الغربي المعاصر والحديث لا تزال تتمتع بجاذبية كبيرة رغم سلبياتها في الكثير من مجتمعات اليوم . ومن ثم فهي مؤثر حاسم في إفراز ظاهرة التقليد للغرب بين معظم فئات المجتمعات النامية . فالدراسات والملاحظات الميدانية تشير إلى **أن كسب رهان الحداثة يعد من أهــم العوامل التي تفسر بعض السلوكيات الثقافية الرموزية عند المرأة المتعلمة خاصــة فــي مجتمعات المغرب العربي**[19]. فالملاحظات المتكررة بهذا الشأن تدل أن هــذا الصنف من المرأة المغاربية المتعلمة يميل أكثر من نظيره المغربي، مثلا، إلى اســتعمال الكــلمات والعــبارات الفرنســية أثــناء كلامــه بالعامية العربية : "**الفرنكوأراب الأنثوية** ". كما أن هذه المرأة المغاربية تميل أكثر من نظيرها الرجل إلى الاحــتفال بأعياد الميلاد ، سواء كانت بالنسبة إلى الأطفال أو إلى نفسها أو إلى زوجهــا . وأوضحت دراساتي لهذه الظاهرات أن التلهف على كسب رهان الحداثة بشكلها ومضمونها الغربيين هو السبب الرئيسي المفسر لمثل تلك السلوكيات[20]. فعلى مستوى أول، ينجذب الرجل والمرأة المغاربيان والمتعلمان تعليما تغلب عليه مسحة الــرموز الثقافية الغربية من لغة وثقافة وفكر إلى قطب الحداثة ممارسة و رموزيا. فباســتعمال الــثقافة الغــربية لغة وفكرا وثقافة **تصبح هذه الأخيرة الرموز الثقافية الرئيسية التي يلجأ إليها داخل فضاء الحداثة بمدلولاتها الغربية** . فالتحدث والكتابة بالفرنســية والــتفكير الذي يبنى رؤاه على مراجع الثقافة الفرنسية هي من السمات الــتي يتصــف بها ويحاول أن يتصف بها هذا الصنف من المغاربي والمغاربية .

---

[19] E. Kadt, Tourism . Passport to Development? (New York Oxford University Press,1979)

[20] محمود الذواوي " نحو دراسة المرأة العربية (4) : جذور ظاهرة " الفرنكو أراب الأنثوية بالمغرب العربي شؤون عربية ، العدد 22(ديسمبر 1982) ص124-137، و

Mahmud al – Thawadi , «Les racines du franco-arabe feminin au Maghreb Arab Journal of Language Studies, vol.2 n° 2 June 1984 pp.145-162.

فالركض وراء نمط الحداثة الغربية هو الدافع الأول والحافز لهما إلى تبني توظيف عــالم رموز الثقافة الفرنسية من لغة وفكر وثقافة ، **ولكن المرأة المغاربية** يبدو أنها **تــتعرض أكــثر** مــن زميلها المغاربي إلى **ضغوط إجتماعية** تقليدية في سعيها في مجــتمعها للتمتع مكاسب الحداثة بمعناها الغربي. **فتقاليد مجتمعات المغرب العربي العربية الإسلامية وأعرفها وقيمها تتشدّد أكثر إزاء المرأة بالنسبة إلى ممارساتها للــتجربة الحداثية**. ومن ثم فاندفاع المرأة المغاربية المتعلمة تعليما غربيا إلى تقليد أكبر في اللغة والرموز الثقافية هو عبارة عن **احتجاج سلمي ضد مجتمع الرجال،** مــن ناحية ، وتعويض ما فقدته من الممارسات الحداثية بسبب العراقيل الإجتماعية المحافظة، من ناحية أخرى[21].

ومما يزيد في الركض وراء الرموز الثقافية الغربية من طرف إنسان العالم الثالث لمحاولة الانتساب إلى الحداثة ، **سهولة استعمال الرموز الثقافية** مقارنة بالسلوكات الفعــلية الــتي يتطلــبها نمــط الحيــاة فــي شــكلها ومضمونها الحديثين. كما أن "الفــرنكوأراب الأنثوية " كسلوك لغوي لا يبدو أنه يمس بقدسيات ومحرمات ثقافات مجتمعات المغرب العربي، وفي طليعتها تلك التي لا يقبل الرجال تشويهها و دوسها مثل فضاءات الحانات والمقاهي. ولا ينتظر في رأينا أن يتراجع تيار اكتساح رموز الحداثــة الغــربية من التأثير والتسرب إلى بقية مجتمعات المعمورة وذلك للأسباب الــتالية : (1)هيمــنة الحضارة الغربية في التاريخ المعاصر والحديث. و" المغلوب" كمــا قــال ابن خلدون، "مولع دائما بتقليد الغالب". (2) غياب نموذج حداثي وطني يــنافس عــلى كل المستويات نمط الحداثة الغربية في مجتمعات العالم الثالث على الخصوص.3) تفوّق نموذج الحداثة الغربي على نظيريه الياباني والإشتراكي، مثلا، مــن حيــث قــدرة رموزه الثقافية على الانتشار في المجتمعات النامية وذلك بسبب وجــود الــرموز الــثقافية الغربية (لغة وفكرا وثقافة ...) في تلك المجتمعات نتيجة لــلهجمة الإســتعمارية الــتي تعرضت لها شعوب العالم الثالث من القوى الغربية الكــبرى حتى الستينيات من هذا القرن . وبعبارة أخرى ، لا يزال تصدير اليابان للــتقانة و الإلكــترونيات المتقدمة جدا عملية تجارية اقتصادية بحتّة . وذلك لفقدان البــنية الــثقافية (اللغة والثقافة والفكر الياباني) في المجتمعات المستوردة للبضاعة اليابانية. أما بالنسبة إلى فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية فإن تصديرها لبضاعتها له **مردود اقتصادي وثقافي في آن واحد** . والفرق بيّن بالنسبة إلى طبيعة **علاقــة التــبعية** ومــدى استمراريتها بين البلد المستورد والبلد المصدّر. (4) إن جاذبيــة الــنموذج الغــربي للحداثة متأتية أيضا من بعض المبادئ والقيم الفردية والسياســية التي يدافع عنها نمط الحداثة الغربي. فمبادئ حرية الفرد وحركته في التــنقل وفــي التعــبير وفــي الإقتصاد، وفي الانتماء إلى أي حزب سياسي هي تطــلعات تجد استجابات كبيرة عند الأفراد . فالديمقراطية ، بمعناها العام والشامل ،

---

[21] انظر الفصل الثالث من الباب الثالث.

كـانت بالـتأكيد هي العامل الحاسم الذي أتى على الأنظمة السياسية الإستبدادية في معظـم مجـتمعات أوروبـا الشـرقية في النصف الأخير من عام 1989 . إن تلك الـتحولات السريعة والمتلاحقة **لا يمكن إلا أن تعزز النموذج الغربي للحداثة شرقا وغـربا**، وبالـتالي ، فـإن زحفه واستمرار انتشار رموزه الثقافية خارج الفضاء الغربي يكتسب اليوم انتعاشة حاسمة بسبب ثورة المعلومات على الخصوص تضمن لـه الـريادة عـلى غيره من أنماط الحداثة الأخرى في الوقت الراهن وعلى الأمد المتوسط على الأقل ومن ثمّ تتعزز **هيمنة عولمته الشاملة اليوم**.

أمـا ظاهرة الانصهار الثقافي الكامل أو شبه الكامل في رموز ثقافة " الآخر " **فهي ظاهرة نادر وقوعها** بين الشعوب في القديم والحديث. فعلى مستوى الوطن العربي تعـرض المجتمع الجزائري إلى أشرس هجوم ثقافي إستعماري استلابي تمثل أساسا فـي محاولـة المستعمر الفرنسي نشر لغته وثقافته بين الفئات الجزائرية من جهة ، وتقـليص استعمال اللغة العربية وثقافتها بين النخب الجزائرية على الخصوص، من جهة أخرى . ولكن فشلت سلطات الاحتلال الفرنسية إلى حد كبير في نشر رموزها الدينية (الديانة المسيحية) حتى بين المثقفين الجزائريين المفرنّسين لغة وثقافة. ومن ثـم لـم يكـتمل النصاب بالنسبة إلى توفر الشروط الضرورية لحدوث الانصهار الـثقافي الكـامل أو شبه الكامل للمجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي . فرموز الديـن الإسـلامي ورموز التقاليد الشعبية الجزائرية لم تفلح في زحزحتها البعثات الفرنسـية ذات الطـابع الديني على الخصوص. بل قد تكون زادتها صمودا خاصة عندما كانت المجابهة على أشدها مع المحتل الفرنسي. والسؤال الذي ينبغي طرحه هـنا هـو : **لمـاذا كانت الرموز الدينية الإسلامية للشعب الجزائري أكثر مقاومة لانتشـار رمـوز الدين المسيحي من مقاومة اللغة العربية وثقافتها لانتشار اللغة الفرنسية وثقافتها بالمجتمع الجزائري**؟ الإجابة المختصرة عن ذلك تتمثل في :

(1) أن احـتكاك الدينين المسيحي والإسلامي عبر التاريخ أثبت أن عدد المسيحيين الذيـن دخـلوا الإسلام **أكثر بكثير** من عدد المسلمين الذين دخلوا الديانة المسيحية . وهـذا يعني أن جاذبية رموز الدين الإسلامي لها الغلبة الساحقة في عملية التنافس بين هذين الدينين . ومن ثم فتاريخ احتكاك الدين الإسلامي بالدين المسيحي أثبت أن المسـلم عمومـا لا يصـبح مسـيحيا سـواء أكان احتكاكه بالمسيحية في ظروف اسـتعمارية أو فـي ظـروف عاديـة . أما دخول المسيحيين في الإسلام فقد شمل المسـتعمرين أنفسـهم وعددا كبيرا من المفكرين المسيحيين في الإسلام وهم في عقر دارهم . إنها ظاهرة معروفة في القديم والحديث على السواء . كل ذلك يدل أن رمـوز الدين الإسلامي تعطي ، من ناحية ، المسلم **مناعة** ضد تبنّي رموز ديانات أخـرى. وهـي، من ناحية أخرى، تملك جاذبية قادرة على استقطاب غير المسلمين إلى الإسلام .

(2) قد يكون عدم دخول الجزائريين في المسيحية أثناء الفترة الإستعمارية الفرنسية راجعـا إلى كون الرموز الدينية تتجذر في **عمق شخصية الإنسان** ، أكثر بكثير من

تجذر الرموز الثقافية الأخرى فيها. ومن ثم فزحزحتها في عمق كينونة الفرد ليسب بالعمـلية الهيـنة . فعـلى مسـتوى أول، إن الـرموز الدينية ذات **طبيعة روحية ميتافيزيقية** . وتدل الملاحظات التاريخية أن تغيير الناس لدياناتهم يتم داخل الدائرة الديـنية : أي مـن دين إلى دين . وهو مؤشر و كأن الإنسان ديني بالطبع . أي أنه وثيـق الارتباط بعالم الروحانيات والميتافيزيقيا. فدخول المسلم الجزائري في الديانة المسـيحية أمـر وارد نظـريا . إذ أن ذلك من قبيل تغيير دين بدين . ويبدو أن العامـلين الحاسـمين الـلذين لعـبا دورا حساسا ضد انتشار المسيحية بين الفئات الجزائـرية يتمـثلان في: (أ) عمق طبيعة تجذر الرموز الدينية في تركيبة شخصية الفـرد وفي اللاشعور و (ب) تفوّق جاذبية رموز الدين الإسلامي على نظيرتها في الديـن المسيحي ، كما بينا. وعلى مستوى آخر ، فإن عمق الجانب التديُّني للإنسان تؤيـده اسـتمرارية بقاء الديانات في كل الحضارات الإنسانية شرقا وغربا . وأن محاولـة تـبديل ذلك بإيديولوجيات مادية، كانت محاولة فاشلة ، كما تشير إلى ذلك تجـربة الماركسـية المعاصرة في المجتمعات الاشتراكية . وهكذا يتبين أن اندماج شـعب مـتدين في دين آخر أو إيديولوجيا أخرى مسألة غير واردة إذا كانت رموز الديـن الجديد **أقل جاذبية** ، كما هو الحال في عدم تأثر المجتمع الجزائري برموز الديانـة المسـيحية ، أو إذا كـانت رمـوز الإيديولوجيا رموزا مادية تتعارض في الصـميم مـع طـبيعة الإنسـان الميتافيزيقية ، كما اتسمت ، وتتسم ، بذلك النظم الشيوعية والإشتراكية المعاصرة.من هذه الخلفية يمكن القول **إن المقولة التي تدعي أن الشـعب الجزائـري قـد وقـع إدماجـه بالكامل ، أو شبه الكامل ، في رموز الحضارة الفرنسية مقولة تنقصها بالتأكيد الدقة والموضوعية العلميتان** . فإدعاء المحتل الفرنسي بأن القطر الجزائري هو مقاطعة فرنسية مثلها مثل مقاطعات القطر الفرنسـي الأم دعـوى فيهـا الكثير من التشويه الإستعماري لحقائق الأشياء . إنها إيديولوجيات استعمارية لا تستند إلى أرضية صلبة . فانتساب المجتمعات والشعوب إلى رمـوز ديـنية مختـلفة أدى إلى تجزئتها في بعض الحالات رغم اشتراكها في عوامـل الـلغة والعـرق والثقافة ... إن انفصال باكستان وبنغلادش عن المجتمع الهـندي الكـبير مـثال على مدى أهمية دور الرموز الدينية في تلاحم الشعوب أو تـباعدها . فتمسـك الشـعب الجزائري برموز الدين الإسلامي نسف من الأساس إمكانيـة حصول انصهاره الكامل، أو شبه الكامل ، في رموز حضارة المستعمر . ومـن هـنا فإن عامل الرموز الدينية يصبح عاملا حاسما في أي تحليل موضوعي ومـتعمق لظاهـرة الانصهار الثقافي بين الشعوب. فالأمة التي لا تنجح في صهر " الآخـر " في رموزها الدينية تكون غير أمينة وغير واقعية إن هي ادعت الانصهار الكامل أو شبه الكامل "للآخر" في الرموز الثقافية لحضارتها.

رابعا : الأمة العربية كظاهرة فريدة للانصهار في الرموز الثقافية للآخر

فـتجربة **الفـتوحات العـربية الإسلامية** تفيد بأن الانصهار الثقافي الكامل أو شبه الكامل يتم بتوفّر عاملين :

(1) نشـــر الـــرموز الثقافية الدينية بين فئات الشعوب. فالفاتحون العرب المسلمون عمـــلوا في المقام الأول خارج الجزيرة العربية على نشر العقيدة الجديدة في البلاد المفتوحة و (2) عملوا في مرحلة لاحقة على تعليم اللغة العربية لأهل بعض البلاد المفتوحة ، وبالتالي ثقافتها . فبرزت ظاهرة ما نسميه اليوم الوطن العربي، أي هذه المــنطقة من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي التي تشترك أغلبيتها الساحقة في اعتــناق الرموز الثقافية الدينية الإسلامية، من جهة ، ورموز الثقافة العربية من لغة وفكـــر وتقاليد، من جهة أخرى . **فالوحدة الثقافية بمفهومها الشامل أصبحت واقعا مجســـما** بين مجتمع الجزيرة العربية من حيث انطلقت الدعوة الإسلامية على أيدي العرب الفاتحين ، وبين بقية الأقطار التي دخل معظم سكانها الإسلام، وأصبحت لغة الضـــاد عـــندهم لغـــة الـــتعامل اليومي ولغة الثقافة . فتجذر الرموز الثقافية الدينية الإســـلامية ورمـــوز اللغة العربية وثقافتها في **الشخصية القاعدية**[22] لإنسان ما بين الخليج والمحيط هو الشرط الأساسي لإمكانية بروز ظاهرة الانصهار الثقافي الكامل أو شـــبه الكـــامل بين المجتمع العربي الإسلامي الأم بالجزيرة العربية والمجتمعات الأخرى المحيطة التي أسلمت وعُـــرِّب لسانها وثقافتها.

إن مفهومـــنا لــــــ"**عالم الرموز الثقافية** " يساعد كثيرا في تشخيص آليات عملية الانصـــهار الثقافي العربي الإسلامي الذي عرفته منطقة ما بين الخليج والمحيط بعد مجـــيء الدعـــوة الإســـلامية . فالرموز الثقافية، كما أشرنا، ذات مركزية أولى في تركيـــبة هوية الإنسان والمجتمع. إن الاستيلاء عليها هو استيلاء على أعمق ما في الإنســـان والمجـــتمع . إنـــه روحهمـــا. وهذا ما تم فعلا، إلى حد كبير، على أيدي الفـــاتحين العرب والمسلمين في ما يسمى اليوم الوطن العربي. فإسلام معظم فئات هـــذه الشـــعوب يعني تبنّيهم الرموز الثقافية للعقيدة الإسلامية وتخليهم عن الرموز الـــثقافية لديانـــاتهم السابقة. وتعريب لسان أغلبية سكان تلك الأقطار المفتوحة يعني تهميش، ثم انقراض اللغات واللهجات الأخرى أمام زحف لغة القرآن وكنتيجة **لذلك أصـــبحت ســـطوة الـــثقافة العربية الإسلامية هي المسيطرة** لا يدافع عنها العربي المســـلم الأصـــيل فحسب ، بل يغار عليها كل من أسلم و/أو تعرّب لسانه. وإذا بدّل ديـــن قـــوم ولغتهم وفكرهم وثقافتهم وتقاليدهم ...بدين"الآخر" ولغته وفكره وثقافته وتقـــاليده ...فإنـــه لا يـــبقى ما يفصلهم عن بعضهم البعض سوى الملامح العرقية الطـــبيعية.وأثبـــتت التجربة العربية الإسلامية أن انصهار أجناس مختلفة في **بوتقة الحضـــارة العـــربية الإســـلامية** كـــانت نتيجة شبه حتمية لاعتناق تلك الأجناس، وبـــتحمّس كـــبير فـــي كثير من الأحيان، للرموز الثقافية للدعوة الإسلامية ولغتها

[22] "National Character in the Perspectives of the Social Sciences," Annals of the American Academy of Political and Social Science, vol..370 (March 1967).

وثقافتها[23]. وليس من المبالغة القول إن الوطن العربي كظاهرة ثقافية متجانسة **ظاهرة فريدة** من نوعها في القديم والحديث من حيث العوامل التي أدت إلى تجسيمها. فالدعوة المسيحية نشرت رموز رسالتها الدينية في مجتمعات المعمورة شرقا وغربا. وهي اليوم أكثر الديانات انتشارا في العالم . ويرجع تضامن المسيحيين في ما بينهم أساسا إلى الرموز الدينية التي يشتركون فيها. فمجتمعات أوروبا هي مجتمعات مسيحية في أغلبيتها. **ولكن وحدتها الثقافية تبقى بعيدة عن متانة التضامن الثقافي الموجود بين المجتمعات العربية** . والسبب في ذلك بَيِّنٌ . فبينما انتشر الإسلام بين الخليج والمحيط كرموز دينية وكرموز ثقافية ولغوية **خرجت المسيحية كدعوة دينية ، أولا وقبل كل شيء**. فدخلت أوروبا،مثلا، المسيحية وأبقت على لغاتها ولهجاتها . إذ لم تكن للمسيحية لغة وحي كما كان الشأن في الدين الإسلامي مع لغة القرآن. وبتعبير العلوم الإجتماعية الحديثة يعدّ نشر الإسلام لغة الضاد، خاصة في منطقة ما بين المحيط والخليج عاملا حاسما في فهم الفرق وتفسيره بين قوة **التضامن الثقافي العضوي بين أقطار الوطن العربي** من ناحية وتنوع الفضاءات الثقافية الأوروبية أو انقساماتها من ناحية أخرى . ففي الأول توفر شرطا (الرموز الدينية والرموز اللغوية الثقافية) حصول ما يمكن أن نطلق عليه **التطابق الكامل ، أو شبه الكامل** ، على مستوى الخريطة الثقافية العامة. أما في حالة أوروبا فلا يوجد إلا شرط واحد يتمثل في اشتراك أهلها في اعتناق رموز الديانة المسيحية . وهو شرط يسمح أكثر بالحديث عن التشابه الثقافي بين تلك المجتمعات لا التطابق الثقافي الكامل أو شبه الكامل بينها .

خامسا : المجتمع الجزائري لم يكن مقاطعة فرنسية

ففي الفترة الإستعمارية المعاصرة للحملة الغربية تمَّ احتلال معظم ما يسمى اليوم العالم الثالث قصد نهب خيراته الطبيعية وتفقير رموزه الثقافية . وكانت جل مجتمعات الوطن العربي من بين ضحاياه . وكما أشرنا، فإن القطر **الجزائري تعرض إلى أخطر سلب ثقافي استعماري عرفه الوطن العربي المعاصر** . ورغم ذلك فإن الغزو الثقافي الفرنسي للجزائر فشل في غزو الرموز الثقافية الدينية الإسلامية للشعب الجزائري ، ولم ينجح كليا في اجتذاذ اللغة العربية وثقافتها من المجتمع الجزائري المحتل . وحصيلة التأثير الثقافي الفرنسي على الشعب الجزائري **لا تسمح** ، بكل المقاييس، بأن نتحدث بدقة وموضوعية عن تماثل مطلق، أو شبه كامل ، على المستوى الثقافي بين الشعبين الفرنسي والجزائري. كل ما يمكن تسجيله هنا هو الانتشار الهام لكن المحدود للغة والثقافة الفرنسيتين بين الفئات الجزائرية . وهو غزو ثقافي لا يسمح، بأي حال من الأحوال، بالحديث عن الانصهار الثقافي التام أو شبه التام للشعب الجزائري في بوتقة رموز الثقافة الفرنسية. فذلك لا يحدث ، كما رأينا ، إلا **بتوفر الشرطين** المذكورين اللذين أدّيا

---

23 Gardet L, Les Hommes de l'Islam: Approche des mentalités (Paris: Hachette, 1980)

إلى تجانس الرصيد الثقافي العام بين مجتمعات الوطن العربي. ومما زاد الطين بلة ، بخصوص تقريب اللغة والثقافة الفرنسيتين بين الفرنسيين والجزائريين ، أن ظروف تعلم هؤلاء الأخيرين اللغة والثقافة الفرنسيتين **اقترنت بعوامل الهيمنة والعنف الإستعماريين**، وهي ظروف لا بد أنها ساهمت في محاولة الجزائر التخلص في أقرب وقت من التبعية اللغوية والثقافية الفرنسية منذ حصلت على استقلالها في الستينيات.إن ما أنجزته سياسة التعريب في المجتمع الجزائري الحديث مثال على ذلك . وهكذا يفصح انتشار الرموز المسيحية منذ القدم ومحاولة فرنسا غزو الجزائر لغويا وثقافيا في العصر الحديث أنهما **تجربتان ثقافيتان محدودتا التأثير في "الآخر"**. إذ إن الأولى اقتصرت على صهر "الآخر" في رموزها الدينية بينما لم يستطع الاحتلال الفرنسي للجزائر القضاء على اللغة العربية وثقافتها إلا في **حدود معينة** ناهيك عن **بقاء الرموز الثقافية الإسلامية منيعة** أمام محاولات البعثات المسيحية لنشر دينها بين سكان الجزائر من بربر وعرب .

سادسا: الرموز الثقافية وخلود روابط الشعوب

وهكذا تبقى **تجربة العرب المسلمين خارج الجزيرة العربية تجربة فريدة** من حيث تمكنها تمكنا كاملا من تحقيق الصهر الثقافي الكامل أو شبه الكامل " للآخر" في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية . وما كان ذلك ليحدث، كما ذكرنا ، لولا نجاح العرب المسلمين الفاتحين في نشر رموز دينهم الإسلامي وتعليم لغة الضاد وثقافتها لشعوب ما بين المحيط والخليج على الخصوص . إن الرباط الثقافي المتجانس بين الشعوب الشرق الأوسط منذ إسلامها وتعرب لسانها وفكرها و ثقافتها أعطى لتواصلها روحيا و ثقافيا شيئا من **الخلود والأبدية**. فقد تصارع الحكام في منطقة ما بين الخليج والمحيط في الماضي[24]، وسوف يتصارعون بالتأكيد في المستقبل و يتخالفون ...فكانت المجابهة بين الأمويين والعباسيين في الصدر الأول للإسلام بين دمشق وبغداد . وتلا ذلك صراع وتوتر بين الأمويين في الأندلس والعباسيين في بقية الإمبراطورية الإسلامية . وكم مرة أغلقت الحدود بين الأقطار العربية في العصر الحديث بسبب الاستعمار، أو لخلافات سياسية بين الحكام ومع ذلك **فرباط الثقافة العربية الإسلامية المتجانسة مكّن العرب المسلمين من التواصل والتضامن شعورا وممارسة منذ أكثر من أربعة عشر قرنا** . فوشائج الرموز الثقافية بين بني البشر – من رموز دينية ورموز لغوية ثقافية– هي الضمان الوحيد لخلق لحمة بينهم لا تكاد غوائل الدهر تؤثر في استمرارية خفقان نبضاتها. **إنها تطبع حبل التضامن بينهم بطابع الأزلية الذي لا تعرفه لا الأحلاف العسكرية ولا التجمعات الاقتصادية بين الأمم.**

---

[24] تمثل أزمة الخليج الناتجة عن غزو العراق للكويت 1991 أكثر الأزمات المعاصرة التي صدعت الصف العربي تصدعا ينذر بأخطار جسيمه تهدد مستقبل الوطن العربي . ومع ذلك تبقى الرموز الثقافية (اللغة والثقافة والدين) هي الموحدة في زمن الانشقاق هذا.

الفصل الثاني
الوجه الآخر لعالم الرموز الثقافية
كما تعكسه قراءة سوسيولوجية غير عادية

أولا:عالمنا هذا البيت الصغير

لقــد حــدّد الكاتب الأمريكي المعروف ألفن طوفلر AlvinToffler بأن البشرية مرّت بثوريــتين رئيسيتين هما الثورة الفلاحية والثورة الصناعية العلمية. و هاهي البشرية تــبدأ ثورتهــا الثالثة والأكثر أهمية في نظره ألا هي ثورة المعلومات[25]. وتتمثل هذه الأخيرة أساسا في المقدرة الهائلة التي أصبحت عند الإنسان بالنسبة لتعامله مع عالم **الــرموز الــثقافية** : الكلمة والفكر والعقيدة والعلم والمعرفة والقيم والمعايير الثقافية والصــوت والصورة [26]فالوسائل التقنية الحديثة للطباعة وإرسال الصوت والصورة واســتعمال الأنترنات أصبحت على مستوى جدّ رفيع من حيث الكفاءة والدقة لنقل عوالــم الرموز الثقافية بسرعة لا تكاد تصدّق من مكان إلى آخر، الأمر الذي جعل عــالم الاتصال والمعلومات الكندي الشهير مرشل مكلوهن يعتبر أن **عالمنا الفسيح** وذا الحضــارات والشعوب والقبائل المختلفة والمتناثرة هنا وهناك أصبح عبارة عن **قــرية صــغيرة** لا تفصل بين أحيائها الحدود[27]. إن استمرار ازدياد النوعية الراقية لتكنولوجيا الاتصال والمعلومات منذ أن صرّح مكلوهن بقولته المشهورة تلك يجبرنا عــلى تعديل هذه الأخيرة لكي تتناسب ، ولو لفترة قصيرة، مع الواقع الجديد لسكان الأرض. فنسرع إلى القول بأن كل المعمورة هي اليوم فعلا عبارة عن **بيت صغير** ليــس إلاّ كــل هذا يوحي وكأن عالم الرموز الثقافية ذو طبيعة فريدة لا تنتسب في الأســاس إلى عــالم المحسوســات . فالإنجــازات المتــتالية التي حققتها وتحققها تكــنولوجيا الــرموز الثقافية تتحدى اليوم أسس منطق الحس نفسه. فأي فرد اليوم على سطح الأرض أو في الفضاء يمكن له أن يسمع صوت الحدث ويشاهد صورته بــالألوان ويقــرأه في نفس الوقت الذي تجري فيه تفاصيل هذا الحدث وذلك بغض الــنظر عــن المســافات الشاسعة الفاصلة بينه وبين مكان وقوع الحدث. فقد شاهد الــناس في القارات الخمس **أحداث الهجوم على مدينتي نيويورك وواشنطن في 11 ســبتمبر2001** .وعــلى ســبيل المــثال، تطبع اليوم الكثير من الصحف والمجلات أعدادهــا لنفس المحتوى في مدن تقع في قارات مختلفة. ويحدث كل ذلك في نفس

---

[25] Toffler,A. The Third Wave, New York, Morrow, 1980

[26] انظر تعريفنا في الفصل السابق للرموز الثقافية

[27] McLuhan, M. and Fiore,C.,The Medium is The Message, New York, Bantam,1967

الوقـت. إن جريدة الشرق الأوسط مثال على ذلك فهي تصدر في لندن ولكن تطبع مـنها طـباعات أخـرى فـي كـل من باريس ونيويورك وفرانكفورت والقاهرة والـرياض والـدار البيضـاء...ويمكن اليوم لأي شخص أن يبعث بمراسلاته عن طـريق مـا أصبح يسمى بالبريد المصور أو الفاكس أو بواسطة الأنترنات والذي يتلقى المرسل إليه نسخة أو صورة منه في ظرف لحظات وفي أي مكان في العالم مجهز باستقبال البريد المصور أو بجهاز الأنترنات.

ثانيا:عالم الرموز الثقافية ولمساته الميتافيزيقية :

ليـس مـن المبالغة في شيء القول بأن عالم الرموز الثقافية ينطوي على كثير **من اللمســات الميتافيزيقية** (الماورائية) كما أشرنا في الفصل السابق.فالاتصال بالآخر بالكـلمة وبالصـوت والصورة في لمح البصر رغم حواجز البعد والجبال والبحار والمحيطـات هـو، مـن جهـة المنطق الحسي الصرف ، واقعة تنتمي إلى عالم المسـتحيلات أو عالم الجنوح الخيالي للإنسان . فمثل هذه الوقائع لا يقرها المنطق التقـليدي للإنسـان . إذ هـي في نظره وقائع مقصورة على العالم العلوي : الإله والأرواح . ومـن ثـمّ فلا ينبغي أن نندهش لكون الثورة التي يشهدها عصرنا في تعاملـه مـع عـالم الرموز الثقافية هي فعلا **أعظم الثورات الثلاث** التي أشار إليها طوفـلر. إذ أنهـا الثورة التي حررت الإنسان من العراقيل المادية للطبيعة وجعلته يقفز و يتصرف بحرية أكبر تشبه نسبيا مقدرة الإله الذي يفعل ما يشاء عبر الزمان والمكـان . ومن الملفت للنظر في هذا الصدد أن انبهار الخاصة والعامة من الناس انصـب أساسـا عـلى تكنولوجيا الرموز والمعلومات وهمّش الاعتناء بفهم طبيعة **جوهرالــرموز الـثقافية** كعناصـر مميّزة للجنس البشري. فالعلماء المختصون في ميـادين الإتصـال والمعـلومات لا يزال يغلب عليهم **موقف الصمت** بخصوص ما سـميناه **بالجوانب الميتافيزيقية لعالم لرموز الثقافية** [28] إن استمرار سلطان الرؤية العـلمية الوضـعية Positivist عـلى آفـاق البحث العلمي في تخصصات الإتصال والمعـلومات الحديـثة لا بد أن يكون ذا ثقل حاسم في عدم قدرة هؤلاء المختصين عـلى الحديـث بصوت عال حول خصوصية عالم الرموز الثقافية التي تستنفر من إقـرارها والـتعامل معهـا الـروح العـلمية الوضـعية لأغلبية العلماء والباحثين المعاصـرين . إن خصوصـية عالم الرموز [29]الثقافية تتجلى ملامحها عند مقارنتها بعناصـر أخرى هي من صلب كينونة الإنسان . فجسم الإنسان ورائحته هما جزء مـن تـلك الكينونة . وكذلك الشأن بالنسبة للكلمة المنطوقة ، المكتوبة والصوت . فوسائل الاتصال الحديثة نجحت كما رأينا في تمكين نقل الكلمة والصوت والصورة فـي لمـح البصـر من أيّ نقطة في هذا العالم وهذا الفضاء الرحب إلى أي نقطة أخرى منهما . وبهذه الإنجازات التواصلية التي يتحسن مستواها باستمرار، فإنه من

---

[28] المصدر السابق

[29] Brady, B.,Readings in the Philosophy of Science, Englewood Cliffs,N.J. Prenlice-Hall, Inc.,1970

الموضـــوعية القـــول **أننا دخلنا فعلا رحاب عوالم العجائب** الماورائية فبينما يظل جســـمنا قابعا في مكانه على الأرض أو سابحا في الفضاء يمكن لصورة جسمنا أن تجـــوب أنّى شـــاءت فـــي عالمي الأرض والفضاء . وبينما عجزت أرفع لأجهزة التكـــنولوجية التواصـــلية لنقل رائحة أجسامنا فيتمكن من شمها الآخرون حتى على مســـافات غيـــر شاسعة، نجحت تكنولوجيا التواصل حتى في أبسط مراحل تطورها (المذياع والهاتف) في إرسال الكلمة والصوت إلى مسافات لا تكاد تعرف الحدود. ومع ذلك فطالما يتم التقاطها والاستماع إليها بكثير من السهولة .

فازدياد عالمنا صغرا لا ينبغي ، في نظرنا، أن يعزى إلى عالم تكنولوجيا التوصل فحســـب بل يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أيضا **عامل طبيعة عالم الرموز ذاتها**. أيّ أنـــنا مطالـــبون لتحسين أسس فهمنا العلمي لظاهرة سرعة التواصل المعاصرة بأن نطـــرح أســـئلة ذات طـــبيعة إيبســـتيمولوجية حـــول جوهـــر الأشـــياء. فالطرح الإيبســـتيمولوجي لا بـــد مـــنه للـــباحث والعـــالم اللذين يطمحان إلى كسب رهان المصداقية العلمية.

إن تأكيدنـــا عـــلى أهميـــة عدم تهميش الجوانب غير المحسوسة (بالمعنى الوضعي للكـــلمة) لـــلرموز الـــثقافية يرجع إلى تصورنا الإيبستمولوجي لطبيعتها. فالرموز الثقافية عندنا تختلف في جوهرها عن بقية العناصر الأخرى المكونة لذات الإنسان . فخصوصية عالم الرموز الثقافية تتجلى في كونها تنطوي على لمسات تميزها عن عـــالم المحسوســـات وتقـــربها من عالم الماورائيات . فالجانب الميتافيزيقي للرموز الثقافية عرفه البشر قبل تبلور ثورة الاتصالات الحديثة. فظاهرة **تواصل الأفراد عن بعـــد** telepathy أيدت حدوثها البحوث العلمية الحديثة[30]، وقدرة البعض من الناس على التنـــبؤ بالمســـتقبل بواســـطة الأحلام هما مثالان يبرزان بوضوح مدى ارتباط عالم الرموز الثقافية عند الإنسان بالعالم غير المحسوس[31].

ومـــن ثـــمّ فـــإن ثورة الاتصالات التي يعتبرها طوفلـــر أعظم الثورات جميعا في العصر الحديث ينبغي أن تفهم في مساقها الصحيح :

1/ أن حدوثهـــا لا يـــرجع إلى تكنولوجيا الإتصالات فحسب وإنما أيضا إلى طبيعة عـــالم الرموز الثقافية نفسها والتي تتمثل في قدرتها على التحرر من عراقيل عالم المحسوسات والانضواء في عالم الميتافيزيقيا.

2/أنهـــا أعظـــم ثـــورة نوعية لأنها تمس أهم شيء يميّز الإنسان عن بقية الكائنات الطبيعية والإصطناعية منها والمتمثلة في عالم الرموز الثقافية .

إن القرب الخيالي الذي حققته ثورة الإتصالات بين الأجيال المعاصرة واقع يحدث الذعر والاندهاش وعدم التصديق وربما الجنون للأجيال السابقة ...لو أنها بعثت من قبورها وعادت إلى ساحة عالمنا. فالأمر فعلا لا يكاد يحمل التصديق في عالم يغلب

---

30 Encyclopdia of Psychology, Guilford, Connecticut, The Dushkin Group, Inc. 1973,p.273

31 Fromm, E. ,The Forgotten Language, New York, Bantam, 1965

عـليه منطق المحسوسات أن يتخاطب الناس عبر الهاتف وأن يشعروا وكأنهم وجه لوجـه لكـن بـدون حضور أجسادهم جنبا إلى جنب أو أن يشاهدوا صورة الجسد ويسـتمعوا إلى الصـوت بكـل وضوح وكأن ذلك الجسد وذلك الصوت حاضران بيـنهم . يحـدث كل ذلك في دنيا الواقع بالرغم من العراقيل المحسوسة التي تجعل ورود مثل ذلك الحدث من قبيل المستحيل واللامعقول والخيال والمعجزات ...

إن الفهـم العـلمي غيـر المتحيز يبقى في نظرنا **قاصرا** على مدنا بفهم موضوعي مـتكامل لمـثل ذلـك الحـدث الإتصالي الخارق للعادة إذا ما أرجعناه إلى تطوّر تكـنولوجيات الاتصـالات فقط وأهملنا إبراز مدلولات **اللمسات الميتافيزيقية لعالم الـرموز الـثقافية** . فبالتعـبير العلمي والوضعي الجديد يمكن النظر إلى منظومة اللمسات الميتافيزيقية لعالم الرموز على أنها ضرب من "اللانظام Disorder " في نظام الظواهـر المحسوسـة[32]. إن مقولتنا بخصوص أهمية دور اللمسات الميتافيزيقية في تشـخيص أكمـل لفهم ظاهرة ثورة الإتصال تلقى تشابها كبيرا مع اتجاهات علمية جديـدة بدأت تنادي بصوت عال بضرورة دمج "اللانظام"[33] في البحوث العلمية على مختـلف مواضيعها . فدمج عنصر اللمسات غير المتأثرة بمنطق المحسوسات في تحليلـنا لعامل الرموز الثقافية يصبح **ضرورة منهجية وعلمية** لا بد من أخذها في الحسـبان ليكـتمل مسـتوى نضـج رؤيتنا العلمية لا لثورة الإتصال فقط، بل **لكل الظواهر السلوكية والإجتماعية التي يمكن أن تتأثر بعالم الرموز الثقافية من قريب أو بعيد.**

ثالثا:الدلالات الثلاث للمسات الميتافيزيقية :

ليست ثورة الاتصال وعجائبها إلا مثالا واحدا من بين أمثلة عديدة للظواهر التي تمـتزج فـي تحديد كينونتها العناصر المحسوسة بالعناصر التي لا تنتمي إلى عالم المـادة (الماورائيـات، الميـتافيزيقياء) . وكمـا تتعدد الظواهر المتأثرة باللمسات الماورائيـة تختـلف أيضا أصناف هذه اللمسات . فمع ثورة الاتصال يدخلنا عالم الرموز الثقافية(الكلمة والصوت والصورة...) متاهات عالم الغرائب والعجائب التي توحـي لـنا وكأنـنا لم نعد ننتسب إلى دنيا المحسوسات وأصبحنا نعيش في عالم اللامحسـوس: **أي عالم اللامعقول والأشباح والماورائيات.** هذا **أحد** أنواع مدلولات مـا أطلقنا عليه تعبير اللمسات الميتافيزيقية للأشياء والظواهر. ويمكن اعتبار عامل **الإسـتمرارية الزمـنية** للأشياء والظواهر كصنف **ثان** لمقياس اللمسات الميتافزيقية فيهـا . فالإلـه والأرواح تعتبر في جل الأديان والمذاهب كائنات لا يلحقها الفناء. وبعـبارة أخـرى، فهـي كائـنات أزليـة سرمدية .وبالتالي فهي تنتمي إلى عالم الماورائيـات . ومـن هذا المنطق فإننا سوف ننظر إلى كل عناصر الظواهر التي يحفـل بهـا عالمـنا على أنها مشحونة باللمسات الماورائية كلما كان تواصل بقائها

---

[32] انظر العدد الخاص من مجلة Recherche عدد232 ،مايو1991 بعنوان :"علم اللانظام "La science du desordre

[33] المصدر السابق

يتصف **بطول العمر الذي قد يبلغ الخلود والأزلية**. وعلى مستوى **ثالث** فإن الرموز الثقافية **التي تشحذ بني البشر بطاقات تماثل قوة الكائنات الغيبية** تعتبر ذات لمسات ميتافيزيقية. وهكذا **فتعريفنا الاجرائي** لما نعني به بعبارة اللمسات الميتافيزيقة أصبح واضح الملامح من حيث إمكانية استعماله علميا في تقصي العناصر والظواهر التي تتأثر بما سميناه باللمسات الميتافيزيقة بمدلولاتها الثلاثة .

إن الــرموز الثقافية كما تصطلح على تسميتها العلوم الإجتماعية الحديثة تحمل في كينونــتها بصــمات ميــتافيزقية بصــورة طبيعية أو فطرية . ومن ثمّ فدور ثورة الاتصــالات المذهلة يتمثل أساسا في توفير التقنيات المتقدمة في استغلال اللمسات الميتافيزيقة الخفية الكامنة في الطبيعة الأصلية لعالم الرموز الثقافية. فجانب تواجد العنصــر المــاورائيي (اللامحسوس) في الرموز الثقافية هو إذن من **نوع التواجد القبلي** بالتعبير الفلسفي. أي اتصاف عالم الرموز الثقافية بلمسات ميتافيزيقية يعتبر مــن المســلمات التي تتمتع بكثير من المصداقية. وهذا ما سوف نحاول إبرازه في بقية هذا التحليل لما يمكن أن **نسميه بالجانب الآخر للرموز الثقافية الإنسانية** . إن التعريف الشائع الاستعمال لهذه الأخيرة ، خاصة في علميْ الإجتماع وأنثروبولوجيا الحديــثين، يؤكــد أن تلك الرموز الثقافية تتمثل في المقام الأول في اللغة والعقائد ومنظومــتي المعرفة والعلم والأعراف والقيم والمعايير الثقافية والقانون أو الشريعة الديــنية والأخلاق والفنون.فالرموز الثقافية بهذا التعريف العام هي في نهاية الأمر **العناصــر الحاســمة الــتي تميّــز الإنسان بصورة قاطعة لا عن عالم الحيوانات والدواب وغيرها من الكائنات الحيّة فحسب بل أيضا عن أذكى ما توصل إليه علم الإنســان وتقنيــته فــي صــناعة أدوات وأجهــزة ما يسمى بالذكاء الإصطناعي كالــروبوط والكومــبيوتر**. وهــناك اتفاق بين علماء الإجتماع والإنثروبولجيا الذين اهــتموا أكــثر مــن غيرهم بدراسة عالم الرموز الثقافية عند الإنسان بأن **اللغة** في شــكليها المــنطوق والمكتوب **هي أهم تلك الرموز الثقافية جميعا** والتي بدونها لا يمكــن الحديث عن بقية الرموز الثقافية الأخرى أو عن سيادة الإنسان على الأرض وفــي الفضــاء[34]. وإذا كانت اللغة هي العمود الفقري بالنسبة لظاهرة عالم الرموز الــثقافية فإنها حسب رؤيتنا تصبح أكثر الرموز الثقافية ترشحا لا لحملها البصمات الميــتافيزيقة فــي كينونــتها فقط وإنما تصبح **المصدر الرئيسي** في تمكين الرموز الثقافية الأخرى في التأثر بالومضات الماورائية. كل ذلك يجعل من الشرعية بمكان أن نتقصى اللمسات الميتافيزيقة في اللغة قبل غيرها من عالم الرموز الثقافية .

رابعا:اللغة ولمساتها الميتافيزيقية:

إن ملامــح اللمســات الميتافيزيقية في الأنساق اللغوية لا تحتاج إلى عناء لإثباتها. **فالــلغة هــي أم الرموز الثقافية جميعا**[35]. ومن ثمّ فهي مهيأة أكثر من غيرها لحمل

---

34 White, L. ,The Evolution of Culture, New York, Mc Graw- Hill Inc.1959

35 المصدر السابق

ومضـــات عـــالم اللامحســـوس وفقا لرؤيتنا لعالم الرموز الثقافية للإنسان. ويمكن الاقتصـــار عـــلى ذكر وتحديد **أربعة ملامح في تشخيص الملامح الميتافيزيقة للغة** كرمز ثقافي يتميز به الجنس البشري:

1/ لا تخفى بالتأكيد المنزلة التي تحدث عنها طوفلر وغيره من المختصين في هذا الميدان . فسرعة التواصل الآتي وفي لمح البصر بين الأفراد والمجتمعات اليوم تتم أساســا بواســطة الوحــدة الرئيسية التي تكوّن النسق اللغوي والمتمثلة في الكلمة (الإسم ، النعت، والفعل والحرف...). وكما أشرنا في مطلع هذا الفصل، فإن سرعة تــنقل الكــلمة المكــتوبة والمــنطوقة في عالم اليوم لا ترجع إلى تقنيات الاتصال العصرية فحسب وإنما **تتأثر هذه السرعة في العمق بطبيعة اللغة** نفسها كأهم رمز ثقــافي يمــلكه بنو البشر. فالتواصل باللغة في شكليها حوّل عالمنا هذا تحولا جذريا وأضفى عليه مع تحسن تقنيات الاتصال صفات العجائب والغرائب. فأصبح تخاطب الــناس والــتقاط الخبر في حينه رغم المسافات الشاسعة يوحي بما يمكن أن **نسميه بالبعد الميتافيزيقي** لوجود الكائنات البشرية في هذا العالم. ومنه **تتجسم بطرح جديد ثــنائية كيــنونة الإنسان** . فالصياغة التقليدية لطبيعة الإنسان تتمثل في كونه جسما وروحـــا. أمـــا التصور الجديد لكينونة الإنسان والذي بلورته ثورة المعلومات فهو يتمـــثل فـــي أن الإنســـان جســـم قابع هنا على سطح الأرض أو سابح في الفضاء ...لكـــنه متصـــل ومتواجد عن طريق اللغة هناك على بعد خيالي على هذه الأرض وفـــي ذلـــك الفضـــاء الـــرحب. **فهـــذه الثـــنائية الجديدة الملامح تطرح الجانب الميـــتافيزيقي القديـــم(الـــروح) لهويّـــة الإنسان في ثوب جديد يظلّ رغم جدته ذا وشـــائج صـــلبة مع عالم الماورائيات واللامحسوسات** التي لم يقدر الإنسان بصفة عامـــة عـــبر تاريخـــه الطويل أن يلغيها تماما من إحساسه ومن حدسه ومن فكره العقلي والعلمي في القديم والحديث على حد سواء [36].

2/ أمـــا على مستوى قدرة اللغة على تخليد الأفراد والجماعات رمزيا عبر الزمان والمكـــان فالمعطيـــات الميدانيـــة تؤكد ذلك . فعلى المستوى الجماعي تمكن اللغة المكـــتوبة عـــلى الخصـــوص المجموعات البشرية **من تسجيل ذاكرتها الجماعية والمحافظـــة عـــليها وتخـــليدها وذلـــك رغم اندثار وجودها العضوي والبيولوجي كمجموعـــات** ورغـــم إمكانية تغييرها للمكان وعيش أجيالها المتلاحقة في عصور غيـــر عصورها . فمحافظة لغة الضاد محافظة كاملة على النص القرآني خير مثال عـــلى **مقـــدرة اللغة التخليدية** بخصوص حماية الذاكرة والتراث الجماعي من واقع الفـــناء المـــتأثر بالـــتأكيد بعوامل الزمن والبيئة والوجود الجسمي المادي لذات تلك المجموعـــات البشـــرية. وكذلـــك الأمـــر بالنسبة للأفراد . فالكتّاب العباقرة في كل الحضـــارات الإنســـانية وعبر العصور المتلاحقة ما كانوا ليستطيعوا تخليد أفكارهم وقوانينهم ونظرياتهم... بالكامل لولا توفر اللغة المكتوبة المتطورة على الخصوص

---

36 Hunt, M, The Universe Within, New York, Simon and Schuster,1982,pp. 315-353

فـــي ثقافـــاتهم[37]. فـــأفلاطون وأرسطو وأخناتون والمعري وابن خلدون وابن رشد وروســـو ومـــاركس...ما كان لأفكارهم أن تصمد أمام عوادي الزمن لقرون طويلة وربما إلى أجل غير مسمى لو أنها لم تحفظ في لغات مكتوبة. وباختصار، **فالأنساق الـــلغوية تسمح لرصيد ذاكرات الشعوب وأفكار الشخصيات اللامعة بالتمتع بالقليل أو بالكثير من سمات الخلود والأزلية** .

3/ إن مقـــدرة الرموز الثقافية على السماح للإنسان بالتمتع بنوع من الخلود تحسنت مـــع اســـتمرار توالي الاكتشافات التقنية الحديثة في ميدان الإلكترونيات المتقدمة . فتســـجيل الصـــوت والصورة الملونة عبر عملية الترميز يعدّ مثالا حيّا على مقدرة الرموز الثقافية على تخليد الكلمة والصوت والصورة الحيّة الطبيعية للكائنات الحيّة والظاهـــرات الجـــامدة . فصـــناعة الفيديو هي أكمل طريقة إلى حدّ الآن في تخليد الإنسان رموزيا. فبه يتم اليوم تسجيل الكلمة ونبرات الصوت وحركة جسم الفرد أو الجماعة في أكمل صورة عفوية طبيعية لها. فكوكب الشرق، أم **كلثوم** ، لم تعد بيننا بجســـمها ولكن لا تزال حاضرة بيننا بكلمات القصائد التي تغني بها صوتها الصداح وبمنديـــلها المعـــروف وآهاتها وحركاتها المشهودة على خشبة المسرح أمام عشاقها الحضور في أوّل كل خميس من شهور السنة الغنائية.

4/ فعـــلى المستوى **الشفوي** يقترن **استعمال اللغة أيضا بدلالات ماورائية**، أفلا يلجأ البشـــر مـــن كل العقائد والديانات إلى استعمال الكلمة المنطوقة في تأملاتهم الكونية وتضرعاتهم وابتهالاتهم إلى آلهتهم أو أيّ شيء آخر يعتقدون في أزليته أو قدسيته ؟ بتميّزه باللغة عن بقية الكائنات يستطيع الإنسان أن يحرر نفسه من العراقيل المادية لهذا العالم ويقيم علاقات وروابط مع العالم الميتافيزيقي. فبالمقدرة اللغوية ينجح بنو البشـــر فـــي فـــك حصـــار المشاغل الدنيوية والآنية . **وهكذا يصبح لقاءهم بالبعد الميـــتافيزيقي في شتى مظاهره أمرا لا مفرّ منه. فهم يرونه في أحلامهم ويحفل به خيالهم ويلتقون به عن قرب في تجاربهم الدينية** . .

خامسا:اللمسات الميتافيزيقية لقيم الحرية والعدالة والمساواة.

وكمـــثال ثـــان لتشخيص ما سميناه باللمسات الميتافيزيقية التي ينطوي عليها عالم الـــرموز الـــثقافية نعـــرض **لقيم العدالة والمساواة والحرية**...أي كيف أنها **تحول ســـلوكات البشـــر** خاصـــة فـــي بعض الحالات إلى **سلوكات وكأنها متأثرة بقوى ماورائية**. ولتبيان ذلك بأكثر ما يمكن من الوضوح يتحتم القيام ببعض الملاحظات أو المقدمات كما فعل ابن خلدون في فصول مقدمته الشهيرة .

إن الملاحظـــة الميدانية لكل من عالم الأجناس البشرية وعوالم بقية الدواب الأخرى تفيـــد، مـــن ناحية، بأن سلوكات هذه الأخيرة تتأثر في العمق **بالمؤثرات الغريزية** وأن سلوكات بني الإنسان تتأثر في المقام الأول، من ناحية أخرى، **بعامل الرموز الـــثقافية** . وهـــذا ما يفسر **استمرارية التطابق** الكامل في سلوك كل نوع من أنواع

---

[37] Parsons, T. ,Societies : Evolutionary and Comparative Perspectives, Englewood Cliffs, N.J., Prentice-Hall,1966

الحيوانـــات والحشرات والطيور والزواحف... عبر الأجيال المتلاحقة وعبر الزمان والمكان.

وأمـــا بالنسبة لنوع الجنس البشري فهناك تنوع كبير في نمط السلوكات الرئيسية والحقيرة على حد سواء من حضارة إلى حضارة ومن مجتمع إلى مجتمع ومن جيل إلى جيـــل. إن عـــلماء الإجتماع والأنثروبولوجيا المعاصرين متفقون على أن هذه الاخـــتلافات في أنماط السلوك بين هذه التجمعات البشرية وداخلها تعود أساسا إلى تأثيـــرات عـــالم الرموز الثقافية عندها من ديانات وتقاليد وأعراف وقيم ومنظومات معـــرفية... [38]وبعـــبارة أخـــرى، **فالكائن الإنساني يستمد من عالم الرموزالثقافية حـــرية العمـــل والإخـــتيار والإخـــتلاف عن الآخر**. ومن ثمّ فالسلوك البشري يتمتع بإمكانيات ضخمة من المرونة. أي **أنه تحكمه حتمية مرنة** لا حتمية متصلبة مثلما هـــو الشأن في عالم سلوك الحيوانات والدواب. وليس من العجيب من هذا المنطلق أن تفشـــل تنـــبؤات مختصـــي دراسات السلوك في الكثير من الحالات في تقييمها للتوقعات الحقيقية لسلوك الناس، إذ أن علماء النفس أو علماء الإجتماع طالما يبنون تـــلك التنـــبؤات المنـــتظرة حول السلوك الإنساني على أرضية حتمية صلبة ذات قوانيـــن لا تعترف بمبادئ الحرية والإرادة والإختيار... في معادلة المؤثرات على الســـلوك البشري[39]. ومن الملفت للنظر بهذا الصدد أن **قيم الحرية والعدالة** وغيرها من القيم التي نادى بها الإنسان على مدى تاريخه الطويل **لم تكد تلقى أي اعتناء عـــلمي يذكر من طرف علماء السلوك الفردي والجماعي المحدثين**. ورغم ما لتلك القيـــم مـــن دور رئيســـي فـــي تحريك سلوك الفرد والجماعة في القديم والحديث. ولاعتـــبارها أفكـــارا فلســـفية مجـــردة، فإن مختصي العلوم الإجتماعية عموما قد **اســـتنكفوا** عـــن فهم جذورها ومدلولاتها العميقة في التأثير على السلوك الإنساني. ومـــن ثـــمّ خيّل إليهم أنها عبارة عن أشياء ميتافيزيقية يختص بدراستها الفلاسفة لا العـــلماء ! وهـــذا مـــثال آخـــر،من بيـــن العديـــد مـــن الأمثـــلة ، يعكس **القطيعة الإيبســـتيمولوجية** الـــتي يشكو منها العالِم الوضعي المعاصر في إحداث طلاق لا رجعة فيه بين عالم المحسوس والعالم الماورائي مهما كانت طبيعة هذا الأخير[40]. إن تمـــتع الإنســـان دون سواه بالحرية والقدرة على الاختيارميزة تربط الكائن البشري بعـــالم الميـــتافيزيقيا. فالإلـــه فـــي معظم الديانات والعقائد يختص بتلك الخصال . فالإنسان هو الوحيد الذي يشترك بصورة نسبية مع الإله في تلك الخصال . فالتراث القـــرآني يشـــير بالبـــنان إلى الـــرباط الماورائي الذي هو مصدر الحرية والإرادة والمقدرة على الاختيار عند الإنسان. فكل ذلك يرجع إلى "...فإذا سويته **ونفخت فيه**

---

38 Smelser, N. ,Smelser, W., Personality and Social Systems, New York, John Wiley and Sons,Inc.1967,pp.80-87

39 عالم النفس الأمريكيF.Skinner.B من المدرسةالسلوكية وعالم الاجتماع الفرنسيDurkheim.E رائد الحتمية الاجتماعية

40 Philips, D.C., Philosophy, Science and Social Inquiry, New York, Pergamon Pressm1985

من روحي..."[41]فاجتمعت بذلك الظروف في نظر القرآن (بإعطاء الإنسان نصيبا من الحرية والإرادة كنتيجة **للرموز الثقافية...**) عند هذا الكائن العاقل لكي يكون **المترشح الوحيد للخلافة**"إن أعرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا"[42].
وهكذا فلا عالم الحيوانات ولا عالم الدواب ولا عالم الآلات والأجهزة ذات الذكاء الإصطناعي يتمتع بكمية ونوعية طبيعة عالم الرموز الثقافية التي يملكها الإنسان. ومن ثمّ فضرب من الخيال التحدث عن معاني الحرية والمساواة والعدل بنفس المستوى الذي طرحت عليه من طرف الجنس البشري على مرّ العصور. **فالعامل الحاسم هنا بين عالم الإنسان وعالمي الدواب واللآلات هو عالم الرموز الثقافية.** ومن هذا الأخير تأتي شرعية حتمية ربط كينونة الإنسان بالعالم الميتافيزيقي. إذن بدون عالم الرموز الثقافية ودلالاته يظل تشخيصنا للإنسان وعلاقاته بما حوله هنا على الأرض وبما فوق السماء تشخيصا منقوصا على المستوى العلمي والعملي.
ولعل من الأمثلة المشخصة للمسات الميتافيزيقية لعالم القيم كرموز ثقافية هو ما جرى من أحداث للأنظمة السياسة والإجتماعية في أوروبا الشرقية . فما شهده النصف الثاني لعالم 1989 في المجتمعات الاشتراكية لأوروبا الشرقية من تغيرات في الأنظمة السياسية مؤشر واضح على مدى أهمية عمق طبيعة الرموز الثقافية للإنسان. فالمناداة بديمقراطية الحكم بين الفئات المختلفة لهذه الشعوب كانت تعني إنهاء حالة الحصار والكبت **للحرية** كرمز وقيمة متجذرة في التركيبة البشرية . فممارسة تلك الأنظمة التسلطية والدكتاتورية تتناقض مع مبدا **أن الإنسان كائن رموزي ثقافي بالطبع** ، أي كائن لا يقبل أن تسحق مهاراته وإمكانياته الرموزية طال الزمن أو قصر. **فحرية الكلمة والفكرة تتمتع بلمسات قدسية عند الإنسان.** إن الرموز الثقافية كما رأينا هي مصدر التنوع والإختلاف بين الأفراد والجماعات البشرية . فقيام الأنظمة السياسية الإشتراكية المعاصرة بمنع حرية الإضراب في المعمل والسفر إلى خارج الوطن وتكوين الأحزاب وحرية الكلمة الناقدة والفكر المعارض والمحتج...كلها ممارسات عملية تتعارض مع المؤهلات التي يتميز بها الإنسان عن عوالم الدواب والحيوانات والآلات ذات الذكاء الإصطناعي. **فإقصاء الإنسان عن ممارسات حريته تؤول به في النهاية إلى تشابه كبير مع عالمي الكائنات الحية غير العاقلة والآلات ذات الذكاء الإصطناعي** . وهنا يتضح بالتحديد في رأينا الجانب الإيديولوجي للمقولة المادية التاريخية التي تتبناها النظم الشيوعية والإشتراكية في فهمها للإنسان[43]. فهذه النظم تعتقد أن **الإنسان** هو في المقام الأول كائن **مادي إقتصادي بالطبع** وإن ما عدا ذلك من الطبيعة البشرية فهو إما ثانوي

---

[41] سورة الحجر:29 .لقد تصفحت العديد من تفاسير القرآن و لم نجد فيها أي إشارة إلى الرموز الثقافية كأهم جزء من تلك النفخة الإلهية في آدم.

[42] سورة الأحزاب:72

[43] Balibar, E., Cinq Etudes du Matérialisme Historique, Paris, Maspero, 1979

مـــن حيث الأهمية أو هو باطل من الأساس . وهذا التصور المادي للكائن الإنساني أدى إلى تهميـــش أو الإلغاء الكامل لدور عالم الرموز الثقافية في التأثير في تشكيل الســلوك البشـــري عند المفكرين الماركسيين الماديين المتصلبين. وهي رؤية تقلب الأمـــور رأســا عـــلى عقــب بالنسبة لمقولتنا الرئيسية في هذا الفصل . **إن الكائن البشري عندنا هو كائن رموزي ثقافي بالطبع** . أي أن دور ما سميناه بعالم الرموز الــثقافية مـــن حيث فهم الإنسان والمؤثرات على سلوكه دور رئيسي يتمتع بثقل لا يكاد يضاهيه في نهاية الأمر أي عنصر آخر مؤثر على السلوك البشري . وهذا ما يفسر في رأينا منطق السلوكات الفردية والأحداث الجماعية التي أثبتت قدرتها على تحـــدي المعطيات المادية القاهرة. فإلقاء العديد من قادة العالم الثالث في السجون في العصـــر الحديث لم يمنع من الكفاح والصمود أمام القوى المادية العاتية والضخمة للمســـتعمر. وليس هناك من تفسير ذي مصداقية لانتصارهم في النهاية على المحتل أفضـــل من عامل **تدرعهم بالسلاح المعنوي أو بسلاح عالم الرموز الثقافية** وفقا لمصطلاحنا في هذا الفصل. وما الانتفاضات الشعبية ضد الطغاة في القديم والحديث (انتفاضة الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الإسرائيلي تمثل أحسن مثال) إلا تصديق لمـــدى أهميـــة الذخيرة التي يمكن أن يمد بها عالم الرموزالثقافية الجنس البشري بحيـــث تصـــبح طاقـــات هذا الأخير تحديا لأضخم قوة عسكرية يمكن أن يملكها الطاغيـــة أو المستعمر . **فقوة الرموزالثقافية قوة هائلة لا يكاد يقف أمام جبروتها أي شـــيء مهمـــا كانت طبيعته القاهرة**. فعنفوان هذه الطاقة التي يستلهمها الإنسان مـــن عـــالم الرموز الثقافية تستمد قوتها من عالم السماء لا من عالم المحسوسات. **ومن هنا يأتي المدلول الميتافيزيقي لقيم الحرية والعدالة المساواة...كرموز قادرة عـــلى شـــحن الأفـــراد والجماعات بطاقات هادرة جبارة تشبه إلى حدّ ما القوى الماورائيـــة الضاربة التي لا يستطيع اعتراض سبيلها معترض**. وهذا ما يوحي به بيت الشاعر التونسي المعروف أبي القاسم الشابي:

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

فمصـــدر إرادة الشـــعب كما بيّنا هو عالم الرموز الثقافية. فالناس عندما يجمعون أمـــرهم عـــلى الدفـــاع عن الحرية ، والمساواة، و العدل، عن حقهم في الإستقلال واحـــترام الـــذات...يصبح رد فعلهم كرد فعل القدر الذي لا مرد له. وهذا ما يفسر لجـــوء الـــناس إلى الحديث عن المعجزات في بعض الأحداث الفردية أو الجماعية التي تدخل سجل تاريخ الأفراد والمجتمعات رغم عدم توفر المعطيات المادية لذلك. فتســـرع الأحـــداث فـــي المجـــتمع الروماني في نهاية عام 1989 يعتبر ضربا من المعجـــزات. فنظام الرئيس السابق نيكولاي تشاوسيسكو كان نظاما ديكتاتوريا لمدة ربـــع قرن. فقد أحكم سلطته على الجيش وعلى شرطة الأمن (سيكوريتات) وعلى الحـــزب الشـــيوعي الحـــاكم... لكن وما أن اشتعل فتيل الثورة الشعبية في مدينة شيمشـــوارا حـــتى امـــتد هـــذا الفـــتيل بســـرعة إلى العاصمة بوخارست. وحاول تشاوسيسكو إطفاء اللهيب بخطاب ألقاه بالساحة الكبرى بالعاصمة بوخارست في22

ديســمبر . ولكــن انتشار الجيش والشرطة السرية لإيقاف الثورة الشعبية الصاخبة بالقيــام بالمجازفــة وبعمــليات التعذيب فشل في إخماد الثورة . فعمد الجيش إلى الــتحالف مــع الشعب الغاضب الذي تحركه قيم الحرية والعدالة والمساواة واحترام ذات كــل رومــاني.وكانت نهاية تشاوسيسكو وزوجته الإعدام يوم 25ديسمبر 1989. وهكــذا انتهى عهد كامل بتلك السرعة التي لا تكاد تصدّق . **فقوة الشعب المسلحة بذخيــرة عــالم الرموز الثقافية : الحرية والعدل والمساواة...أصبحت قوة ماردة جــبارة تفــوق بكــثير القــوة المادية التي تسلح بها تشاوسيسكو وشرطة أمنه وجيشه.أصبحت تلك القوة شبه إلهية لا تبقي ولا تذر.**

سادسا:مفهوم الروح الرموزية الثقافية عند الإنسان:

يتضــح مما سبق أن الكائنات البشرية تتميز عن غيرها من الكائنات الحيّة الأخرى والأجهزة ذات الذكاء الإصطناعي بما سميناه بعالم الرموز الثقافية[44]. كما يتضح أن هــذا الأخيــر يتمتع بلمسات ماورائية بالمعنى المتعدد الآلات الذي شرحناه. ومن ثمّ فالــلغة والفكــر والعقائد الدينية والمنظومة المعرفية والقيم والمعايير الثقافية..يمكن اعتــبارها ما نود أن نسميه **بالروح الرموزية الثقافية للإنسان**[45]. وقد اخترنا مفردة الــروح في مفهومنا الإصطلاحي هذا عن قصد. وذلك لنشير بكل وضوح إلى أننا نعتــبر أن عــالم الرموز الثقافية هو ذلك الجزء من كينونة الإنسان **الأكثر مركزية وعمقــا فــي تكوين ذاتية الأفراد والجماعات**. فالرصيد الهائل للرموز الثقافية التي يمــلكها الجنس البشري يجب أن تكون المصدر الرئيسي الذي ينبغي أن يرجع إليه عــلماء الــنفس والإجــتماع والانثروبولوجيا والسياسة في أي محاولة طموحة لفهم وتفسير سلوكات الأفراد والمجموعات البشرية[46]. وبعبارة أخرى ، فالروح الرموزية الــثقافية بلمساتها الميتافيزيقية تصبح أداة بحث متميزة في دراسة السلوكات الفردية والإجــتماعية المعاصــرة. **فإعطــاء الأولويــة للرموز الثقافية في دراسة الفرد ومجــتمعه وتفاعــلهما يــرجع إلى تلك العلوم إنسانيتها بعد أن فقدت الكثير منها عــندما درســت الإنســان كحيــوان أو ككائن لا يتأثر سلوكه إلا بالحقائق والبنى الاجتماعية المادية القاهرة .**

سابعا:حالات تطبيقية لمفهومنا للرموز الثقافية :

ولــتعميق المدلولات الجديدة لعالم الرموز الثقافية ، كما بينا بعض ملامحها ، نود اســتعمالها في تحليل عدد محدود من الحالات الميدانية . فمقولتنا حول طبيعة عالم الرموز الثقافية ، كما حاولنا إبرازها ، تنتمي إلى ما يسمى **بالبحث الأساسي** . أي أنها تطرح تساؤلات وتقوم بملاحظات حول **كنه وطبيعة عالم الرموز الثقافية** عند

---

44 Roszak,T., The Cult of Information, New York, Pantheon Books,1986

45 Dhaouadi,M., The Cultural Symbolic Soul: An Islamically Inspired Research Concept for the Behavioral and Social Sciences,The American Journal of Islamic Social Sciences, vol.9 n2,1992, pp.153-172

46 أي بمعنى مصطلحي الصغير micro والكبير macro في العلوم الاجتماعية الحديثة.

الإنســان. إنها قراءة إيبستيمولوجية لأهم ما يميّز الإنسان عن غيره من كائنات هذا العالم. ولإثراء ما توصلنا إليه على مستوى المفاهيم و الأطر الفكرية النظرية حول عالم الرموز الثقافية نحتاج بالتأكيد إلى النزول إلى ميدان الحياة الاجتماعية واختبار مــدى مصــداقية مــا هدانا إليه بحثنا الأساسي حول عالم الرموز الثقافية في فهم وتفســير الســلوكات الفردية والجماعية . ونقتصر هنا على التطرق بالتحليل **لثلاث قضــايا** وهـــي : معـــنى الوحـــدة الـــثقافية للأمة العربية، وظاهرة ما يسمى بكندا بالعزلتين، والإمبريالية الثقافية المعاصرة.

1/ الوطن العربي كنتيجة لعالم الرموز الثقافية:

إن الــتأريخ لمــا يطــلق عليه اليوم اسم العالم العربي أو **الوطن العربي** أو الأمة العــربية لا يمكــن إلا أن يرجع إلى الدور الحاسم الذي لعبته الرموز الثقافية التي جعــلت مــنطقة ما بين الخليج العربي والمحيط الأطلسي منطقة يغلب عليها التشابه والــتجانس والــتوحد على مستويات اللغة والعقيدة والفكر والتقاليد والقيم والمعايير الــثقافية ...وقــد جاء انتشار هذه الرموز في هذه المنطقة مع ما يسمى في التاريخ **بالفــتوحات العــربية الإسلامية: أ)** فقد عمل الفاتحون العرب المسلمون في المقام الأول عــلى نشــر العقيــدة الجديــدة ، أي **الرموز الدينية الإسلامية** ، في البلاد المفــتوحة، و (ب) عمــلوا في مرحلة لاحقة على **تعليم اللغة العربية** لأهل بعض الــبلاد التي تمّ فتحها . الأمر الذي أدّى في نهاية الأمر إلى تعريب ثقافتها عموما. فكــانت الحصيلة تبلور ظاهرة فضاء ثقافي متجانس إلى حدّ كبير من المحيط إلى الخــليج . فــالوحدة الــثقافية بمفهومهــا الشامل أصبحت واقعا مجسّما بين مجتمع الجزيــرة العــربية من حيث انطلقت الدعوة الإسلامية على أيدي العرب المسلمين الفــاتحين وبين بقية الأقطار التي اعتنق معظم سكانها الإسلام وأصبحت لغة الضاد عــندهم لغـــة التعامل اليومي ولغة الثقافة . فتجذر الرموز الدينية الإسلامية ورموز الــلغة العــربية وثقافتها في الشخصية القاعدية[47] لإنسان ما بين الخليج والمحيط هو الشرط الأساسي لإمكانية تحقيق عملية **الانصهار الثقافي** الكامل أو شبه الكامل بين المجــتمع العربي الإسلامي الأم بالجزيرة العربية، من ناحية، والمجتمعات الأخرى المحيطة به أو البعيدة عنه، من ناحية أخرى، والتي أسلمت وعرّب لسانها وثقافتها[48] إن الــرباط الــثقافي المــتجانس بمعناه الشامل بين الشعوب الشرق الأوسطية منذ إســلامها وتعرُّب لسانها وثقافتها وفكرها **أعطى لتواصلها روحيا وثقافيا شيئا من الخــلود والأبدية.** فقد تصارع الحكام العرب لأسباب سياسية و اقتصادية وحدودية فـــي الماضـــي والحاضـــر. ومما لا ريب فيه انهم سوف يتصارعون في المستقبل القــريب والــبعيد. فكانت المجابهة حول مسألة الخلافة بين علي ومعاوية بُعَيد وفاة

---

[47] يسن السيد: الشخصية العربية، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر1983 ود. عبد الرحمان عائشة (بنت الشاطئ): الشخصية الإسلامية، بيروت، دار العلم للملايين1986،انظر آخر الفصل السابق لتحليل أوفى في الموضوع.

[48] Gardet, L., Les Hommes de L Islam, Paris, Editions Complexe,1980

النـــبي. وتلتها المصادمة في الصدر الأول للإسلام بين الأمويين والعباسيين. وساد الصراع والتوتر بين أُمويي الأندلس من جهة وعبّاسي بقية الإمبراطورية الإسلامية من جهة ثانية. وكم مرة أُغلقت الحدود بين الدول العربية في العصر الحديث بسبب الإســتعمار أو لخلافات طالما كانت سياسية بين الحكام. وقد وصل الأمر في بعض الأحيـــان الأخـــرى إلى أســـوأ مـــن ذلك.فتصادمت الجيوش العربية فوق الأرض العـــربية. إن غزو العراق للكويت في أغسطس1990 وما تلاه من مجابهة عسكرية بين العراق والحلفاء، بما فيهم العرب، يُعد أكثر الأحداث مأساوية بين أنظمة الحكم العربية في العصر الحديث.

ورغم كل ذلك **فإن لروابط الرموز الثقافية منطقها ا لخاص**. فهي لا تعبأ كثيرا بمثل تلك الأحداث العارضة بين بني البشر. إنها ذات قدرة شبه ميتافيزيقية في تجاوز تلك الأحداث مهما كانت طبيعة مأساويتها. فالروابط الثقافية العربية الإسلامية المتجانسة (الرموز الدينية الإسلامية والرموز اللغوية والثقافية العربية) مكنت العرب المسلمين من التواصل والتضامن شعورا وممارسة منذ أكثر من أربعة عشر قرنا. إن وشائج الرموز الثقافية الرابطة بين الشعوب تتمتع هي الأخرى بما سميناه في الصفحات السابقة باللمسات الميتافيزيقية. ومن ثمّ فهي أكثر ترشحا من غيرها لضمان استمرارية اللحمة بين المجموعات البشرية بحيث أن غوائل الدهر لا تكاد تؤثر في خفقان نبضات روحها . **إن الروابط الثقافية بين الأفراد والجماعات والمجتمعات تطبع حبل التواصل والتضامن بينها بطابع الأزلية الذي لا تعرفه الأحلاف العسكرية ولا التجمعات الإقتصادية بين الأمم والشعوب.**

2- الرموز الثقافية والعلاقات المتوترة بين كندا وكيباك

يتكون المجتمع الكندي من عشر مقاطعات وتُعدّ مقاطعة كيباك المقاطعة الوحيدة في الفيدرالية الكندية التي تستعمل فيها أغلبية سكانها اللغة الفرنسية[49] بينما تستعمل المقاطعات التسع الأخرى اللغة الإنجليزية كلغة رئيسية لمعظم سكانها. إن تاريخ الفيدرالية الكندية يشهد طوال أكثر من قرن على أن عملية دمج كيباك في المجتمع الكندي الكبير، كبقية المقاطعات الأخرى، ليست بالأمر الهيّن. **ومنذ الستينات من هذا القرن الماضي ازدادت رغبة السلطة السياسية والشبيهة في المناداة بالانفصال عن كندا الإنجليزية أو الحصول على نوع من الحكم الذاتي على الأقل[50]. فكانت حصيلة ذلك ازدياد التوترات والصراعات داخل الفيدرالية الكندية.** إن العدد الهائل من اللقاءات الدستورية التي نظمتها الحكومة الفيدرالية مع حكومات المقاطعات العشر لم تفلح إلى حدّ الآن في إدماج كيباك كمجتمع متميز Society Distinct في المجتمع الكندي الكبير. فمفهوم الخصوصية الذي تسعى مقاطعة كيباك إلى تقنينه في الدستور الكندي الفيدرالي يرجع أساسا إلى **الخصوصيات الثقافية التي**

---

[49] انظر الفصل الثاني من الباب الثالث.

[50] المصدر نفسه.

تُميّزها عن غيرها من المقاطعات الكندية الأخرى. فكما أشرنا، فإن أغلبية سكان كيباك يتكلمون الفرنسية وينتسبون عموما إلى ثقافة فرنسية. ففي الفضاء الشمال الأمريكي الواسع حيث تُهيمن اللغة الإنجليزية وثقافتها تَظل **كيباك** وترى نفسها كذلك أنها **ذات هوية فرنكوفونية**. فالمناداة باستقلالية كيباك لم تعُد إيديولجية تقتصر على الحزب الإنفصالي الكيباكي Le Parti Quebecois . بل إن الدعوة للانفصال عن كندا الإنجليزية أصبحت موضوعا للنقاش حتى عند الحزب الليبرالي الذي كان يحكم بمقاطعة الكيباك، وذلك رغم توجهه وتحالفه مع التيار السياسي الفيدرالي. فما يسمى بتقرير لجنة Bélanger-Campeau قد أصدر توصية في مارس 1992 إلى رئيس الوزراء الكيباكي روبار بورسا Robert Bourassa طالبا منه تنظيم استفتاء حول استقلال كيباك في موعد لا يتجاوز 26أكتوبر 1992. ويبدو أن الشروط لصالح استقلال كيباك لا تزال متوفرة وذلك بعد حرب كلامية بين الطرفين دامت حوالي أربعين سنة.

إن التوتر والأزمة اللذين عرفتهما وتعرفهما علاقات كيباك بكندا تعود في المقام الأول، كما ذكرنا، **إلى الفروق والإختلافات اللغوية والثقافية**. فالمجتمع الكندي الكبير يتكوّن من **هُويتين ثقافتين منعزلتين**، حسب ما جاء في تشخيص عالم الإجتماع الكندي الإنجليزي John Porter "إن كندا تنقسم إلى كتلتين لغويتين وثقافيتين رئيسيتين تحافظان على درجة كبيرة من الانعزال عن بعضها البعض"[51]. فوسائل الإعلام الكندية المكتوبة تحفل بالمقالات التي تُثبت بأن المجموعتين الكيباكية الفرنسية والإنجليزية الكنديتين المقيمتين بمدينة منريال تشكّوان مما أصبح يسمى بعرض العزلتين: The Syndrome of the Two Solitudes.فأغلبيةهاتين المجموعتين لا تقرأ نفس الصحف ولا نفس المجلات ولا يستمع معظم هاتين الفئتين إلى نفس المحطات الإذاعية ولا يشاهد جلهم نفس المحطات التلفزية. إن مظاهر انعزال المجموعتين لا تنتهي عند هذا الحدّ. فالبحوث الإجتماعية تدل أن رجال الأعمال من الجانبين لا يقصدون نفس المطاعم بالمدينة للغداء أو العشاء. **فكأن المجموعتين تنتميان إلى قطبي مرجعيتين مختلفتين وإلى خرطتين معرفيتين** (ذهنيتين). وبتعبير مصطلحنا **فإنه ليس لهما نفس الروح الثقافية الرموزية**. ومن ثمّ فظاهرة العزلتين في المجتمع الكندي هي ظاهرة حتمية. فهي واقع إجتماعي لا يقتصر على مدينة منريال فقط . إن حقيقة الانعزال بين المجموعتين متواجدة على طول وعرض المجتمع الكندي الكبير وعلى مستويات مختلفة. فعالـــم الاجتماع الكيباكي المعروف Guy Rocher يتحدث عن **ظاهرة العزلتين بين علماء الإجتماع الكنديين**:"إن مؤتمرات الجمعية الكندية لعلميّ الإجتماع والأنتروبولوجيا تُقدم نفس المشهد للحضور المتحفظ لعلماء الإجتماع الفرنكوفونيين. وحتى نكون أكثر دقة ، فإنها تقدم

---

51 Porter , J., Canadien Character in the Twentieth Century, in The Annals March 1967, p.49 and in la nation pour inclure ou exclure, Le Monde29-3-1991

غيابا مشهودا لهم. فمن قراءة برامج المؤتمرات يخلص المرء إلى أن علم الإجتماع الكيباكي يعرف تراجعا منذ عام1965، والحال أنه يشهد نموا كاملا. وفي الواقع فإن الحضور الهزيل لعلماء الإجتماع الكيباكيين في مثل هذه المؤتمرات هو مؤشر لقطيعة رهيبة. **فالهوة قد ازدادت اتساعا بين علماء الإجتماع الفرنسيين بكندا، خاصة الكيباكيين منهم، وعلماء الإجتماع الكنديين الإنجليزيين**. فقد علا جدار من الصمت بيننا. ويبدو أنه أقوى وأطول عمرا من حائط برلين. **فلم يحدث الإنفصال السياسي ولكن حصل مكانه فصل عملي بيننا، أي نفور وتباعد بين الطرفين. وحدث كل ذلك بدون استفتاء !**[52]"

إن ملاحظات الأستاذ Rocher وغيره من الباحثين حول ظاهرة العزلتين تعتبر ملاحظات ميدانية.أي أنها ذات طبيعة إمبريقية. فهي لا تعدو أن تكون ملاحظات وصفية مثلها مثل مفهومي الهوة الثقافية Cultural Lag والإنعزالية Exclusiveness لكل من عالِمي الإجتماع Ogburn وPorter على التوالي . فكل من هذين المفهومين يقتصر على وصف ظاهرته دون أن يُدلي بشيء جدير بالذكر بخصوص أسباب وجودهما. **فبالتعبير السوسيولوجي تُعتبر ظاهرة العزلتين بالمجتمع الكندي وخاصة بمقاطعة كيباك حقيقة إجتماعية** un fait social لكل من Porter وRocher. ولكن لم يحاول أيّ منهما تفسير الأسباب العميقة الكامنة وراء ظاهرة العزلتين بالمجتمع الكندي. فروشيه يغلب عليه الإستغراب والغضب بسبب استمرار القطيعة المزعجة التي تسود علاقات علماء الإجتماع الكيباكيين مع نظرائهم الكنديين الإنجليزيين.فبالنسبة لروشيه، فإن تفسير استمرار ظاهرة العزلتين يتحدى منطق طبيعة الأشياء كما يقول ابن خلدون"فقد علا جدار من الصمت بيننا ويبدو أنه أقوى وأطول عمرا من حائط برلين".[53]

نحن نرى أن استعمال مفهومنا للروح الثقافية الرموزية يسمح للباحث الإجتماعي بأن يتجاوز المرحلة الوصفية لظاهرة العزلتين بالمجتمع الكندي. إذ أننا أكدنا أن الرموز الثقافية تمثل أكثر العناصر مركزية وعمقا في تكوين هوية الأفراد والجماعات. وبعبارة أخرى، **فإن الرموز الثقافية تمثل العامل الأكثر حسما بالنسبة لتكوين الهوية الجماعية للمجموعات والشعوب**. ومن ثمّ فليس بالغريب أن تبرز **وتتجسد روحان ثقافيتان رموزيتان** في مجتمع تسود فيه لغتان وثقافتان رئيسيتان مثل المجتمع الكندي. فالكنديون الإنجليزيون والفرنسيون قد يقيمون بنفس المقاطعة ويسكنون في نفس الجيرة ونفس العمارة... ومع ذلك يظلون يشكون من عرض العزلتين فيما بينهم. فيجدون صعوبة في التخاطب والتفاهم والتعاطف... وبتعبيرنا الخاص، فنحن نشهد هنا **حالة قطيعة بين روحين ثقافيتين رموزيتين**. إن ظاهرة العزلتين بالمجتمع الكندي تؤكد مسلمات وفروض ومقولة المدرسة السوسيولوجية

---

[52] محاضرة Rocher, G.. : les deux solitudes chez les sociologues canadiens ألقيت في الذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس الجمعية الكندية لعلمي الاجتماع والانثروبولوجيا بجامعة فيكتوريابمقاطعة British Colombia بكندابتاريخ 27-5-1990

[53] المصدر السابق

للتفاعل الرمزيSymbolic[54] Interactions . وهكذا تتضح الأهمية الكبرى لدور الرموز الثقافية على المستوين الفردي(micro) والجماعي(macro) في تكوين وإرساء أسس الهوية الفردية والجماعية. فتأثير الرموز الثقافية على سلوك الأفراد والجماعات ذو طبيعة **شبه ميتافيزيقية**. فمن جهة، يبدو وكأن هذا التأثير يتم بطريقة سرية، من نوع ما يسمى **بتأثير اليد الخفية** " فلم يحدث الانفصال السياسي،ولكن حصل مكانه فصل عملي بيننا، أي نفور وتباعد بين الطرفين.وحدث ذلك بدون استفتاء!"[55] ومن جهة ثانية، فإن الثقل والتأثير اللذين تمارسهما الرموز الثقافية على السلوكات البشرية يتسمان بضخامة هائلة بحيث تصعب مقاومتهما. فقوتهما هي إلى حد كبير مشابهة للقوى الماورائية.

إن الإستنفار ومن ثمّ ظاهرة العزلتين بين الكنديين الانجليزيين والفرنسيين، من ناحية، وانتشار الشعور بالتضامن الثقافي بين العرب من المحيط إلى الخليج من ناحية ثانية ترجع إلى حد كبير إلى ما تسميه العلوم الإجتماعية والسلوكية الحديثة بمتغير عالم **الرموز الثقافية**. فاشتراك الأفراد والمجتمعات والشعوب في الرموز الثقافية الأساسية بصورة شاملة يخلق بينهما **درجة عالية من التضامن الثقافي ومن التعاطف والتقارب الروحيين**. فالمواطن العربي المسلم على الخصوص أينما كان محل سكناه على خريطة الوطن العربي، وبغض النظر عن اختلافات حكام بلده سياسيا مع هذا النظام أو ذاك، لا يستطيع إلا أن يتعاطف مع الإنسان العربي المسلم عبر رموز الحضارة العربية الإسلامية المشتركة. فتجويد القرآن الكريم بصوت عبد الباسط عبد الصمد أو ترتيله بصوت علي الجابري أو الشيخين عبد الرحمان السديس وسعيد الشريم يلقى خشوع وتهليلا في مشرق و مغرب الوطن العربي. وصداح أم كلثوم بالفصحى أو بالعامية المصرية يكاد يكون أهم العوامل الحية والديمقراطية الموحدة للأجيال العربية المعاصرة. ومَن من العرب المتعلمين يستطيع أن يتبنى موقف اللامبالاة عندما يسمع البيت الشعري المشهور والمردد عربيا للشاعر التونسي أبي القاسم الشابي:

إذا الشعب يوما أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر

فوحدة الأمة العربية على مستوى الرموز الثقافية وحدة قائمة على قدم وساق منذ القدم.وهي حصيلة لما سميناه بالروح الرموزية الثقافية التي تشترك فيها الأقطار العربية منذ اعتناقها الإسلام وتعرب لسانها وثقافتها كما بينا.

أما الشعور الكندي الإنجليزي بالغربة أو العزلة إزاء الكندي الفرنسي فهو يعود أساسا إلى غياب الرموز الثقافية الأساسية المشتركة بينهما. فديانة معظم سكان مقاطعة كيباك هي الكاثوليكية بينما تسود الديانة البروتستينية بقية المقاطعات الأخرى. وكما رأينا فإن المجتمع الكندي هو مجتمع مزدوج التركيبة اللغوية

---

[54] Manis, J.G., and al(eds) Symbolic Interaction, Boston, Allyn and Bacon, 1968.

[55] Rocher المصدر السابق

والثقافية. و بعبارة أخرى، فالكنديون لا يشتركون، مثل المواطنين العرب، في روح ثقافية رموزية واحدة. وكم يسمع المرء حديث الكنديين من الطرفين يتهم كل منهما الآخر بأنه "الأجنبي" أو الغريب! والرموز الثقافية، كما أسلفنا، لا تخلو من انعكاسات ميتافيزيقية بخصوص ظاهرتي العزلتين بالمجتمع الكندي والتضامن الثقافي بين أقطار الوطن العربي.فمعضلة العزلتين ذات تاريخ طويل في الفيدارلية الكندية. وهي اليوم تهدد بانهيار النظام الفيدرالي الكندي نفسه . وفي المقابل فإن التضامن الثقافي العربي هو الرصيد الأقوى اليوم الذي يمثل الحجر الأساس في رأب الصدع في المنطقة العربية بعد حرب الخليج. وفي كلتا الحالتين فتأثير الرموز الثقافية سلبا أو إيجابا في علاقات الفئات البشرية **تأثير يتسم بطول العمر والنفس وربما الأزلية**. فهناك من يرى أن مشكلة كيباك ستظل قائمة في المجتمع الكندي مهما كانت طبيعة الحلول التي يتوصل إليها داخل النظام الفيدرالي. فجذور القضية هي في المقام الأول ذات علاقة وطيدة بالرموز الثقافية، ومن ثمّ **فعلاقة كيباك-كندا المتوترة لا يمكن إلا أن تكون طويلة العمر**. وفي المقابل فإن تجسم هوية عربية إسلامية لشعوب ما بين الخليج والمحيط منذ قرون عديدة شاهد آخر على أن آثار الرموز الثقافية على سلوك البشر تتسم بطول العمر إن لم نقل الخلود والأزلية.

ولعل هذا يفسر بطء تغيير العناصر الثقافية في عملية التغيير الإجتماعي التي تحدث عنها عالم الإجتماع الأمريكي وليام أجبرن[56]. فاتصاف الرموز الثقافية بالقدرة على البقاء الأطول يعني ضمنيا تحليها بالصمود والمقاومة في وجه عوامل التغيير أكثر من غيرها من العناصر المادية.

3- التبعية الثقافية أخطر التبعيات جميعا

إن التحــليل والفهــم العــلميين لأخطار ظاهرة الغزو الثقافي يتطلبان طرحا يحدد ويحصــر بأكــثر مــا يمكن من الدقة الأسس الرئيسية لهذه الظاهرة. إن استعمالنا لعــبارة عــالم الــرموز الــثقافية في الصفحات السابقة يندرج في محاولتنا تجاوز المســتوى الفلســفي/ الإيديولوجي إلى مستوى أكثر علمية في عملية التطرق لفهم وتحليل عالم الرموز الثقافية عند الإنسان. فظاهرة تعالي الأصوات وازدياد حملات الانتقاد ضد ما يسمى بـــ"الإمبرالية الثقافية الأمريكية"من طرف المجتمعات المتقدمة والــنامية عــلى حــد سواء[57] ينبغي أن تُفهم في إطار علمي ذي مصداقية، لا من مــنظور ديماغوجي ضيق الأفق. فشكوى تلك الدول من "الهجمة الثقافية الأمريكية"

---

56 Ogburn W.F. On Culture and Social change by O.D.Durcan (ed) University of Chicago Press1964,pp.86-95

57 إن قرار مدير معهد باستور في باريس لنشر المقالات العلمية بالانجليزية في مجلتهAnnales تعدّ آخر حادثة هامة على تسرب غزو لغة شكسبير للمجتمع الفرنسي. انظر المقابلة مع مدير هذا المعهد في جريدة Le Monde 1989-4-14 ثم انظر et
L influence culturelle americaine en France,Le Monde: Dossiers documents Mai 1981.

شـــكوى مشـــروعة إذا مـــا نظرنا إليها من وجهة نظر مقولتنا التي نتبناها في هذا الكـــتاب بالنســـبة لطبيعة الرموز الثقافية الإنسانية. إن نشر رموز ثقافية أجنبية في المجـــتمعات الإنســـانية تعني، كما بيّنا، أن تأثيراتها في تلك المجتمعات سوف **تدوم طويـــلا** إذا ما تمّ تجذرها في تربة تلك المجتمعات وبالتالي **يكون التخلص منها** في فترة لاحقة **عملية صعبة**. فالأدلة تفيد أن نشر اللغة والقيم الثقافية والعقائد الدينية... فـــي مجـــتمعات وحضـــارات أخرى يعتبر أهم تخطيط مُحكم يمكن أن يقوم به أي مجـــتمع من المجتمعات لتأمين إقامة علاقات دائمة مع الأمم الأخرى.وبالتأكيد فإن عامل الثقافة يتفوق في هذا الصدد على العوامل العسكرية والجغرافية والإقتصادية. ويـــتفق الباحـــثون المعاصرون على أن **الإستعمار الفرنسي أعطى أهمية أكبر من الإســـتعمار الإنجـــليزي بالنســـبة للإســـتعمار الثقافي**[58]. ومن ثمّ يمكن القول أن مجـــتمعات المغـــرب العـــربي الـــثلاثة: الجزائر وتونس والمغرب تشكو **أكثر** من نظيـــراتها بالمشـــرق العـــربي مـــن أعراض التبعية الثقافية للمجتمع الفرنسي منذ اســـتقلالها[59]. فبتعبيرنا الخاص فإن التبعية الثقافية للآخر تعني تبعية الروح الثقافية الـــرموزية للفرد والجماعة لهذا الآخر الذي قد يكون هو العدو. وتمثل تبعية الروح الـــثقافية الـــرموزية للآخر المَسَّ بأهم عناصر تكوين هوية الفرد والمجموعة، كما أوضحنا ذلك. ومن هذه الخلفية تتجلى مصداقية القول "**بأن الغزو الثقافات للشعوب أخطـــر مـــن غزو العساكر لها**" وتتضح بالتالي المخاطر الرهيبة التي تنطوي عليها تجربة التبعية الثقافية لكل من الفرد والمجتمع.

وهكـــذا، **فأخطـــار عولمـــة الإمبريالية الثقافية المعاصرة** سواء كانت أمريكية أو إنجـــليزية أو فرنســـية، **ليســـت بالخطـــاب الإيديولوجـــي** الذي تسعى للترويج إليه المجـــتمعات الـــنامية. فالانتشـــار الواسع لاستعمال اللغة الإنجليزية (الأمريكية) أو الفرنســـية فـــي مجتمعات إفريقيا وآسيا بدل استعمال اللغات الوطنية والمحلية لهذه الشـــعوب لا يمثل فقط تفقيرا لتلك اللغات واللهجات... وإنما ينطوي أيضا على أن الجهاد من أجل الفوز بالاستقلال اللغوي والثقافي لن يكون أمرا هيّنا.وذلك يعني في نهايـــة الأمر **أن عمر التبعية الثقافية**، متى تجذرت الرموز الثقافية للآخر بالمجتمع التابع، **ليس بقصير**.

إن الإمبريالية الثقافية، مهما كان أجلها، **تكون ذات عواقب سلبية عندما تساهم في عملية تفكيك أسس الأنساق الثقافية الرموزية لمجتمعات العالم الثالث**.فالمجتمع في العـــالم الـــثالث الذي يشكو من الاغتراب والتفكك[60] والضياع على المستوى الثقافي،

---

58 Calvet, I., J., Linguistique et colonialisme, Paris, Payot, 1977pp.84-85 et Eude, Y., La conquête des esprits, Paris Maspéro,1982.

59 Ruf., W.K.,dependance et alienation culturelle in Independance et Interdependance au Maghreb,Paris, CNRS,1974 pp.233-79.

60 Kisber,G., The Disorganized Personality, London, Mac- Graw Hill,1982

الوطـــني/ المحـــلي لا يمكـــن أن يكـــون إلا مجتمعا **قد أصيب في العمق في أهم المكونات الأساسية والحميمة لهويته.**

ثامنا: نحو علم إجتماع الرموز الثقافية

إن الإطـــار الـــذي طرحنا ضمنه الرموز الثقافية بالتحليل والنقاش يُفصح بوضوح عـــن الصـــعوبة الـــتي لا بـــد أن يواجهها علماء الاجتماع الموضعيون بخصوص تصـــورهم وفهمهـــم للـــتأثيرات الواسعة التي تمارسها الرموز الثقافية على حركية ســـلوكات الأفـــراد والمجموعـــات البشرية. فعلم الاجتماع الحديث قد تبنى عموما موقـــف الـــرفض مـــن فكـــرة اســـتعمال ما يمكن أن نطلق عليه بالمنهجية الذاتية SubjectiveMethodology . فهـــذه الأخيـــرة تســـمح لعالم الإجتماع **بالاقتراب أكثر** من الجـــانب الإنساني لصاحب السلوك والابتعاد نوعا ما عن البُنى الإجتماعية المحيطة بـــه.إن مجهودنـــا المتواضع في هذا الفصل والمتمحور على استعمال مفهوم الروح الـــثقافية الـــرموزية قـــد برهن بما فيه الكفاية على **أن الوقت قد حان بالنسبة لعلم الإجـــتماع لكـــي يُدمـــج ويتبـــنى بالكامل في منظوراته التحليلية الجوانب الذاتية والميـــتافيزيقية لـــلرموز الثقافية** في أي دراسة تسعى إلى كسب رهان المصداقية بخصـــوص فهـــم وتفســـير كل من سلوك الفرد والجماعة. فدراسة علماء الإجتماع والأنثروبولوجيا للرموز الثقافية تظل دائما قاصرة بدون فهم **واستيعاب داخلي لها.** فالحاجـــة بحـــق ماســـة إلى ابـــتكار وإرساء أسس نوع من **علم الاجتماع الفهمي** Verstehen Sociologie يكـــون كفـــؤا للـــتعامل مـــع المستويات المعقدة التي تحفل بها **الرموز الثقافية الإنسانية.**

الباب الثاني

التخلف الآخر بالوطن العربي والعالم الثالث

الفصل الأول

التخلف الثقافي النفسي كمفهوم بحث في مجتمعات الوطن العربي والعالم الثالث

أولا : ملاحظات في احتكاك الشعوب

إن محـــور هـــذا الفصـــل هو محاولة جديدة تكميلية لفهم ما أطلقنا عليه **بالتخلف الآخـــر** في الفصل الأول للباب الثاني من هذا الكتاب. واهتمامنا هنا يتركز بالتحديد على : 1/ توضيح مدى مصداقية هذا المفهوم ، من حيث وصفه خاصة لواقع ثقافي ونفســـي و 2/ صلاحية استعماله كأداة في البحوث الاجتماعية في كل من مجتمعات الوطـــن العـــربي والعالم الثالث . فالتخلف الآخر هو حصيلة الاحتكاك الحضاري الواســـع الذي بدأ بين الغرب وهذه المجتمعات منذ أن قامت الدول الغربية بحملتها الإســـتعمارية الكاســـحة في القرون الماضية في كل القارات الثلاث: آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية.

فعلى مستوى أول نرى أن **تفاعل الأمم**[61] بعضها مع بعض يؤدي في غالب الأحيان إلى **ظاهـــرة الـــتأثير والـــتأثر** بينها.وليس من الضروري أن يكون التأثير والتأثر شـــاملين لكل ملامح وعناصر الثقافات[62] المتفاعلة ، ولا متأثرين ومؤثرين بالدرجة نفسها لكل جوانب هذه الحضارات . فقد تنتشر مثلا ثقافة معينة انتشارا ملموسا بين أهـــل حضـــارة ثانيـــة بسبب الاحتكاك الحاصل بينهما، دون أن يتأثر فيهما الجانب الديـــني كلية أو بالدرجة نفسها. وقد يتأثر الجانب الديني لمجتمع ما أكثر من نظيره الـــلغوي أثـــناء عمـــلية تفاعلـــه مع ثقافة مجتمع آخر. فمجتمعات المغرب العربي المعاصـــرة، مثلا، انتشرت فيها اللغة الفرنسية بدرجة كبيرة، بينما ظل انتشار الدين المسيحي عاجزا عن أي كسب يذكر بين فئات هذه المجتمعات. أما تفاعل الحضارة العـــربية الإســـلامية مـــع الثقافتين الفارسية والهندية فقد كان نجاحه أكبر في نشر العقـــائد الإســـلامية مـــنه في نشر اللغة العربية في كل من إيران وما يسمى اليوم بباكســـتان. وقد أطلق بعض الباحثين الاجتماعيين مصطلح "الوقاية المختارة"[63]على هذا النمط من التفاعل بين الثقافات.

---

[61] انظر : Devos.A.G، Responses to Change:Society, Culture and Personality، New York: Van .D Nostrand Compagny ، 1976 p 4 ويكاد هذا الكتاب أن يكون الوحيد من نوعه الذي ساعد على التعمق في معطيات "التخلف الآخر" بطريقة غير مباشرة.

[62] نستعمل كلمة الثقافة Culture في معناها الأنثروبولوجي العام لتيلر E.Taylor وهو مرادف عنده لمصطلح حضارة Civilisation ونحن نستعملها كمردفين.

[63] Devos. Ibid. p.350

وعلى مستوى ثان فإنه من الملاحظ أن عملية نشر الثقافة (Acculturation) نادرا[64] ما تكـــون عملية متبادلة بالتساوي بين الحضارتين أو المجموعتين المحتكتين. إذ يبدو أن الطـــرف الـــذي هو في موقع الدونية أو الهامشية ، بمعناها العام، هو الذي يميل إلى تقـــبل، أو الســـماح بتســـرب العناصر الثقافية من طرف الآخر المهيمن وليس العكـــس. أمـــا إذا كـــان الجانـــبان شبه متساويين فإن الدراسات يدل على أن تبادل العناصر الثقافية بينهما أمر غير وارد على العموم[65].

وعـــلى مستوى ثالث فإن علمي الأنثروبولوجيا و الإجتماع المعاصرين، خصوصا، قـــد أطنبا في دراسة ظاهرة انتشار الثقافات بين المجموعات الإنسانية أثناء تفاعلها. وقد ركزت هذه العلوم أساسا على الاهتمام بالسلوك الإجتماعي الظاهر (الخارجي) والـــناتج عـــن عملية الاحتكاك بين الشعوب. فمزج اللغة الوافدة (الدخيلة) مع اللغة الأم (حديـــثا أو كـــتابة أو كلاهما معا) سلوك لغوي إجتماعي بيّن سجلته ملاحظات هـــؤلاء العـــلماء في كثير من المجتمعات التي تأثرت بعملية التفاعل مع المجتمعات المختلفة، اليوم، مثل أنماط الملبس والمأكل، والأجهزة التكنولوجية الحديثة...الخ.

فـــتقمص المجـــتمعات المـــتأثرة لهـــذه العناصر الجديدة يعتبر من الوجهة الوصفية الموضوعية العلمية **ردا تكيّفيا**[66] للجماعة المتفاعلة مع التأثيرات الوافدة.

وعـــلى مستوى رابع فإن صورة التأثيرات والتأثرات التي تتعرض لها المجموعات الإنسانية أثناء عملية الاحتكاك الحضاري لا يمكن أن تكتمل، في رأينا، دون **دراسة الجـــانب الآخـــر الخفي** لها: أي دراسة تجربة الشخص النفسية المتمثلة في تكيُّفه[67] عـــلى مستوى بنية شخصيته مع التأثيرات الثقافية الصادرة والواردة. ومن ثَمَّ فهناك مستويان لدراسة التلاقح بين الحضارات البشرية. هناك، من جهة، التأثيرات الثقافية بالمعـــنى العام الذي تعطيه العلوم الإجتماعية لمفهوم ثقافة المجتمعات. وتشمل هذه كل الإقتباسات الثقافية الموضوعية التي يمكن انتشارها أو تبادلها بين الأمم. وهناك من جهة ثانية، آثار هذه التأثرات والتأثيرات على المستوى النفسي (شخصية الفرد) للأطـــراف المعنية[68] في عملية التفاعل. **فدراسة كل من الجانب الثقافي (الخارجي) والنفســـي (الداخلي) هي إذن حاجة يفرضها واقع الاحتكاك بين الشعوب**، وبالتالي الـــروح العلمية لكل مهتم بقضايا تفاعل الحضارات الإنسانية. ومن هذه الخلفية تأتي شـــرعية طـــرح مفهوم التخلف الآخر كمركب نفسي و ثقافي[69] يتمحور بحثنا حوله.

---

[64] .المصدر نفسه

[65] المصدر نفسه

[66] المصدر نفسه

[67] المصدر نفسه

[68] فانتشار، مثلا، ثقافة المجتمع الغالب في المجتمع المغلوب لا بد أن تكون لها تأثيرات (وهي سلبية على العموم من حيث تحقيرها لذات المغلوب) على شخصية الفرد المغلوب. ونشر هذه الثقافة لا بد أن يعطي شيئا من السمو النفساني لفرد المجتمع الناشر (الغالب).

[69] Devos, Ibid., p.2

فهـو بالتأكيد إحدى الظواهر التي أفرزها احتكاك المجتمعات الغربية بنظيراتها من العالم النامي في العصر الحديث.

ثانيا:مفهوم التخلف الآخر

إن ظاهـرة **التخلف** التي يلصقها مختصو التنمية المعاصرون وغيرهم بمجتمعات العـالم الثالث **هي ظاهرة متعددة الملامح** بدون شك. فهناك. من جهة، عناية بحثية، واهـتمام وطـني وعـالمي بملامـح التخـلف الإقتصادية والصحية والديمغرافية والاجتماعية والصناعية[70] بالمجتمعات النامية.

وهـناك، مـن جهـة أخـرى، **جهل وصمت محيران لجانب مهم آخر لتخلف هذه المجـتمعات نفسـها**. ولقـد أطلقنا على هذا النوع من التخلف المنسي اسم التخلف الآخـر[71]، ونقصـد به بالتحديد **تدهور (ضعف، تخلف) نمو عناصر التراث الثقافي (الجانب الثقافي)** للمجتمع السائر في طريق النمو، وما يقترن بذلك عادة من تدهور نفسـاني (الجـانب النفسـي). وتتمـثل أيضا بعض أعراضه، أساسا، في **الشعور بمركبات النقص وضعف الثقة بالنفس**[72] بين أفراد وفئات هذا المجتمع خاصة إزاء الطـرف الغالب والغازي لهم. فتدهور استعمال اللغة (اللغات) الوطنية في المجتمع النامي من ناحية، وفرض استعمال لغة ثانية(عادة لغة المستعمر بالمعنى التقليدي أو الجديد لمعنى الإستعمار) لهذا المجتمع، من ناحية ثانية، هما مثال لما نعنيه بالتخلف الـثقافي كجزء من مركب التخلف الآخر الذي تعيشه كثير من المجتمعات المتخلفة اليوم.

والتخـلف الـثقافي لا تقتصر ملامحه، بأي حال من الأحوال، على الملمح اللغوي للمجتمع فحسب. فطالما تصاب عناصر أخرى من التركيبة الثقافية للمجتمع بالوهن والضـعف والتشويه.قد تُضعِف قوتها قوة القيم الدينية التقليدية الذاتية تحت ضربات سـهام الثقافة الأجنبية الغازية[73] ويصبح كثير منها عبارة عن **شعائر ثقافية** لا أكثر ولا أقل،خاليـة مـن المحـتوى والمعـنى اللذين كانا لها قبل مجئ الثقافة الأجنبية بسـطوتها المنافسة والمكدرة (أي المخلفة) في النهاية، لنمو مختلف عناصر الثقافة المحـلية الأصـيلة نموا طبيعيا. ومن ملامح التخلف الثقافي في كثير من مجتمعات

---

[70] ، انظر مثلا الكتاب البيليوغرافي المهم للكثير ممن كتبوا عن التنمية والتخلف: : P.Jacquemot et al., Economie et sociologie guide bibliographique du Tiers-Monde (Paris-L Harmattan 1981)

[71] انظر الفصل الاول من الباب الثالث من هذا الكتاب

[72] قد تكون هذه العوارض النفسية حصيلة السطوة السياسية أو العسكرية أيضا.لكن يبدو أن تأثير السطوة اللغوية الثقافية أعمق وأخطر تأثيرا على الشخصية. انظر الفصل الرابع من الباب الثاني من هذا الكتاب.

[73] ، يتماشى هذا مع قانون الغالب والمغلوب عند ابن خلدون. وكذلك مع طبيعة العلاقة التي ربطت وتربط مجتمعات العالم الثالث بالمجتمعات الغربية الامبريالية المعاصرة

العـــالم الثالث، خاصة تلك التي ابتليت باستعمار ثقافي شرس[74] هو انتشار جهل كثير مـــن متعـــلمي هذه المجتمعات بتراثهم المعرفي، من ناحية، ومعرفتهم أحيانا معرفة حســـنة بالتراث الثقافي المعرفي للمستعمر، من ناحية ثانية. فمثقفو الثقافة الفرنسية في تونس والجزائر والمغرب إبان فترة الاحتلال خاصة كانوا على العموم من هذا الصـــنف من المتعلمين الذين كانت معرفتهم بلغة وثقافة[75] الحضارة الفرنسية أحسن مـــنها باللغة العربية والحضارة العربية والإسلامية التي ينتسبون إليها أساسا. وليس بالغـــريب في حالة هذه المجتمعات أن يكون الأمر كذلك. فالاحتكاك بين فرنسا، من جهة، والجزائر والمغرب من جهة ثانية، هو **تفاعل الغالب مع المغلوب**[76].

ثالثا : الإنسان حيوان ثقافي بالطبع

إن أهمية مفهوم **التخلف الآخر** في فهم الإنسان وإنجازاته التنموية أو فقدها ترجع فـــي اعـــتقادنا إلى أن **الإنســـان** ككائن ليس اجتماعيا بالطبع فقط ، وإنما هو أيضا **ثقافي بالطبع** كما أشرنا في الفصلين السابقين . فهو يستعمل عددا وافرا من الرموز الـــثقافية الـــتي تتصـــدرها الرموز اللغوية [77]من حيث الأهمية . **فبدون هذه الرموز الـــثقافية تصـــبح إجتماعية الإنسان** التي تحدث عنها كثير من الفلاسفة والمفكرين الإجتماعيين مثل ابن خلدون ، **محدودة المعنى**. فكيف يمكن للبشر أن يجتمعوا على مســـتويات متنوعة ومتشابكة دون وجود هذه الرموز الثقافية واستعمالها من طرف الأفـــراد والمجموعـــات البشرية؟ فهي في الواقع **الفاصل بين عالم الإنسان وعالم الحيوان**. فهذه الرموز الثقافية هي الأساس في تمييز الإنسان عن الحيوان في الذكاء والمعـــرفة كما أكدت ذلك البحوث العلمية الحديثة. فاللغويون وجدوا أن هناك علاقة وثيقـــة بيـــن اللغة والتفكير ،من ناحية، وبين اللغة والذكاء، من ناحية ثانية. وأثبت علماء الإجتماع والنفس أن عملية التنشئة [78] الإجتماعية تتأثر كثيرا بالرموز الثقافية الإنسانية. فاللغة والقيم والتقاليد الثقافية هي قاعدة تكوين ذاتيتنا الجماعية والفردية. **إن الصـــمت عـــن أهمية الجانب الرموزي الثقافي من الإنسان هو تجاهل لطبيعة الإنسان نفسها** . والعلوم التي تدرس الإنسان وقضاياه لا يمكن أن تكون علوما

74، وضعية المتعلمين في الوطن العربي تعليما تسطو فيه ملامح الثقافة الغربية(من لغة وآداب وعلوم) على الثقافة العربية الإسلامية (على هذه المستويات نفسها) عموما،هي مثال على ذلك

75 ، فمن الملاحظ مثلا حتى عهد قريب ان قسم الدراسات الاجتماعية بجامعة الملك سعود بالرياض لا يدرس طلابه من ناحية التفكير الاجتماعي العربي بما فيه تفكير ابن خلدون العملاق. بينما يجبر الطلاب أنفسهم من ناحية ثانية على دراسة التفكير الاجتماعي الغربي ومدارسه خاصة الامريكية منها.

76 ، انظر ملخص النظرية في النص والمشار اليها في المصدر السابق. Devos Responses to Change :Society.Culture and Personality

77 يعتبر عالم الانثروبولوجيا الامريكي C.Geertz أن اللغة هي أهم عنصر على الإطلاق في مركب الثقافة .انظر مراجعة كتابه :
Local Knowledge: Further Essay in Interpretive Anthropology The New York Review of Books , » vol 31 no.4 (15 March 1984) pp 39-46

78 Gardner,H Frames of Mind, NewYork, Basics Books,1983

إنســـانية بحــق عــند إغفالهــا أو التقليل من قيمة هذا الجانب المركزي في طبيعة الإنســـان ومالـــه من تأثير وارتباط بالتركيبة النفسية لشخصية الفرد والجماعة كما سوف نرى في بقية هذا الفصل وبقية فصول الكتاب.

رابعا: مفهوم التخلف الآخر ودراسة المغرب العربي

1/ اللغة وتأثيرها على الآخرين :

إن نشر لغة أجنبية في مجتمع ما لا يمكن أن يقتصر على اللغة في حدّ ذاتها فقط، وإنمـــا يقترن به في العادة بث القيم والتقاليد الثقافية لتلك اللغة[79]. وهذا ما وقع فعلا فـــي مجتمعات المغرب العربي التي تعرضت للإستعمار الفرنسي في القرن التاسع عشـــر والقـــرن العشـــرين. ويذهب البعض إلى أن مثل هذه التأثيرات قد تكون جد خطيـــرة **بالنسبة لشخصية**[80] الفرد "المغاربي"[81].فيمكن اعتبارها مصدرا مهما لبث **أعـــراض الصراع والانفصام والغربة في صلب تركيبة الشخصية نفسها**[82]. ومع ذلك فلا ينبغي من الناحية الواقعية تعميم هذه الملاحظات حرفيا على كل المجتمعات الـــتي تأثرت بدخول لغات وثقافات أجنبية إليها كما سوف يتضح في هذا القسم من الفصل.

لكـــن تجـــربة العصر الحديث في هذا المجال أثبتت أن عمق تأثر الأمم والشعوب ببعضـــها الـــبعض يساعد عليه كثيرا عامل اللغة[83]. فقوة تأثير الغرب الرأسمالي في كـــثير مـــن شـــعوب العالم اليوم شرقا وغربا لا بد من أن تعود في جانب منها إلى انتشـــار لغاته(خاصة الإنجليزية والفرنسية وثقافتهما) ذات الاستعمال العولمي. وفي هـــذا الصـــدد فإن تأثير اليابان –رغم قيادتها في الإلكترونيات والتكنولوجيا–سوف يـــبقى ضـــيقا وبالتالي سطحيا على المستوى العالمي طالما لم تعمل على نشر لغتها وثقافتها بين الشعوب.

2/ المزج اللغوي أو عدمه :

إن ملاحظـــات السلوك اللغوي للمجتمعات المعاصرة تفيد بأن تعلم مجتمع ما للغة أجنبية لا يعني بالضرورة مزجها مع اللغة الوطنية . فعلى سبيل المثال إن معرفة عموم سكان البلاد الإسكندنافية (السويد والنرويج والدانمارك) للغة الإنجليزية (طبعا بدرجـــات مختلفة) لم تؤد بهم إلى ممارسة المزج اللغوي بين لغاتهم والإنجليزية[84]

---

[79] وهو عملية التأثير الثقافي المعروف بمصطلح acculturation في اللغة الانجليزية

[80] ، لارتباط العناصر الثقافية بالتركيبة النفسية انظر نظريات التنشئة الاجتماعية. ومن ثم جاء تركيزنا هنا على تأثير الثقافة الوافدة على شخصية انسان العالم الثالث.

[81] كلمة المغاربي تعني الجزائري والتونسي والمغربي. وهي صفة مشتقة من عبارة المغرب العربي.

[82] ، باعتبار أن محتوى هذه التأثيرات الثقافية الوافدة تتناقض قليلا أو كثيرا مع بعض مكونات الثقافة الوطنية وبالتالي الهوية الثقافية للمغاربي

(23) انظر الهامش رقم7).

[83] انظر الهامش رقم7).

[84] ، ولعل تقارب تساوي الطرف الاسكندنافي مع الطرف الانجليزي /الامريكي عموما هو الذي يفسر إلى حد كبير ظاهرة عدم وجود المزج اللغوي في هذه المجتمعات ويتماشى هذا مع ما جاء في . Devos Responses To Change: Society, Culture and

كمـــا هو الحال في ظاهرة الفرنكو آراب (مزج العربية العامية على الخصوص بالفرنســية) في مجتمعات المغرب العربي[85]. ومن هنا تأتي شرعية تساؤل الباحث الإجتماعي:

ما هي العوامل التي تقف وراء ذلك ؟ وهل من علاقة بينها وبين التخلف الآخر؟

3/ <u>جذور المزج اللغوي</u>

إن التطلع إلى فهم أسباب ندرة أو غياب المزج اللغوي في البلاد الاسكندنافية، من جهـــة، وحضوره الضخم في أقطار المغرب العربي، من جهة ثانية، يتطلب إثارة تساؤلات أخرى:

أ-هــل يعــود ذلك إلى صفات ذاتية (المتغير الذاتي للغة) تتميز بها الفرنسية عن الإنجليزية أو العكس؟

ب-هــل أن الرغبة في المزج اللغوي عند المغاربيين وعدمها عند مواطني السويد والدنمـــارك والــنرويج تــرجع إلى ظروف خارجية (المتغير الإجتماعي) مختلفة عاشتها وتعيشها هذه المجتمعات إزاء كل من اللغتين؟

ج- هل أن الميل إلى الفرنكوأراب عند المغاربيين وغياب ظاهرة مزج الإنجليزية باللغات الإسكندنافية يعود إلى عوامل نفسية (المتغير النفساني) للشخصية الأساسية لأفراد هاتين الكتلتين من المجتمعات؟

أمـــا بخصـــوص العامل (أ) المذكور أعلاه فليس هناك بعد براهين علمية تثبت أن الانجذاب للخلط اللغوي أو عكسه له علاقة بالسمات الذاتية للغة الدخيلة نفسها[86].

أمـــا عـــلى مســـتوى المـــتغير الاجـــتماعي (ب) فـــإن ما سجله علماء الإجتماع والأنـــثروبولوجيا مـــن ملاحظـــات بهذا الصدد يساعد على تفسير ظاهرة المزج الـــلغوي(الفـــرنكوأراب) مـــن جهـــة، وغيـــاب مزج اللغات الاسكندنافية عموما بالإنجليزية، من جهة أخرى. فمن بين هذه الملاحظات حول تفاعل ثقافتين معينتين يمكن التذكير بالتالي[87]:

1/ نادرا ما تتأثر الثقافتان بعضهما ببعض بالتساوي

2/ أن الطرف التابع (الهامشي ، ذا المكانة الدونية)هو الذي **يميل إلى** تقبل أو تبني العناصر الثقافية للطرف المهيمن.

3/ إن أفراد المجموعات الإنسانية ذوي المكانة الدونية **يشعرون بأنهم يصبحون في مرتبة أسمى** إذا ما تقمصوا صفات وخصائص الجانب المهيمن عليهم . وتتفق هذه الملاحظـــة الاجـــتماعية الحديثة مع ما جاء في مقدمة العلامة ابن خلدون " في أنّ

Personality p.4 (in more evenly balanced situations **where non is clearly superior** there is a stand off in the mutual adoptions of traits وترجع ملاحظاتي حول المزج اللغوي في هذه المجتمعات إلى رحلة بحثية في صيف1983.

85 ، انظر الفصل الرابع للباب الثالث و Les racines du f ranco-arabe féminin au Maghreb Thawadi في المجلة العربية للدراسات اللغوية، المجلد الثاني،العدد4 ص117-145

86 انظر الهامش رقم18

87 ، انظر : Devos , op.,p5

المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده".[88]

4/ إن رغبة الفرد أو الجماعة لتحسين مكانتهما الإجتماعية عامل مهم في تفسير ظاهرة التقليد بين المجتمعات أو الثقافات.

5/ عندما تكون الثقافتان المتفاعلتان في **أوضاع متساوية**، أو أقرب إلى المساواة ، **فإن تبادلهما الثقافي يصبح أمرا غير وارد** على العموم. عند تطبيق هذه المعطيات على ظاهرة المزج اللغوي أو غيابه في كل من مجتمعات المغرب العربي والأقطار الاسكندنافية نجد أن الملاحظات الأربع الواردة أعلاه(**4,3,2,1**) تنطبق أساسا على الظروف الاجتماعية الخارجية التي أحاطت وما زالت تحيط بإفراز ظاهرة الفرانكوأراب أثناء احتكاك الجزائر وتونس والمغرب بالإستعمار الفرنسي وثقافته . **فالعلاقة بين الإثنين كانت ولا تزال إلى حد كبير علاقة الغالب بالمغلوب والتابع بالمتبوع.**

أما سبب غياب مزج الإنجليزية مع السويدية والدنماركية والنرويجية فيرجع، على العموم ، إلى ما جاء في الملاحظة الخامسة (5) . ومن ثمَّ فظاهرة المزج اللغوي كمثل من أمثلة التبادلات الثقافية التي يمكن أن تؤدي إليها تفاعلات الشعوب بعضها مع بعض هي **ظاهرة ذات جذور اجتماعية**[89].وهذه العوامل الإجتماعية هي في النهاية **المتغير الوسيط** بين وجود عناصر ثقافية وافدة،من ناحية،**والتخلف الثقافي**[90]المتمثل في المزج اللغوي ،من ناحية أخرى . لكن كما أشرنا سابقا فإنه ليس علميا بالنسبة لظاهرة التلاقحات الثقافية أن نكتفي بمجرد وصف وتسجيل العناصر الثقافية التي تتبادلها المجموعات البشرية عند وقوع الاتصال بينها . فتسرب اللغة الفرنسية (كمادة ثقافية) إلى شعوب المغرب العربي في العصر الحديث حدث لا مراء فيه يلاحظه العالِم والإنسان العادي. والاعتراف بذلك هو الخطوة الأولى اللازمة في دراسات التبادلات الثقافية بين الشعوب. أما الخطوة الثانية والتي لا بد منها في أي بحث علمي موضوعي في هذا الميدان فهي التعرف على تأثيرات الرموز الثقافية الجديدة الوافدة على **التركيبة النفسية لشخصية الفرد** المتأثر بها . **ومن هنا جاءت أهمية النظر إلى ظواهر التبادلات الثقافية على أنها ليست عملية مقصورة على الجانب الثقافي فقط ، وإنما هي عملية تبدأ ثقافية لتمس ، في النهاية ، من قريب أو بعيد المستوى النفسي للإنسان المعرض لمثل تلك التأثيرات. فالتخلف الآخر هو إذن ظاهرة مزدوجة الطبيعة: هناك الجانب اللغوي الثقافي والنفسي**. وبالتالي فإن رغبة المغاربيين في مزج عربيتهم الفرنسية (الفرنكو أراب) تتأثر قطعا بهذين العاملين المترابطين . فاستعمالهم، من جهة للغة

---

[88] ابن خلدون عبد الرحمن ، مقدمة ابن خلدون ، بيروت دار الكتب العلمية، 1993، ص 116

[89] انظر الهامش رقم7

[90]) لأن مزج لغة بكلمات لغة أخرى(غريبة عنها من حيث الأصل) هو تفقير وتشويه للغة كنسق ثقافي.

الفرنسية كثيرا أ وقليلا على حساب اللغة العربية بمثل أحد ملامح **التخلف الثقافي** . فمــثل هــذه العمــلية تفقــر اللغة الوطنية عنصرها الثقافي. ومن جهة ثانية، فإن الظــروف الإجتماعية السابقة الذكر (من1 إلى4) لها انعكاسات على الجانب النفسي للمغاربي الميال إلى المزج اللغوي . فهو كطرف ضعيف(أو مهيمن عليه) مدفوع أكــثر إلى الــلجوء إلى **استعمال لغة الغالب** وتقليده في عدة ميادين قصد الرفع من معــنوياته (المستوى النفساني) نتيجة شعوره بالحقارة والدونية ومركب النقص أمام ثقافــة الفرنســي الــذي كــان، ولا يزال، إلى حد كبير، **الجانب الأقوى** في معادلة الــتفاعل بيــن الطرفين. فالذي يفرز التخلف الآخر كظاهرة ذات تركيبة ثنائية في مجــتمع مــا، لا يعود بالضرورة إذن إلى نشر عناصر ثقافية أجنبية في حد ذاتها، وإنمــا يــرجع أساســا **إلى معادلــة ميــزان القوى** التي تقع في إطارها تفاعلات المجــتمعات بعضــها ببعض. فمعرفة سكان البلاد الاسكندنافية للإنجليزية ،قليلا أو كــثيرا، لــم تــؤد فــي في حد ذاتها إلى وجود ظاهرة المزج اللغوي : أي تدهور لغــات(جــزء مــن الجــانب الثقافي) هذه المجتمعات. ولا يبدو أن لها تأثيرا سلبيا (الشــعور بمركــبات النقص مثلا) على بنية شخصية مواطني هذه البلاد . ومما لا شــك فيــه هــنا أن لتساوي، أو لشبه تساوي ، الطرفين (الاسكندنافي/الإنجليزي/ الأمــريكي) عــلى معظم المستويات دورا مهما في ذلك . ومن ثم فمفهوم **التخلف الآخــر كواقــع لغوي ثقافي ونفسي** يصعب أن يكون لوجوده أرضية في مثل هذه المجتمعات.

4/ <u>الشخصية وصراعات القيم</u>

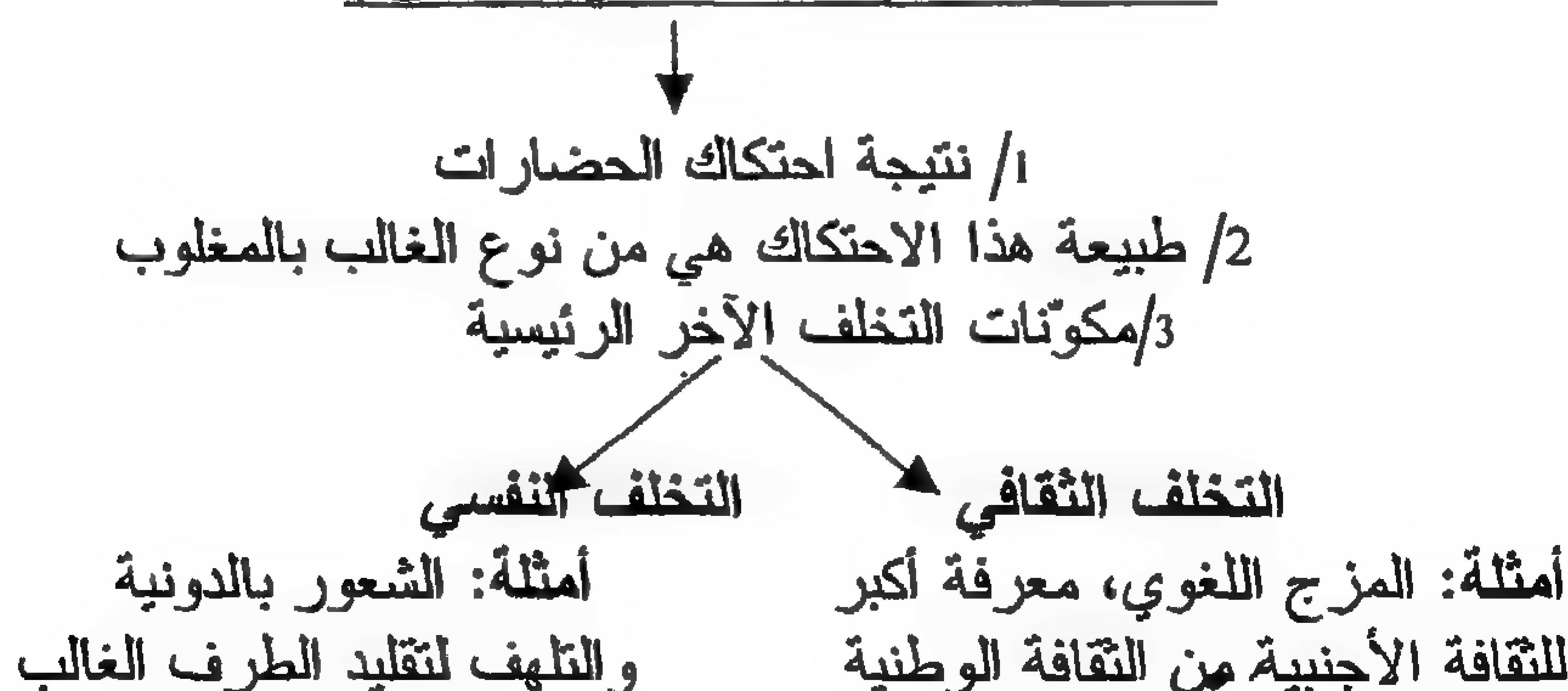
يمكــن القول بأن الصراعات و التشويهات التي تتعرض لها شخصية الفرد أثناء الاحــتكاك بــلغة وثقافــة أجنبيتين لا يتحتم إرجاعها في حالة مجتمعات المغرب العربي مثلا إلى اللغة الفرنسية في حد ذاتها. لكن مع هذا تبقى **اللغة متغيرا وسيطا** ومهمــا فــي المســاعدة على هذه الصراعات والتشويهات على مستوى شخصية الفــرد(الجــانب النفســي) . ففي الجزائر وتونس والمغرب كان من وظائف اللغة لفرنســية (ومــا زال) بث القيم والتقاليد والفلسفات الغربية بين فئات هذه الشعوب خاصــة المفرنسة منها . ودرجة وطبيعة هذه الصراعات، على مستوى الشخصية، ترتــبطان إلى حد كبير بمدى اختلاف القيم الثقافية الإجتماعية الوطنية عن تلك القيم الوافدة[91]. وعلى هذا الأساس فتسرب بعض القيم البريطانية /الأمريكية بسبب انتشار الــلغة الإنجليزية بين سكان المجتمعات الإسكندنافية لا يؤدي بالضرورة إلى إفراز أعــراض الصــراعات والتشويهات في شخصية الفرد الإسكندنافي. إذ أن انتساب المجــتمع الســويدي والدانماركي والنرويجي كالمجتمع الأمريكي والبريطاني، إلى الحضــارة الغــربية يجعــل قضــية تصارع القيم والعقائد والتقاليد في الشخصية الاسكندنافية أمرا غير وارد على العموم.

[91] انظر الهامش رقم 9

أمـــا مجـــتمعات المغـــرب العربي[92]، فقيمها وتقاليدها وفلسفاتها بعيدة عن أن تتلاءم وتـــتعايش دون إحـــداث أي توتـــر أو اضطراب في صلب الشخصية مع نظيرتها الغـــربية . فهي تنتمي إلى فضاء حضاري وثقافي عربي إسلامي (أو شرقي). ومن ثـــم فاحـــتمال وجـــود القيـــم الثقافية المتصارعة في بنية شخصية المغاربي المتأثر بالـــثقافة الغربية أمر غير مستبعد . والدراسات السوسيولوجية الحديثة تشير إلى أن الشخصـــية المضـــطربة هـــي نتيجة محتملة لمحيط إجتماعي يتصف بصراع القيم وبالتالي بالتفكك الإجتماعي[93].

5/ <u>طبيعة علاقة الطرفين وصراعات الشخصية</u>

إذا كـــان مصدر حدوث الصراعات أعلاه يعود إلى عامل اختلاف القيم الموجودة فـــي شخصية الفرد المغاربي بعد مجيء الإستعمار الفرنسي إلى تلك الشعوب، فإن المســـتوى الـــ**ثاني** الذي يمكن أن يكون سبب هذه الصراعات والتوترات في صلب بـــنية شخصية المغاربي هو **طبيعة العلاقة** الرابطة لهذين الصنفين من القيم(الغالب والمغـــلوب)[94]. فعـــلى هـــذا المســـتوى طالما يلاحظ المرء تصرفات لدى الطرف المغـــلوب(المغـــاربي) تحقر، من ناحية، بعض قيمه حتى الأصلية منها ويفخر ،من ناحيـــة أخـــرى، بقيّم الطرف الغالب(الفرنسي أو الغربي بصفة عامة) حتى الساذج مـــنها . ومن ثم فليس هناك صراع فقط داخل شخصية الفرد المغلوب. وإنما هناك أيضـــا **حالـــة تدهـــور لمعنوياته**(المستوى النفسي) تجعله في أحسن الأحوال يقف موقف المدافع عن قيمه وذاتيته لا أكثر ولا أقل. وهكذا فالتحقير للنفس وفقدان الثقة بهـــا[95] أصبح من السمات الشائعة في شخصية هذا النمط من الإنسان الذي ينتشر فـــي مجـــتمعات العـــالم الثالث. ويمكن تلخيص جذوره ومكونات **التخـــلف الثقافي النفسي** في الشكل التالي: **الجدول الأول**



---

92 انظر الفصل الرابع للباب الثالث.

93 Encyclopedia of Sociology Guilford .Conn : The Dushkin Publishinp Group Inc P165 ;1973- 74

94 المصدر نفسه ص269

95 انظر الفصل الرابع من الباب الثاني لهذا الكتاب

خامسا : تطبيق مفهوم التخلف الآخر على ثلاث قضايا عربية

إن مفهــوم التخــلف الآخر كأداة بحث في بعض الظاهرات والقضايا في الوطن العــربي يمكن أي يساعد على فهمها .ونتعرض هنا إلى **ثلاث ظواهر** عربية مختلفة لإلقـــاء الضـــوء عليها من خلال مفهوم التخلف الثقافي والنفسي : 1/ ظاهرة غياب علم اجتماع عربي : 2/ ظاهرة تفشي سب اسم الجلالة، واللعن الديني ، واستعمال الكـلمات والعـبارات والجنســية البذيئة في مجتمعات المغرب العربي : 3/ علاقة اللغة الوطنية بالتنمية.

1/ غياب علم اجتماع عربي :

تكـاد ترجع كل التحاليل التي بحثت ظاهرة غياب علم اجتماع عربي[96] اليوم أسباب ذلك إلى عاملين أساسيين:

أ) طغيـان المدارس السوسيولوجية الغربية على التكوين المعرفي لعلماء الاجتماع العرب المحدثين.

ب) فقـر تكويـن هـؤلاء فـي تراث التفكير الاجتماعي العربي و في طليعته علم العمران الخلدوني.

إن هذا الوضع المعرفي السوسيولوجي هو ملمح من ملامح التخلف الثقافي العربي[97] كمـا ورد تعـريفه فـي هـذا الفصل ولهذا انعكاسات: فتفشي ظاهرة التقليد لعلم الاجـتماع الغـربي فـي فروضه ومنهجيته ونظرياته ظاهرة متوغلة بين المفكرين الاجـتماعيين العـرب اليـوم. ومن ثمّ يمكن القول أن **التقليد للغرب** هو سبب مهم لتخـلف [98]التفكير السوسيولوجي العربي الوطني أو القومي في العصر الحديث. لكن أزمــة المـثقفين الإجتماعيين العرب لا تنتهي عند فقر أو عدم وجود أساس لقاعدة تفكيـر اجتماعي وإنما تتعداه إلى تركيبتهم النفسية (الشخصية) . فمنهم من يميل إلى **تحقيـر الـتراث العربي** على العموم لأنه في نظرهم بعيد عن أن يتماشى أو يتلاءم مـع قضايا الحياة العصرية[99]. وبالتالي فمحاولة الاستفادة منه، في رأي هؤلاء، هي هــدر للجهود . هناك من يذهب ابعد من ذلك في هجومه على التراث العربي فيعلن أن الزاد المعرفي الاجتماعي الذي تحتويه مقدمة ابن خلدون مثلا لا يصلح اعتماده فـي فهـم المجـتمع العربي إلا في الفترة التي عاشها صاحب المقدمة أو بعد ذلك بقـليل.و مهمـا تكـن الأسـباب التي يهمش بها التراث العربي فإن أثر ذلك على معـنويات عالم الاجتماع العربي المنتمي لحضارة العربية الإسلامية لا بد أن يخلف خدشا داخليا محقرا للذات في التركيبة النفسية لشخصية المفكر الإجتماعي العربي.

[96] الأدلبي عبد القادر ، حول الوضع الراهن لعلم الاجتماع العربي ، الكتاب السنوي لعلم الاجتماع ، 5 (القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب ، قسم الاجتماع ، 1983).

[97] انظر الهامش رقم 6

[98] الأوضاع الثقافية والاجتماعية السائدة في الوطن العربي عوامل لا تشجع على نشر التفكير الاجتماعي وبالتالي تن

[99]) عثمان سعدي"كيف نخرج من المأزق الثقافي ، العربي ، العدد302(شباط / فبراير 1984)ص110-114.

وتلك باقتضاب هي عملية التخلف الآخر بمستواييها الثقافي والنفسي التي يعيشها عالم الإجتماع العربي الحديث.

2/ ظاهرة تفشي السبّ[100] :

تنتشـــر في المجتمع الجزائري والمغربي التونسي على الخصوص ظاهرة سبّ اسم الجلالـــة ولعن الدين (يْنَاعَنْ يلعن :دين بوك أو أمك) واستعمالات كلمات وعبارات جنسية بذيئة. ويبدو أن انتشار هذه الظواهر أقل حدة في بقية المجتمعات العربية[101]. وفـــي كلـــتا الحالتين فإن تفشي هذه الظاهرات ينحصر أساسا **عند الشباب الذكور والـــرجال** كمـــا هو الشأن في كثير من المجتمعات البشرية الأخرى حيث العنصر الذكوري هو المسيطر والمتحكم في مقاليد المجتمع[102].

والســـؤال هنا : **ما هي الأسباب التي أدت إلى انتشار هذه الظواهر بدرجة عالية فـــي مجـــتمعات المغـــرب العربي**[103]؟ فالدين الإسلامي وقيمه ما زالت ،من جهة ، مـــتجذرة فـــي الشخصية القاعدية لمواطني هذه المجتمعات. ومن ناحية ثانية ، فإن **الكـــبت الجنســـي** فيهـــا **أقل حدة بكثير** مما هو سائد في بعض المجتمعات العربية الإسلامية المشرقية؟

ليـــس هـــناك إجابة جاهزة لتلك التساؤلات لكن يمكن طرح **فرضية** واحدة كبداية لمعـــرفة علمية لطبيعة هذه القضايا: إن مجيء الإستعمار الفرنسي وبثه للغته ولقيمه وثقافـــته، مع تردي وضع هذه المجتمعات على عدة مستويات بطريقة واسعة بين فئات هذه الشعوب، أدى إلى إفراز ظاهرة صراعات بين القيم الإسلامية العربية مع القيـــم الفرنســـية أو (الغـــربية على العموم) في شخصية المغاربي. وقد عرف من الدراســـات في هذا الميدان أن حدة هذه الصراعات قد تقود إلى ما يسمى في العلوم الإجـــتماعية **بتفكك الشخصية** Disorganized Personality . إن الإجابة الشافية عن ذلك تحـــتاج إلى جهـــد بحـــثي وعلمي يتعدى حدود الفرضية . ومهما تكن جذور هذه الظواهر في النهاية **فإن مفهوم التخلف الآخر يساعد بدون شك على طرح وإثارة مـــثل هـــذا السلوك الجماعي للتمحيص والبحث العلميين** . وبالتالي فهو يساهم في فهم مدلولات هذه الأعراض المجتمعية وما لها من علاقة بمسيرة الأقطار النامية.

3/ علاقـــة الـــلغة بالتنمية : إن قضية التعريب في الوطن العربي وعلاقتها بالتنمية الشـــاملة مسألة لا تتمتع بإجماع عربي. فشق[104] يرى أن المجتمعات العربية لا يمكن

---

100 ، "السفاهة" كلمة تونسية تعني استعمال الكلمات والعبارات الجنسية البذيئة على مسمع و مرآى الجميع. أما في ما يخص سب اسم الجلالة فإن السلطة التونسية لجأت في الماضي، لاتساع انتشار هذه الظاهرة، إلى معاقبة المنحرفين بالسجن أو التأديب عند توفر الشهود.

101 يبدو أن كل المجتمعات الانسانية توجد فيها ظواهر السب والشتم للأشياء المقدسة أو المحرمة مثل اسم الجلالـــة والدين والجنس. والمجتمعات الغربية الحديثة ليست استثناء للقاعدة . فعبارات tabernacle، God dam ، Jesus Christ و it هي أمثلة على ذلك.

102 كأن هيمنة جنس الذكور في المجتمعات البشرية تسمح لهم أكثر من جنس النساء بالهجوم حتى على مقدسات ومحرمات هذه المجتمعات وتلك اشارة إلى أهمية مبدأ " من بيده ميزان القوى في المجتمع؟" في فهم ما يجري في صلب المجتمعات الانسانية

103 لا أدري ان كان هناك بحوث علمية تطرقت إلى هذه الظواهر الاجتماعية في كل من تونس والجزائر والمغرب

104 سعدي ، "كيف نخرج من المأزق". مصدر سابق.

أن تكتسب رهان التنمية الكاملة بدون أن **تسترجع اللغة العربية مكانتها الطبيعية** القومية والوطنية في كل قطاعات ودروب الحياة العربية. ويستشهد البعض بالتجارب التنموية الناجحة لكل من اليابان والصين وكوريا في العصر الحديث. فكلها أحرزت تقدما دون أن تضحي بلغتها.
ويميل الشق الثاني إلى القول بأن لا علاقة مباشرة بين اللغة (كعنصر ثقافي) وعملية تنمية المجتمعات . ومن ثم فاللجوء إلى استعمال اللغات العصرية(الإنجليزية والفرنسية على الخصوص) بدل العربية خاصة في الميادين العلمية يصبح ضرورة ملحة للحاق بالمجتمعات المتقدمة. فدعوة هذا الفريق تندرج تحت مفهوم التخلف الآخر. فعدم استعمال اللغة الوطنية (العربية) في بعض الميادين هو تخلف ثقافي لها حسب تعريفنا للتخلف الآخر. وكما رأينا فإن ملامح ما سميناه **بالتخلف النفسي**(تحقير اللغة الوطنية والذات من جهة ، والفخر باللغة الوافدة والشعور بالنقص أمام صاحبها) مرتبطة دائما بجانب التخلف الثقافي . إن حسم قضية أهمية التراث الثقافي الوطني (بما فيه اللغة) بالنسبة للتطور الشامل الذي تعاني منه مجتمعات الجنوب لا يمكن التوصل إليه ، أو القرب منه على الأقل ، بدون الغوص العلمي والموضوعي فيه. فهو مجال ما زال يشكو من قلة البحوث المتعمقة . وبالتالي فليس لنا حول طبيعته وتأثيراته على مسيرة المجتمعات إلا أمور عامة وسطحية. ولعل مفهوم التخلف الآخر محاولة متواضعة لبداية الاهتمام **بالزوايا الأخرى** المساهمة في التخلف أو التنمية التي أهملتها العلوم الاجتماعية الغربية التقليدية المتأثرة برؤية المجتمعات الغربية ذات التاريخ الإستعماري والهيمنة.

سادسا : العلم براء من نسيان التخلف الآخر

وعلى الرغم من وجود مثل هذه الملامح"التخليفية" الثقافية والنفسية في كثير من المجتمعات النامية اليوم فإن صمت ملف بحوث ودراسات التنمية والتخلف المعاصرة إزاء **التخلف الثقافي النفسي** لا يزال صمتا مسترسلا إلى يومنا هذا ولا يكاد المرء يعثر على الأسباب الموضوعية العلمية التي أدت إلى إهمال ونسيان علماء التنمية والتخلف شرقا وغربا لمثل هذه الظاهرة[105].

فبينما اهتم ويهتم علماء الانثروبولوجيا والإجتماع الغربيون اهتماما كبيرا ، في العصر الحديث، بدراسة ثقافات المجتمعات ، البدائية منها خاصة ، فإن دراسات ظاهرتي التنمية والتخلف في العالم الثالث، من طرف الباحثين والمنظرين الغربيين، تخلو تماما من أي طرح جدير بالذكر لقضية التخلف الآخر أو التخلف الثقافي النفسي. **فسكوت المختصين بمسائل التخلف والتنمية** ، في العصر الحديث، عن **هذه الظاهرة "التخليفية"** المنتشرة على طول وعرض مجتمعات الجنوب أمر يدعو

---

[105] ، خاصة من طرف الصنف الراديكالي لعلماء الاجتماع والاقتصاد المعاصرين الذين سوف نعرض لهم فيما بعد. انظر: Francois Perroux, Pour une philosophie du nouveau développement (Paris: UNESCO1981)

إلى التشـــكك فـــي مدى التزامهم بالروح العلمية الموضوعية التي تنادي بها العلوم الغربية المعاصرة بما فيها العلوم الاجتماعية . ومن هنا تأتي الحاجة إلى اللجوء – ولو باختصار – إلى **علم اجتماع المعرفة** لتفهم أسباب إهمال دراسة التخلف الآخر.

سابعا : الليبراليون وتحيزهم الثقافي :

فعـــلماء الإجـــتماع والإقتصاد التتمويون الغربيون اهتموا بدراسة التركيبة الثقافية (كـــالدين والأساطير والقيم الاجتماعية والتقليدية...) للدول النامية للبرهنة على أن الـــتركية الثقافية هي في مجموعها لا تساعد على إقامة صرح التنمية بنمطه وشكله الغـــربيين . ومـــن ثم جاء انصرافهم كلية عن اعتبار تنمية الجانب الثقافي الأصيل للمجـــتمع النامي كرافد أساسي في إنجاح عملية التنمية المرتكزة على نفسها ، والتي تزداد المناداة بتبنيها أكثر فأكثر في السنوات الأخيرة في كتابات وسياسات التنمية[106] . وموقف دارسي ظاهرتي التنمية والتخلف، خاصة منذ أن وضعت الحرب العالمية الـــثانية أوزارهـــا ، هو موقف إذن يبدو أنه **يدين ويرمي التركيبة الثقافية** (من قيم وتقـــاليد وقوانين ودين ...) **بالدونية**[107] **في مجتمعات العالم الثالث**. ومن ثم فالدعوة إلى القضاء على ملمح "التخلف الثقافي" لا يمكن إذن انتظارها من باحثين ومنظرين **غلب عليهم التحيز الثقافي إلى ثقافة حضارتهم**. فنمط الحضارة الغربية المعاصرة هـــو النمط الوحيد عندهم الذي ينبغي إتباعه ماديا (اقتصاديا، تكنولوجيا، علميا...) وثقافيـــا (قيما ودوافع ونمط حياة..) من طرف المجتمعات التي ترغب في الخروج مـــن ربقة التخلف . إن هذه الأسباب غير الموضوعية " الإيديولوجية "تصلح خاصة في تفسير صمت علماء الإقتصاد والإجتماع والنفس الغربيين الليبراليين عن ظاهرة التخـــلف الآخـــر. فالتخـــلف بكل صوره في نظرهم لا يرجع إلى **عامل الاستعمار الغـــربي الحديث** المباشر ولا غير المباشر[108]. فتخلف الدول النامية ليس إلا انعكاسا للتركيـــبات الإقتصـــادية والإجـــتماعية والثقافية التقليدية لهذه المجتمعات. وبالتالي فتـــنمية الـــتراث الثقافي \الأصيل للمجتمعات النامية، أي القضاء على التخلف الآخر هي في نظرهم،خطوة إلى الوراء لا إلى الأمام، حسب زعمهم.

<u>ثامنا: الراديكاليون وتفسيرهم المادي</u>

أما علماء الإقتصاد والإجتماع الراديكاليون فلم يولوا هم الآخرون أي اهتمام يذكر إلى ظاهـــرة التخلف الآخر في المجتمعات التابعة ، إذ قصروا تحليلاتهم على علاقة التابع بالمتبوع اقتصاديا . ومن ثم فظاهرة التبعية التي تربط التابع بالمتبوع هي في جوهـــرها تـــبعية إقتصادية لا غير،اعتقادا منهم كماركسيين أن جذور التخلف ذات

---

[106] المصدر نفسه،

Perroux,F.

[107] ، هذا الاتجاه واضح أكثر عندعلماء التنمية الغربيين الأمريكيين من اقتصاديين واجتماعيين ونفسانيين ويمكن ذكر أشهر الاسماء

B.F.Hoselitz, D.McClelland, D.Lerner and E.Inkles

[108] انظر الفصل الأول من الباب الثالث لهذا الكتاب.

أصـــل اقتصـــادي مـــادي بحـــت[109]. وبالـــتالي فالرموز الثقافية هي إفراز للوضع الإقتصـــادي الذي يمر به المجتمع . فتجاهل مركب "التخلف الثقافي" في مجتمعات العالم الثالث من طرف الراديكاليين الذين ركزوا خاصة على العلاقة التي تربط بين ظاهـــرة الإســـتعمار والتخلف الإقتصادي والإجتماعي **هو تجاهل يدل على قصور مقـــدرة الملاحظة عند هؤلاء العلماء** الذين يبدو أن تصورهم المادي الجاف قد شوه رؤيـــتهم لمعطيـــات التخلف المتعددة الملامح ولم يترك مجالا لفهم ودراسة **ملامح التخـــلف ذات الطـــبيعة غير المادية** . فملامح التخلف الآخر التي خلفتها التجربة الإســـتعمارية الغـــربية فـــي مجتمعات العالم الثالث، هي أكثر جلاء، على بعض المســـتويات، مـــن ملامـــح التخلف الإقتصادي و الإجتماعي اللذين سببهما العامل الإســـتعماري نفسه . فكيف يدرك الباحث الغربي الراديكالي ، من جهة ، العمليات الإقتصـــادية المعقـــدة الـــتي أدت إلى تفشي ظاهرة التخلف في القطاع الإقتصادي للمجـــتمع الذي استعمره والذي تأثر ولا يزال يقاسي من التبعية لمستعمره دون أن يهـــتدي، مـــن جهـــة ثانية ، إلى عناصر طبيعة العمليات (رموز ثقافية وتفاعل بين غالب ومغلوب) التي تفرز ما سميناه التخلف الآخر؟

وإذا كـــان الإستعمار – كما يقول لفيف الراديكاليين- يفقر ويعطل المسيرة الطبيعية لاقتصـــاد البلد المستعمر ، أفلا **يقوم هذا الإستعمار بالشيء نفسه على المستوى الـــثقافي لهذا للمجتمع نفسه؟** ألا يعتبر نشر لغة المستعمر مثلا على حساب اللغة (اللغات) الوطنية في المجتمع التابع (المحتل) إفقارا وتحقيرا(وبالتالي تخليفا) للسان الوطـــني؟ وكمـــا رأينا، فملاحظاتنا تشير إلى أن انعكاسات عملية التفقير والتحقير عـــلى الـــلغة والـــثقافة (التخلف الثقافي) تتعدى هذه الأخيرة لتزرع بذور مركبات الـــنقص، وصـــراعات الشخصـــية (التخلف النفساني)[110]عند الفرد الذي عانى من التجربة الإستعمارية خاصة الثقافية منها.

وفـــي كلا موقفي هذين النمطين من العلماء الإجتماعيين **هناك تجاهل فاضح لواقع موضـــوعي جديـــد في هذه المجتمعات.** إذ أن تسرب عناصر ثقافية أجنبية كاللغة وأنمـــاط تعليم جديدة ، محتوى وشكلا، إلى الأقطار التي سقطت تحت هيمنة الغرب حقيقة لا مراء فيها . ولا يجرؤ أي باحث موضوعي أن ينكر أن علمية نشر الثقافة كـــانت دائمـــا لصـــالح المجتمعات الغربية المسيطرة على المستعمرات الجديدة . والموضـــوعية تقضـــي هنا أن يدرس كل مهتم بحركية المجتمعات البشرية ما لهذا الواقـــع الثقافي الجديد من انعكاسات على كينونتها ومصيرها ، وبالتالي على تراثها

---

109 ان سمير أمين وأنور عبد الملك هما مثال لهذا لصنف من العلماء الذين اهتموا بقضايا التنمية والتخلف دون اهتمام يذكر بالتخلف الآخر.

110 تتلخص هذه المركبات في أن الانسان الذي يعرف لغة وثقافة وحضارة المستعمر (بمعنى "التخلف الآخر") يميل، من جهة، إلى تعضيم شأن لغة وثقافة وحضارة الجهة المسيطرة عليه ومن جهة ثانية يجنح إلى التحقير من شأن لغته وثقافته وحضارته الوطنية . والنتيجة لكل هذه العملية هي ~~التأكيد~~ تفشي ظاهرة مركبات النقص بين الأفراد المغلوبين (بالمعنى الخلدوني الذي يقول أن المغلوب يقلد الغالب) ومجتمعات المغرب العربي الثلاثة لا تندر فيها هذه السلوكيات ومركبات النقص إلى يومنا هذا.

الـــثقافي ذاته وما له من علاقة على المستوى النفسي ببنية شخصية الطرف المهيمن عليه.

تاسعا: التخلف مادي ومعنوي

ومهما يكن سبب هذا الإهمال الشائع عند علماء الإجتماع والإقتصاد الغربيين ومن دار فـــي فـــلكهم لدراسة التخلف الثقافي النفسي جنبا إلى جنب مع ملامح التخلف الأخـــرى ، فإن تفاعل الحضارة الغربية الغالبة مع مجتمعات العالم الثالث المغلوبة فـــي العصـــر الحديـــث، حـــدث تاريخي لا يمكن إلا أن تثري دراسة آثاره الزاد المعـــرفي للعـــلوم الإجتماعية ذات الروح العلمية . وليس الإهتمام بالآثار الثقافية الناتجة من هذا الاحتكاك الحضاري بين الطرفين بأقل أهمية . فالعناصر الثقافية من لغـــة وتـــراث ثقافي معرفي ودين وتقاليد وقيم هي الأسس الرئيسية التي تنشأ منها وتتشـــكل بهـــا خاصـــة ملامح الشخصية الجماعية لأي مجتمع بشري . فمحاولة زحـــزحة أو إضـــعاف أو اقتلاع هذه المكونات هي ضربة جارحة في صميم ذاتية الشخصـــية الوطنية. **فأكبر مصيبة يمكن أن تصيب أي مجتمع هي مصيبة تشويه شخصـــيته وانحلالهـــا فـــي رموز ثقافية خارجية غازية** . ومن ثم جاءت المقولة المشـــهورة- المشار إليها في أول فصل من هذا الكتاب- بأن ما تغزوه الثقافات لا تقـــدر عـــليه لا العســـاكر ولا الأنظمة الإقتصادية . فغزو هذه الأخيرة غزو من الخـــارج للهياكل المادية(هو غزو للكم)[111] **أما الغزو الثقافي فهو غزو من الداخل** (غزو للكيف) أي **تسلط وسيطرة على عقل وروح المغلوب**[112]. والتاريخ يشهد بأن إذعـــان الآخرين ، وطاعتهم المستمرة لحظيرة الغازي لا تتم إلا عندما يفلح الغالب **فـــي تجذيـــر رمـــوزه الـــثقافية في الشخصية الجماعية لأفراد المجتمع المغزو .** فالعـــرب الفاتحون كانوا قادرين على تأسيس إمبراطوريتهم الكبيرة في وقت قصير، وذلـــك لـــنجاحهم فـــي بث القيم الحضارية الإسلامية أولا ، ثم تعريب لغة ولايات ودويـــلات الخلافـــة ثانيا . وهكذا نرى أن تأثيرات وتأثرات المجتمعات في بعضها البعض ذات **طبيعة ثنائية : مادية وثقافية** . فطبيعتها هي إذن طبيعة الإنسان نفسه: **مادة وروح**. فأي جهل لهذه الحقيقة في نظرنا يقود بالضرورة إلى قصر في النظر وبالـــتالي إلى **فهـــم ضـــيق** خاصة بالنسبة للظواهر الإجتماعية والإنسانية . وعلم إجـــتماع التـــنمية المعاصر مثال على ذلك. فتحاشيه إثارة ودراسة قضية التخلف الآخـــر الـــتي تمس ملمحا مهما للتخلف الذي تعاني منه مجتمعات العالم الثالث ألا وهـــو **التخلف الثقافي النفسي** الذي ينعكس فيما ينعكس على تدهور نمو الشخصية الجماعيـــة نمـــوا طبيعيا وصحيحا (بدون صراعات)والتخلف النفساني الذي يتمثل خاصـــة في مركبات النقص في تركيبة شخصية المتخلف ، ومن ثم تصبح مظاهر

---

[111] يمكن وصف التخلف الآخر بأنه تخلف يمس الكيف (الجانب الثقافي والنفسي للمجتمع وأعضائه) بينما التخلف الاقتصادي يعني بجانب الكم. والفرق بينهما من حيث الأهمية واضح ...بالنسبة لأي تنمية تجعل الإنسان هو منطلقها وغايتها.

[112] Eudes,Y., La Conquête des esprits (Paris : Maspéro, 1982)

تحقير النفس وفقدان الثقة بالنفس[113]سمات شخصية لإنسان التخلف الآخر. فالتبعية الـثقافية ، إذن ، لكـثير مـن حكـام العـالم الـثالث والطبقات البرجوازية، على الخصـوص، إزاء الـثقافة الغـربية (حضارة وإيديولوجيا سياسية) هي أداة بحث أساسـية **لفهـم استمرارية العلاقات الإقتصادية وغير الإقتصادية بين المستعمر القديـم ، والمسـتعمر بالمعنى الجديد، وبين كثير من مجتمعات العالم الثالث** التي اسـتقلت مـنذ زمـن غير قصير. فالتركيز على أهمية **العامل الإقتصادي** في فهم حركية المجتمعات، هو في رأينا **منظور ذو رؤية محدودة** لا يمكن أن تفسر كثيرا من ظواهر المجتمع المتعددة والمعقدة الجوانب.

فاسـتمرار النظر إلى التخلف بعين واحدة عوضا عن عيون متعددة ، ينقض الإتجاه العـام المـنادى به أكثر فأكثر في بحوث العلوم الإجتماعية منذ السبعينات: وهو أن يتحاشـى الباحـثون والمـنظرون إرجـاع الظواهر الإجتماعية ، بما فيها التنمية والتخـلف، إلى **سـبب واحـد يـتم**، لأن ذلك لا يتماشى مع طبيعة هذه الظواهر . فالدعوة إلى تعاون العلوم الإجتماعية المختلفة اليوم في فهم الظاهرة الإجتماعية هي رد فعل طبيعي على التفسير الأحادي الرؤية الذي لم يفلح كما هو منتظر في إعطاء الإجابـة الوافية فضلا عن الهداية لحل معضلات التنمية التي ما زالت تتخبط فيها مجتمعات العالم الثالث.

عاشرا : من أسباب فقر نظريات التنمية والتخلف

إن النظرة الغربية الأكاديمية التي تبرئ، من جهة، الإستعمار الغربي من أي تأثير عـلى ظاهـرة التخـلف المنتشرة في مجتمعات العالم الثالث في العصر الحديث، وتـرمي، من جهة أخرى ، بالدونية للتركيبة الكلية لهذه البلدان بما في ذلك الجانب الـثقافي لهـا لا يمكن لها في تصورنا إلا أن تؤدي إلى **فقر في التنظير العلمي** في ميـدان التـنمية والتخلف. فلقد تفاءل وعوّل البعض في العلوم الإجتماعية على أن ظاهـرتي التنمية والتخلف ستكونان مصدرا مهما لإثراء عالم المفاهيم والنظريات[114] إثـراء عـلميا لهذه العلوم ، بحيث تنطبق هذه المفاهيم والنظريات بدقة وموضوعية عـلى الواقـع الكـبير لأسـباب التخلف والتنمية في المجتمعات النامية.فالتنظير السوسـيولوجي الـذي لا ينطلق من الواقع الكبير(أي الشامل لكل عناصر الظاهرة الإجـتماعية) سواء أكان ذلك لتحيز إيديولوجي حضاري أو لضيق رؤية المنظور المـادي مـثلا في دراسة الظاهرة كما ورد أعلاه، لا ينتظر منه أساسا إغناء المادة الاجتماعية التنظيرية بتعاريف ومفاهيم وفروض ونظريات مفيدة لدفع مسيرة البحث فـي هذا المجال بخطى حثيثـة إلى الأمام . **فابن خلدون** المفكر الإجتماعي العربي المعـروف لم يكن له أن ينشئ علم العمران ويثري به المفاهيم والنظريات التي لم

---

[113] انظر الفصل الرابع من الباب الثاني من هذا الكتاب

[114] Jacquemot P. et al /, Economie et sociologie du Tiers-Monde : guide bibliographique Paris p.16 ، editions L Harmattan,1981

تفقد صلاحيتها إلى يومنا هذا في تفسير كثير من الظاهرات الإجتماعية في الوطن العربي ، لولا أنه لم يلتزم **التزام العالم القنوع بأهمية الموضوعية والأمانة العلمية في وصف واقع المجتمع العربي الشامل** (إجتماعيا وسياسيا وإقتصاديا ودينيا وقبليا...)[115]، فمن المسلمات ، في رأينا ، في هذا الصدد أن اكتشاف القوانين والنواميس التي تتحكم في المجتمع، على العموم، والظاهرة الإجتماعية ، على الخصوص ، لا يمكن الحصول عليه دون الغوص الملتزم في دراسة المعطيات الواقعية الكاملة لهما[116]. فإن التركيز على عنصر أو مركب معين، من ناحية ، وإهمال أو التقليل، من ناحية ثانية ، من أهمية عنصر آخر رغم أنه لا يتجزأ من طبيعة الظاهرة المدروسة ، لا يمكن أن يؤدي إلا إلى مفاهيم وفروض ونظريات قاصرة ومشلولة[117].

ومن ثم فإن أزمة النظريات الحديثة لعلم الإجتماع والإقتصاد التمويين سوف تبقى على ما هي عليه ، أو تزداد رداءة ، طالما أنها ظلت سجينة **التحيز الإيديولوجي** . والرؤية المادية الأحادية اللذين لا تؤدي في النهاية إلا إلى **انفصام مستمر بين النظرية وبين واقع ظاهرتي التخلف والتنمية**، وبالتالي إلى إفلاس هذه النظريات التي لا تنطلق في عملية تنظيرها من أرضية الواقع المتعدد الجوانب الذي قاد ويقود المجتمعات النامية إلى ما هي فيه من مأزق بالنسبة للتغلب على عراقيل التخلف وكسب رهان التنمية بملامحها العامة. فعملية **التنمية الذاتية** مثلا، التي كثر الحديث عنها بين بعض المختصين العالميين والمحليين ورجال السياسة في المجتمعات النامية بعد فشل نظريات العون الخارجي(من المجتمعات الإستعمارية أوالإمبريالية) في تنمية هذه الأخيرة، تنمية صحيحة **لا يمكن أن تتم وتنجح بدون إنماء تراثها الثقافي وتعزيز الجانب النفسي من تركيبة الشخصية الوطنية** .فالتنمية عملية كلية تشمل كل النواحي التي تساهم في بناء وتميز المجتمع . **أو ليست ثقافة المجتمع هي المميز الأساسي لشخصيته** ؟ فتنمية عناصر هذه الأخيرة هي، إذن، أحسن المؤشرات على أن عملية التنمية تؤمّن وتعمل بفلسفة التنمية الذاتية.

حادي عشر: التخلف الآخر وعقدة التبعية:

إن التخلف الآخر كما تبين معطيات فصول هذا الكتاب هو حصيلة احتكاك حضارتين غير متكافئتين:غالبة ومغلوبة. ومن نتائج هذا النوع من العلاقة ، إفراز ظاهرة **التبعية لدى الطرف المهيمن عليه** . وكما رأينا فإن تبعية هذا الأخير هي في الحقيقة **تبعيتان**: 1/ التبعية الثقافية المتمثلة في **تفقير التراث الثقافي للجانب المغلوب**(المزج اللغوي ، معرفة أكبر لتراث الغالب).

---

115 ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون.مصدر سابق.

116 شريط عبد الله ، التفكير الأخلاقي عند ابن خلدون (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ، 1976).

117 هذا الوضع هو السائد إلى حد الآن كما بينا بخصوص الجانب الثقافي والنفسي الذي أهملت الإعتناء به العلوم الاجتماعية المعاصرة التي تهتم

2/ التبعية النفسية التي تترجمها رغبة الطرف المغلوب في **تقليد الغالب** . ومن ثم ففي علاقة التبعية حرمان للمجتمع وأفراده من عملية التنمية الذاتية سواء أكان ذلك على المستوى الإقتصادي أو التكنولوجي أو الثقافي أو النفسي.

إن التـــنظير في ميدان التنمية والتخلف سوف يكون قوالب براقة وهشة لا غير ، إذا هـــو لم يدرج في تحليلاته للظاهرتين عاملي : علاقة الغالب بالمغلوب وعنصر التـــبعية . فقـــد أفصــــح هـــذا الفصل بما فيه الكفاية عن مدى تأثر هذا الجانب من التخلف (التخلف الآخر) بهذين المتغيرين.وليست وجوه التخلف الأخرى (اقتصادي، تكـــنولوجي...) لمجـــتمعات الجنوب بمستثناة من ذلك. فهيمنة المجتمعات الصناعية الغـــربية عـــلى مجـــتمعات العالم الثالث منذ الفترة الإستعمارية ، وما تبع ذلك من تـــبعية، هـــو الإطار التاريخي والإجتماعي الكفء الذي يساعد على تفسير كل من ظاهـــرتي التنمية الغربية وتخلف مجتمعات الجنوب بملامحهما الحديثة[118] .. وهكذا يتضــــح مـــن ملف التخلف الآخر **إن نظرية التبعية هي من انسب الأطر النظرية للعـــلوم الاجتماعية** لتفسير هذا النوع من التخلف المنتشرة أعراضه في المجتمعات الـــنامية ، **ونحـــن نختـــلف** مع هؤلاء المنظرين الذين يحصرون ظاهرة التبعية في المستويين الإقتصادي والسياسي . إن بحثنا في التخلف الآخر على الخصوص أثبت أن تـــبعية المجتمعات النامية للمجتمعات الصناعية الغربية تتعدى ذلك لتشمل أيضا الجانـــبين الثقافي والنفسي . **وبذلك تصبح التبعية مركبا متعدد الملامح المترابطة.**

وطـــبيعة تفـــاعلات الحضارات تتماشى مع هذه النظرة الشمولية لظاهرة التبعية . فاحتكاكات مجتمعات الجنوب مع مجتمعات الشمال طالما كانت متنوعة المستويات (الإقتصـــادية ، السياسية ، التكنولوجية ، الثقافية ...) والتبعية كإفراز لهذا التواصل اللامتوازن (غالب ومغلوب) بين هذه الشعوب. وعلى كل تلك المستويات ، لا يمكن إلا أن تكـــون **تبعية ذات رؤوس** لا رأس أو رأسين فحسب . والخروج من التخلف بكل رؤوسه يتطلب من المجتمعات النامية **الـــتحرر الكامل من لفيف التبعيات** . عند ذلـــك فقـــط يجـــوز الحديـــث عن **تحقيق مشاريع التنمية الذاتية** التي يزداد حول أهميـــتهاإجماع المهمـــتين بقضايا التنمية والتخلف كل يوم . فهي في نظرهم مفتاح الخـــروج من الحلقات المفرغة التي دارت وتدور فيها السياسات التنموية في العالم الثالث.

---

[118] ان تركيزنا على مفهوم التبعية لا يعني أنها هي داء كل شيء "**تخلفي**" في مجتمعات الجنوب. ففي بعض الحالات كانت هذه التبعية سببا في تطورات مهمة في هذه المجتمعات. لكن مساوئ التبعية تتمثل في كونها لا تعطي الفرصة لاثبات الذات عند هذه الأقطار. وبالتالي فهي كأنها"عامل اجهاض لكل ما كان يمكن إنجازه في ظروف عادية في تطور هذه المجتمعات . ويمكن تحديد ذلك في قولنا : إن الدول المتقدمة لها سياساتها الاستراتيجية (لرعاية مصالحها) التي تجعلها تضع كل العراقيل أمام الدول التابعة(النامية) لمنعها من التقدم في الميادين الحساسة مثل الطب وبعض أصناف التكنولوجيا إلخ...أي أن لها خططها المدروسة لابقاء تبعية **هذه المجتمعات** إلى أجل غير مسمى . وفي هذا الإطار فالتبعية تعطي الانطباع بأنها تقدم المجتمعات المستوردة مثلا للتكنولوجيا الحديثة دون أن يكون الأمر كذلك في حقيقة الأمر . **ومن ثم فالبقاء في ظل التبعية لا يمكن أن يؤدي إلى الإقلاع التنموي الدائم والحقيقي.**

الفصل الثاني

بعض الجوانب الأخرى لمفهوم التخلف الآخر في الوطن العربي

مقدمة :

يمثل هذا الفصل المرحلة الثالثة لتطور مفهوم التخلف الآخر عندنا. ففي المرحلة الأولى كان التخلف الآخر يقتصر على الجانب الثقافي (اللغة والثقافة) المتدهور لمجتمعات المغرب العربي الثلاثة: الجزائر وتونس والمغرب[119]. وفي المرحلة الثانية استعملنا مصطلح التخلف الآخر كمرادف للتخلف الثقافي النفسي في دراسة مجتمعات الوطن العربي والمجتمعات النامية على العموم[120].وفي هذه المرحلة نريد أن نبرز بعض المعالم الأخرى **للتخلف الآخر** :(1) التخلف الآخر **كنسق**. (2) التخلف الآخر **كمفهوم إمبريقي** ، (3) التخلف الآخر **كفرصة لبداية توطين العلوم الاجتماعية في العالم العربي والعالم الثالث** (4) التخلف الآخر **كأداة تشويه لوعي إنسان العالم الثالث**. وفي اعتقادنا أن هذه الدراسة لن تكون هي الأخيرة حول التخلف الآخر، إذ أن البحث العلمي مسيرة لا تكاد تنتهي اكتشافاتها، خاصة إذا كانت تربة بحثها تربة عذراء كما هو الحال بالنسبة للتخلف الآخر.

أولا : الطبيعة النسقية لظاهرتي التخلف والتقدم

لقد أصبحت كلمتا "التقدم"و " التخلف " مفردتين متداولتين في الحديث عن مجتمعات المعمورة في القرن العشرين . وعلى هذا الأساس جاء تقسيم العالم اليوم إلى أصناف تقرب أو تبعد كثيرا أو قليلا من كلا هذين المصطلحين . فهناك ما يسمى **العالم الأول** الذي يشمل أساسا المجتمعات الغربية الصناعية واليابان. أما مصطلح **العالم الثاني** فطالما يطلق على المجتمعات الإشتراكية الغربية بقيادة الإتحاد السوفياتي سابقا . أما **العالم الثالث** فيطلق على بقية مجتمعات العالم . وأخيرا بدأ بعض المختصين في قضايا التنمية والتخلف في تقسيم مجتمعات العالم الثالث بدورها إلى أنواع أخرى سميت **بالعالم الرابع أو الخامس** لشدة انخفاض مستوى الدخل القومي ولمدى تدهور الأوضاع ومرافق الحياة عموما في هذه المجتمعات. وقد أطلقت الأمم المتحدة على هذا الصنف من شعوب العالم **بالمجتمعات الأكثر فقرا**. وفي كل هذه الإستعمالات لكلمة "التخلف" يكاد هذا الأخير يفيد دائما عند الأكاديميين والناس العاديين على السواء التخلف الإقتصادي والإجتماعي والصحي والديمغرافي، أي ملامح التخلف التي يمكن قياسها بسهولة **بمؤشرات كمية**.

لكن ظاهرة التخلف في مجتمعات العالم الثالث لا تقتصر على تلك المظاهر الكمية (المادية) فقط. ففي رأينا أن ظاهرة **التخلف** مثلها مثل ظاهرة التقدم هي عبارة عن

119 انظر الفصل الأول للباب الثالث من هذا الكتاب.

120 انظر الفصل الأول للباب الثالث من هذا الكتاب.

نسق: أي كل يتكون من عناصر ذات وحدة مترابطة ومتكاملة . ومن هذا المنطلق فـإن تجزئة ظاهرة التخلف أو التقدم (أي التركيز على بعض الملامح وإهمال البقية الأخـرى) لا يمكـن إلا أن تقـود إلى **فهـم مشوه** لكل منهما. ونظريات العلوم الإجـتماعية المرتكـزة عـلى تصور تجزيئي لظاهرة التخلف في العالم الثالث لا ينـتظر مـنها المصـداقية العـلمية على المستويين التنظيري والتطبيقي (العملي). **فالمجـتمع** هـو إذن **نسـق اجـتماعي** ذو جوانب متعددة (إقتصادية ، إجتماعية، صناعية ، ثقافية ...إلخ) تكوّن في النهاية **كلا متكاملا ومترابطا**. فلا يكاد يخلو أي مجـتمع بشـري مما يسمى بالمركب الثقافي (الرموز الثقافية)الذي يشمل عناصر الـلغة والقيم والمعرفة والتقاليد والدين... إلخ. وهناك اتفاق بين دارسي المجتمعات الحيوانيـة والإنسانية أن من يميز الإنسان ومجتمعه عن الحيوان ومجتمعه هو مدى تطـور الجـانب الثقافي عند بني الإنسان ومجتمعاتهم . فقد اعتبر عالم الإجتماع الأمـريكي بارسـن[121]، مـثلا، أن تمكّن حضارة إنسانية ما من اكتساب لغة مكتوبة يجعـلها **أكثر تطورا** من تلك التي لا تملكها. وهذا يعني، من جهة، أن نمو عناصر المـركب الثقافي هو مؤشر على تطور المجتمع وأن تخلف العناصر الثقافية يعني، مـن جهـة أخرى، بدائية هذا المجتمع . ورغم ما لهذه الملاحظة من أهمية بالنسبة لدور تطور الجانب الثقافي في الدفع بعملية التطور للمجتمع ككل فإن المتفحص لما كـتب من البحوث الآكاديمية الغربية (وأكثرها أمريكية) وغير الغربية حول قضايا التـنمية والتخـلف فـي العالم الثالث لا يكاد يجد شيئا يذكر بخصوص أهمية تنمية العناصـر الثقافية (من لغة وقيم ذاتية لهذه المجتمعات) كجزء لا يتجزأ من عملية التـنمية الذاتيـة ككل. ومن هنا جاء اهتمامنا بهذا **الجانب المنسي** الذي أطلقنا عليه مصطلح **التخلف الآخر**[122] .

ثانيا: التخلف الآخر كملمح تخلف لشخصية الإنسان النامي وللتنشئة الإجتماعية :

إن طرحـنا للتخـلف الآخـر يتماشى كما رأينا مع التصور السوسيولوجي الحديث للمجتمع البشري كنسق إجتماعي . **فالتصور النسقي** يعتبر المجتمع :

أ /مـن ناحية أولى جسدا إجتماعيا متعددا ومختلف التركيبة (المركب الإقتصادي ، المـركب الديمغرافي،المـركب الثقافي...) ومن ناحية أخرى فإن مكونات المجتمع هـذه رغـم اختلافها وتعددها تكوّن في النهاية وحدة مجتمعية متضامنة ومتكاملة . ومن ثم جاءت شرعية إطلاق مصطلح النسق على المجتمع.

ب/ إن تلك المكوّنات للمجتمع لها القدرة الذاتية على النمو والتطور والتعاضد مثلها مـثل أعضـاء الجسم البيولوجي للكائنات الحية المعقدة على الخصوص وذلك عند توفر الشروط اللازمة لذلك . وعلى عكس ذلك يمكن أن يتعطل أو يتوقف المجتمع البشـري كنسـق عـن النمو والتطور في كل أو بعض مركباته الذاتية ، فيتدهور

---

[121] انظر : Parsons,T Societie:. Evolutionary and Comparative Perspectives, Englewood Cliff, N-J Prentice-Hall, 1960

[122] انظر الفصل الأول من الباب الثالث لهذا الكتاب.

وترتــبك عمليات التنسيق والتضامن في وحداته وفيما بينها . مما يؤدي في النهاية إلى **تخلفه.**

ج/ إن **المجــتمع كنسق يتفاعل داخليا وخارجيا** . فتنميته وتخلفه يتأثران، من جهة، بطــبيعة تفاعلات مكوناته الداخلية الذاتية ، ومن جهة أخرى، بطبيعة احتكاكاته مع العــالم الخارجي . وبخصوص عملية التنمية في المجتمعات النامية هناك إتفاق بين مختصي التنمية اليوم على أن نقطة الإنطلاق في هذه العملية ينبغي أن تعتمد ، أولا وقــبل كل شيء، على **التنمية الذاتية المتوازنة** بين كل قطاعات المجتمع[123]، بحيث لا يــنمو بعضــها عــلى حســاب تخلف البعض الآخر . وبعبارة أخرى ، **التنمية الــناجحة من وجهة المنظور النسقي هي التنمية المجتمعية التي يتكامل فيها نمو كــل قطاعــات المجــتمع الإنساني تكاملا كليا وعضويا**. ومن هذه الرؤية النسقية للمجــتمعات البشــرية يمكــن وصف **المجتمعات النامية** بأنها **مجتمعات تشكو من مســتوى مــتدن في علمية التنمية الذاتية وفي مدى التنسيق المتزن بين تطور القطاعات المتعددة والمختلفة للمجتمع النامي.**

وعــلى سبيل المثال، فإن ما سميناه **بالتخــلف الثقافي النفسي**[124]أو التخلف الآخر ما هــو إلا ملمح من ملامح التخلف العام الذي تتصف به أنساق معظم مجتمعات العالم الــثالث في العصر الحديث . وهو **تخلف يمس العناصر الذاتية للمجتمع كالثقافة والــلغة والقيــم والــزاد المعــرفي العلمي للمجتمع، كما أنه يمس نفسيا تركيبة شخصية الفرد والشخصية الجماعية لنفس هذا المجتمع.** وبطبيعته المزدوجة يكون مفهوم التخلف الآخر مؤهلا لكي تستفيد منه العلوم الإجتماعية والإنسانية خاصة في بحوثهــا حــول قضــايا التنمية والتخلف وما يرتبط بهما في المجتمعات النامية كما سوف نرى في هذا الفصل .

ثالثا : الصياغة الإمبريقية لمفهوم التخلف الآخر:

وســعيا مــنا لــتحديد طبيعة مفهوم التخلف الآخر رأينا أن الوصول إلى صياغة إمــبريقية لـــه ســوف يساعد، من ناحية، على استعماله كمفهوم بحث خاصة في مجــتمعات الوطــن العربي وبقية مجتمعات العالم الثالث المعاصرة. ومن ناحية أخــرى، فإن هذه الصياغة الإمبريقية سوف توضح أكثر مركبات الطبيعة النسقية لمفهــوم التخــلف الآخر. فعلى المستوى الإمبريقي يمكن تفكيك التخلف الآخر إلى مركبين رئيسيين:

1- **التخلف الثقافي.**

2- **التخلف النفسي .**

ويتفرع كل منهما كالتالي :

---

123 ، انظر: Unesco, 1981 : Perroux F/,Pour une philosophie du nouveau développement –Paris:

124 انظر الفصل الأول للباب الثاني لهذا الكتاب.

فالتخـلف الـثقافي له **ثلاثـة ملامح**:أ/ **التخلف اللغوي** الذي يتمثل عادة في تخلف استعمال لغة المجتمع الوطنية وذلك لانتشار استعمال لغة أجنبية محلها في كثير من الميـادين خاصة العصرية منها . ومنافسة اللغة الفرنسية للغة العربية في مجتمعات المغـرب العربي مثال على ذلك . ب/ **التخلف الثقافي** الذي يمس ما يمكن تسميته بالـزاد المعـرفي العلمي الذاتي (في العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية والإجتماعية عـلى السـواء) لمجـتمعات الوطن العربي ومجتمعات العالم الثالث . ففي العصر الحديـث أصبحت هذه المجتمعات تعتمد إلى حد كبير على الزاد المعرفي العلمي الغربي في كل هذه العلوم **ج/التفكك** (الارتباك) الذي تعرضت وتتعرض له قيم هذه المجتمعات . فاحتكاك هذه الأخيرة في العصر الحديث **بالغرب الغالب** سمح بانتشار قيمـه بين هذه **الشعوب المغلوبة** ، خاصة قيم التحديث والعصرنة . ومن ثم **تلاشت بعـض القيم التقليدية** ،من جهة، ودخلت ، من ناحية أخرى، بعض القيم في **صراع** مع القيم الغربية الغازية . ومن هنا جاء تصورنا للتخلف(**للتفقير**) على مستوى القيم الأصلية (الذاتية) لهذه المجتمعات.

وباختصـار فإن هذه الأصناف الثلاثة للتخلف الثقافي تمثل في النهاية **تفقيرا** (تخلفا) لهذه العناصر الثلاثة المترابطة وهي اللغة والمعرفة الثقافية والعلمية والقيم الثقافية. ولا بـد أن يكـون لهيمـنة المعـارف العلمية الغربية وازدواجية التركيبة اللغوية وصـراع القيـم فـي هـذه المجتمعات **انعكاسات على هوية إنسان العالم الثالث المتأثرة بهذه الرموز الثقافية.**

إن هذه الملامح الثلاثة للتخلف الثقافي تُحدث بدورها ظاهرة ما أطلقنا عليه من قبل اسـم **التخـلف النفسـي** . ويأخذ هذا الأخير شكلين : (1) ظاهرة **الشعور بمركب الـنقص** لدى شعوب العالم الثالث إزاء المجتمعات الغربية . ويرجع هذا أساس في نظرنا إلى تأثيرات الملمحين الأوليين من التخلف الثقافي المشار إليهما سابقا .

(2) أن الـنوع الـثالث مـن التخلف الثقافي (التفكك والتخلف على مستوى القيم المذكـورة آنفـا) يمكن أن يؤدي في مجتمعات الوطن العربي والعالم الثالث إلى ما اسماه علماء الاجتماع المعاصرون **بالشخصية المضطربة** التي يمكن أن تبدو عليها أعـراض نفسـية مرضـية . وعلى مستوى الطبيعة النسقية لمفهوم التخلف الآخر يوضح الجدول التالي **إن التخلف الآخر في صياغته الإمبريقية هو عبارة عن نسق تتفاعل فيه عناصر الجانب الثقافي مع عناصر الجانب النفسي وفق نمط تبادلي.**

الجدول الثاني

	التخلف الثقافي النفسي (التخلف الآخر)		
ملامح التخلف الثقافي	١-التخلف اللغوي ٢-التخلف المعرفي (العلمي)	-الشعور بمركب النقص إزاء الغالب (الغرب) ومحاولة تقليده.	ملامح التخلف النفسي
	٣- التفكك (التخلف) على مستوى القيم	٢- الشخصية المضطربة وأعرض نفسية مرضية	

ويتمثل هذا التفاعل المتبادل في كون الشعور بمركب النقص(التخلف النفسي1) يؤثر بدوره على عمليتي التخلف اللغوي (1) والتخلف المعرفي العلمي (2) . فشعور إنسان المغرب العربي (بالجزائر وتونس والمغرب) بمركب النقص إزاء الفرنسي الغالب يصبح ،من جهة، دافعا مهما عند الجزائري والتونسي والمغربي لتعلم اللغة والثقافة الفرنسيتين .، ويصبح ،من جهة أخرى، سببا يساهم في تكوين عقدة الاحتقار للغة والثقافة الوطنيتين عند هؤلاء. فانعكاسات الشعور بالنقص على المستوى النفسي تُعَمّق إذن من ملمحي (1و2) التخلف الثقافي الذي يشارك في النهاية في إفراز ظاهرة **التغريب الثقافي** التي تنتشر في كثير من مجتمعات العالم الثالث، خاصة بين الفئات التي تغلب عليها ملامح ا لثقافات الغربية.

كما أن الشخصية المضطربة (التخلف النفسي 2) تؤثر هي الأخرى على درجة التفكك على مستوى القيم (التخلف الثقافي 3) بحيث أن الشخصية التي تشكو من صراع القيم تصبح بنيتها **أكثر تفككا** ومن **ثم أكثر استعدادا لتسرب القيم الأجنبية إليها** . وهذا من شأنه أن يعمق من تفكك تركيبة الشخصية المضطربة . وبالتالي يؤدي بها إلى حالة من **التذبذب** على مستوى الانتماء الثقافي . ومثل هذا الوضع قد يقود صاحبه إلى ما سمته عالمة الإنتربولوجيا الأمريكية مارجريت ميد (M.MEAD) "متاجرة بالهوية Identity Prostitution"، أي مساومة الأفراد على شخصيتهم الجماعية من أجل التخفيف من الشعور بمركب النقص الذي أشرنا إليه . ولعل مفهوم الشخصية المضطربة يفسر رد بعض الطلبة الجامعيين من العالم الثالث الذين لهم لغة وطنية والذين يردون على سؤال أصدقائهم الأمريكيين: أي لغة تتكلمون في بلادكم؟فيجيبون: "نتكلم الفرنسية أو الإنجليزية"[125]. ومثل هذا السلوك اللغوي يوضح

[125] ان مثل هذا التصرف يشير إلى الشعور بمركب النقص إزاء الغرب عند هؤلاء الطلاب هو سبب مهم في دفع الطالب الجزائري أو التونسي أو المغربي أحيانا وعند البعض إلى عدم ذكر اللغة العربية كلغة وطنية ينتمي إليه. وقد لاحظت شخصيا مثل هذه الظاهرة بين بعض للطلبة التونسيين بالولايات المتحدة الامريكية.

أن التخــلف الآخــر ذو طبيعة نسقية أي أن عناصره الثقافية والنفسية تؤثر وتتأثر ببعضها البعض.

رابعا : عدم تجانس التركيبة الثقافية للمجتمعات النامية

إن مجــتمعات العـــالم الـــثالث، خاصة تلك التي سقطت تحت الإستعمار التقليدي الغــربي، تمــثل العيــنة المثلى التي ينطبق عليها الجدول السابق بجزئيه : التخلف الثقافي والتخلف النفسي.

فعــلى المستوى اللغوي تسربت لغة المستعمر بدرجات مختلفة إلى التركيبة اللغوية لهــذه المجتمعات على المستوى الرسمي وغير الرسمي . **فاستعمال اللغة الأجنبية** فــي المؤسســـات الوطنية جنبا لجنب مع اللغة المحلية أو استعمالها لوحدها **ظاهرة منتشــرة فــي كثير من مجتمعات إفريقيا وآسيا** على الخصوص . فالإنجليزية أو الفرنســية هـــي اللغة الرسمية لمجتمعات إفريقية عديدة. ومن ثم جاء تقسيم القارة الإفــريقية إلى إفــريقيا الـــناطقة بالإنجــليزية(Anglophone Africa)وإفريقيا الناطقة بالفرنســية(Francophone Africa). ومن هذا الواقع اللغوي الجديد لكثير من مجتمعات العـــالم الـــثالث ولدت ظاهرة **الإزدواجية اللغوية والثقافية** في التركيبة الثقافية لهذه المجــتمعات. **والعالم العربي مثال على هذا الانشطار الثقافي في العصر الحديث.**

فبينما كان اللسان العربي والثقافة العربية الإسلامية الأرضية المشتركة بين الأقطار العربية مغربا ومشرقا قبل الاحتلال الإستعماري أصبحت التركيبة الثقافية واللغوية للمجــتمعات العربية تركيبة مزدوجة كنتيجة لمجيء الإستعمار الإنجليزي والفرنسي للمجــتمعات العــربية. وكـــان لهذا الانشقاق اللغوي الثقافي في العصر الحديث في الوطن العربي انعكاسات ذات مستويين على الأقل:

1/ **صـــراع الأجيال** المتمثل في صراع تقليدي (جيل أمي أو ذو تكوين ثقافي تقليدي مـــع جيــل حديــث ذي تكوين تعليمي غربي). وبعبارة أخرى ، إن هذا النوع من **الصراع هو حصيلة رؤيتين ثقافيتين غير متجانستين .**

2/ أمـــا على مستوى المجتمعات العربية فإن احتلال الإستعمار البريطاني الفرنسي لمعظمهـــا قـــد أثر على تركيبتها اللغوية والثقافية في اتجاه **الانشطار والإزدواجية .**

ففـــي أقطـــار المغـــرب العـــربي (الجزائـــر وتونس والمغرب)ظهرت **إزدواجية المتعــلمين:** من جهة هناك فئة ذات تكوين لغوي وثقافي متجذر في الثقافة العربية الإســـلامية كالزيـــتونيين بـــتونس وجمعية العلماء الجزائريين بالجزائر والقرويين بالمغـــرب . ثـــم هناك، من جهة ثانية، فئة المتعلمين ذوي التكوين اللغوي والثقافي الفرنســـيين الذين كانوا يمثلون أغلبية عينة المتعلمين قبل استقلال هذه الأقطار على الخصوص من الإستعمار الفرنسي . أما في المشرق العربي فإن الإزدواجية الثقافية واللغوية لم تكن موجودة بتلك الحدة وذلك الانتشار الذي اتصف به الوضع الثقافي الـــلغوي لمجــتمعات المغرب العربي . **إذ أن الإستعمار الفرنسي يتميز عن نظيره الإنجــليزي بجديـــة خطة إستعماره اللغوي والثقافي في المجتمعات التي سقطت تحت سطوته.**

ومـــع ذلك فالإزدواجية الثقافية اللغوية تتضح في المشرق حتى يومنا هذا خاصة في مصـــر بيـــن الأزهرين وذوي التكوين الإنجليزي/ الأمريكي الثقافي واللغوي. ومع الطفرة النفطية وانفتاح مجتمعات الخليج العربي لغويا وثقافيا خاصة على المجتمعين الـــبريطاني الأمريكي ، وذلك بإرسال الآلاف من الطلبة والمتخصصين والموظفين والعســـكريين إلى هـــناك . فـــإن ظاهـــرة الإزدواجيـــة اللغوية الثقافية بدأت تتسع ملامحها. ومن المنتظر أن **تقود هذه الإزدواجية إلى توترات داخل المجتمعات** بين ذوي الـــتكوين الـــلغوي الـــثقافي الغـــربي، مـــن ناحية، وأصحاب الثقافة العربية الإســـلامية، مـــن ناحيـــة أخـــرى . وانعكاسات هذه الإزدواجية على اللغة القومية (العـــربية الفصـــحى) والحضـــارة العربية الإسلامية لا يستبعد أن تكون انعكاسات سلبية:

(أ) فأصـــحاب التكوين اللغوي والثقافة الغربيين من شباب هذه المجتمعات يحتلون في الغالب وظائف ومواقع حساسة لا تعطى لذوي التكوين الثقافي اللغوي العربي الإســـلامي . وهـــو وضع يشبه إلى حد كبير وضع مجتمعات عانت من الإستعمار القديـــم مـــثل تونـــس والمغـــرب حيث لا زال التونسي والمغربي صاحب التكوين الفرنسي لغة وثقافة ذا حظ أكبر لتقلد مواقع مسؤولة . ومما لا شك فيه أن الإستعداد لإعطاء اللغة والثقافة الأجنبيتين هذه المكانة لن يساعد على خلق عقلية إنشاء واقع جديـــد يعـــزز من احترام اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية بين هذه الأجيال المزدوجة الثقافة واللغة.

(ب) ومممـــا يـــزيد في أزمة اللغة والثقافة العربية الإسلامية في وجه ازدياد ظاهرة الإزدواجيـــة فـــي مجتمعات الخليج تدني مستوى الفصحى بين الأجيال المتعلمة من جهـــة وضـــعف تكوينها الناضج في الثقافة العربية الإسلامية، من جهة أخرى[126].

ومـــن هـــذه الخلفية المتدهورة في اللسان العربي والثقافة العربية الإسلامية لأجيال الخليج المتعلمة الحديثة فإنه من الصعب جدا أن تنجح في تحدي آثار اللغة والثقافة الغربيـــتين وتحوله لصالح تركيبتها الثقافية: اللغة العربية الفصحى والثقافة العربية الإســـلامية . **وانتشـــار لغة أجنبية في مجتمع ما يصاحبه غالبا انتشار بعض قيم حضـــارة هـــذه الـــلغة ، خاصة بين الفئات التي تعلمتها وتأثرت بالنظام التربوي للحضارة الأجنبية كما كان هو الحال لكثير من فئات مجتمعات العالم الثالث تحت سيطرة الإستعمار الغربي .**

بالإضافة إلى ذلك لا بد من ذكر بعض المؤثرات الحديثة التي ساعدت وتساعد هي الأخـــرى عـــلى ازدياد تفشي ملامح الثقافة الغربية في المجتمعات النامية. فوسائل الإعـــلام الحديثة والمسيطر عليها من طرف المجتمعات الغربية يتسرب بسببها أثر ثقـــافي غـــربي غيـــر هيـــن إلى مجتمعات الجنوب التي تستهلك الشيء الكبير من الـــبرامج الغـــربية ، خاصة التلفزية منها . وفي وقت أصبح العالم عبارة عن قرية

[126] انظر للمؤلف المقا ل "الأمية الجديدة عندهم وعندنا" بمجلة العربي (افريل (1985والفصل الثالث للباب الثاني لهذا الكتاب

صـــغيرة، كما قال ماكلوهن، فلا يمكن إغفال تسرب التأثيرات الثقافية بين مجتمعات المعمـــورة . وفـــي عمـــلية التـــبادل هذه ، لا شك أن التأثير الأكبر هو من نصيب المجـــتمعات الغـــربية الأقـــوى . ومما يكمل حلقة تسرب الآثار الثقافية الغربية في مجـــتمعات العالم الثالث استيراد هذه الأخيرة الشيء الكثير من الغرب : التكنولوجيا وأنمـــاط الـــثياب والأغذيـــة المصنعة ..إلخ..فهذه العناصر المستوردة تحمل معها بالتأكيد تأثيراتها الثقافية إلى المجتمعات المستهلكة. فكل هذه العوامل المساعدة على انتشار معالم الثقافة الغربية في مجتمعات العالم الثالث **لا بد أن تشعر إنسان العالم الثالث شعوريا أو لا شعوريا بأنه لم يفلت من قوة هيمنة الغرب.** وتستمر ظاهرة **الشـــعور بمـــركب النقص** إزاء الغرب رغم ادعاء هذه المجتمعات إيديولوجيا بأنها مجـــتمعات مستقلة ذات سيادة. ومن ثم يأتي **الشعور بالغربة** ولو قليلا أحيانا كسمة من سمات هذه المجتمعات.

خامسا : التفكك الثقافي كميدان لبحوث العلوم الاجتماعية :

فمـــن الـــناحية العـــلمية البحثية فإن انعكاسات ظاهرة انتشار عدم التجانس اللغوي الـــثقافي بكـــل تناقضاتها في مجتمعات العالم الثالث اليوم تتطلب جهودا خاصة من مختصـــي العـــلوم الإنســـانية والإجتماعية هناك للتعرف على طبيعة انعكاسات هذا الواقـــع الـــلغوي الثقافي على شخصية الفرد وتركيبة المجتمع النامي . وهكذا تكون هـــذه المجـــتمعات ميدانـــا صالحا لدراسة آثار مركبات التخلف الآخر الخمسة على حـــركية هذه المجتمعات وأنماط السلوك التي قد تكون من أعراض التخلف الثقافي النفســـي . فهـــناك دراسات للعلوم الاجتماعية تفيد أن الأمراض النفسية تزداد عند المهاجـــرين الذيـــن يتعرضـــون لصراع القيم[127] : (بين قيم موطن الأصل وموطن الهجـــرة). وصـــراع القيم في مجتمعات العالم الثالث يؤدي في النهاية إلى **التفكك الثقافي كظاهرة اجتماعية** . وكثيرا ما ربط علم الاجتماع المعاصر ظواهر الجريمة وانحـــراف والتفكك الاجتماعي وضعف التضامن الإجتماعي بظاهرة التفكك الثقافي في المجتمع .

إن دراســـة ظاهرة عدم التجانس اللغوي الثقافي وظاهرة التفكك الثقافي الناتجة عن ذلـــك إلى حـــد كبير في المجتمعات النامية تصبح، من جهة، **أولوية** خاصة لباحثي العـــلوم الإجتماعية والإنسانية لهذه المجتمعات، ومن جهة أخرى، أرضية لا بد منها **لـــتوطين هـــذه العلوم في العالم الثالث.** فمفهوم التخلف الآخر هو حصيلة لجهودنا المتواصلة من أجل تجذير نظريات ومفاهيم ومناهج العلوم الإجتماعية الإنسانية في تربة واقع المجتمعات العربية على الخصوص .

وتعد مجتمعات المغرب العربي أفضل عينة بحثية لإبراز الملامح التوطينية لمفهوم التخـــلف الآخـــر،من ناحيـــة، ومن ناحية أخرى للتدليل على مدى **جدوى استعماله**

127، انظر كتاب -Kisker,G., The Disorganized Personality, London McGraw Hill, Inc . 1982 pp.103-106

كأداة بحث في طرح الفروض وإنشاء المفاهيم والوصول إلى النظريات في العلوم الإجتماعية المرتبطة بواقع المجتمعات النامية . فهذا المفهوم، كما رأينا، نشأ وتطور عندنا من اهتمامنا بدراسة التخلف الثقافي النفسي بهذه الأقطار.

سادسا: دراسة التخلف الآخر كفرصة لتوطين العلوم الإجتماعية بالوطن العربي والعالم الثالث

وفي ضوء وجود ظاهرة التخلف الآخر في المجتمعات النامية بما فيها المجتمعات العربية،من ناحية، و**إهمال** العلوم الإجتماعية الغربية الليبيرالية والماركسية على السواء لدراسة هذه الظاهرة، من ناحية أخرى ، **تأتي شرعية دور مختصي العلوم الإجتماعية بالعالم الثالث** في البحث والدراسة في هذه التربة شبه العذراء من أرض التخلف في هذه المجتمعات . فاقتحام هذا الميدان تمحيصا وتنقيبا هي مساهمة بحثية لا بد أن تساهم في بدء **إرساء علوم إجتماعية من صنع العالم الثالث**. وتنتظر من مثل هذه العلوم **أن يكون لها تصور يختلف عن تصور العلوم الإجتماعية الغربية بالنسبة لقضايا التخلف في مجتمعات العالم الثالث**. فالتخلف ينبغي أن ينظر إليه على أنه ذو وجهين:

1- الوجه الخارجي المتمثل في الجوانب الإقتصادية والديمغرافية والصحية والإجتماعية ..التي درستها العلوم الإجتماعية الغربية بمنظور غربي وغالت في ذلك ،2- والوجه الخفي للتخلف (التخلف الآخر) الذي ينعكس فيما يعانى منه إنسان العالم الثالث من مظاهر تخلف تمس أساسا لغته وثقافته وقيمه ونظرته إلى نفسه .. أي **شخصيته ككل**.

ومن ثم فإن مفهوم التخلف الثقافي النفسي (التخلف الآخر) يصبح في نظرنا أداة بحث رئيسية يصعب الإستغناء عنها في أي دراسة علمية لقضايا التنمية والتخلف في كل من مجتمعات الوطن العربي وبقية أقطار العالم الثالث. فالمناداة بتوطين علوم إجتماعية في تربة المجتمعات النامية تهتم على الخصوص بمعضلات التنمية والتخلف هي دعوى جد شرعية . فالنظريات الغربية في العلوم الإجتماعية أثبتت **إفلاسها** بعد إشاعة آمال لا تستند إلى أرضية علمية بخصوص مستقبل هذه المجتمعات لفترة الأربعين سنة الماضية على الأقل [128].

ومثل هذا **الإتجاه التوطيني** لهذه العلوم هو في رأينا **المسيرة الطبيعية** لنشأتها ونموها واكتسابها المصداقية البحثية والنظرية[129]، إذ أن العلوم الإجتماعية ذات

---

[128] يرجع ذلك في نظرنا إلى ما يمكن تسميته بازدواجية الروح العلمية عند الباحثين الغربيين. ان عامل الاستعمار الغربي هو العامل المشترك لمعظم المجتمعات النامية. فالاحتكاك بين المستعمر والمستعمر هو أول شيئ لا بد ان تعترف به الروح العلمية . وفي هذا اللقاء طبعا تفاعل بين الحضارات. ولذلك انعكاسات من حيث التأثر والتأثير وبالتالي التغير والتغيير بين المتفاعلين سلبا وإيجابا . فإذا لم يعترف بذلك فكيف يمكن لهذه العلوم ان تدعي العلمية والموضوعية في تحليلاتها للتنمية والتخلف؟

[129] ولا بد من الاعتبار هنا ان التحرر من الزاد المعرفي الغربي السائد والمسيطر على رؤى مثقفي العالم الثالث المهتمين بالتنمية والتخلف ليس بالأمر الهين . لكن لعل أزمة النظريات الغربية للتنمية هي عامل مهم يساعد علماء الاجتماع والاقتصاد في الدول النامية على التحرر من المناظير الغربية وبالتالي المساهمة في ارساء نظريات جديدة في ميدان قضايا التنمية والتخلف

طبيعة ونظريات وقوانين يصعب تصديرها للتطبيق في مكان غير مكان منبتها . وهي بالتالي طالما تجد نفسها غريبة جدا إذا ما ألقي بها بعيدا في مجتمع ما ذي ظروف اجتماعية وثقافية وتاريخية تختلف عن ظروف المجتمع الذي نشأت فيه[130].

ومن هنا فتجاهل دراسة التخلف الآخر مثال حي على أن نظريات وتصورات العلوم الإجتماعية الغربية لظاهرات المجتمع غالبا ما تكون متأثرة بظروف المجتمعات الغربية وبالتالي محدودة الاستعمال العلمي والتعميم. فالمنظرون الغربيون الإجتماعيون حول ظاهرتي التنمية والتخلف لم يتطرقوا، في دراساتهم وبحوثهم، إلى التخلف الآخر لأسباب عدة من بينها أن مجتمعاتهم لم تعان من ظاهرة التخلف الآخر[131]. وفاقد الشيء، كما يقال، لا يعطيه . وهكذا فلا يجد الباحث في أدبيات هذه العلوم مفاهيم وأدوات بحث ونظريات يمكن أن تساعده على فهم مثل هذه الظاهرة وذلك رغم آلاف أطنان الكتب والمجلات والتقارير المتخصصة التي تم نشرها إلى حد الآن حول ظاهرتي التخلف والتنمية . وحتى وان كانت بعض هذه المنشورات قد اهتمت بدراسة الملامح الثقافية لتركيبة هذه المجتمعات **فإنها غالبا ما تنهي نتائج بحوثها بوصم التراث الثقافي لهذه المجتمعات بالدونية و"التأخرية "** منادية تصريحا أو تلميحا بتعويضه أو تهميشه على حساب إدخال معطيات ثقافية غريبة إليها . وفي **هذا تحيز** ثقافي بين يحرم العلوم الإجتماعية الغربية من روح الموضوعية ومن معرفة علمية كان يمكن الإنتفاع منها في فهم قضايا ومشاكل التخلف في العالم الثالث بصورة أكمل[132].

أما في المجتمعات النامية العربية وغير العربية فظاهرة **التخلف الثقافي النفسي** هي من معطياتها وخصوصياتها الحساسة كما رأينا في هذا الفصل وغيره من هذا فصول الكتاب. فدراستها لا تأتي شرعيتها في نظرنا من كونها **واقعا تخلفيا خفيا** فقط لهذه المجتمعات في سباق التنمية ، وإنما لكون التعمق البحثي في هذا الجانب من التخلف سوف يساعد أيضا على **إثراء الزاد المعرفي العلمي في مجتمعات الجنوب** فيما يخص قضايا واستراتيجيات التنمية وإمكانيات الخروج أو عدمه من ظاهرة التخلف الكبرى . فالتنظير الأكثر مصداقية للعلوم الإجتماعية المهتمة بدراسة العالم الثالث لا يمكن أن يتم إذا لم ينطلق من معطيات خصوصيات (أي من داخل) هذا المجتمعات . **فكسب التنظير السوسيولوجي الناضج حول فهم حركية هذه الشعوب غير ممكن بدو أن يلطخ المنظر الاجتماعي يديه في تربة خصوصيات المجتمعات النامية .** فالمعرفة الإجتماعية مهما تحسنت مناهجها

---

130 انظر مقال"نحن ...بين الموروث والوافد " لطارق البشري، المستقبل العربي ، فبراير 1984 عدد60

131 اني بصدد كتابة دراسة بالانجليزية حول الاحتمالات والأسباب التي أدت إلى صمت العلوم الاجتماعية الغربية بخصوص "التخلف الآخر". فهي محاولة دراسة مفصلة في علم اجتماع المعرفة لغياب دراسة "التخلف الثقافي النفسي" بالمعنى الوارد هنا في أدبيات التنمية والتخلف الغربية

132 Mc.Cleland، The Achieving Society, New York, Free Press1961,and Inkeles، Smith,D., E., Becoming Modern، Cambridge, Harvard University Press,1970

فهذان الكتابان يعكسان قدرا كبيرامن الانحيازلقيم الحضارة الغربية ، خاصة الأمريكية منها.

البحـــثية وتفـــتقت مخيـــلات الساهرين على التنظير الإجتماعي حول المجتمعات والحضـــارات الإنســـانية تـبقى فـــي النهاية ضيقة الاستعمال بصورة أو بأخرى لارتباطها بالظروف الخاصة التي تحيط بنشأتها[133].

سابعا : أسس نجاح ابن خلدون في إرساء نظرية اجتماعية عربية :

إن مبدأ التركيز على خصوصيات المجتمعات هو الأرضية الصلبة لإفراز التفكير الإجتماعي ذا الرؤى والنظريات التي تصلح لفهم واقع هذه المجتمعات . **فلا ينتظر وجود علم إجتماع عربي في العصر الحديث مثلا دون دراسة المجتمعات العربية من خلال خصوصياتها المميزة له**[134].

ففـــي رأيـــنا **إن نجاح ابن خلدون في تأسيس علم إجتماعي عربي (علم العمران البشـــري) يعـــود إلى أن صـــاحب المقدمة التزم في تحاليله الإجتماعية بدراسة خصوصـــيات هـــذا المجـــتمع العربي الكبير** . ومن ناحية أخرى، فإن فشل علماء الإجتماع العرب المعاصرين مجتمعين في إرساء أسس علم إجتماع عربي معاصر يرجع كما هو معروف إلى استيراد علماء الإجتماع العرب لمفاهيم ونظريات هذا العـــلم مـــن الغرب على الخصوص ومحاولة تعميم تطبيقها في المجتمعات العربية ذات الخصوصـــيات، كمـــا أشرنا، المميزة لها . ونتيجة هذا التقليد انعكست **سلبيا** على مستويين :١- ان كثيرا من نظريات ومناهج العلوم الإجتماعية الغربية طالما يكـــون تطبيقها غير مجد بالنسبة للأوضاع العربية، ٢- إن غزو العلوم الإجتماعية الغـــربية للتفكير الإجتماعي لعلما الإجتماع العرب جعل ظهور علم إجتماع عربي أصـــيل أمرا غير ممكن . فكل باحث في "الظاهر الخلدونية " لا يسعه إلا أن يرجع تميز مؤلف المقدمة، في تفكيره الإجتماعي عن سابقيه ولاحقيه من أبناء هذه الأمة، **إلى أن مـــادة دراســـاته وملاحظاته وتحليلاته كانت مادة عربية ومغاربية على الخصـــوص** . كـــان مـــن خصـــائص المجتمع العربي الذي نظّر عنه ابن خلدون العصـــبية والـــبدو والتنظيم القبائلي والقيم الإسلامية والترف والحضر.. وهي كلها مكونات وعناصر عربية أثرت التأثير الكبير كما تفصح عن ذلك المقدمة في رؤية ابـــن خلدون لحركية المجتمع العربي صعودا وهبوطا .فالواقعية الخلدونية المتمثلة **أولا فـــي الـــتزامه باســـتعمال معطيـــات عربية مصرفة في فهم المجتمع العربي** واتسامه **ثانيا** في تحليلاته الإجتماعية بروح علمية وبموضوعية عاليتين مكنتاه فعلا من ابتكار علم العمران ليس فقط بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية وإنما بالنسبة للحضارات الإنسانية جمعاء التي سبقت زمان[135].

---

[133] Mill, C.W The Sociological Imagination, New York, Oxford University Press, 1959

[134] انظر ملخص "ندوة نحو علم اجتماع عربي" المجلة العربية للعلوم الانسانية عدد -1983- 12

[135] انظر كتاب Y.Lacoste; Ibn Khaldoun, naissance de l'Histoire, passé du tiers-monde La Decouverte, Paris 1998.

ثامنا : الاتكال على الذات هو البديل للعلوم الإجتماعية بالوطن العربي والعالم الثالث

إن ازديـــاد نقـــد الـــناقدين لنظريات التنمية والتخلف للعلوم الإجتماعية الغربية من حيـــث مدى صلاحياتها لمجتمعات العالم الثالث أصبح واقعا معروفا يجد ولاء أكبر كـــل يـــوم بين كثيرين من المفكرين الإجتماعيين المهتمين خاصة بقضايا التخلف والتـــنمية[136]. لكـــن موقف النقد هذا أصبح غير كاف. فهو من نوع "أقل الإيمان" . ووضـــع التنمية والتخلف في المجتمعات النامية **يحتاج إلى البحث والدراسة برؤية جديـــدة** تتلافى ما شوهته أو أهملته تماما العلوم الإجتماعية في بحوثها ودراساتها لمجتمعات الجنوب . **فميدان التخلف الآخر مسؤولية تقع أولا وبالذات على عاتق باحـــثي ومختصـــي العـــلوم الإجتماعية بالعالم الثالث.** فالغوص في معطيات هذا الجـــانب من التخلف بجهود علمية بحثية ما هو إلا تصحيح علمي للصورة الناقصة والمشـــوهة للتخـــلف وللتـــنمية الـــتي عودتـــنا عليها العلوم الاجتماعية الغربية أو "المتغربة".

إن تحـــاليل هذه العلوم لا تكاد تذكر الخلفية التاريخية الاستعمارية لظاهرة التخلف ولا عـــامل ميـــزان القوى الذي عمل،من جهة، **لصالح تقدم المجتمعات الصناعية الغـــربية،** ومـــن جهة أخرى، ساهم ولا يزال يساهم في تأخر المجتمعات النامية ، وبالتالي فحلولها المقترحة للخروج من التخلف لا تشير من بعيد أو قريب إلى تعديل ميزان القوى بين الأطراف (الغرب والمجتمعات النامية)، كاستراتيجية للخروج من مـــأزق التخـــلف فـــي العالم الثالث[137]. وإذا كان لهذا الفصل وغيره من فصول هذا الكـــتاب الحظ في المساعدة على توضيح إشكالية التخلف الآخر فإنها قد أبرزت في نفس الوقت الطريق الصعب الذي تواجهه مجتمعات العالم الثالث للخلاص ليس من التخـــلف الآخـــر كنسق تخلف ثقافي نفسي فقط وإنما من التخلف كنسق كبير بصفة عامـــة . إن الإهـــتمام بالـــبحث في تربة التخلف الآخر **هو نظرة جديدة إلى تركة التخـــلف.** فالاعـــتراف والوقـــوف عـــند معطيات هذا التخلف هو الرجوع بظاهرة التخـــلف إلى أهم عنصر يساهم فيها ألا وهو **الإنسان** . فإن تخلف هذا الأخير على المستوى الثقافي والنفسي(التركيبة الشخصية)فمن أنى يرجى له الخلاص؟**إن ســـلب الإنســـان أهم رموزه الثقافية هو سلب لإنسانيته** . فالتغلب على معضلات التخلف الآخـــر في العالم الثالث كسب وتمتين لشخصيته وذاتيته هذه ضد التبعية .**فالتخلف الآخـــر تعطيل لقدرات الإنسان وطاقاته من الداخل**[138].فهو هدر للدوافع والطموحات والـــثقة بالـــنفس التي هي لهيب الحركة الإنسانية في المجتمعات البشرية . **فدعـــوة الـــبعض إلى تغييـــر معالم شخصية إنسان العالم الثالث للنجاح في مسيرة التنمية**

---

[136] فرجاني، نادر غياب التنمية في الوطن العربي المستقبل العربي ، عدد65، فبراير 1984

[137] رغم أنه من المسلمات أن علاقة الغالب بالمغلوب تؤثر سلبا على العموم في هذا الأخير.

[138] Gardner,H., Frames of Mind (New York , Basic Books, 1983).

لـــن يكـــون لهـــا أي معنى إذا لم تشمل تغيير عناصر التخلف الآخر المشار إليها سابقا.

تاسعا: الإسهامات الإيبستيمولجية للعلوم الاجتماعية في دراسة الجانب الثقافي للإنسان

يتضـــح مـــن صياغتنا الامبريقية للتخلف الآخر (الجدول الثاني) ان الجانب الثقافي (الـــلغة ، الـــزاد المعرفي/ العلمي، والقيم) ذو وزن رئيسي في تشكيل نسق التخلف الآخـــر. فالجـــانب النفســـي (الشعور بمركب النقص والشخصية المضطربة) لهذا الأخيـــر هو أساسا نتيجة لتدهور الجانب الثقافي للمجتمع المتخلف .إن هذه **الأولوية** الـــتي أعطيـــناها لدراســـة التخلف الثقافي كجزء من مفهوم التخلف الآخر تعود في المقـــام الأول إلى ملاحظتـــنا بـــأن الـــلغة وزاد المعرفة والعلم والقيم الثقافية هي مكتســـبات (فـــي شكلها المتطور والمعقد)تميز الإنسان عن غيره من بقية الكائنات المعـــروفة في هذا العالم. ومن هذا المنطلق **تصبح في رأينا دراسة الجانب الثقافي أو الـــرموز الثقافية ذات مركزية قصوى لفهم الإنسان كإنسان** .فبعض الدراسات الحديثة لظاهرة الذكاء، مثلا، أكدت على العلاقة الوثيقة بين اللغة والذكاء الإنساني المـــتميز عـــلى ســـائر الأنواع الأخرى من ذكاء الكائنات الحية[139].فالمعرفة والعلم بمدلولهمـــا الناضـــج هما بدون ريب ظاهرتان إنسانيتان : وكذلك الشأن بخصوص القيـــم الـــثقافية التي قد تختلف من مجتمع إلى آخر ومن حضارة إلى أخرى إلا أنها تـــبقى سمة خاصة للكائن الإنساني. ولعل فهم المعنى الروحي للطبيعة البشرية ذاتها غيـــر ممكن بدون استجلاء خفايا طبيعة هذه الرموز الثقافية. ألم تكن الكلمة(اللغة) والمعـــرفة والعـــلم والقيـــم النبيـــلة عبر تاريخ البشرية هي الأدوات الرئيسية التي اســـتعملها الإنسان ليقترب روحيا من ربه أو إلهه؟ وهكذا فالكشف عن طبيعة هذه الـــرموز الـــثقافية المميـــزة لبـــني الإنســـان ومـــدى تأثيـــرها بحالتها السوية أو المشـــوهة(التخـــلف الثقافي)على نفسية شخصية الإنسان هو عملية سبر في أغوار عمق هذا الكائن البشري. ومن ثم جاء اعتناؤنا بالتخلف الآخر الحلقة المفقودة رغم أهميـــتها في دراسات قضايا التخلف التنمية في **العلوم الإجتماعية العربية** . ولنا أن نتســـاءل هـــنا عـــن احتمالات أسباب إهمال هذه العلوم لدراسة التخلف الآخر رغم خطورتهـــا وحساسيتها في فهم ظاهرتي التنمية والتخلف في العالم النامي . ويمكن إرجاع تهميش العلوم الإجتماعية الغربية لدراسة التخلف الآخر للعوامل التالية:

1/ إن هـــذه العـــلوم ذات طـــبيعة **متحيزة** . أي أن فروضها ومفاهيمها ونظرياتها مـــتأثرة، مـــن جهـــة، بالواقع الغربي للمجتمعات الغربية التي ينتسب إليها علماء العـــلوم الإجـــتماعية . ومـــن جهة ثانية، فهناك نزعة بين هؤلاء العلماء تميل من ناحيـــة، إلى اتهام الجانب الثقافي (خاصة القيم والزاد المعرفي)– سرا أو علانية – لمجـــتمعات الجـــنوب بـ**الدونيـــة** والـــتأخرية. ومن ناحية ثانية، تتسرع إلى تمجيد

---

[139] المصدر السابق

الجــانب الــثقافي للحضـــارة الغــربية على العموم . وبيّن إن هذا **الموقف الثقافي المتحيز** لا يترك مجالا لمختصي العلوم الإجتماعية الغربية إن يعتبروا تدهور اللغة القوميــة والــزاد المعــرفي والقيم الثقافية– بسبب تسرب أو سطوة مركب الجانب الــثقافي الغــربي فــي مجتمعات العالم الثالث– للمجتمعات النامية مظهر تخلف بل وربما العكس، أي **مظهر تقدم وتطور!**

2/ إن نســيان دراســة التخــلف الآخر من طرف العلوم الإجتماعية الغربية ربما يكــون راجعا إلى تهميش هذه العلوم لأهمية الجانب الثقافي نفسه في تكوين تركيبة شخصــية الإنسان كعامل حاسم في فهم قضايا التنمية والتخلف. وهو تصور يختلف تمامــا عن المركزية الحساسة التي أعطيناها للجانب الثقافي الذي يتميز به الإنسان عن سائر الكائنات في أي فهم متكامل للإنسان ومجتمعه المتخلفين.

3/ ومــا جاء في 1و2 أعلاه **يمكن أن يفسر عدم اهتمام العلوم الإجتماعية الغربية بمســألة التخــلف الآخــر أو الحــلقة المفقودة في أدبيات التنمية والتخلف لهذه العــلوم**.فالســبب **(1)** لا يعتبر انتشار العناصر الثقافية الغربية وطغيانها أحيانا على العناصر الثقافية لمجتمعات العالم الثالث **تخلفا ثقافيا** بل على العكس تقدما ثقافيا كما رأيــنا . وبهذه الرؤية المتحيزة استبعدت كل الغنعكاسات السلبية التي يمثلها مفهوم التخــلف الآخــر الــذي ينتج عن تفشي لغة ومعرفة وقيم الطرف الغالب. **ومن ثم فالتخلف الآخر كتدهور في الجانب الثقافي والجانب النفسي لإنسان العالم الثالث (الطــرف المغلوب) غير وارد في تحليلات العلوم الإجتماعية الغربية المتحيزة لثقافتها.**

أمــا السبب **(2)** فإنه يفسر هو الآخر عدم انشغال هذه العلوم بقضية التخلف الآخر. فالإنســان عــندها ليس حيوانا ثقافيا بالطبع . وإن إرباك أو استبدال الجانب الثقافي عــنده بمركب ثقافي آخر(غربي في هذه الحالة)شئ مستحسن لا ينبغي أن ينظر إليه كعمــلية تقود إلى هزات يمكن أن تكون عنيفة تمس أهم مكونين لشخصية الإنسان: الجــانب الــثقافي والجــانب النفســي. **وموقفــنا فــي هذه النقطة بالذات يختلف إبيســتيمولوجيا عــن موقــف العلوم الاجتماعية الغربية.** فالتخلف الثقافي النفسي (التخــلف الآخــر) يحتل عندنا مكانة رئيسية في تحليل قضايا التخلف والتنمية في العالم الثالث. وفي نظرنا أن إعطاءنا أهمية مميزة للجوانب الثقافية(الرموز الثقافية) فــي فهم الإنسان ومجتمعه هو ترميم شرعي لإصلاح صورة الإنسان التي شوهتها الــرؤى الغــربية التي يغلب عليها المادية والتحيز إلى ثقافتها . **فبدون ذلك يصعب انــتظار تجســم مصداقية العلوم الإجتماعية والإنسانية مهما حسّنت في مناهجها وأدوات بحوثها. إذ أن إشكالية هذه العلوم هي، إلى حد كبير ، إشكالية ذات طبيعة إيبستيمولوجية.**

عاشرا : التخلف الآخر كوسيلة لتشويه وعي الشعوب التابعة:

إن **مفهــوم التخــلف الآخــر** بملامحه الخمسة والواردة في الجدول الثاني يمكن اعتــباره **كواقع ثقافي نفسي مشوه لوعي إنسان العالم الثالث** الذي يشكو من هذا

الــنوع مــن التخـلف . فنشـر المستعمر الفرنسي، مثلا، للغته وثقافته بين الفئات الإجـتماعية في كل من المجتمع الجزائري والتونسي والمغربي في القرنين التاسع عشـر والعشـرين أدى إلى ظاهـرة **تشويه الوعي** خاصة عند الفئات التي تأثرت تأثيـرا شديدا باللغة والثقافة الفرنسيتين . فقد نجح المستعمر الفرنسي، من جهة،في هـذه المجـتمعات فـي **بث إيديولوجيا أفضلية اللغة والثقافة الفرنسيتين في هذه المجـتمعات** . ومـن جهة أخرى، فإن السيطرة الفرنسية على مقاليد هذه الشعوب سمحت **بانتشار ظاهرة إيديولوجيا التحقير للغة والثقافة العربيتين بين الجزائريين والتونسـيين والمغاربة**. وساعد على تفشي مثل هذه الشعور بالدونية اختلال علاقة ميـزان القـوى (غالب ومغلوب)بين الطرفين ونشر المستعمر الفرنسي في أوساط هذه الشعوب للفكرة الإستعمارية القائلة أن كسب رهان الحداثة والتقدم والتطور لا يـتم إلا بتعلم اللغة الفرنسية وثقافتها. وفي ظل هذه الظروف التاريخية والحضارية أضحت مجابهة الإنسان العربي المسلم بالمغرب العربي عاجزة عن التحصن المنيع مـن آثـار الغـزو الـلغوي الثقافي الفرنسي، إذ أن شعوب المغرب العربي كبقية الشعوب العربية الأخرى كانت تتعامل ولا زالت إلى حد كبير مع مثل هذه الحملات الإسـتعمارية برواسـب عقـلية عصور انحطاط الحضارة العربية الإسلامية التي عـرفها الـتاريخ العربي الإسلامي منذ القرن الثالث عشر ميلاديا . ومن ثم كانت معـركة هـذه الشعوب مع التحدي الحضاري الغربي الحديث معركة غير رابحة تـناقض نتائجها معركة التحدي الحضاري الذي خاضه العرب والمسلمون في أوج مجـد حضـارتهم مـع الحضـارة والثقافة اليونانيتين. **وأن تشويه الوعي الثقافي النفسـي فـي بعض المجتمعات النامية لم ينته بمجرد حصول هذه الشعوب على اسـتقلالها . فكـثير من القيادات والمسؤولين في مواقع مختلفة استمروا في بث الإيديولوجيـا الإستعمارية الثقافية في عقر دارهم!** فتجربة التعريب وتوطين الثقافة العـربية الإسـلامية في كل من تونس والمغرب بعد الإستقلال لم يكن القائمون بها متحمسـين بمـا فيه الكافية لإعادة تأهيل وتجديد الوعي العربي الإسلامي للإنسان المغـربي والتونسي. فالمسؤولون في هذين المجتمعين لفترة ما بعد الإستقلال ظلوا **يتـبعون سياسـات ثقافيـة تعكس تكوينهم المتحيز للحضارة الغربية . ومن ثم اسـتمرت سطوة جاذبية اللغة الفرنسية وثقافتها على عقلية أغلبية أجيال ما بعد الإستقلال**[140].

إن اسـتمرار تأثـر أغلـبية فئات هذه المجتمعات بما فيها الفئة الشابة لفترة ما بعد الإستقلال بالإيديولوجيا "المتغربة" لأصحاب السلطة في كل من تونس والمغرب هو **تشـويه لوعي المغاربة والتونسيين** بخصوص انتمائهم للحضارة العربية الإسلامية

---

140 كل الأدلة تشير إلى أن تجربة التعريب في الجزائر أكثر حماسا وذلك بسبب التزام القيادات العليا منذ عهد بومدين بمشروع التعريب كأولوية قومية.انظر الفصل الثاني من الباب الثالث

وهـو يشبه تشويه وعي الطبقة الكادحة التي تنقاد لتأثير إيديولوجيا الطبقة الحاكمة في المجتمعات الرأسمالية كما ورد ذلك في كتابات ماركس.

ومما يلفت النظر بشأن تشويه وعي شعوب العالم الثالث **أن الإستعمار الغربي بذل جهـودا خاصة في عملية غزوه الثقافي للعالم العربي الإسلامي** . فقد انتشرت في المجـتمعات الغـربية المعاصـرة مراكـز متخصصة لدراسة الحضارة العربية الإسلامية وتراثها أطلق على اتجاهاته الفكرية اسم الإستشراق (Orientalism) . وكتب الكثير عن طبيعة هذا النوع من المعرفة الغربية وروابطه بالإستعمار[141]. لكن الأهم مـن ذلـك بخصوص قضية تشويه وعي الإنسان العربي المسلم بثقافته وقيمة إن الكـتابات الإستشـراقية كانت تهدف أساسا إلى ما أسماه البعض **بخلق مكتبة من الشـك عـند هـذا الإنسان فيما يتعلق بتراثه الثقافي العربي الإسلامي**. وقد نجح المستشـرقون في ذلك بالخصوص بين هؤلاء المثقفين العرب والمسلمين الذين لم تكـن لهما لقدرة (لعدم إتقانهم للعربية الفصحى) ولا المنهجية المناسبة للرجوع إلى نصوص التراث الأصلية لفهمها عن قرب وبموضوعية.

---

[141] انظر كتاب:

Said , E Orientalism New York . Pantheon Books: 1974

الفصل الثالث
الوجه الآخر للأمن الثقافي العربي

مقدمة

ينطلق موضوع هذا الفصل من ملاحظتين أساسيتين:

الأولى: رغم الاعتقاد السائد في الوطن العربي بعد استقلال شعوبه خاصة بأن الأنظمة التعليمية العربية الحديثة في المشرق والمغرب العربيين تدرّس وتستعمل اللغة العربية الفصحى على كل المستويات التعليمية (الإبتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية.)فإن حصيلة شهادة هذه الأنظمة التربوية المنعكسة في النهاية في التكوين اللغوي للطالب والطالبة الجامعيين[142] اليوم تفيد أنهم على العموم **أميون بالمعنى الجديد لكلمة الأمية**، أي أنهم غير قادرين لا على الكتابة ولا على التحدث السليم والسهل والمتسلسل بالفصحى. وهم بالتالي جاهلون أساسا بكثير من المفردات اللغوية والتراكيب التعبيرية والقواعد الصرفية والنحوية بما في ذلك البسيط منها أحيانا . وبعبارة أخرى فإن تفشي تدهور مستوى الفصحى بين المتعلمين العرب اليوم يطرح ما يمكن أن نسميه بقضية "**الأمن اللغوي**" في الوطن العربي أو "الوجه الآخر للأمن الثقافي العربي".

الثانية : ومع الإعتقاد أنه في فترة ما بعد الاستقلال خاصة أصبح للطفل والطالب والأستاذ و المواطن العربي بصفة عامة احتكاك أكبر مع الفصحى منه مع اللغات الأجنبية التي تتعلم هي الأخرى أساسا في المدرسة والجامعة. فإنه من جهة، لا يزال يلاحظ لا على مستوى نخبوي فقط بل على مستوى جماهيري الرغبة والتكالب بالمغرب العربي خاصة على استعمال اللغات الأجنبية وبالذات الفرنسية . ومن جهة ثانية ، فإنه يغلب على الفرد العربي المتعلم في المشرق والمغرب **الشعور بالاستحياء والرهبة** ، والانحرافية الاجتماعية والتوتر النفسي عند دعوته **للتحدث بالفصحى** . وهكذا يبدو أن تدهور مستوى الفصحى بين المتعلمين العرب

---

[142] ان العينة التي تستند عليها ملاحظات قسم الجامعيين من هذه الدراسة هي أساسا عينة طلابية أستاذية من جامعيتين أحدهما جامعة قسنطينة بالجزائر بالمغرب العربي والثانية هي جامعة الملك سعود بالرياض بالمملكة العربية السعودية بالمشرق العربي . ولعل تتبع مدى استعمال الفصحى وسلامة هذا الاستعمال (نحوا وصرفا وتعبيرا وحديثا..) في عينة جامعة الملك سعود هو أكثر دلالة وصلاحية للتعميم على بقية طلبة وأساتذة الجامعات العربية الأخرى بالوطن العربي ، وذلك لاشتمال هذه الأخيرة على عينة عربية (مصغرة) من الطلبة والأستاذة يمكن أن تقترب من تمثيل وضعية الفصحى بكل جامعات الوطن العربي الكبير . فعلى مستوى جنسيات الطلبة الدارسين في هذه الجامعة فهناك الطلبة اليمنيون والسوريون والمصريون والسودانيون والاردنيون النادر وجودهم بجامعة قسنطينة . أما فيما يخص جنسية أعضاء هيئة التدريس التي لا توجد أو لا تكاد توجد بجامعة قسنطينة فهي تشمل خاصة السودنيين والأردنيين .علما أن سياسة تنويع أعضاء هيئة التدريس وغيرهم من المستوفدين العرب إلى المملكة العربية السعودية أصبحت خطا سياسيا رسميا للمملكة منذ بضع سنوات . والسبب في اختيار عينة الدراسة من هاتين الجامعتين دون سواهما هو أني كنت درست علم الاجتماع في جامعة قسنطينة (1981) وفي جامعة الملك سعود منذ (1986-1982).

وبالخصـــوص الجامعيين له **مؤشراته الموضوعية وأعراضه النفسي**[143]. ومن هنا جاءت شرعية طرح قضية"الأمن اللغوي "في العالم العربي كما أثيرت أخيرا مسألة الأمــن الغذائــي. وبعبارة أخرى، هل هناك اكتفاء ذاتي لغوي بخصوص استعمال الفصحى (اللغة الرسمية) في المجتمعات العربية؟ **هل أن مستوى الإلمام بالفصحى اليــوم فــي العالم العربي مستوى يهدد وجود الفصحى كلغة في حد ذاتها** وبالتالي يهــدد مسألة ما نسميه هنا بالأمن اللغوي الذي هو جزء لا يتجزأ من الأمن الثقافي العــربي[144].ونظرا لأن **اللغة هي أم الرموز الثقافية جميعا**، كما أشرنا من قبل، فإن مـــا يهـــدد الـــلغة العربية الفصحى اليوم في مجتمعات الوطن العربي ذو انعكاسات خطيـــرة عـــلى تلك المجتمعات. ويأتي في طليعتها **الخطر المحدق بالهوية الثقافية العربية** ذاتها لتلك الشعوب.

أولا: الصمت عن الأمن اللغوي

ومن ثم فالهم الأول لهذا الفصل هو ،من جهة، طرح مؤشرات قضية تدني وضعية الأمــن اللغوي في الوطن العربي .ومن جهة أخرى، كيفية إمكانية إيقاف ثم تأمين "مســتوى لغوي فصيح" مقبول لأغلبية المتعلمين العرب. فلقد كثر الحديث وتعددت الــندوات في العالم العربي في السنوات الأخيرة عن "الأمن الثقافي " دون أن تكون هـــناك إشـــارات واضحة في تقارير لجان الندوات إلى **حالة انتشار تدهور الإلمام باللســـان العـــربي الفصيح** بين أبناء الأمة العربية المتعلمين . وهكذا تنهي اللجان مداولاتها وتصدر قراراتها حول أهمية تأمين الأمن الثقافي في الوطن العربي وكأن قضية ازدياد تدهور مستوى الفصحى بين المتعلمين العرب لا وجود لها[145]. وبالتالي فـــلا حاجـــة إلى الـــتأكيد أو حـــتى ذكر أهمية الأمن اللغوي في أي مشروع ثقافي مـــتكامل يحفـــظ بحق للأمة العربية أمنها الثقافي. وسوف يتضح من معطيات هذا الفصـــل عـــن تدهور مستوى الفصحى في العالم العربي اليوم **أن صمت مسؤولي الـــثقافة العربية عن الأمن اللغوي هو صمت أولا غير مقبول وثانيا يحتاج في حد ذاته إلى دراسة خاصة لبيان أسبابه .**

ثانيا: مفهوم الأمية الجديدة

إن مفهـــوم "الأميـــة الجديـــدة" مفهوم حديث الاستعمال[146]. فقد بدأ تداوله أخيرا في المجـــتمعات الغـــربية المتقدمة وخاصة بجامعاتها . فبعض جامعات هذه الدول مثل الولايـــات المتحدة الأمريكية وكندا قررت عدم قبول الطلاب والطالبات في برامجها

---

143 فالتركيز على دراسة حالةالفصحى خاصة في الموسسة الجامعية يرجع إلى الاسباب التالية : (أ)ان لغة الشارع والبيت والمغازة في العالمالعربي اليوم هي العاميات العربية . (ب) ان المحيط الجامعي هو أكثر المؤسسات الاجتماعية ترشحا للاستعمال السليم للفصحى كتابة وقراءة وحديثا.

144 انظر محاور "الأمن الثقافي " لوزراء الثقافة العرب في جريدة القبس الكويتية عدد 3943 بتاريخ 1983/05/05 ص 8. فلا تشير هذه المحاور إلى أن الأمن اللغوي العربي كما هو وارد في هذه الفصل هو جزء مهم من الأمن الثقافي العام

145 انظر "قرارات وزراء الثقافة العرب بالجزائر " جريدة الشرق الأوسط ،(14-1983/5) ص 17.

146 ، انظر على سبيل المثال وليس الحصر التقرير الخاص الذي قامت بنشره حول ظاهرة الامية الجديدة المجلة الأمريكية الأسبوعية (U.S and World Report) عدد 19 (17/05/1982).

وأقسامها إلا بعد نجاحهم في امتحانات لغوية (بالإنجليزية) تعدها المؤسسة الجامعية المعنية . بينما قامت جامعات أخرى بإعطاء دروس لغوية إنجليزية إضافية للطلاب والطالبات المقبولين بغية تحسين مستوى إنجليزيتهم للدراسة الجامعية ومنطق مسؤولي هذه الجامعات في التركيز على أهمية المقدرة اللغوية قراءة وكتابة وحديثا لدى الطالبات والطلاب الجامعيين لا يمكن أن يخفي على كل من يعرف **العلاقة الوثيقة بين المقدرة اللغوية و اكتساب المعرفة** بكل أنواعها وفروعها . وقد أثبتت الدراسات اللغوية الحديثة مدى أهمية علاقة المهارات اللغوية ليس في فهم المرء واستيعابه للمعرفة الإنسانية فحسب وإنما أيضا في تحديد نوعية عملية التفكير عند الإنسان[147] .

ثالثا:ملامح الأمية الجديدة عند أساتذة الجامعات العربية

ولقياس درجة مدى انتشار **الأمية الجديدة** بين الطلبة العرب وأساتذتهم لا بد من التذكير هنا بمعنى الأمية التقليدية (القديمة): وهي عدم القدرة على القراءة والكتابة . أما الدلالة التي يأخذها مفهوم الأمية الجديدة في هذه الفصل ، كما رأينا، فهي أن المسمى "**بالأمي الجديد**" هو المتعلم ذو المستوى العالي (طالبا أو أستاذا جامعيا) من التعليم والثقافة ومع ذلك فهو غير قادر لا على القراءة ولا على الكتابة ولا على الحديث بطريقة سليمة باللغة الفصحى التي كان له معها احتكاك منذ المرحلة الابتدائية التعليمية حتى المستوى العالي.

أما على مستوى هيئات التدريس بجامعتي قسنطينة والملك سعود فيمكن تسجيل الملاحظات التالية كمؤشرات ميدانية ذات دلالة واضحة على **وجود ظاهرة الأمية الجديدة بين أساتذة ومدرسي هاتين الجامعتين.**

أ–فليس هناك إلا قلة من أعضاء هيئة التدريس (بما في ذلك من يدرس اللغة العربية نفسها) التي يبدو أنها لا تزال تقوم بالتدريس بالفصحى . **فوسيلة التدريس الشائعة** في قاعات تدريس هاتين الجامعتين العربيتين هي **العامية** المتنوعة من المشرق إلى المغرب[148]. فجامعات الجزائر ومجتمعات الخليج بصفة عامة هي أكثر الجامعات العربية عرضة **لموجة اللهجات**[149] **العربية** الكاسحة لقاعات التدريس وذلك لشدة حاجة هذه الجامعات لاستجلاب هيئات التدريس من مجتمعات عربية مختلفة كمصر والسودان والأردن والعراق وسوريا وتونس والمغرب....

---

147 انظر في هذا المجال د نايف حزما "أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة " الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، عدد 9 سبتمبر1978 ،ص .316-317

148 "لغتنا الجميلة لماذا لم تعد جميلة " مجلة اليمامة ، عدد 743.

149 مما لا زال شائعا في أذهان الاغلبية من المهتمين بقضية التعريب أنّ النجاح في التعريب يعني النجاح في تحسين مقدرة استعمال الفصحى السليمة كتابة وقراءة وكلاما . ولكن علاقة الاثنين ليست في الحقيقة بتلك البساطة . . فالتعريب أساسا هو استعمال كلمات عربية بدلا من الكلمات الاجنبية. ويمكن ان تستعمل هذه الكلمات المعربة في اللغة الفصحى أو العاميات العربية.. ومنه فالتعريب لا يعني مع طغيان استعمال اللهجات العربية تفصيح لغة المواطن العربي تركيبا وتعبيرا ونحوا وصرفا وقراءة وكتابة وحديثا . وإنما تعني فقط تعريب لغته

فاستعمال **العاميات** (وليس عامية واحدة) في التدريس أصبح **سمة لغوية** من سمات هذه الجامعات . **أما استعمال الفصحى فهو بعيد كل البعد على أن يكون صفة من صفات الجامعات نفسها** . وفي جو تعدد وطغيان اللهجات العامية العربية هذه في قلب المؤسسة الجامعية العربية **هل يبقى من معنى للقائلين بأن للجامعة دورا مهما في تعريب "وتفصيح" لغة المجتمع العربي المعاصر؟** أليس أكثر دقة وواقعية القول أن الجامعة وخاصة الجزائرية والخليجية تساهم هي الأخرى في تعزيز مركز العاميات على حساب الفصحى بهذه المجتمعات العربية؟

ب- إن الأمية الجديدة عند أعضاء هيئات التدريس العربية بجامعتي قسنطينة والملك سعود تشاهد ملامحها أيضا **خارج قاعات التدريس** . فمن النادر مثلا أن يأخذ عضو هيئة التدريس الكلمة (شفويا) سواء كان في ندوة علمية ، أو في اجتماع قسم أو في مجلس مناقشة رسالة أو أطروحة طلابية ويتقيد في حديثه باللسان العربي الفصيح ، وهو إذا لجأ إلى قراءة كلمته أو محاضرته بالفصحى المكتوبة **غير المشكولة** فيندر أن لا يلحن[150]حتى إذا لاذ إلى حيلة الوقوف على السكون تكرارا ومرارا ليسلم لسانه **ظاهريا** . فالأمر هنا بيّن **أن ظاهرة الأمية الجديدة** بالتعريف الوارد في هذه الفصل **شائعة فعلا بين أعضاء هيئات التدريس** بهاتين الجامعتين. لكن قد يعتقد البعض أن اللجوء إلى اللهجات العامية من طرف هؤلاء في قاعات التدريس لا يمكن أن يكون في حد ذاته دليلا قاطعا على جهل المدرسين والأساتذة بالفصحى . فقد يحجم عضو هيئة التدريس على استعمال الفصحى رغم إلمامه بها نظرا لأن المعايير اللغوية الاجتماعية لا تسمح له بذلك . فهو قد يوصم بالانحراف إن استعمل الفصحى وذلك حتى داخل قاعات التدريس الجامعية.[151] ومع ذلك تبقى في أيدينا وسائل أخرى يمكن بواسطتها اختبار مقدرة الشخص في معرفته للفصحى . فمقدرة الكتابة والقراءة للنصوص غير المشكولة هي أدوات تساعد فعلا على التحقق من مدى قدرة عضو هيئة التدريس على استعمال الفصحى كلغة تدريس . وقد ذكرنا من قبل أن السلوك اللغوي القرائي والكتابي ذو علاقة ارتباط قوية مع السلوك اللغوي الكلامي ، **وهذه خاصية مميزة للغة العربية الفصحى .** فمن يقرأ مثلا النص العربي غير المشكول بطريقة سليمة يكون قادرا أساسا على التحدث بالعربية بصورة صحيحة نحوا وصرفا فكثرة اللحن في القراءة، كما سنرى، عند أعضاء هيئة التدريس هي مؤشر كاف على ضعفهم **(الأمية الجديدة)**

---

[150] وفي أحسن الحالات تستعمل ما تسمى بالفصحى المبسطة انظر شؤون عربية عدد 5، ص 269-267 وإذا كان هناك عدم وعي بقضية اللحن أو القراءة الملحونين أو السليمين أو بموقف اللامبالاة إزاء اللسان العربي الصحيح. والحالتان ذاتا **انعكاسات خطيرة على مستقبل اللغة العربية الفصحى بالوطن العربي.**

[151] لم يصل بالطلبة إلى حد الآن الاحتجاج الواضح على الاستاذ الذي يستعمل معهم الفصحى في المحاضرات . لكن استعمال العاميات بنسبة لا تقل على 80 بالمائة لدى الاساتذة المدرسين لا يستبعد أن يؤدي عما قريب إلى **احتجاجات أكثر من طرف الطلبة ضد استعمال الفصحى للتماشي مع التقاليد اللغوية الجديدة التي تفضل العاميات العربية.**

فـــي الفصـــحى ومـــنه **فتحاشي التدريس بها لا يقتصر على الخوف من وصمهم بالانحراف اللغوي الإجتماعي وإنما يرجع ذلك أيضا إلى عدم الإلمام السليم باللغة العربية الفصحى.**

رابعا:ملامح الأمية الجديدة عند الطلبة العرب

ولاخـــتيار مدى إلمام الطلاب والطالبات باللغة العربية الفصحى عمدت شخصيا في مناســبات عديــدة خاصـــة أثناء نقاش أفكار المطالعات الأسبوعية مع الطلاب إلى دعوتهم **بطـــريقة عشوائية** قراءة فقرة أو صفحة غير مشكولة من كتب أو مقتطفات المادة التي أدرسها لهم . علما أن عملية القراءة هي أسهل من عملية التحدث باللغة نفسها ، لأن عملية التحدث تتطلب مجهودا أكبر يشبه الفرق من حيث الصعوبة بين عمـــلية فهم اللغة وعملية التحدث بها. وكانت تجربتي[152] هذه رغم بساطتها قد أكدت لـــي **بطريقة متواصلة** أن طلابي لا يستطيعون فعلا قراءة نص عربي فصيح(غير مشـــكول) بدون الأخطاء المتكررة نحوا وصرفا وحتى في نطق أواسط الكلمات[153].

وعـــندما اقـــترح عـــلى طلبـــتي التحدث بالفصحى أثناء المناقشة والتدريس للمواد المدرســـية يقـــابل اقـــتراحي غالبا **بالتهكم والامتعاض**[154]من الجميع . وبدا لي أن ســـلوكهم كـــان يمكن أن يكون أفضل (أي أقل سخرية)لو أني طلبت منهم التحدث بالإنجليزية أو الفرنسية في صورة معرفتهم لكلا أو إحدى هاتين اللغتين.

وفيمـــا يخـــص **ضعف الطلبة السعوديين في الإلمام بالفصحى** كتابة وقراءة وحديثا فالأمـــر يـــبدو أنه متفق عليه من لدن كل من كان له احتكاك بهم وكان له معرفة بالفصحى تسمح له بقياس مقدرة الطالب في لغة الضاد، فقد كان طرح مجلة اليمامة الســـعودية لقضية تدهور مستوى الفصحى[155] وما تبعه في نفس أعداد المجلة اللاحقة بـــرهانا دامغـــا لكل من لا زالت عالقة في قلبه ذرة واحدة من الشك بخصوص هذا الموضوع.

فالدكـــتور محمود كامل الناقة الذي قام بأبحاث لغوية في جامعة أم القرى بمكة يرى أن علاقـــات ضـــعف الطالب في الفصحى تتمثل في الآتي :"الضعف الواضح في مهـــارة الكلام والحديث أو ما نسميه مصطلحا التعبير الشفوي..بل يصل الأمر في كـــثير مـــن الأحيـــان إلى إحجامه عن الحديث لعدم قدرته على ذلك .والضعف في مهـــارة القـــراءة ، فالشكوى صارخة في عدم قدرة طلابنا حتى في التعليم الجامعي عـــلى قـــراءة فقرة قراءة صحيحة وفهمها فهما واعيا ..أضف إلى ذلك الضعف في القـــراءة الجهـــرية حيـــث نجد اللعثمة والتردد والحشرجة والنبرة النائمة والصراخ

---

152 بجامعتي قسنطينة بالجزائر وجامعة الملك سعود بالرياض بالسعودية.

153 انظر مجلة اليمامة السعودية عدد 747 ص 58-59

154 من أسباب التهكم النفسية هذه : (1) الشعور بالانحرافية اللغوية عند التحدث بالفصحى(2) تحقير اللغة الفصحى (3) العجز عن التحدث بها سليمة.

155 ، انظر "لغتنا الجميلة لماذا لم تعد جميلة "مجلة اليمامة عدد743 ص 9-3.

المــزعج ...وبعــد أن كان الكتاب خير رفيق وجليس وأنيس أصبح في حياة طلابنا شيئا مكروها غير مرغوب ، **هل هناك ضعف أكثر من ذلك في اللغة العربية(15).**
أمــا رئيــس قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود الدكتور السليمان السويس فقد ســرد بعــض الأمثلة[156] التي تصرخ بمدى تدهور إلمام الطالب بالفصحى" وخذ أيها القــارئ العزيز أمثلة قليلة لمستوى الكثير من الطلاب في جامعتنا في اللغة العربية: لا يفــرق كــثير من الطلاب بين الفعل والاسم .فلو طلب من أحدهم إعراب جملة "الســور عــال"، مثلا، فأهب نفسك حق لا تفاجئك أجابته بأن "السور" فعل مضارع وأن أوجعــتك إجابــته ايجاعــا شــديدا لكنك كضمت غيضك ، وطلبت منه إتمام الإعــراب ، فمــن الــراجح أن يضــيف قائلا"مرفوع بالفتحة: !...وقس على هذا. فــالمفعول بــه لا يــدري منصــوب هو أم مرفوع، وكذلك الفاعل...وهو قد سمع بحروف الجر لكنه لا يجر[157] ما بعدها بل ينصبه أو يرفعه،**أما الجر بالإضافة فلا يعلمه في رأيه إلا الله أو الراسخون في العلم"[158]..**
فهــل يمكــن تعميــم تدهــور مستوى الفصحى هذا على بقية الجامعات العربية ؟ الإجابــة عــلى مــثل هــذا التساؤل لا يمكن حسمها بسهولة. لكن رغم عدم وجود دراســات رسمية معروفة حول وضعية الفصحى بكل الجامعات العربية عند الطلبة والأســاتذة فإن ملاحظاتي الشخصية وملاحظات الآخرين للتكوين اللغوي الفصيح لــلطالب العــربي بصــفة عامة [159] **تسمح بالقول بأن مستوى الطالب العربي في الفصحى مستوى لا يتجاوز المقبول في أحسن الأحوال** . وهاتان الصورتان للأمية الجديدة على المستوى الجامعي عند كل من الأستاذ والطالب في الجامعات العربية اليــوم **تطرحان تساؤلات أوسع وأشمل على الأنظمة التربوية التعليمية في الوطن العربي** : كيف هو حال تعليم الفصحى واستعمالها في المراحل الإبتدائية والإعدادية والثانوية في هذه الأنظمة ؟ (1) هل أن الفصحى تدرس بالعامية كقواعد يتم حفظها دون استعمالها نحوا وصرفا وتعبيرا وحديثا من طرف التلاميذ ومعلميهم وأساتذتهم حــتى فــي قاعــات المدارس ؟ (2) أم أنها تدرس فعلا بكل جدية وبكل التزام من

---

156 امصدر السابق عدد 741ص 54-55

157 تذكرني هذه بما الفت انتباهي عند حضوري محاضرة عامة لأستاذ من جامعة الملك سعود. فكانت حروف الجر ترفع أو تنصب لكنها لا تجر .

158 ، لا يبدو أن هناك دراسة معروفة عن "الفصحى السليمة بالجامعات العربية". إن اتحاد الجامعة العربية بالرياض لا يملك أي دراسة من هذا النوع عند اتصالي به (نسيان/ ابريل1983). وان الفهرس العام لمجلة اللسان العربي (من المجلد 1إلى 17) ليس بها أي دراسة واحدة بعنوان "استخدام اللغة العربية في التعليم العالي" وهذا لا يعني كما أشرنا استخدام الفصحى بطريقة سليمة ص 361.

159 ، إستنادا إلىأن العينة المدروسة يمكن تعميم انعكاساتها على كل طلاب وهيئات التدريس العربية بالجامعات العربية اليوم كما جاء في هامش (أ).

طـــرف هيآت تدريس يتقنون هم أنفسهم هذه اللغة ويحبون استعمالها على الأقل في قاعات التدريس ودروب المدارس[160]؟
إن حالة الفصحى المتردية على المستوى الجامعي، كما رأينا، لا يمكن تفسيرها بما جاء في السؤال الثاني
(2) إذ لـــو كان الأمر كذلك لاستطاع تلامذة وطلبة الإعدادي والثانوي والعالي أن يقـــرؤوا قراءة صحيحة وأن يكتبوا كتابة سليمة وأن يتحدثوا بالفصحى حديثا مقبول المســـتوى تعبيرا وقواعد. ومن هنا **فأزمة الفصحى كما وصفت هنا لا بد أن تكون لها علاقة قوية مع ما جاء في التساؤل الأول أعلاه.** ومهما اختلفت **أسباب تدهور مســـتوى الفصحى بالجامعات العربية** فإن هذا الواقع اللغوي مؤشر ذو دلالة بالغة عـــلى **أن الأمن اللغوي للمجتمعات العربية مهدد فعلا** . فإذا كانت حالة الفصحى قد بـــلغت تـــلك الدرجة من التدني في المؤسسات الجامعية العربية فما بال حالها بين سواد المتعلمين الأقل تعليما وثقافة ؟.

خامسا:اللغات واللهجات في العالم العربي

فمـــن ناحية، **تنتشر في المجتمعات العربية ثلاث لغات** مهمة بما للغة من معنى في العلوم اللغوية الحديثة. إنها العربية الفصحى والإنجليزية خصوصا بالمشرق العربي والفرنســـية بالمغـــرب العـــربي . ومن ناحية أخرى، هناك اللهجات العامية العربية المتحدثة التي يتشابه البعض منها أكثر وذلك حسب منطق مؤثرات تاريخية ولغوية و جهويـــة خاصـــة فـــي مجتمعات الوطن العربي . وهكذا يمكن القول **أن المتعلم العربي** اليوم له على العموم **معرفة لغوية ثلاثية** : اللهجة العربية المحلية والفصحى واللغة الأجنبية المتمثلة في الإنجليزية بالمشرق العربي والفرنسية بالمغرب العربي. فالـــلهجات العاميـــة هـــي وســـائل التخاطب والتفاهم العادية التي ينشأ الفرد على اســـتعمالها عفويـــا من طرف أسرته وبيئته الإجتماعية المحلية والممتدة . أما اللغة العـــربية الفصـــحى واللغة الأجنبية (الإنجليزية أو الفرنسية) فيقع تعلمهما أساسا في الإطـــار المدرســـي ومـــن ثـــم يـــتوقف مدى الإلمام بأي منها على المدة الزمنية المخصصـــة للتعـــليم وعـــلى محـــتوى ما يتعلم وعلى فُرَص استعمال اللغة وعلى الظـــروف الإجـــتماعية والنفسية والإقتصادية المشجعة أو المعرقلة لعمليتي التعليم والاستعمال . ولمقارنة وضعية كل من اللهجات العامية واللغات مكانا واستعمالا في جناحي الوطن العربي نقدم الجدول الثالث التالي:

---

160 ** علم النفس الاجتماعي مدى أهمية موقف المعلم والأستاذ لما يعلمه ومدى تأثير ذلك على المتعلم فما هي مواقف المعلم والاستاذ من استعمال الفصحىبعالمنا العربي؟ ، ان الاجابةعلى مثل هذا التساؤل امبيريقيا سوف تساعد على فهم اعمق لازمة الفصحى بالجامعات العربية موضوع هذا الفصل . .انظر الفرق بين اللهجة واللغة في د.أميل بديل يعقوب فقه اللغة العربية وخصائصها (بيروت:دار العلم للملايين1983) ص141-148.

الجدول الثالث

جدول عام لوضعية اللهجات واللغات بالوطن العربي

مدى الاستعمال للغة أو اللهجة في الكتابة في المشرق والمغرب : أ) جماهيريا ب)نخبويا	مدى الاستعمال في الحديث للغة أو اللهجة في المشرق والمغرب: 1) جماهيريا 2) نخبويا	طريقة تعلم اللغة أو اللهجة	رتبة المكانة الإجتماعية للغة أو اللهجة	اللغة أو اللغات اللهجة أو اللهجات
في المشرق العربي : (أ) عمومية استعمال الفصحى أو الفصحى المبسطة في كتابة الوثائق الرسمية أو غير الرسمية عند الجمهور غير الأمي. (ب)انتشار استعمال الفصحى لدى المثقفين خاصة في الأمور الرسمية مثل تأليف الكتب و كتابة الدراسات والمقالات ذات الطابع الثقافي و العلمي. في المغرب العربي: (ا)محدودية* استعمال الفصحى أو الفصحى المنبسطة في كتابة الوثائق الرسمية أو غير الرسمية عند الجمهور غير الأمي. ب)محدودية استعمال الفصحى عند المثقفين خاصة المفرنسين في التأليف والبحوث العلمية والأكادمية.	أ) لا تستعمل الفصحى إطلاقا تقريبا جماهيريا في كل من المغرب و المشرق العربيين ب) تستعمل الفصحى في بعض الحالات الخاصة كالمناسبات الدينية والمحافل الرسمية والثقافية و الأكاديمية والبرامج الإعلامية في جناحي الوطن العربي	المدرسة أساسا	أ) يبدو أن الفصحى تحتل المرتبة الثانية **نفسيا**[161] والأولى **إجتماعيا**[162] بالمشرق العربي بعد و قبل الإنجليزية ب)أما مكانة الفصحى في المغرب العربي فهي في المرتبة الثانية بعد الفرنسية على المستوى النفسي[163] والإجتماعي[164]	1) العربية الفصحى

[161] ضعف أو عدم شعور الشخص بالأعتزاز والنخوة والافتخار عند استعماله للفصحى

[162] أي أن الفصحى المكتوبة (لا المتحدثة) هي لغة المؤسسات والحياة الإجتماعية عموما.

[163] المكانة النفسية للفصحى هي أكثر تدهورا بصفة عامة عند قسم كبير من أهل المغرب العربي.

[164] محدودية استعمال الفصحى كتابة في المؤسسات الاجتماعية العصرية بالمغرب العربي، لعل ذلك يفسر الشعور النفساني المتدهور المشار اليه في (23) اعلاه.

* يراد بالمحدودية هنا عدم استعمال الفصحى أو الفصحى المبسطة (كتابة) في كثير من الميادين خاصة العصرية منها حيث تسيطر الفرنسية كتابة و حديثا.ولعل محدودية إستعمال الفصحى كتابة في المؤسسات الإجتماعية العصرية بالمغرب العربي تفسر الشعور النفساني المتدهور المشار إليه في (23) أعلاه.

أ)ينحصر استعمال الإنجليزية كتابة في المشرق العربي في الظروف الرسمية مثل الوظيفة والتعليم والتعامل مع المؤسسات والجهات الأجنبية في المجتمع. أما استعمالها كتابة في ظروف غير رسمية فهو محدود المعالم. فقد تستعمل في المراسلة مع أصدقاء يعرفون الإنجليزية أكثر من العربية أولا يعرفون هذه الأخيرة بتاتا. ب) ينحصر استعمالها خاصة في المجالات الثقافية والعلمية. أما على المستوى غير الرسمي فيشبه استعمالها ما جاء في (أ) أعلاه . **أما في المغرب العربي:** فلا يزال استعمال الفرنسية منتشرا خاصة عند الجمهور غير الأمي. كذلك هناك كثير من المؤسسات مثل البنوك لا تزال تعامل زبائنها كتابيا إلا	ت)استعمال بسيط خاصة عن طريق الخلط (الانجلواراب [167] عند الجمهور المشرقي غير الأمي خاصة. ث) استعمال شائع للإنجليزية عند النخبة المثقفة ثقافة عليا إنجليزية/أمريكية لغة وثقافة خاصة تلك التي تلقت تعليمها في الخارج. ج) استعمال منتشر للفرنسية على شكل الفرانكواراب حتى عند ذوي التكوين الإعدادي أو الثانوي [168] بالمغرب العربي. ح) استعمال شائع ومطرد للفرنسية عند النخبة المثقفة ثقافة فرنسية على الخصوص بالمغرب العربي [169].	يتعلم المشرقي العربي الإنجليزية أساسا في المدرسة اللهم فيما يخص الحالات التالية: 1) أحد الوالدين أو كلاهما يتكلمان الإنجليزية[166] 2) أغلبية سكان الحي يتحدثون الإنجليزية تتعلم الفرنسية في المدرسة أساسا ما عدا في الحالات الخاصة التالية: 1) أحد الأبوين أوكل منهما يتكلم الفرنسية. 2)احتكاك متكرر بمن يتكلم الفرنسية 3)أغلبية سكان الحي تتكلم الفرنسية	في المشرق العربي هناك انطباع عام على المستوى النفسي بأن الإنجليزية هي لغة العلوم والتكنولوجيا وبالتالي فهي لغة العصر، الأمر الذي يجعل الإنجليزية تحتل المرتبة الأولى[165]في سلم لغات ولهجات الشخصية العربية المشرقية. لازالت اللغة الفرنسية تتمتع بالمرتبة الأولى نفسيا واجتماعيا بالمغرب العربي.	2) الإنجليزية 3) الفرنسية

[165] وهذا مصداق لما أثبتته الدراسات السوسيولوجية خاصة التي أكدت على رغبة اكتساب صفات وسمات العصرنة والحداثة في مجتمعات العالم الثالث على الخصوص فالانجليزية هي اذن رمز تحديثي عند المشرقي العربي. ولا شك أن هذا يساعد علىإعطائها المرتبة الأولى لغويا في تصور الانسان العربي بالمشرق

[166] وهذا لا يعني أن الانجليزية بالمشرق أو الفرنسية بالمغرب هي اللغة الأجنبية الوحيدة المعروفة في شقي الوطن العربي.

[167] الأنجلواراب مستعملة عند الأميين المشرقيين لكن تقلّ كثيرا عن ظاهرة الفرنكواراب عند الأميين بالمغرب العربي

[168] الأميون بالمغرب العربي يستعملون الفرانكواراب (هامش 27) لكن بنسب أقل من المتعلمين المثقفين.

[169] يتضح هذا أكثر عند النخبة التونسية.

بالفرنسية على العموم. فكثير من استمارات مثل هذه المؤسسات لازالت مكتوبة بالحروف اللاتنية. ومن ثم فالمواطن العربي المغاربي لازال يحتاج إلى الفرنسية حتى في قضاء شؤونه البسيطة يوميا. إن جيل ما قبل الاستقلال على الخصوص لازال يلجأ إلى الفرنسية المكتوبة حتى في مراسلة أهله وأصدقائه. إن الفرنسية لا زالت لغة الكتابة والتأليف عند عدد هائل من مثقفي المغرب العربي ويستثنى من ذلك خاصة الأدباء والشعراء ورجال الإعلام الذين يكتبون ويذيعون باللسان العربي.				
ت)إن الجمهور شبه الأمي هو الذي يلجأ إلى استعمال العامية المكتوبة بحروف عربية بكل من المشرق والمغرب في قضاء حاجاته الرسمية(مكاتبة الإدارة مثلا) أو غير الرسمية(مراسلة الأصدقاء مثلا). ويستعمل الجمهور المتعلم العامية(كتابة) عند تعامله خاصة مع الأميين أو شبه الأميين. ث) أما المثقفون فيلجأون نادرا إلى استعمال العامية في كتاباتهم لنقل "الحادثة الاجتماعية"كما هي مثلا	خ) إن العامية (العاميات)العربية هي لغة الحديث الأساسية عند أهل المشرق العربي.وخلط العامية بالإنجليزية (الانجلواراب) نادرة جدا عند الجمهور المشرقي. د) فالأنجلواراب منتشرة أكثر بين الفئات المثقفة خاصة ثقافة غربية. أما في المغرب العربي: ذ) فالفرانكواراب منتشرة في كل الطبقات والفئات مع	يتعلم الإنسان العربي العامية أو العاميات في العائلة وفي الحي وفي الشارع وفي المجتمع الواسع الممتد.	يبدو أن العامية تحتل المكانة السفلى في هذا الهرم اللغوي الثلاثي السائد بالعالم العربي وذلك لاقترانها بالأمية و لأنها ليست لها ملامح القدسية التي تتمتع بها الفصحى لغة القرآن ولا هي لغة	4)العامية

في تعاملهم مع الأميين أو أشباه الأميين. وأخيرا يستعمل بعض المثقفين العامية في كتاباتهم وذلك لاعتقادهم أنها هي اللغة الطبيعية للمجتمع.	ازدياد استعمال الكلمات والعبارات الفرنسية عند الأكثر تعليما. ر) هناك خلط أكثر للعامية بالفرنسية عند ذوي التكوين الثقافي الغربي.		العصر مثل الإنجليزية. وليست هي بلغة الثقافة والحضارة وذلك لأنها غير مكتوبة أساسا.	

سادسا:تقسيم الأدوار اللغوية بين الفصحى و العامية

إن أي تحليل لوضعية الفصحى في شقي الوطن العربي لا يمكن إيفاؤه حقه بدون الأخذ بعين الاعتبار وجود استعمال اللهجات العامية العربية التي تستعمل كوسيلة تخاطب عفوية و طبيعية جماهيرية.

أما الفصحى فلا يلجأ أساسا إلى استعمالها في الحديث إلا في بعض المناسبات الرسمية المواتية مثل المواضيع الدينية والخطب الأكاديمية..كما يبين الجدول السابق . إلا أنها تعوض ما تأخذه منها العامية على المستوى الشفوي وذلك بسيطرتها الكاملة على ميداني الكتابة و القراءة . فقواعد الفصحى صرفا و نحوا و تعبيرا هي المعترف بها رسميا في المجتمعات العربية . **و منه يتضح أن العامية و الفصحى ذات أدوار لغوية متكاملة في مجتمعات العالم العربي** .فللفصحى دور القراءة و الكتابة و للعامية دور الحديث اليومي . ولعل هذه الثنائية اللغوية[170]عامل مهم لابد من الاستعانة به في تفسير ندرة استعمال الفصحى[171] حتى من طرف الذين يتقنون الحديث بها – في الاحتكاكات الاجتماعية اليومية . **إذ أن اللجوء**

---

[170] على أن البعض يذهب إلى ربط ضعف اللغة وتدهورها في أي مجتمع إلى تدهور الأوضاع على العموم في هذا النجتمع.وبهذا الإعتبار فوضعية لغة المجتمع المعين (تقدما أو تدهورا)مرآة تعكس حالة المجتمع بصفة عامة.وفي هذه الرؤية كثير من الصحة بخصوص أزمة الفصحى في الوطن العربي اليوم. لمن هناك عوامل أخرى تنخر في عضام لغة الضاد.ولعل العوامل الخمسة التالية تبخص المؤثرات السلبية(**مجلة اليمامة،عدد 743 ،ص88**) التي أدت إلى تدني اللغة العربية، 1)- تدني الحضارة الإسلامية في الوقت الحاضر 2) فقدان الثقة في التراث العربي بما فيه اللغة 3)القصور في تعليم وتعلّم اللغة العربية4)تشتيت الذهن وبعثرة الإهتمامات بسبب ما حدّ على المجتمع من متغيرات 5) الغزو الإستعماري الفكري والترويج للغات العامية.

[171] ، علماء اللغة المحدثون يفرقون بين الإزدواجية اللغوية والثنائية اللغزية(Diglossy). وتعني الأولى وجود لغتين مختلفتين (عربية وإنجلزية) أو (عربية وفرنسية)مثلا.أما الثنائية فتطلق على فصيلتين من لغة واحدة مثل الفصحى والعامية في الوطن العربي. انظر في هذا الصدد كتاب فقه العربية وخصائصه،مصدر سابق،ص145-146.

لاستعمالها يعد خرقا للمعايير الاجتماعية اللغوية المستعملة في تيارات الحياة الاجتماعية العامة بالمجتمعات العربية .

فالمستعمل للفصحى في الظروف و الأماكن العامة ينظر إليه **اجتماعيا كمنحرف لغوي** . ومن ثم فالعراقيل التي تقف أمام الاستعمال الواسع و السليم للفصحى لا تنحصر فقط في عامل ضعف الأغلبية العربية المتعلمة في الإلمام بلغة الضاد (الأمية الجديدة) تعبيرا و قواعد و قراءة وحديثا . فالعوامل المتعددة التي انتهت عبر العصور بإفراز **الثنائية اللغوية العربية**[172] قد أحدثت واقعا لغويا عربيا جديدا لم تكن انعكاساته السلبية على مكانة واستعمال اللسان العربي الفصيح متساوية[173] لا عبر فترات التاريخ العربي منذ الفتوحات الإسلامية الأولى ولا داخل المجتمعات العربية المعاصرة نفسها .فنزع العاميات العربية للفصحى دورها الحيوي- دور التفاعل اليومي في نبض الحياة حديثا وكلاما- جعلها **لغة صامتة** يقتصر دورها أساسا على الكتابة والقراءة . **إن مصير اللغات المكتوبة والمقروءة فقط مصير معروف جدا** . فمصير اللغة اللاتينية لا بد أن يعتبر به أولو الألباب . **فاللغة كائن حي لا يمكن أن تكون له حياة طبيعية فاعلة ومتفاعلة دون أن يستعملها مجتمعها بعفوية في صلب كل القطاعات الإجتماعية: حديثا وكتابة وقراءة**. فإذا كانت ممارسة الحديث والكلام بأي لغة هي عصب حياتها فإنه يتضح ما تخسره اللغة العربية الفصحى من نبض الحياة عندما تزيد العاميات في سلبها لها هذا الدور الحيوي الذي أصبح استرجاعه يعارض واقعا إجتماعيا لغويا عربيا على طول وعرض الوطن العربي.وهكذا فالتفصيح السليم للغة أفراد المجتمعات العربية يبدو أمرا خياليا في الظروف الراهنة[174].

سابعا:مكانة الفصحى

أ-بالمغرب العربي :

نعني هنا بمكانة الفصحى ما تتمتع به هذه اللغة نفسيا واجتماعيا من تقدير أو من تحقير عند أهل المشرق والمغرب العربيين . أما في **المغرب العربي** اليوم **فمكانة الفصحى** اجتماعيا وشعبيا في الهرم اللغوي الثلاثي (العامية والفصحى والفرنسية)

---

172 ، إن دور ما يمكن أن نسميه بتأثير التشابك (simi Lauty effect) بين اللغات أو بين اللهجات واللغات في تدهور اتقان الفصحى خاصة كلام يستحق الاهتمام. خلاصة هذا المفهوم هو أن التشابه بين لغتي أو لهجة ولغة أو بين لهجتين يؤدي في كثير من الأحيان إلى الإضرار بأحد الطرفين لصعوبة التمييز بين الإثنين من ناحية واللجوء في أكثر الأحيان إلى أسهلهما استعمالا من ناحية أخري.والتشابه بين الفصحى والعاميات العربية مثال لذلك.ومن هنا فاللحن في الفصحى سوف يقل لو أن المتعلم العربي:1)ملم فعلا بقواعد الفصحى نحوا وصرفا وحديثا...2)يعرف معرفة حسنة لغة أجنبية كالإنجلزية و الفرنسية. فوظيفة اللسان الأجنبي لها تأثير تمييز (Discriminotory effect)وهو عكس تأثير التشابه. ويبدو أن إتقان بعض مثقفي المغرب العربي المزدوجي اللغة (فصحى وفرنسية) للفصحى كلاما وكتابة راجع إلى عامل تأثير التمييز. والصادقيون بتونس مثال على ذلك.

173 د.أميل يعقوب، مصدر سابق ص 145-146.

174 ، يبدو أن وضعية الفصحى السليمة في الفترة الحالية وضعية أكثرترديا نسبيا بين المتعلمين من سابقتها في العصر الحديث وذلك رغم التقدم في مكافحة الأمية في معظم المجتمعات العربية. أما الإختلاف بين الشعوب العربية المعاصرة في مقدرة فئاتهاالمتعلمة على استعمال الفصحى السليمة فلا يمكن أن يخفى على كل ملاحظ مهتم بالظاهرة اللغوية بالوطن العربي من المحيط إلى الخليج

هـــي الـــثانية بعد لغة المستعمر الفرنسية[175] . فعلى العموم لا زالت الفرنسية تقترن ،من جهة، في كل من تونس والمغرب والجزائر في أذهان الناس بالتقدم الإجتماعي والإقتصـــادي والـــثقافي والعلمي بالشعور النفسي بالحداثة. وباختصار فالتونسيون والمغاربـــة والجزائـــريون المتعلمون وأغلبيتهم من ذوي التكوين التعليمي المزدوج الـــلغة والثقافة ما فتئوا ينظرون إلى اللغة الفرنسية على أنها لغة التطور والحداثة . ومن جهة ثانية، فإن صورة الفصحى عندهم هي صورة لغة الدين والشعر والتقاليد والـــثقافة العـــربية الإسلامية الأصيلة[176]. وبعبارة أخرى، **فهي بعيدة على أن تعتبر بجديـــة وحماســـة لغة يمكن أن تصبح فعلا لغة العصر الحديث. فهناك إذن انهزام نفساني**[177] خاصة عند مثقفي المغرب العربي ذوي التكوين الفرنسي[178] لفترة ما قبل ومـــا بعد الإستقلال. لكن صورة الفصحى– رغم برامج التعريب في هذه الأقطار– يـــبدو أنهـــا لا زالـــت بعيـــدة جدّا على أن تنافس الصورة الإيجابية التي تتمتع بها الفرنســـية : لغة المستعمر. ولعل أحسن مثال على الصورة الإيجابية للغة الفرنسية فـــي المغـــرب العـــربي بعد الإستقلال هو "ظاهرة الفرنكوراب الأنثوية"[179]. فحسب معطيات وملاحظات ذلك الفصل فإن المرأة العربية المغاربية المتعلمة (المتغربة أو المفرنســـة)تميل إلى خلط عاميتها العربية بكلمات وعبارات فرنسية **أكثر** من رفيقها المغـــاربي المتعلم وذلك لأن استعمال الفرنسية كلغة الحداثة والعصرنة أصبح **أداة رمـــزية** بواســـطتها تحـــاول المـــرأة التونســـية والمغربية والجزائرية المتعلمة أن **تعـــايش(ولو خياليا) ملامح روح العصرنة** التي تحرمها منها مجموعة من التقاليد الاجـــتماعية بالمغـــرب العـــربي. ومـــن ملامح استمرارية بسط الفرنسية لسلطاتها اجـــتماعيا ونفســـيا عـــلى البناء العلوي لهذه المجتمعات الثلاث فإن عددا هاما من **مفكـــري المغـــرب العـــربي** البارزين اليوم **لا يزالون يكتبون بالفرنسية** رغم إلمام بعضـــهم بالفصـــحى إلمامـــا كافيـــا وأحيانا ممتازا يسمح لهم بالكتابة فعلا باللسان العربي الفصيح. فلغة الكتابة السائدة للمفكر المغربي المشهور عبد الله العروي هي الفرنسية وكذلك الشأن عند المفكرين التونسيين هشام جعيط وعبد الوهاب بوحديبة. أمـــا الجزائر فيبدو أن هناك محاولات **أكبر** في العلوم الإجتماعية مثلا في التأليف باللســـان العـــربي الفصيح[180].ويتفق هذا **مع سياسة التعريب الأكثر حماسة والتزاما بالقطـــر الجزائري**. فإذا كانت الفصحى ليست هي لغة العلوم التاريخية والإجتماعية عمومـــا عند المتخصصين في هذه الميادين خاصة في كل من تونس والمغرب فهي

---

175 انظر هامش 102-103

176 انظر الجدول السابق

177 وهو تكوين ما يمكن ان تطلق عليه اسم **التعليم العام** حيث الفرنسية وثقافتها لاوالتا مهيمنتين رغم برامج التعريب والتحذير في بلاد المغري العربي

178 هو التكوين الذي تغلب عليه الفرنسية لغة وثقافة

179 انظر الفصل الرابع من الباب الثالث

180 انظر على سبيل المثال مؤلفات عبد الجيد مزيان الأخيرة في العلوم الاحتماعية.

أقل استعمالا بكثيرمن ذلك في التخصصات العلمية البحتة كالعلوم الطبيعية والطبية الخ[181].

ب-بالمشرق العربي :

أما **مكانة الفصحى** في **المشرق العربي** من حيث التقدير أو التحقير نفسيا واجتماعيا فيبدو أنها تتمتع **بمكانة أحسن** اجتماعيا[182]من التي رأيناها بالمغرب العربي. ولعل هذا يرجع إلى عاملين متشابكين رئيسيين:

1/ إن الاستعمار الثقافي (الإنجليزي أو الفرنسي) لم يمس بعمق كما هو الحال بالمغرب العربي الأسس الثقافية بالمشرق العربي بما في ذلك الفصحى واللهجات العامية[183].

2/ إن التعريب[184] واقع اجتماعي منتشر ومتجذر في لغة الفرد والمؤسسات العامة بالمجتمعات المشرقية العربية أكثر مما هو معمول به بالمجتمعات المغاربية العربية. ولكن رغم كل هذا فإن المشرقيين لا يبدو أنهم يتقنون الفصحى الإتقان المنتظر منهم . فاللحن شائع اليوم في استعمال الفصحى عندهم وذلك حتى على مستوى أعلى نخبة ثقافية ألا وهي أساتذة الجامعات وطلبتهم كما رأينا في هذه الفصل . **فالتعريب الشامل في المشرق العربي لا يعني بالضرورة حسن معرفة استعمال الفصحى تعبيرا ونحوا وصرفا وحديثا.** وهكذا يبدو أن مفهوم التعريب كأنه يعني في واقع الأمر مجرد استعمال كلمات عربية بحروف عربية دون الاعتناء بمتطلبات إتقان الفصحى استعمالا وكتابة وقراءة . وهكذا يبدو أن **العامية قد انتفعت أكثر من عملية التعريب.** ومن ثم تدهورت الفصحى رغم تجذر حركة التعريب في هذه المجتمعات العربية المشرقية. ولعل انتشار عدم إتقان لغة أجنبية[185] عند عموم أهل المشرق العربي **ساعد على دمج الفصحى بالعامية** وذلك لتشابه الإثنين[186] في كون أن الأولى هي الأم والثانية هي الفرع . فأهمل التمييز بين الإثنين(الفصحى والعامية) في كثير من المناسبات غير الرسمية بما في ذلك فرص التدريس بالجامعات وغيرها من المعاهد العليا.

وهكذا أصبحت العاميات العربية النمط اللغوي المستعمل كوسيلة للتدريس في قاعات الجامعات العربية. لكن **يظل المشرقيون المثقفون أكثر التحاما وترابطا ومساهمة في إثراء الثقافة العربية.** فبينما لا يزال عدد كبير من المغاربيين

---

181) ففي تونس مثلا بينما عربت كل المواد في التعليم الإبتدائي بما في ذلك تدريس العلوم إلا أنه التلاميذ أجبروا على الدراسة بالفرنسية(رغم كل الانعكاسات البيداغوجية والوطنية التي يمكن أن يتعرض لها التلميذ من جراء هذه الإزدواجية اللغوية المباغتة) كل العلوم العصرية (كالرياضيات،العلوم الطبيعية..) في مراحل ما بعد الإعدادي.

182 انظر هامش 102

183 بسوريا مثلا.

184 انظر هامش 7أعلاه.

185) انظر هامش102.

186 وهي ظاهرة الثنائية : انظر هامش14 أعلاه.

المثقفين والمفكرين يكتبون باللسان الفرنسي، كما أشرنا سابقا، فإن هذه الظاهرة لا تكاد توجد بين مثقفي المشرق العربي[187] خاصة بعد الإستقلال. فاللسان العربي الفصيح أو الميسر[188]هو لغة الثقافة والكتب والمجلات والجرائد..بالمشرق العربي. ومن هنا فمساهمة المشارقة في دفع حركة الثقافة العامة في العالم العربي لها حظوظ أكبر في أن تمس قطاعات أكبر من فئات الشعوب العربية. بينما كل ما ينشر بالمغرب العربي بالفرنسية تظل تأثيراته، رغم جهود الترجمة محدودة في المساهمة، من جهة، في وثبة الثقافة العربية في الوطن العربي على العموم . ومن جهة ثانية، فإن ما ينشر بالفرنسية اليوم في كل من تونس والمغرب والجزائر لا يتماشى مع واقع استمرار ضعف مستوى الفرنسية عند الأجيال الجديدة التي تأثرت وتتأثر رغم التذبذب في بعض الحالات بحملات ومشاريع التعريب في هذه المجتمعات . **وان الاستمرار في الاتكال على الفرنسية عند مثقفي وعلماء المغرب العربي يعارض مبدأ ديمقراطية المعرفة للجميع المنادى به في كل المجتمعات العصرية حديثا** . فعدم استعمال العربية في الميادين العلمية في بعض مجتمعات المغرب العربي على الخصوص لا يؤدي إلى ديمقراطية المعرفة العلمية بل إلى احتكارها من طرف النخبة المفرنسة أو المغتربة ثقافيا فقط. إن احتكار النخب للمعلومات العلمية هو أحد أسباب التخلف الفكري عند العرب[189].

ثامنا: غربة الفصحى لا تكاد تطرح :

ليس من الواقعية أن ينتظر المرء وعيا شعبيا عاما بقضية تدهور وضعية اللغة العربية الفصحى بالوطن العربي . وكيف يمكن ذلك والحال أن نسبة الأمية التقليدية نفسها (ناهيك عن الأمية الجديدة) لا زالت سائدة في كثير من المجتمعات العربية؟

أما بالنسبة للمتعلمين، **فمسألة تردي الفصحى لا تكاد تطرح** من طرف أغلبيتهم اليوم . ولعل هذا الصمت يرجع إلى بعض أو كل الأسباب التالية:

1-الخلط في التصور(نتيجة لعامل تأثير التشابه) بين استعمال العامية والفصحى . وهو يشبه الخلط الذي أشرنا إليه سابقا بين مفهوم التعريب ومفهوم استعمال الفصحى السليمة.

2 - إن استعمال العامية، من جهة، في الحياة الإجتماعية كلسان تخاطب جماعي والجهل الشائع، من جهة أخرى، بأسس اللسان العربي الفصيح حتى بين نخبة المثقفين(من أساتذة وطلاب جامعات) لا يشجع بأي حال من الأحوال على إثارة قضية تدهور الفصحى نحوا وصرفا وتعبيرا وكتابة وقراءة وحديثا في العالم العربي الحديث على العموم.

---

187 ظر "الفركوفويون في المشرق العربي بين الأمس واليوم " جريدة الشرق الأوسط (14-5-1983) ص 13.

188) انظر مجلة شؤون عربية عدد 5 (تمز/يوليو 1981)ص267-269.

189 انظر كتاب أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي (وقائع ندوة الكويت 7-12نيسان/ابريل1974).(الكويت : جامعة الكويت ، ص75).

3 – إن معرفة الفصحى لا يضمن العيش الكريم كما هو الحال في العديد من ميادين العمـــل بمجتمعات المغرب العربي.وهذا لا يعني أن ليس هناك من أبناء وبنات هذه الأمـــة من لا يعتبر حالة الفصحى المتردية في المجتمعات العربية وحتى مؤسساتها الـــثقافية قضـــية لا يمكـــن الصـــمت عنه[190]. لكن نداءات هذه الأقلية الواعية بأزمة الفصـــحى في المشرق والمغرب العربيين لا ينبغي أن ينتظر منها أن تحدث تغييرا ملموســا مـــا لـــم تترجم هذه الاحتجاجات إلى تطبيقات فعلية على مستويات شعبية ومؤسســاتية. فالمـــنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مثلا، لا يبدو أنها واعية بمفهـــوم الفصحى كما طرحت في هذا الفصل. فالمنظمة تعددت أنشطتها ومشاغلها. **لكـــن تجذير الفصحى السليمة في الوطن العربي** بين المتعلمين ابتداء من مراحل تعـــليمهم الأولى **لا يبدو أنه همّ من هموم المنظمة** التي يمكن أن تؤثر في حملات الـــتوعية بقضـــية الفصـــحى فـــي كـــل أنظمة التعليم بالعالم العربي. ولكن صمت المختصـــين والمهـــتمين بميادين الثقافة والتربية والعلوم عن قضية **غربة الفصحى الســـليمة بالعالم العربي** حتى[191] في الجامعات العربية هو ظاهرة في حد ذاتها حرية بالدراســـةوبالتالي **فـــإن مفهوم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لـــ"الأمن اللغوي" للوطن العربي يحتاج إلى أكثر من تساءل.** وعند اتصالي باتحاد الجامعات العـــربية بالـــرياض[192] لمعرفة إذا ما كانت هناك دراسات أو إحصائيات على مدى استعمال الفصحى بالجامعات العربية عبر الوطن العربي اعترف المسؤولون الذين الـــتقيت بهـــم بـــأنهم يجهلون وجود مثل هذه الدراسة. وأن كل ما يعرفون هو عقد نـــدوات ومؤتمـــرات تمس من قريب أو من بعيد قضية التعريب . وتوصي جميعها عـــلى العمـــوم بإعطاء كل الإمكانيات لدفع حركة التعريب في كل الميادين. ورغم العلاقـــة الظاهـــرة بيـــن عمليتي تعريب المصطلحات والعبارات و"تفصيحها" نحوا وصـــرفا وتعـــبيرا وحديـــثا..فإنـــه بوجود العاميات العربية ذات الاستعمال الواسع أصبحت العلاقة بين التعريب والتفصيح علاقة غير طردية بالضرورة كما بيّنا : أي **أنه ليس صحيحا أنه كلما عربنا كلما تحسنت استعمالاتنا للفصحى السليمة.** ونظرا لاســـتعمال العاميـــات العـــربية بنســـبة عالية حتى في تدريس الفصحى نفسها فإن الـــتعريب **أصبح يعني أساسا تحسين وإثراء العاميات** وليس تمكين الإنسان العربي المعـــرب بالضـــرورة من إلمام بالفصحى يجعله قادرا على استعمالها كتابة وقراءة وكلاما بطريقة سليمة.

تاسعا:الانعكاسات الموقفية لتدهور الفصحى

---

190 ، انظر "محنة اللغة العربية بين المشرق والمغرب"العربي، عدد 28(نيسان/ابريل 1982)، ص42-45.و "لغتنا العربية جزء من هويتنا المسبقبل العربي عدد35 (كانون الثاني يناير1982) ص:121-129

191 انظر حوار مع الدكتور صالح خرفي مدير الادارة الثقافية في اليونسكو العربي "جريدة الشرق الأوسط4-4-1983ص10انظر العدد الخاص بمجلة المجلة العربية العدد الثاني (سبتمبر1982) الذي لم يتطرق إلى قضية سلامة الفصحى بالجامعات العربية واقتصر الحديث على التعريب فقط.

192 كان ذلك في منتصف شهر نيسان /ابريل 1983.

كـــان هـــذا الفصـــل قد حدد بعض المؤشرات لقياس تدهور مستوى الفصحى بين المتعلمين في الوطن العربي اليوم ، وبالتالي **الأخطار المحدقة بالأمن اللغوي للأمة العـــربية.** فما هي يا ترى انعكاسات هذا الواقع اللغوي المتدني على موقف، مثلا، الطلبة الجامعيين إزاء اللغة العربية الفصحى كلغة؟ ثم ما هي آثار هذا الموقف على المجتمعات العربية؟

إن الموقـــف العـــام الذي يصادفه الملاحظ **لموقف الطالب والطالبة** العربيين ذويْ الـــتكوين المتردي في اللسان العربي الفصيح **هو موقف الحب والكراهية معا حيال الفصحى** . فمن جهة، يشعرك الطالب العربي بعفوية بأن للعربية الفصحى في نفسه مكانـــة محترمة تستمد تحترها من كونها **الوعاء الرمزي** للمسات القدسية والتراثية للانـــتماء العـــربي الإســـلامي . لكـــن، من جهة ثانية، يلحظ المرء ملامح الموقف العدائـــي المتخنس أو الصارخ عند كثير من الطلبة إزاء الفصحى خاصة تلك التي تـــنحرف عـــن أسلوب الجرائد والمجلات الشعبية. ومثل هذا الموقف ليس بغريب فعـــلا. فجـــذور الكراهية المستترة أو الناطقة ترجع بكل بساطة إلى قانون:"**جاهل الشـــيء كارهـــه**". وأما الشعور بالاحترام والحب للسان العربي الفصيح فهو يعود باختصـــار إلى مدى اقتران وعلاقة هذا الأخير خاصة بأسس ذاتية الإنسان العربي المســـلم. ومـــن هنا فتدني الفصحى في حد ذاتها ليس قضية لغوية بحتة كما يتبادر إلى الأذهـــان وإنمـــا تمس انعكاساتها **ذاتية الإنسان العربي** نفسها طالما ظل يعتبر الـــلغة العـــربية الفصيحة مذكرة تاريخه الماضي وبطاقة تعريفه في الحاضر وأداة تعـــبير عـــلى آمالـــه المستقبلية. **وبانتشار مثل هذا الموقف(الحب والكراهية) بين المتعـــلمين العرب يصبح للظواهر الآتية منطق ذو ثقل وأخطار على مستقبل هذه الأمة:**

أ/ تفشي العزوف العام عن القراءة بالفصحى بين المتعلمين بالعالم العربي اليوم .

ب/ ندرة الابتكارات بكل أنواعها بالوطن العربي . ويرجع هذا حسب آخر البحوث اللغوية إلى العلاقة الوثيقة بين معرفة اللغة الوطنية (القومية) والمقدرة على الإبداع والابتكار[193].

ج/ إن تـــردي الفصحى وسطوة العاميات المتعددة على مجرى الحياة في مجتمعات الوطـــن العربي بما فيها الجامعات العربية لا يمكن أن تؤدي إلا إلى ضعف رابطة الانتماء العربي.**فالفصحى- لا تزال كما كانت في أولى الفتوحات الإسلامية- أكبر عامل موحد بعد مبادئ الإسلام لأمة العرب.**

_عاشرا:جذور تدهور إتقان الفصحى

إن الأســـباب التي يمكن أن تفسر لنا تدهور مستوى الفصحى عند المتعلمين العرب اليوم متعددة. ويمكن حصر ذكر أهمها في التالي:

---

[193] المستقبل العربي عدد35 (كانون الثاني /يناير 1983) ص 123

1/ انتشـــار استعمال وسائل الإعلام المسموعة والمرئية خاصة ظاهرة الفيديو التي تنتشـــر عـــلى الخصـــوص في منطقة الخليج العربي . ومن ثم فلم يعد الكتاب خير جليس وأنيس للإنسان العربي المتعلم[194].

2/ انتشـــار التعليم كمًّا وبسرعة في العالم العربي أدى إلى ضعف مستواه الكيفي بما في ذلك مستوى لغة التعليم الرسمية(الفصحى).

3/ انتشـــار تدهـــور مســـتوى لغة الضاد[195] لكل من معلم الإبتدائي وأستاذ المستوى الإعدادي والثانوي والجامعي في المدارس والجامعات العربية.

4/ تفشي التأثيرات الثقافية غير العربية بما فيها اللغات الأجنبية واللهجات . ومنطقة الخـــليج هـــي أكـــثر المناطق العربية التي تعرضت إلى موجات اللغات واللهجات الأجنـــبية من طرف كثافة سكانية وافدة كبيرة مختلفة الجنسيات واللهجات واللغات والعادات[196].

5/ نـــدرة الإنـــتاج العـــربي الممـــتاز الذي يشد القارئ العربي شدا أفكارا وأسلوبا وتعبيرا ومعرفة بأسرار الفصحى نحوا وصرفا وبلاغة.

6/ مشـــاغلنا السياسية الشرق أوسطية جعلتنا نقبل أكثر على مطالعة الجرائد اليومية والمجـــلات الأسبوعية . وبالتالي تعودنا على لغة هذه المطبوعات **وفقدنا من جراء ذلـــك وجـــود الفرصة للتطبع بلغة المجلات القيمة والكتب ذات المستوى اللغوي والفكـــري المـــثري تعبيرا وتصورا لقضايا الحياة المتعددة والمتجددة.** ومع أهمية هـــذه الأســـباب الممكنة جميعا **فإن المدرسة والجامعة العربيتين هما المسؤولتان الأوليان على تردي الفصحى.**

يبدأ الطفل العربي تعلم قواعد اللغة العربية الفصحى في المدرسة كتعلمه لقواعد أي لغة أجنبية . فبداية تعرفه وهو طفل ثم تمكنه وهو شاب أو كهل من اللسان العربي لا يتم أساسا إلا في دروب المدرسة والجامعة . فإذا غادر المدرس أو الجامعة وهو **خـــاوي الزاد في لغة الضاد** فإنه يكون قد خسر أحسن فرصة للتمكن والإلمام باللغة العـــربية الفصـــحى. وهكـــذا أدت ظاهـــرة التدهور في الفصحى في كل المراحل التعـــليمية إلى **خلق حلقة مفرغة** لا تكاد تعطي أي أمل لإصلاح وضعية الفصحى فـــي المـــدارس والجامعـــات والمؤسسات الثقافية العربية الحالية. فلا المتخرج من الـــثانوي ولا المتحصـــل على الباكلوريوس ولا الماجستير ولا حتى الدكتوراة[197] من الجامعـــات العـــربية هـــو قـــادر، كما رأينا ،على استعمال الفصحى بطريقة سليمة تتناســـب خاصـــة مع ما يقتضيه مستوى الخريجين الجامعيين. ومن ثم **فإن أي حل**

---

194 ظاهرة "الأمية الجديدة " تفسرها الدراسات الحديثة إلى حد كبير بهذه العوامل بما في ذلك وجودها بالمجتمعات المتقدمة.

195 ولا بد أن يكون هناك دور لانتشار العنصر المصري المدرس في كثير من الأنظمة التعليمية العربية وعلى كل المستويات بالمشرق والمغرب. فسهولة فهم العامية المصرية من طرف أفراد بقية المجتمعات العربية سهل على المصري استعمال عاميته حتى في قاعات التدريس.

196 ، مجلة الدوحة العدد 69 (ابار/ماي1983) ص 22

197 اعني هنا خاصة غير المتخصص في دراسة اللغة العربية الفصحى.

لتدني مستوى الفصحى يكاد يكون في الواقع مستحيلا اليوم على المدى القريب والمتوسط في الوطن العربي، لأنه أينما أريد البدء بالإصلاح سواء كان ذلك على المستوى الإبتدائي أو الإعدادي أو الثانوي أو الجامعي فإن توفر وجود هيئة التدريس الكافية والمتمكنة في تعليم الفصحى السليمة على كل المستويات التعليمية أمر عسير تحقيقه في العالم العربي اليوم . هذا من جهة، ومن ناحية أخرى فإن تدهور مستوى الفصحى عند غير معلمي وأساتذة الفصحى سوف لن يساعد التلاميذ والطلبة على المحافظة على ما كسبوه من معرفة ضئيلة للفصحى.

حادي عشر :كيف تتحسن الفصحى:

وهكذا يبدو أن تحسين مستوى الفصحى عند المتعلم العربي قراءة وكتابة وحديثا لا يمكن أن ينجز إلا في إطار شمولي يبدأ:

أ/ في المرحلة الإبتدائية بمعلم الفصحى نفسه إلى معلم الرياضة البدنية ومرورا بمعلمي المواد الأخرى كالطبيعيات والرياضيات. أي أن دور كل معلم ومرشد ...في النظام المدرسي الإبتدائي ينبغي أن يكون معززا لدى التلاميذ لدور معلم اللسان العربي الفصيح الذي ينتظر منه أن يغرس حب[198] الفصحى في الشخصية القاعدية للطفل العربي ثم تزويده فعلا بمقدرة لغوية تمكنه من فهم واستعمال لغة الضاد في حدودها البسيطة بالنسبة لمستوى التلميذ العربي في المرحلة الإبتدائية . ولتحسين مستوى فصحى المتعلمين بالوطن العربي إلى مستوى أفضل يجب أن يمتد المنظور الشمولي هذا إلى بقية مراحل التعليم حتى التخرج نهائيا من الجامعة . **أي أن الاعتناء بإتقان اللغة الفصحى**(وهي لغة الشعوب العربية الرسمية والقومية في آن واحد) **يجب أن يصبح من أهم مشاغل المدارس والمعاهد والجامعات العربية** . وبصورة أشمل ينبغي إدماج مبدأ[199] "الإلمام الضروري باللغة الوطنية (الفصحى) في السياسات الثقافية للمجتمعات العربية"[200]. أي أن "الأمن اللغوي" (التمكن من معرفة كافية للفصحى كتابة وقراءة وكلاما)يجب أن يصبح جزءا لا يتجزأ من "الأمن الثقافي" لكل مجتمعات الأمة العربية.

ب/ ومما يزيد في حيوية أي لغة وإثرائها هو مدى تفاعلها مع الحياة الاجتماعية . فإعطاء الفصحى مكانتها الإستعمالية الطبيعية السليمة (بصفتها لغة وطنية وقومية) في دروب المجتمع العربي المختلفة يصبح **مطلبا شرعيا** لا تبخل عن تلبية أي سلطة في المجتمع تؤمن بالعربية كلغة وطنية وتؤمن أيضا بأن تحسين معرفة

---

[198] فغرس موقف حب الفصحى في شخصية الطفل العربي هي عملية لا بد أن تعزز وتثبت من مكانة الفصحى عند الانسان العربي بعد سن الطفولة . فأهية التنشئة اللغوية في الفصحى في هذا السن المبكر أمر أقر دوره المهم علم النفس وعلم الاجتماع الحديثان.

[199] ويعني ذلك الحد الأدنى من معرفة الفصحى الذي يجب على الأنظمة التربوية العربية أن تؤمنه للمتعلم العربي المتوسط(بين المتخرج من الثانوية والمتحصل على الباكلوريوس الجامعية).

[200] انظر عدم الاشارلاة إلى قضية تدهور الفصحى في قرارات لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية في جريدة القبس الكويتية عدد 3940 (3-5-1983) ص 10

الفصحى بين المتعلمين العرب ييسر عليهم عملية الفهم والإستيعاب الأساسيين لأي فكـر خـلاق. وأثبتت الدراسات في هذا المجال أن مقدرة الفرد على فهم أفضل تقـترن اقـترانا وثيقا باستعمال اللغة الوطنية . ولتعزيز موقف المتعلمين العرب بخصـوص "**تطـبيع**" **وضـع الفصـحى** في المجتمعات العربية الطاغية فيها الآن الاستعمالات العامية حتى في أكثر المؤسسات رمزا للثقافة العليا (الجامعة) ينبغي أن تضـع هـذه المجتمعات **حوافز اجتماعية** تجذب الأفراد والجامعات إلى تحسين معرفـتهم بالفصـحى. فجعـل معـرفة الفصحى معرفة سليمة كشرط أساسي في التحصيل على كثير من الوظائف، من جهة، وكأساس ضروري بالنسبة للترقيات، من جهة أخرى، سوف يكون حافزا غير هين للمتعلمين العرب على أن يحذقوا أكثر فأكثر لغة القرآن.

ج/ ولا يمكـن أن تكـتمل الشـروط التي سوف تؤدي –إن توفرت– إلى تحسين وضعية الفصحى بين المتعلمين العرب دون الإشارة إلى **أهمية دور العائلة** [201] في طلاقة اللسان العربي الفصيح . فتعويد الأطفال منذ الصغر على اللغة الفصحى عن طـريق حفـظ القرآن والأناشيد والأغاني الفصيحة ..تنشئة لغوية مهمة لها آثاره الإيجابية على مستقبل الطفل اللغوي في الفصحى . ففي عائلات مجتمعات المغرب العربي لا تستطيع الفصحى إلى حد الآن مزاحمة الفرنسية حتى في بعض الكلمات البسـيطة الـتي يسـتعملها الأطفال في المحيط المدرسي . فهذه العائلات لا زالت تسـتعمل إلى حـدّ الآن كـلمة (الكرتابلة) (le cartable) عوضا على المحفظة وكلمة (سـتيلو)(le stylo) بدلا من قلم حبر..ومنه فمساهمة العائلة سلبا أو إيجابيا في علمية تدهور الفصحى أو سلامتها لا يحتاج إلى إيضاح أكثر..

ثاني عشر:وضعية الفصحى بين التشاؤم والتفاؤل

ورغـم أن الـلهجات العاميـة العربية خاصة المصرية منها هي السائدة كوسيلة تدريـس وعلى الخصوص بالجامعات المصرية والخليجية والجزائرية فإنه لا يبدو أن هـناك سياسات لهذه الجامعات تقاوم، من جهة، موجة طغيان العاميات وتشجع ،مـن جهة أخرى، انتشار استعمال اللغة العربية الفصحى في قاعات التدريس على الأقـل. وسـكوت مسؤولي الجامعات على ذلك يفيد الرضاء بالأمر الواقع أو عدم الوعي بالقضية من الأساس. وفي كلا الحالتين فإن مثل هذا الوضع لا يزيد إلا من **غـربة وتدهـور الفصحى السليمة في دروب الجامعة** مع ما لذلك من انعكاسات خطيـرة تـتعدى بالـتأكيد، كمـا جاء في هذا الفصل، الحدود اللغوية. ولا بد من الاعتـبار هنا على ضوء ما سبق أن السبيل إلى تطبيع وضعية الفصحى بالهياكل الجامعيـة ليس بالأمر السهل اليوم بعد أن تردت حال اللسان العربي الفصيح حتى عـند خيرة مثقفي هذه الأمة كما رأينا . ويكاد المرء يقول أننا **على قاب قوسين أو أدنى مـن تجاوز نقطة الخطر** التي ليس بعدها من أمل في جعل الفصحى السليمة

---

[201] انظر مقال" بين الفصحى والعامية" ، جريدة الجزيرة السعودية ، عدد 3877 (2-5-1983)،ص 13.

بــدلا مـــن العاميـــات اللغة الطبيعية التي يقرأها ويكتبها ويتحدثها الطالب والأستاذ الجامعيان بعفوية وطلاقة مقبولتين. ومع ضعف الأمل في إحداث مثل هذا الإصلاح الـــلغوي المصـــيري فإن إمكانيات ردء الصدع لا تزال مع ذلك متوفرة للجامعات الخـــليجية والجزائـــرية بالخصـــوص حيث تطغى تعددية العاميات (وليس عامية واحـــدة) مكان لغة الضاد السليمة . فإحدى المحاولات التي يمكن أن تحسن وتعزز من مكانة الفصحى السليمة عند كل من الطالب والأستاذ الجامعيين هو قيام مسؤولي الجامعة بتنفيذ مثل الخطط التالية:

1/ حمـــلات توعيـــة بأهميـــة معرفة الفصحى السليمة قراءة وكتابة وحديثا خاصة بالنســبة لـــلطالب والأســـتاذ بالمؤسســـة الجامعيـــة . ونحن نعرف من علم النفس الاجـــتماعي مـــدى أهمية نشر الوعي حول أي قضية من القضايا في تغيير مواقف وعـــادات وعقـــليات الأفراد والجماعات.وبحدوث ذلك يتهيأ الطالب والأستاذ نفسيا أكثر لما يتطلبه تغيير العادات اللغوية المنادى بها في هذا الفصل.

2/ أن تـــتخذ الجامعات قرارات تبلغ رسميا إلى كل أعضاء هيئة التدريس المدرسين بالعربية على ضرورة عدم استعمال العامية كوسيلة للتدريس.

3/ أن تـــنص بـــنود التعاقد مع المدرسين بالعربية على لزوم استعمال الفصحى في التدريس .

4/ تقديم مكافآت رمزية أو مالية أو الإثنين لمن يمتاز من أعضاء هيئة التدريس في استعمال وإتقان اللسان العربي الفصيح خاصة بقاعات التدريس بالجامعة.

5/ أن يشـــجع الطلاب والطالبات على استعمال الفصحى في المناقشات داخل قاعات المحاضـــرات . إن حظ مثل هذه الخطة في الإتيان بنتائج إيجابية لاستعمال اللسان العـــربي الفصـــيح بيـــن الأستاذ وطالبه والعكس بالمؤسسة الجامعية حظ لا يمكن الاســـتهانة به . فتهيئة المناخ النفسي بالتوعية لدى الطالب وأستاذه بأهمية استعمال الفصحى السليمة في سَنّ القوانين المشروعة[202] والمعززة لهذا الاستعمال ثم جزاءمن يـــنفرد في ممارسة ذلك، كلها عوامل هامة لبداية الاجتهاد على الساحة الجامعية في تحسين وضعية الفصحى السليمة.

[202] ان التجربة اللغوية لمقاطعة كيباك الفرنسية بكندا أثبتت أن سن القوانين بالنسبة لاستعمال الفرنسية قد عزز مكانة هذه الأخيرة خاصة في مدينة منتريال حيث يتكلم30 بالمائة من سكان المدينة الانجليزية . فقانون101 Bill الصادر في عام1977 جعل من الفرنسية لغة المعاملات الأساسية بكيباك. ومن ثم أصبح واجبا حتى على الأقلية الإنجليزية الكندية أن تستعمل الفرنسية . وفي إحصاء أخير للرأي العام في هذه المقاطعة أكدت الاغلبية أن قانون 101 قد حسّن فعلا حالة اللغة الفرنسية في مدينة منتريال بالخصوص.

الفصل الرابع
المجتمعات النامية ومشكلة الثقة بالنفس

أولا:تعدد تسمية التخلف

لقــد تعــددت ولا زالــت تتعدد التسميات التي تطلق على المجتمعات الحديثة العهد بالاســتقلال. فهــي تسمى اليوم بالدول المتخلفة، وبمجتمعات العالم الثالث، وبدول الجنوب، وبالمجتمعات التابعة أو المستغلة وبالمجتمعات النامية.وجاءت آخر تسمية لصنف من هذه المجتمعات تحت اسم **الدول الأقل نموا أو تقدما**[203].ولعمري فسوف لــن تكــون هذه آخر التسميات.لأن المجتمعات –كل المجتمعات– كائنات اجتماعية حيّــة دائــبة الحركية والجدلية.وكل هذه التسميات الوصفية مستوحات من مقاييس العصــر الــتي تمســك بــزمامها المجتمعات المتقدمة. ومن أهم معايير تصنيف المجــتمعات فــي زماننا هذا هو المعيار الإقتصادي والإجتماعي والثقافي والعلمي والصــناعي. فمــن جهة، يعتبر المجتمع ذو الكسب الأكبر من هذه المؤشرات أكثر المجــتمعات الحديثة تقدما ويعد، من جهة أخرى، المجتمع ذو الكسب الأقل من تلك المؤشرات أكثر المجتمعات تخلفا.

ولا يمكــن، طــبعا، قصــر عــدد مؤشرات التخلف أو التقدم هذه على ما تتضمنه التســميات الوصــفية لمجتمعات العالم المعاصر[204]. وفيما يخص الأسماء العديدة الســابقة الذكر أعلاه لمجتمعات العالم الثالث فإنه يمكن إضافة تسمية أخرى تصف هذه المرة لا ظواهر التخلف الخارجية(كقلة التصنيع أو كضعف المدخول الفردي أو تــردي المصــالح الصحية والإجتماعية...)وإنما تصف **ملمحا داخليا** (نفسانيا)لبناء **الشخصــية القاعديــة** ذاتها لفئات المجتمعات المتخلفة. **فعدم الثقة بالنفس وتحقير الــذات:** هي من الصفات الشائعة والمتفشية بين فئات كثيرة من مجتمعات ما يسمى بالعالم الثالث.

وتظهــر جــذور تعمق وتفشي ظاهرة فقدان الثقة بالنفس بين أفراد فئات مجتمعات العــالم المــتأخر فــي **الاعتقاد الشائع** الذي طالما يرجع تخلف الدول النامية وتقدم الــدول الصناعية إلى أسباب شبه **بيولوجية أو عرقية**[205] . ويتردد هذا الاعتقاد في العالم العربي في المقولة المشهورة "إذا عُرّبت خُرّبت" وفي شعوب أمريكا الجنوبية

---

[203] عقدت منظمة الأمم المتحدة اجتماعا خاصا حول هذه المجتمعات(33) الأكثر فقرا باريس، سبتمبر 1981

[204] فالتقدم المادي في الدول الصناعية (كموشرتنمية) أثبت أنه يؤدي إلى عكس ذلك على المستوى الاجتماعي. فضعف وفتور البناءات والعلاقات الاجتماعية (تدهور الوحدة العائلية) وانتشار ظاهرة الانتحار في هذه المجتمعات هي علامات ومؤشرات على ما يمكن أن يوصف بظاهرة التخلف في نفس هذه المجتمعات.

[205] الواقع أن المرء يلاحظ شعورا عاما بعدم الثقة بالنفس لدى فئات هذه المجتمعات ويأتي أحيانا تحديد السبب في انفعالاتهم الكلامية التي تفصح عن العلا قة بين بيولوجيتهم وعرقهم ووضعهم المتخلف اليوم.

تنتشـــر أسطورة **الأصل اللاتيني** كمعرقل لأي التحاق كامل بالدول المتقدمة خاصة الأنكلوساكســونية مـــنها. ويـــأتي **لون البشرة السوداء** كعامل آخر يقترن بظاهرة التخــلف فــي العـــالم الثالث. ففئات وأفراد مجتمعات إفريقيا السوداء طالما يردون تخـــلفهم وتأخرهم إلى عامل اللون.**والمعروف أن اقتران البشرة السوداء بالتخلف هـــي ممارســـة اســتعمارية لا زال ينادي بها عدد غير قليل من الأمريكيين ذوي البشرة البيضاء**. فهم كبقية المستعمرين المحدثين (فرنسيين، وإنجليز...) الذين بثوا إيديولوجيات البيولوجيا العرقية منذ اكتساحهم الإستعماري لمجتمعات الجنوب. ومما يساعد عى استمرارية مواقف "Attitudes " فئات الشعوب المتخلفة الإحتقارية لذاتها هــو وجــود واقـــع مجتمعي محلي وعالمي لا يناقض هذه الاعتقادات القادحة في الشخصية الفردية والجماعية على حدٍّ سواء لهذه الشعوب.

فالمجـــتمعات الأوروبية والأمريكية الانكلوساكسونية خاصة وهم الأكثر تقدما اليوم فـــي كـــل القطاعـــات العصرية لمفهوم التقدم والنمو، و عكس هذا فمجتمعات آسيا وأمـــريكيا اللاتينية وإفريقيا تتأرجح بين نوع نسبي من النمو وبين فقر مدقع خاصة فـــي القـــارة السوداء. وما اجتماع الأمم المتحدة في باريس في سبتمبر1981 حول الـــدول الأقل نموا إلا تصديق لـــفشل مشاريع التنمية لشعوب إفريقيا السوداء وآسيا الصـــفراء. وهكذا يقوى الاعتقاد في علاقة "العرقية" او "البيولوجيا" بظاهرتي "التقدم "و"التخـــلف". وباســـتثناء وجود المجتمع الياباني ذي التقدم الباهر اليوم، خاصة في التكـــنولوجيا العصـــرية، فـــليس هناك في الوقت الحاضر من الأدلة الملموسة من المجـــتمعات الـــنامية مـــا يمكـــن أن يُصَـــدِّع ويهدم أسس هذا الاعتقاد العرقي أو الـــبيولوجي الـــذي يُكَـــبِّل عقلية معظم هذه الشعوب المتأخرة، وبالتالي يؤخر مجئ ساعة إرادة التغيير التي هي طاقة طبيعية لكل الشعوب.

ثانيا:التخلف بين الباطل والحقيقة

وبـــناء على هذا الواقع: التقدم المستمر، من جهة،في الغرب الأبيض خاصة، وتعثر حـــركة النمو في القارة السوداء خاصة، من جهة أخرى، يختلط الحق بالباطل إزاء الأســـباب الحقة للتقدم أو للتأخر في مجتمعات العصر الحديث. وما الفرق بين الحق الـــبيّن والباطل البيّن في هذه الأمور بالسهل. فكيف يمكن **لإنسان العالم الثالث ذي النشأة الثقافية الإستعمارية** أن يتفطن بسهولة إلى أصل أسباب ظاهرة التخلف في العصـــر الحديـــث؟ وكيـــف لأميّ العالم الثالث (وعددهم كبير) أن يبدؤوا حتى في محاولـــة الـــتعرف عن معضلة التخلف؟ وكيف يمكن لشباب العالم الثالث (وعددهم مهـــول أيضا) المبهور بإنجازات وابتكارات المجتمعات المتقدمة أن يقف **وقفة تأمل وتســـاؤل حـــول الأســـباب التي قسمت العالم حديثا إلى عالم متقدم صناعي وآخر متخلف فلاحي؟**

فالتقليد للعالم المتقدم من طرف العالم المتأخر حقيقة نبّه إليها **ابن خلدون** منذ القرن الـــرابع عشر عندما قال: "**إن المغلوب مولع أبدا بالإقتداء الغالب**". وأدت مثل هذه العوامـــل لدى أغلبية ساحقة في الدول النامية إلى الخلط في الأسس الحقيقية المؤدية

إلى التخــلف أو التأخر وما انجر عنه من وقوع في **هستيريا تقليد الغرب** الصناعي دون وعــي بأن مثل هذا السلوك الجماعي قد يعقد أكثر الخروج من براثن ظاهرة التخــلف. وهكـذا أصــبحت شعوب العالم المتخلفة محققة عن طريق هذه **المواقف الاعــتقادية الداخــلية المحقــرة للذات** أما يسميه علماء الإجتماع **بظاهرة تحويل الاعــتقاد إلى واقع مجسم** "Self fulffilmg prophecy ". وبعبارة أخرى، فإن موقف الاحــتقار لــلذات وعدم الثقة بها بين أفراد فئات الدول النامية يؤدي بهؤلاء الأفراد وبالــتالي بشــعوبها إلى اســتمرارية التخلف الذي تتخبط فيه منذ مجئ الاستعمار غازيا ومستغلا لكل أصناف ثروات العالم الثالث. فهذا الموقف التخاذلي والتحقيري للــنفس لا يمكن أن يؤدي إلا **إلى واقع مطابق له**: البقاء في دائرة التخلف ومن ثم فلا خروج من هذه الحلقة المفرغة إلا **بالتحرر من هذه المواقف الشخصية المكبلة لحــركية الــذات الإنسانية**- أيا كان لونها وعرقها- **للانطلاق والإنجاز والازدهار والتقدم**.

ثالثا:بطلان أسس هذا الاعتقاد

وفــي الوقت الحاضر ليس هناك- على المستوى العلمي النزيه والموضوعي- ما يثــبت زعم الإيديولوجيا البيولوجية- العرقية[206] بخصوص علاقة التخلف أو التقدم بعــامل العــرق أو الخــلقة الطبيعية. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الفكرة قد أشاعتها القوى الإستعمارية في الأصل بين فئات الشعوب المستعمرة كما ذكرنا آنفا. ومــا تفشــي هذه الإيديولوجيا اليوم في مجتمعات العالم الثالث إلا **استمرار للهيمنة الإســتعمارية النفســية والعقــلية -وهي أخطر الهيمنات**- على تلك الشعوب التي تنسى أو تتناسى أن آثار الاستعمار متعددة ومعقدة وطويلة النفس، خاصة تلك الآثار ذات الطابع النفسي والثقافي، كما سبق إيضاح ذلك.

والمــتدبر في هذه الدعوة يمكن أن يدرك **خطأها من الأساس**، إذا هو أرجع البصر والفكر في سجل التاريخ البشري: فهذا الأخير ينفي قطعا أسس هذه المزاعم العالقة بأذهــان واعتقادات الفئات الإستعمارية في العالم المتقدم، وفئات العالم المتأخر على الســواء . **فتأخر المجتمعات البشرية يرجع إلى عوامل أخرى ليس لها اتصال لا بالــلون ولا بالعرق**. فتقدم الشعوب ذات البشرة البيضاء هي **ظاهرة حديثة** في حد ذاتهــا. فحــتى بداية الثورة الصناعية (في القرن الثامن عشر) كانت شعوب أوروبا وأمــريكيا الشمالية (البيضاء) إما متقاربة من مستوى تقدم الشعوب الأخرى في كل مــن آسيا وإفريقيا أو أقل تــقدما منها. وإذا كان هذا هو الذي ينطق به ملف تاريخ البشرية في ميادين التنمية والتخلف **فإن عوامل العرق واللون لا يمكن إلا أن تسقط مــن أي اعتبار جدي** يريد دراسة وتفهم ظاهرة التخلف في العالم الثالث، من جهة، وظاهرة التقدم في العالم الغربي، من ناحية أخرى.

---

[206] ليس هناك أدلة علميةنزيهة وموضوعية مثلا-في ما يخصالتكوين النفسي الفطري للأفراد تجعلنا نعتقد ان ظاهرة التنمية والتخلف بمفهومهما العام يمكن ارجاعهماإلى مثل هذاالعامل.

رابعا:الإستعمار الحديث وظاهرتا التخلف والتقدم

وأي تفسير لظاهرتي التخلف والتنمية في العصر الحديث لا يأخذ **عامل الاستعمار** بعين الاعتبار يظل تفسيرا مشوّها وبالتالي قاصرا على إعطاء تفسير يتصف بالروح العلمية النزيهة التي يمكن لها أن ترسم بوضوح آفاق الخروج من دائرة التخلف لشعوب العالم الثالث البائسة.فالتاريخ يشهد أن تقدم العالم الغربي الأوروبي المهول صناعيا واقتصاديا كان **مقترنا** إلى حد كبير بظاهرة اكتساح الاستعمار الأوروبي الغربي خاصة لشعوب كل من آسيا وإفريقيا. فقبل هذه السطوة الإستعمارية على معظم ما يسمى الآن بدول العالم الثالث لم تكن هناك الفوارق الفاحشة الفاصلة اليوم بين العالم الغربي المتقدم والعالم الثالث المتأخر، والأكثر من ذلك **فإن كثيرا من المجتمعات المسماة بالمتخلفة اليوم كانت أكثر تقدما في عدة ميادين من الدول الموصوفة اليوم بالنمو والتقدم ومرحلة ما بعد التصنيع Post industrial.**

وهكذا يتضح أن الحدث الإستعماري الغربي وانعكاساته المستمرة هو العامل المحدد لوضعية انقسام العالم إلى أصناف من شعوب متقدمة وأصناف أخرى متعددة للشعوب المتخلفة. وما عامل الإستعمار إلا من أهم العوامل التي أمدت **عملية التصنيع** بالدفعات اللازمة من **المواد الخام المستوردة من المستعمرات** لإنجاح الإقلاع الصناعي. ولعل عدم سقوط اليابان تحت الإستعمار التقليدي الطويل -كما وقع لمعظم مجتمعات إفريقيا وآسيا- هو الذي سمح للمجتمع الياباني بأن يكسب رهان التصنيع وينجح فيه بدرجة فائقة. وإذا كان المجتمع الياباني لم يعرف ظاهرة عدم الثقة بالنفس الشائعة بين شعوب العالم الثالث اليوم كما يتضح ذلك في اعتزازه بتقاليده السياسية (المحافظة على الإمبراطور كرمز حضاري) والعائلية (التضامن العائلي) والاجتماعية والدينية. فلعل ذلك أقوى دليل على العلاقة الوثيقة بين **حركة التقدم والاعتداد بالنفس**،من جهة، وبين استمرارية ظاهرة التخلف في العالم الثالث وفقدان ثقته بنفسه، من جهة أخرى. وبذلك فإن توعية المواطنين بأهمية **بناء أسس ظاهرة الثقة بالنفس** تصبح مطلبا تنمويا لا يقل أهمية عن عامل التصنيع والتعليم في دفع حركة التنمية المستمرة إلى الأمام.

خامسا:توعية شعوب العالم الثالث تاريخيا

أمام ضخامة مركب النقص الذي يعيشه إنسان المجتمعات النامية إزاء إنسان العالم المتقدم وإنجازات مجتمع هذا الأخير، فإنه يتحتم إيجاد استراتيجية لزحزحة مركب عدم الثقة بالنفس الشائع -كما بينا- لدى إنسان العالم النامي.فعلم النفس الإجتماعي لتغيير المواقف "attitudes change" يدلنا أنه من أنجع الطرق لتغيير عدم الثقة بالنفس إلى ثقة كاملة بالذات لدى إنسان المجتمعات النامية هو استئصال العنصر الاعتقادي "belief component" الذي هو الأساس في انتصاب مركب فقدان الثقة بالنفس لدى إنسان العالم الثالث فأساس هذا الشعور راجع إلى حد كبير -كما رأينا- إلى قبول ثم اعتقاد إنسان العالم النامي في عظمة وتعالي إنسان العالم المتقدم خلقيا

وعــرقيا عــليه. وكما أكدنا من قبل فإن الواقع المادي للعالم الثالث والعالم المتطور اليــوم لا يزيد ذلك الاعتقاد (الخاطىء أصلا كما سبق بيانه) إلا صلابة وقوة. ومن هـــنا يأتي تعقيد **حل معضلة فقدان الثقة بالنفس** لدى جمهرة سكان العالم السائر في طـــريق النمو.ولذا فأي علاج نفساني ناجح لهذه العقدة النفسية يجب أن يستعمل في نفـــس الوقـــت مـــنهج التحـــليل النفسي ومنهج تحليل علم النفس الاجتماعي لتغيير العقـــليات والمواقف. فبالتحليل النفساني يمكن ربط عقدة عدم الثقة بالنفس بعواملها الـــتاريخية السابقة لظهورها ثم لتصلبها. فعندما يكتشف إنسان العالم الثالث **الأسباب الإســـتعمارية الـــتي عملت على زرع هذه العقدة النفسية في شخصية أبناء شعبه** يكـــون قـــد لاحت لديه في تفكيره بداية **عملية التوعية** بما هو وشعبه يعانيان منه، معـــتقدين منذ عرفوا الحياة أنها سنة الحياة بالنسبة لهم.أي أنهم خُلقوا ناقصين وخُلق الآخرون عظماء ونبغاء.

وعـــند الاطـــلاع على معرفة الملف التاريخي لعقدة فقدان الثقة بالنفس، وارتباطها العضـــوي بابتلاء شعوب العالم الثالث بظاهرة الإستعمار الأوروبـــي الحديث يأتي دور اســـتعمال علم النفس الاجتماعي لتغيير العقلية والمواقف المحقرة للذات- لدى إنسان العالم النامي- في وقته ومكانه الطبيعيين.

فتفوق العالم المتقدم على شعوب العالم المتأخر ليست إلا ظاهرة حديثة وحديثة جدا! وبذلـــك فهـــي ليســـت ظاهـــرة أزلية صاحبت دائما مجتمعات العالم المتقدم اليوم. وبالتالي فظاهرة التقدم بعيدة على أن تكون مرتبطة بالطبيعة البيولوجية أو العرقية لشـــعوب أوروبا وأمريكيا الشمالية. فلو كان الأمر كذلك **لما وجدنا لهذه المجتمعات فـــتراتها التاريخية المظلمة والبائسة** التي يشهد بها سجل التاريخ الإنساني. وبهذا الإيضـــاح التاريخي لا بد أن **تولد نفسية جديدة** وثابة لدى إنسان العالم الثالث،لأن مســـألة الـــتقدم والـــتأخر فـــي فهمه الجديد الآن هي في الأصل مسألة ذات جذور اجـــتماعية وتاريخيـــة (أي عوامـــل خارجية) وليست هي نتيجة عوامل داخلية مثل الـــنوعية البيولوجية والعرقية أو السيكولوجية. عند هذا الاستيضاح لا **بد أن ينهار الاعـــتقاد الإســـتعماري** الذي أدى إلى ظهور وتصلب عقدة فقدان الثقة بالنفس لدى فـــئات العـــالم النامي،وبســـقوطه تتحطم كل معالم صرح مركب فقدان الثقة بالنفس المنبثقة من قاعدة المركب الاعتقادي الزائف ويولد عندئذ حقا نفسيا **إنسان جديد** في ربـــوع العـــالم الـــثالث، إنسان متحرر من أخطر العقد التي نجح في بثها وتوسيع رقعـــتها الاســـتعمار المعاصر.هذا الإنسان العالم الثالثي الجديد هو ذلك الذي يؤمن الآن بمقدرتـــه عـــلى تغييـــر مصيره مثل أي إنسان آخر(بما في ذلك إنسان العالم المتقدم) على وجه الأرض إذا **أعطيت له الظروف المواتية** التي تمكنه من استغلال طاقاته ومعطياته. وهو بذلك يستجيب لقول الشاعر:

مصير ابن آدم رهن يديه　　　وما الحظ إلا أباطيل مين

فحملات التوعية بمقدرة إنسان العالم الثالث، على الإنجاز والمساهمة كغيره في تقدم البشـــرية جمعاء واجب لا بد من القيام به في أرجاء المجتمعات النامية. فمساهمتها

في دفع حركة الإنسانية عبر التاريخ هي خير شاهد على أن تخلفها وركودها المعاصرين ليسا إلا ظاهرتين حديثتين ومؤقتتين نتيجة لظروف خارجية قاهرة من أهمها ظاهرة الإستعمار الأوروبي الغربي القديم والجديد. ومتى تغيرت هذه العوامل السلبية إلى ظروف إيجابية فلا بد للعالم الثالث أن يكون قادرا على الالتحاق بالركب المتقدم إن عاجلا أو آجلا.

سادسا:دور التجذر الثقافي في إرجاع الثقة بالنفس

إن المسخ والتشويه الثقافي الذي تشكو منه معظم دول المجتمعات النامية اليوم حقيقة لا مراء فيها -رغم اختلاف خطرها من مجتمع إلى آخر- لكل ملاحظ نزيه لواقع هذه المجتمعات. فالمسخ الثقافي، على سبيل المثال، في كل من تونس والمغرب والجزائر يتمثل أساسا في تلوث وتشويه العناصر الثقافية الوطنية لهذه المجتمعات مثل اللغة العامية والمكتوبة والتراث الثقافي والقيم الدينية والحضارية والتقاليد الشعبية الأصيلة لهذه الشعوب، فاللغة الوطنية (العربية)مثلا، قد أصبحت محدودة الاستعمال بعد مجئ الإستعمار الفرنسي لهذه المجتمعات فاتخذت الفرنسية مكان اللغة الأم (العربية خاصة) في كثير من الميادين والمجالات الحيوية التي انسحبت منها العربية قهرا. فلغة الإدارة ولغة المدارس والعلم والاقتصاد في عهد الاستعمار وبعده بأكثر من خمسة عقود لا زالت الفرنسية تغلب على البعض منها. وجاء تلوث اللغة الشعبية أو اللغة العربية الفصحى نتيجة أولا لحصر استعمالهما في ميادين محدودة وثانيا لبث ونجاح الدعاية الإستعمارية القائلة إن اللغة والثقة الفرنسية هما سلاح العصر الحديث الناجح، من جهة، وان العربية وتراثها الثقافي هما رموز التحجر والتقليدية والرجعية من جهة أخرى.

فبيّن أن مثل هذه التنشئة اللغوية والثقافية لا يمكن لها أن تنشئ إلا **جيلا متعلما** (يأخذ القيادة فيما بعد) أقل ما يمكن أن يقال فيه هو **نقصانه الثقة بالنفس**. وكيف يمكن حدوث عكس ذلك عند شعوب شرق آسيا كما سجلت ذلك عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ في كتابها "**لغتنا والحياة** " **حين تصاب أمة بسرقة لسانها تضيع وتمسخ شخصيتها القومية وتبتر من ماضيها وتاريخها**، ثم تظل محكوما عليها بأن تبقى أبدا تحت الوصاية الفكرية والوجدانية للمستعمر، حتى بعد أن يجلو عن أراضيها ويمضي الزمان يغدو هذا الاستعباد القهري **ولاء فكريا لمن كان له بالأمس عدوا**".وهكذا فاسترجاع الثقة بالنفس كاملة لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن يتحقق دون تجذر شعوب العالم الثالث في زادها الثقافي. **أي تعلم واستعمال اللغة الوطنية قبل أي لغة أجنبية** ثم الإرتواء أولا وقبل كل شيء من التراث الثقافي لتلك الشعوب قبل أي تفتح على الثقافات والحضارات الأجنبية.عندما تشبع الأجيال الفتية خاصة من معرفة مساهمات لغاتها وثقافاتها ومؤسسات حضاراتها في سير التقدم الإنساني عبر التاريخ، عندها يكون الوقت قد حان لتوسيع الآفاق المعرفية لتلكم الأجيال بفتح الأبواب والنوافذ على مساهمات الثقافات والحضارات الإنسانية الأخرى في المسيرة البشرية، **بذلك تأتي المعرفة الإضافية**

"**الأجنبية**"**مكملة**"**لا محقرة**" لما عرفه مواطن العالم الثالث عن إنجازات حضارته في القديم والحديث وبالتأكيد فلا يكاد يعرف التاريخ البشري حضارة من الحضارات الإنسانية في القديم والحديث التي لم تساهم بأي شيء يذكر في حركة ومسيرة البشرية. فعرب اليوم-المرضى كغيرهم من شعوب العالم الثالث بفقدان رصيد الثقة بالنفس- يمكن لهم أن يعالجوا عقدتهم هذه إذا ما تعرفوا مَلِيًّا[207] -وعن وعي-على إنجازات حضارتهم وثقافتهم في الماضي القريب. أي قبل بزوغ معالم الحضارة الغربية الحديثة ببعض القرون فقط.

إن كثيرا من المؤرخين والمفكرين الغربيين يرجعون أسس عصر النهضة الحديثة في الغرب وما تلاها إلى التأثيرات التي تسربت -خاصة عبر الأندلس-من الحضارة العربية الإسلامية إلىمجتمعات أوروبا. ومنجزات الحضارة العربية الإسلامية عديدة ومختلفة في الفلسفة وفي العلوم التشريعية و في القانون وفي الطب و في الرياضيات و في الصيدلة وفي اللغويات و في العلوم الإنسانية والإجتماعية. فهذا الفرع الأخير من العلوم ظل زمنا طويل اجدا شيئا يشبه الفلسفة الميتافيزيقية. ولم يأخذ في الغرب منعطفا علميا جديدا إلا ابتداء من القرن التاسع عشر.

أما **ابن خلدون** (1332-1406)- آخر عبقري للحضارة العربية الإسلامية قبل أفولها- فقد جعل من **مقدمته أول بحث موسوعي علمي عرفه التاريخ عن الظواهر الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والنفسية**. وإن منهج ومنطق وموضوعية هذا المؤرخ الإجتماعي العملاق **تجعله بحق قريبا في روحه العلمية مما هو شائع في عصرنا هذا**. وهكذا فقد سبقت روح ابن خلدون العلمية عصره بعدة قرون...وكان ذلك في ميادين بحث (الإجتماع، الاقتصاد، السياسة، السلوك) هي أصعب تشعبا من ميادين العلوم الدقيقة(الفيزياء، الكيمياء، علم الحياة) باعتراف علماء العصر الحديث. ولقد شهد أرنول طوينبيArnold Toynbee وهو المؤرخ البريطاني الشهير بعظمة ابن خلدون عندما قال "**إنه أكبر عبقرية مؤرخة عرفها التاريخ في أي زمان وفي أي مكان**". فهل بعد هذا يقبل منا نحن العرب – أبناء العالم الثالث – أن نستمر في تحقير أنفسنا هامسين أو صارخين" إذا عربت خربت"؟ هل يعقل أن نستمر في اعتقادنا بأن الغربيين، بطبيعتهم وعرقهم، هم وحدهم أهل التطور والتقدم ونحن "بطبيعتنا وعرقنا" محكوم علينا بالجمود والتأخر؟

---

[207] إن التعرف على حضارات وثقافات الآخرين(الغرب في هذه الحالة) لا يمكن أن يكون بحق مثريا وغير مشوه لفكر إنسان العالم الثالث إلا اذا عرف هذا الأخير-وبتعمق- ثقافته وحضارته أولا وبالذات.بذلك يمكن له أن يقارن تراثه الثقافي بتراث الآخرين.ومن ثم تتم عملية الاثراء الفكري.فعلى سبيل المثال ليقارن الإنسان العربي المسلم"الوجه الإسلامي بالوجه البروموثيوسي للعلم".ونعتقد أنه سوف يكتشف أن أخلاق Ethicsالعلم الإسلامي حد عالية. إنها أخلاق تقي البشرية الدمار والإنتحار. إن اكتشاف الإنسان المسلم المتخلف لما في ثقافته من عطاء للانسانية قاطبة لابد أن يُحدث في نفسه الكالحة التعاشة تعززفيه بذور الثقة بالنفس.

البــاب الثالث

التخــلف الآخربمجــتمعات المغــرب العــربي

الفصل الأول
التخلف الآخر في المغرب العربي

أولا : ظاهرة الصمت الطويل

يقصـــد هنا بعبارة **التخلف الآخر** The Other Underdevelopment في هذه الدراسة هو ما نريد أن نطلق عليها اسم "**التخلف الثقافي**"[208] الذي أهملت العناية به الندوات العالمية والأمميـــة[209]ودراســـات المتخصصين بالتنمية والتخلف في كل من الكتلة الإشتراكية والكتلة الرأسمالية . وكلمة "**الآخر**" هنا تفيد ضمنيا حالة **الجهل والنسيان** السائدة بين المهتمين بالتنمية والتخلف حيال المنعوت ألا وهو "**التخلف**".

فعنوان كتاب أمريكا الأخرى" The Other America " للمفكر الأمريكي" Michael Harrington " يشير إلى الوضع المتدهور الذي تعيشه الأقلية الزنجية الأمريكية . ومع هذا ، فإن ذلـــك الوضع الرديء يكاد يكون مجهولا ومنسيا تماما من طرف الأغلبية الأمريكية البيضاء التي لم تنفك تتباهى بمفهوم المجتمع الأمريكي المزدهر في فترة الستينات.

وقصدنا أن يكون إستعمالنا هنا لعبارة" التخلف الآخر" **مشابها** لما يرمز إليه عنوان كتاب **أمريكا الأخرى**.

فمـــن ناحية ، لا يكاد يحصى عدد الدراسات الأكاديمية والندوات المحلية والاممية العالميـــة خاصـــة مـــنذ الحـــرب العالمية الثانية حول دراسة ظاهرة التخلف العام وفـــروعها في العالم الثالث ، مثل التخلف الاقتصادي والتخلف الصناعي والتخلف

---

208 ،وهو المعنى الأول الذي أعطيناه لمصطلح **التخلف الآخر** في بداية الثمانيات ثم أخذ هذا المصطلح عندنا معنى ثانيا في فترة لاحقة فأصبح **التخـــلف الآخر** يشمل جانبين :الثقافي والنفسي لظاهرة التخلف في مجتمعات العالم الثالث كما هو مبين على الخصوص في الفصل الأول من الـــباب الثاني من هذا الكتاب. و نعني هنا **بالتخلف الآخر** الظاهرة الثقافية التي يمكن ان نطلق عيها أيضا اسم **التخلف الثقافي** وهذا الأخير يختلف عن مفهوم "الهوة الثقافية" لعالم الاجتماعي الامريكي أغبرن (Ogburn) . فنحن نعرّف في هذا الفصل " التخلف الثقافي" بأنه تدهور في استعمال اللغة/ اللغات الوطنية والقيم الأصيلة (الدينية وغير الدينية) والعقائد والتقاليد المتجذرة في حضارة المجتمع.وهذه العناصر الثقافية هي المكونـــات غير المادية لظاهرة الثقافة. أما عناصر الثقافة المادية فتمثل في كل الأشياء التي يصنعها الإنسان كالمسكن والأدوات والملابس... وغيرهـــا . وفي هذا الفصل سوف نركز اهتمامنا بالخصوص على ظاهرة استعمال اللغة العربية في مجتمعات المغرب العربي وذلك لأن انتكاسة اللغة العربية وثقافتها في المركب الثقافي العربي الإسلامي المتصفة به شعوب المغرب العربي منذ الفتح العربي الإسلامي تبدو **أكثر وضوحا** من التدهور الذي أصاب العنصر الإسلامي (من قيم وعقائد وإيمان....الخ). ويتبين ذلك، من جهة كما سوف نرى في هذا الفصل، في اتقان عدد كـــبير من التوتسيين والجزائريين والمغاربة للغة المستعمر(الفرنسية) وثقافته وجهلهم الكامل أو النسبي أو عدائهم للغة الوطنية (العربية)وثقافتها ،مـــن جهـــة أخـــرى. ورغم هذا الانسلاخ (التغريب) اللغوي الثقافي فإن نسبة من دخل في الدين المسيحي من هؤلاء وغيرهم رغم البعثات التبشـــيرية لا تكاد تذكر. ويؤدي هذا بالملاحظ الدارس إلى اعتبار أن **العنصر الديني الإسلامي** لدى الفرد المغاربي **أكثر عمقا** أو مقاومة من نظيره المتمثل في اللغة العربية وثقافتها. وان أي فهم حصيف للتونسي والمغربي والجزائري المعاصرين لا بد من أن يأخذ **عمق القوى الدينية** هذه في حسابه وبعبارة أخرى، فشعوب المغرب العربي تشبه المجتمعات الشرقية(حيث ينتشر تأثير الدين في كثير من مآرب الحياة) أكثر من المجتمعات الغربية .أي أن الانتساب إلى الإسلام متجذر في الشعور واللاشعور لأفراد وفئات هذه المجتمعات.

209 المنظمات المتفرعة عن منظمة الأمم المتحدة.

الصحي والتخلف العلمي ... إلخ. ومن ناحية أخرى. **فهناك صمت مسترسل وطويل** خاصة من طرف خبراء التنمية والتخلف أنفسهم إزاء ظاهرة **التخلف الثقافي** الذي هو جزء لا يتجزأ من هيكل ظاهرة التخلف الكبرى. فمكتبات المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية المكتظة بالنشريات الأكاديمية حول معضلة التخلف في دول العالم الثالث تكاد تخلو كليا حتى من المفاهيم الأساسية التي يمكن أن تعين الدارس لهذه الظاهرة بأرضيات علمية تسهل عليه التنقيب والبحث العلميين في ظاهرة التخلف الثقافي.

فالمرء لا يكاد يجد تعاريف ومفاهيم ونظريات حول التخلف الثقافي في كل آلاف أطنان الكتب والمجلات والتقارير المكدسة في تلك المكتبات ذات التنظيم والتسيير العصريين . ومن المدهش والمحير أن يجد المرء هذه "اللامبالاة" حيال ظاهرة التخلف الثقافي منتشرة وشائعة بين المنظمات الأممية والعالمية والعلماء المتخصصين بقضية التنمية والتخلف . وأنه لمن المقبول والمستساغ أن يختلف هؤلاء وأولئك حول أسباب ودرجة التخلف الثقافي الذي يشكو منه مجتمع ما في العالم الثالث. ولكن الذي لا تتسامح فيه الروح العلمية النزيهة، هو **التجاهل الكامل** لظاهرة اجتماعية لها معطياتها المادية والمعنوية خاصة في المجتمعات النامية[210]. فلو كانت هناك نظرة علمية حقة لدى الدارسين لفهم قضية التخلف في العالم الثالث لما نسوا معضلة التخلف الثقافي، وركزوا بحوثهم وجهودهم على الفروع الأخرى لظاهرة التخلف الكبرى فقط كالتخلف الاقتصادي والصناعي والعلمي والصحي...... إلخ.

ثانيا : علاقة التخلف الآخر بالاستعمار

ونحن نرى أن أسباب قصور النظريات الغربية خاصة في أعطاء تفسير علمي وموضوعي لظاهرة التخلف بصفة عامة يرجع إلى **حذفها ظاهرة الاستعمار من حسابها** والحال أنها أهم عامل لتفشي ظاهرة التخلف العالمية. وعلى هذا الأساس وصفت هذه النظريات بالنزعة الاستعمارية[211] . ولذا ، فنحن نتبنى المنظور

---

[210] إن ظاهرة الغزو الثقافي واللغوي تجاوزت اليوم مجتمعات العالم الثالث لتؤثر في لغات وثقافات الدول المتقدمة مثل فرنسا:
L'influence Culturelle américaine en France, Le Monde : Dossiers et Documents (Mai 1981).
انظر كذلك : " الغزو الثقافي ...الصورة الجديدة للإستعمار " الأمة (آب /أغسطس 1981).

[211] ان عدم أخذ " عامل الاستعمار" بعين الاعتبار في تفسير ظاهرة التخلف بكل فروعها في العالم الثالث ينقص كثيرا من علمانية النظريات الغربية التي تركز على قضايا التخلف والنمو في العصر الحديث. فارجاع مشكلة التقدم والتأخر إلى عوامل نفسية ، كما يذهب عالم النفس الامريكي الشهير David McClelland في مفهومه "N-Achievement" واجتماعية واقتصادية فقط **يتناسى أو يتجاهل أهمية الحدث التاريخي الاستعماري الذي اكتسح معظم ما يسمى اليوم بالشعوب النامية أو الأقل نموا. وبهذا التجاهل المتعمد أو غير المتعمد يصف البعض هذه النظريات على أنها استعمارية:** أي أنها تبرئ ذمة الدول المتقدمة إزاء الدول المتأخرة . وفي هذا الصدد لا بد من التنبيه ان كثيرا من المجتمعات المسماة اليوم بالمتقدمة كانت حتى نهاية القرن السابع عشر متقاربة أو أسوأ حالا من المجتمعات المسماة بالمتخلفة اليوم في القطاعات الاقتصادية والتقنية . وكان الاستعمار الأوروبي لدول العالم الثالث أهم العوامل التي أدت الى تقسيم العالم إلى متأخر ومتقدم ، انظر : P-Bairoch.Le Tiers-Monde dans l'impasse(Paris : Gallimard, 1971) والفصل الرابع من الباب الثاني لهذا الكتاب.

التاريخي لدراسة **قضية التخلف الثقافي** فنقول إنها، كبقية أوجه التخلف الأخرى المذكورة آنفا، في الدرجة الأولى **حصيلة الإحتلال الإستعماري** الذي رزحت تحت نيره ما نسميه اليوم بالدول النامية[212].وطبيعة الإستعمار في شكله القديم والحديث هو إستغلال الشعوب وأضعافها إن أمكن على كل المستويات بما في ذلك **الاستغلال الثقافي** والحضاري. فالاستعمار الفرنسي للجزائر وتونس والمغرب لشاهد على **شمولية الطابع الاستعماري الفرنسي**. فهذه الشعوب لم تضطهد ولم تستغل، كما يدعي أو ينسى البعض، إقتصاديا[213] فقط بل وثقافيا أيضا كما سيأتي ايضاحه في هذا الفصل الذي يتمحور حول ظروف إهمال ظاهرة التخلف الآخر أكاديميا ومنظميا[214] وشعبيا: ثم التركيز على أسباب التخلف الثقافي في مجتمعات المغرب العربي وكيف يمكن الخروج منه : أي **تحقيق التنمية اللغوية الثقافية** خاصة.

ثالثا: تعريف ظاهرتي التنمية والتخلف

منذ أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها أصبح تقسيم مجتمعات العالم إلى "متخلفة" و " متقدمة" اصطلاحا متداولا أكثر فأكثر ليس بين علماء الإجتماع والإقتصاد وغيرهم من الأكاديميين فقط ، ولكن حتى بين عامة الناس في كل من المجتمعات" المتطورة " و "النامية" على السواء. وظاهرتا التنمية والتخلف هما الآن من العوامل التي تزيد من التوتر والقلق المتصف بهما عالمنا المعاصر. والعلماء المعاصرون الدارسون لهاتين الظاهرتين ، خصوصا من علماء الإجتماع والإقتصاد في الشرق والغرب يقيسون التنمية والتخلف بمؤشرات يتلخص أبرزها في مستوى مدى إرتفاع نصيب الفرد من الدخل القومي : أي تحسين إقتصاد المجتمع، وفي مدى إنتشار التعليم بين فئات المجتمع وفي مقدار تصنيعه أو تكنولوجيته وفي مدى تأثير الروح العلمية على الهياكل و الأنشطة المجتمعية كافة بما في ذلك سلوك أفراد وجماعات و مؤسسات هذه المجتمعات[215]و هكذا يمكن القول إن نصيب أي مجتمع من التنمية و التخلف يتوقف على الكسب التصاعدي أو التنازلي من تلك المؤشرات . فالمجتمع المتقدم هو ذلك الذي عزز مكاسبه و لا يزال من المؤشرات السالفة الذكر. أما المجتمع المتأخر فمكاسبه في هذه المؤشرات

---

212) وظاهرة الغزو الثقافي لها ملامحها الإستعمارية حتى يومنا هذا في مجتمعات آسيا وافريقيا خاصة. ولعل الإستعمار أكثر شناعة في القارة السوداء. وما تقسيم هذه القارة إلى "انجلوفونية" وفرنكوفونية" إلا انعكاس لمدى عمق الإستعمار الثقافي الذي ابتليت به هذه القارة.

213 يندرج هنا خاصة المفكرون ذوو المنظور الماركسي والمادي في تفسيرهم للظواهر الإجتماعية والثقافية بصفة عامة.

214 مثل منظمات الأمم المتحدة والبنك العالمي ...إلخ.

215) يختلف علماء التنمية والتخلف عن علماء الإجتماع والاقتصاد والسياسة في تعريفهم لظاهرتي التقدم والتخلف . ويبدو أن ذلك يرجع أولا إلى الطبيعة المعقدة للظاهرة الإنسانية / الاجتماعية، وثانيا إلى عدم نضج منهجية هذه العلوم. والتعريف المذكور هنا هو المتداول والمتفق عليه (ولو بتحفظات عديدة) من طرف المختصين.

ضعيفة و ضئيلة و أحيانا تتدهور عوض أن تنمو كلها أو بعض منها إلى مستوى أكثر رداءة[216].

رابعا : أسباب الإهتمام بالتخلف الإقتصادي

ليس من قبيل المبالغة القول بأن ظاهرة التخلف الإقتصادي[217] جذبت و لا تزال إنتباها كبيرا ، ليس من طرف علماء التنمية و التخلف فحسب بل من طرف معظم حكومات الشعوب المستقلة حديثا ومن طرف مؤسسات الأمم المتحدة و البنك الدولي و من طرف برامج العون الخارجية من الدول الغنية و الصناعية .

ومنذ أوائل السبعينات دخلت الدول ذات الموارد النفطية(النامية رغم غناها المالي) إلى ميدان العون المادي للمجتمعات النامية والأكثر فقرا . و أصبح معدل المساهمة المالية من الدول النفطية إلى الدول النامية الفقيرة يساوي18 بالمائة من دخلها القومي في سنة 1979[218]. وقد أخذ النوع الأول من التعامل تسمية جديدة منذعدة سنوات فأصبح يعرف **بحوار الشمال مع الجنوب** الذي أعطى طبيعة جديدة لعلاقات المتحاورين.فمن جهة، الشمال يساعد الجنوب لأن عكس ذلك سوف يؤدي بكارثة على البشرية جمعاء[219]. و من جهة أخرى، فأن تصاعد شعور الجنوب باضطهاده و استغلاله قديما و حديثا من طرف الشمال جعله يرى طلبات العون من هذا الأخير طلبات شرعية و عادلة و ليس بطلبات السائل و المسكين. ومن ثم تعززت سبل التعاون بين الدول النامية و **دخل ملف حوار الجنوب مع الجنوب سجل التاريخ** .

وخبراء التنمية و التخلف خاصة من العالم الثالث يرون في هذا النوع من التعامل بين الدول النامية أحد السبل الرئيسية لدفع عملية التنمية قدما في هذه المجتمعات المتخلفة التي ثبت فشل عون الشمال لإخراجها من التخلف[220]. و من المنطقي أن يأخذ الملمح الإقتصادي والمادي في المجتمعات الجديدة **مركز الصدارة** من اهتمامات كل من التنمية و التخلف، من جهة، و الهياكل و المؤسسات المختلفة المشار إليها ، من جهة أخرى. وكيف لا والحال أن عددا غير قليل من هاته

---

216 هناك أيضا إصطلاح تصنيفي آخر مستعمل بخاصة في الدوائر الأكاديمية . فهناك المجتمعات ما بعد الصناعية والصناعية والنامية والأقل نموا . ويبدو أن هذا الصنف الأخير يوجد في افريقيا وآسيا على التوالي ، انظر Le Monde 2-9-1981 pp.1-2

217 J.Freyssinet, Le Concept du sous-developpement (Paris/ Mouton, 1977)

218 Le Monde 2-9-1981 p3

219 من خطاب الرئيس متران: المصدر نفسه ص: 1-3

220 إن تشجيع مبدأ التعامل "الجنوب مع الجنوب"يأتي بعد استعمال مبدأ الإعانة "الشمال للجنوب" لمدة ثلاث عشريات.وفشل هذه الاستراتيجية الاخيرة في انجاح عملية التنمية في العالم الثالث أدى اليوم، من جهة، الى ازمة حادة في صلب النظريات الغربية في العلوم الاجتماعية حول التخلف والتنمية (انظر مجلة العلوم الاجتماعية جامعة الكويت يوليو 1980 ص10-69ومن جهة أخرى فقد أعطت دول الشمال حجة تكاسل الدول النامية في مجهوداتها التنموية ذريعة لعدم تسديدها نسبة الإعانة الأممية التي تبلغ 0,15 بالمائة من دخلها القومي الى الدول النامية.يضاف الى كل هذا أزمات دول الشمال المخيفة اقتصاديا. انظر: Le Monde 2-9-1981

المجـــتمعات وجـــدت نفسها يوم استقلالها و بعده[221] في حال يرثى لها إقتصاديا حتى أن بعـــض فـــئاتها كانت تموت ومازالت تهلك جوعا[222]. فجاءت فكرة التركيز على النمو الإقتصادي و المادي نتيجة حتمية وإنسانية .

فأمـــا عـــلماء التنمية و التخلف و النظريات التنموية فكانوا يرون أن أساس الإقلاع التـــنموي الحقيقـــي ينبغي ان يكون ذا أرضية إقتصادية : أي مادية[223]. فنشر التعليم وإنشـــاء الصناعات والتكنولوجيا و نشر مراكز البحوث العلمية كمؤشرات لظاهرة التـــنمية كـــلها تتطلب إقتصادا يستطيع تمويل وإرساء قواعدها. وأما حكومات هذه المجـــتمعات فكـــانت ترى هي الأخرى ضرورة **تحسين القطاع الإقتصادي** المادي أولا كحـــل ســـريع للضرورات المعيشية اليومية التي يتطلبها جزء لا بأس به من أفـــراد هـــذه المجتمعات و ثانيا لأن النجاح في الميدان المادي - الإقتصادي كان أيضـــا يعتـــبر الجسر الرئيسي لأي عبور من ضفة التخلف إلىضفة التنمية . و من الأســـباب الأخـــرى الـــتي زادت في الوعي العام لظاهرة التخلف الاقتصادي في المجتمعات المتقدمة والمتخلفة على السواء هو ما يسرته ثورة علم المواصلات من إعـــلام ومعرفة لمعظم مجتمعات العصر الحديث . فعن طريق الإذاعات وشاشات التـــلفزيون ووسائل النشر الأخرى من صحف و مجلات و كتب .....الخ و بواسطة ظاهـــرة الســـياحة بيـــن الشمال و الجنوب خاصة ، **أصبح وعي الناس بالفجوة - المادية و غير المادية -الفاصلة بين المجتمعات المتقدمة و المتخلفة أمرا متداولا حـــتى فـــي كـــلام الإنسان العادي في العالم المتقدم و المتأخر على السواء.وهكذا ســـطت الحاجـــات الماديـــة والإقتصادية على الضمير الجماعي لشعوب الشرق و الغـــرب** . فطغيـــان الـــنزعة المادية في مجتمعات العالم الثالث تؤيدها الدراسات والنظريات العلمية و الملاحظة المتدبرة[224].

خامسا : الدراسات الأكاديمية والتخلف الآخر

إن عـــلماء الإجتماع والإقتصاد والسياسة وغيرهم من المفكرين المعاصرين الذين اهـــتموا بالتخـــلف في العالم الثالث وكيفية الخروج منه لم يولوا أي اهتمام جديرا بالذكـــر إلى ملمح **التخلف الثقافي** كمظهر من ظاهرة التخلف الكبرى التي ما زالت تتخـــبط فيـــه المجتمعات الجديدة العهد بالإستقلال. ويستوي في عدم الإكتراث هذا عـــلماء ومفكرو التخلف والتنمية في الكتلة الاشتراكية والكتلة الرأسمالية. وبنسيانهم هـــذا لمعضـــلة التخلف الثقافي الشائعة في مجتمعات العالم الثالث ، فإنهم يكونون

---

221 Le Monde المصدر نفسه ، ص 1-2

222 المصدر نفسه ، ص 1-2

223 انظر هامش رقم (6)

224 ، انظر:"مقابلة مع د.عبد الوهاب بوحديبة " أجراها المنجي الصيادي ، شؤون عربية ، العدد6 (آب/اغسطس 1981) ص 263، والمستقبل تونس ، 7-12-1981 ص 5-6، وتفسر نظرية التوقعات المتزايدة Rising Expectations ظاهرة التكالب المادي و المتزايد بين فئات الشعوب النامية

بذلــك قــد قصروا في إعطاء تحليلات علمية وافية لظاهرة هذا التخلف المتشابكة والمعقــدة الجوانــب . وهكذا جاءت معظم الكتب والمجلات والقرارات والملتقيات ذات الطابع الدراسي والعلمي حول التخلف والتنمية عاجزة عن تقديم صورة كاملة عــن معطيات وملامح التنمية والتخلف في العالم الثالث. وإلا فكيف تتحدث وتناقش بإطــناب كــل تــلك الوثــائق والملــتقيات العلمية والعالميةش التخلف الإقتصادي والإجــتماعي والديمغــرافي وحــتى النفساني[225] لمجتمعات العالم الثالث **وتنسى أو تتناســى فــي** الوقت نفسه "التخلف الثقافي" كمعضلة ينبغي فهمها إذا ما أريد لعملية التــنمية الشــاملة أي معالجــة ناجعــة وبالتالي إمكانية الإقلاع المجتمعي التنموي الــناجح؟ ويمكــن إرجاع أسباب صمت علماء التنمية والتخلف في الغرب والشرق عن ظاهرة التخلف الثقافي إلى عوامل مختلفة.

1/المنظور الماركسي :

أما المفكرون **الماركسيون** فكان إهمالهم لقضية التخلف الثقافي راجعا إلى **أرضيتهم الأيديولوجيــة والمعرفية**. فالمعروف عن الماركسية أنها تولي الأهمية الكبرى إلى العوامــل المادية كقاعدة لتفسير الظواهر أيا كانت طبيعتها. وعلى هذا الأساس فإن الإعتناء بالتخلف الثقافي أمر غير وارد لدى المنظور الماركسي. إذ أن عناصر هذه الظاهــرة كالــلغة والقيــم والدين – الرموز الثقافية – تعد من البنى الفوقية. وهذه الأخيرة يعتبرها الماركسيون قاعدة غير صالحة لإعطاء تفسير موثوق به للظواهر المدروسة.

2/ المنظور الامريكي :

أمــا عــلماء التــنمية والتخلف الغربيون خاصة **الأمريكيون** منهم فيبدو أنهم تناسوا أهمية قضية التخلف الثقافي في المجتمعات النامية ،كما أتى تعريفها في هذا الفصل وذلــك نظرا لأن **الزاد الثقافي** (قيماوتقاليد ودينا ولغة) لتلكم المجتمعات كان ينظر إليــه عــلى أنه **معرقل لمسيرة التنمية** نفسها في هذه الأقطار[226]. وهذا راجع **إلى عقــدة الشــعور بالتعالي الحضاري والثقافي** المتفشية بين كثير من هؤلاء العلماء الذيــن يدعــون الموضــوعية وعدم التحيز في دراساتهم وبحوثهم . **وهم آخر من يشجع تنمية التراث الثقافي الوطني والمحلي لمجتمعات العالم الثالث**. فهم بالعكس، يــنادون بنشــر القيــم واللغة والأنماط الغربية والثقافية لأنهم يعتقدون أنه بدونها لا يمكــن لعمــلية التنمية أن تتحقق. وبتفكيرهم هذا يكونون **قد شجعوا على الانقسام الــثقافي فــي تــلك المجتمعات** عوضا عن تكامله وتجانسه. وإدخال الزاد الثقافي الأجنبي من لغة وقيم و أنماط سلوك إلى مجتمعات العالم الثالث جعلها تصبح تابعة – الي جانب تجزئتها أحيانا ثقافيا داخليا– إلي المجتمع الأم المستعمر.

---

225 ، انظر مفهوم دافع الإنجاز N. Achievement في كتاب:,The Achieving Society by D.Mclelland مصدر سابق

226 مثال على ذلك منظور علماء الاجتماع الأمريكيين الذين طالما يرون تصادم القيم التقليدية مع الحداثة.

و التبعية مهما كان نوعها : إقتصادية ، أوإجتماعية أو ثقافية أو لغوية تجعل **التابع فــي المرتبة الثانية** بالنسبة للمتبوع . وسطوة هذا الأخير طالما تؤدي إلى إستغلال الــتابع. و التــبعية اللغوية والثقافية ليستا استثناء لهذه القاعدة و قد برهنت بحوث ميدانيــة و نظرية للماركسيين أنفسهم في العقود الأخيرة عن العلاقة الوثيقة بين ظاهــرة التــبعية و التخلف و لكنهم تناسوا أن يشملوا بقانون التبعية ظاهرة **التبعية الــثقافية** التي تشكو منها في عصرنا لا الدول المستعمرَة سابقا فقط بل دول كانت مستعمِرة[227].

سادسا: بعض مظاهر التخلف الآخر في المغرب العربي[228]

مقارنــة بالصــدارة التي تتمتع بها معضلة التخلف الإقتصادي لدى كل من الدوائر العــلمية الجامعية و العالمية و الأممية والرأي الشعبي على العموم **فإن ظاهرة ما أطلقــنا عليه في هذه الفصل بالتخلف الثقافي تكاد تكون منسية تماما من جميع تــلك الدوائر.** و يتساوى في هذا التغافل المتخصصون ببحوث التنمية و التخلف و الرأي العام في المجتمعات المتخلفة و المتقدمة على السواء. و على الرغم من جهل أو تجاهل هؤلاء جميعا لظاهرة التخلف الثقافي: من لغة و دين و قيم وتقاليد. فهذه كــلها [229]موارد وطنية شعبية كالموارد الإقتصادية أو الطبيعية للمجتمع نفسه. و قد أثبــتت أكثر من دراسة علمية أن الإستعمار القديم و الجديد يهدفان دائما إستغلال مــوارد البــلد المســتعمَر لحســابه و النتيجة على المستوى الإقتصادي كان تخلفا إقتصــاديا للمجتمع الذي سقط تحت وطأة الإستعمار. ونحن إذا طبقنا المنطق نفسه فيمــا يخــص المــوارد الثقافية [230]تجد النتيجة هي ظاهرة **التخلف الثقافي** في نفس المجتمع المتخلف اقتصاديا . و هكذا يتضح ان لظاهرة التخلف العام **فروعا** ينبغي أخذهــا جميعــا بعين الاعتبار. وأي إهمال لها يؤدي إلى **فهم منقوص** وبالتالي إلى ثغــرات خطيــرة فــي الجهــاد الأكبر ضد معضلة التخلف في المجتمعات النامية المعاصرة.

ولــنا في المغرب العربي **الجزائر أبلغ مثال** على صحة ما نقوله فيما يخص **ظاهرة التخلف الثقافي.** فيوم استقلت الجزائر سنة 1962من قبضة الإستعمار الفرنسي الذي مكــث هــناك مــنذ 1830، وجــد المجتمع الجزائري نفسه متخلفا ليس في الميدان الإقتصــادي فقط ، وإنما أيضا في الميدان الثقافي بالمعنى الوارد في هذه الفصل. وظاهرة التخلف الثقافي هذه موجودة معالمها ومعطياتها ليس في الجزائر فقط ، بل أيضــا فــي كل من تونس والمغرب. والفرق الوحيد بين هذه المجتمعات هي درجة

---

227 A.G. Frank, « The Sociology of Development and Underdevelopment » Catalyst (University of Buffalo) no 3 (1967).

228 انظر هامش رقم (1) الذي فسرنا فيه لماذا ركزنا هنا فقط على بعض ملامح "التخلف الاخر"

229 Frank, « The Sociology of Development and Underdevelopment ».

230 الموارد الثقافية غير المادية كما سبق شرحها في هامش رقم (1) السابق.

ضــــخامة وتفحــل ظاهرة هذا النوع من التخلف. فالجزائر تأتي في الصدارة فيما يخــص مــدى عمــق التشـــويه والتدهور اللذين طرآعلى الزاد الثقافي الجزائري (الوطــني)نــتيجة الاســتعمار الفرنسي واستغلاله المضعف لمكونات الزاد الثقافي الأصيل[231]. ومن ملامح هذا التشويه الثقافي في المجتمعات الثلاثة (الجزائر دائما في الصـــدارة) هو المزج الشائع والمهول للهجات المحلية العربية بمفردات وعبارات فرنســية حتى يومنا هذا ، وذلك بعد أكثر من أربعين سنة من الإستقلال. كما تبرز معالم هذا التخلف الثقافي في عدم (أو التكاسل في) إستعمال اللغة العربية في كثير من مؤسسات القطاع الإداري خاصة القسم العصري منه. ولغة المستعمر (الفرنسية) ما زالت هي المحبذة، وبالتالي السائدة في هاته المؤسسات الوطنية التي لا يرأسها ولا يســيرها إلا الجزائــريون والتونسيون والمغاربة. والتنمية اللغوية في رأينا هي شــرط أساسي في بعث وإرساء ثم دفع حركة التنمية الثقافية واللغوية الشاملتين[232]. ومن هنا تأتي **أهمية التعريب في بلاد المغرب العربي الكبير**. فصدق الإنتماء وعدم الــتذبذب فـــي الإنتساب إلى الحضارة العربية الإسلامية ، ليست أمورا تتحقق عن طــريق المصـــادفة. فالملاحظات والدراسات الميدانية لظاهرة صلابة واستمرارية الانتســـاب الــثقافي والــلغوي فـــي مجتمعات اليوم تؤيد مدى أهمية اللغة والثقافة الوطنيتين في إرساء أسس المناعة للشخصية القاعدية وثقافة المجتمع الأصيلة.

فالمجــتمعات المــتقدمة حقا اليوم ليست هي التي لها العلم و التكنولوجيا و الدخل الاقتصـــادي الهـــائل فق و إنما هي أيضا تلك المجتمعات التي **تأخذ فيها اللغة و الــثقافة الوطنيتان أولوية الإستعمال** على أي لغةوثقافة أجنبيتين وهذا في نظرنا

---

[231] نظر: A.Hermassi, Leadership and National Devloppement in North Africa, A Comparative Study (Berkeley, Calif. University of California Press1972) p72

ولابد من أن نضيف هنا أن مشكلتي التعريب والمزج اللغوي لا تزالان ظاهرتين شائعتين في مجتمعات المغرب العربي من الوطن العربي الكبير المعاصر(انظر الفصل الأول من الباب الرابع لهذا الكتاب).فبينما يقصد بالتعريب بالمشرق تعريب المصطلحات العلمية خاصة بالتعليم العالي فإن التعريب يقصديه في المغرب العربي تعريب لغة التدريس والادارة واللافتات في الشوارع والمعاملات.وباختصار **فاللغة العربية في هذه المجتمعات لا تقوم بدورها الطبيعي والكامل في خدمة المجتمع**. والملاحظة الأخرى التي يمكن تسجيلها على مستوى الوطن العربي هي ظاهرة خصوصية المزج اللغوي (خلط اللهجة العامية خاصة بنسب كبيرة من عبارات وكلمات فرنسية)في مجتمعات المغرب العربي.فالعربي المشرقي يعبر بسهولة بلهجته العربية عن كل ما يتعرض له تقريبا. ومزجه إذا مزج يتسامح فيه لغويا وثقافيا.أي أنه مزج مقبول في عصر قلت فيه الحواجزبين تلاقي وتلاقح الثقافات والحضارات.أما مزج سكان المغرب العربي للغتهم العربية بالفرنسية(الفرنكوأراب) فهي ترجمة واضحة لعلاقة الضعيف بالقوي والتابع بالمتبوع **فالأراب فرنكو لا توجد بين المستعمرين الفرنسيين.**

[232] لأن اللغة سجل العقلية النفسية والاجتماعية للشعب المتحدث بتلك اللغة. ومتى أقصيت اللغة الوطنية عن الاستعمال الاجتماعي الطبيعي الشامل في المجتمع الأم بسبب لغة أخرى دخيلة فإن تسرب التأثيرات الثقافية والحضارية في اللغة الدخيلة إلى المجتمع الأم واقع لا مناص منه.وانتشار الانماط الحضاريةو الثقافية الامريكية اليوم عالميا لا بد أن يكون له علاقة **بعولمة اللغة الانجليزية/الامريكية** في العصر الحديث. وان تمادي اعتقاد البعض في المغرب العربي بأن اللغة الفرنسية هي لغة العصر ولذا يجب المحافظة عليها كلفنا ذلك ما كلفنا يتعارض مع المعطيات اللغوية لعصرنا فالانجليزية هي بالطبع لغة العصر.وهي طبعا البديل الأكثر كفاءة من الفرنسية ولكن ليس على حساب اللغة الوطنية. **فالفرق واضح بين التفتح والمسخ اللغوي والثقافي.**

معيار إجتماعي واقعي وذو مصداقية لمقياس ظاهرة التخلف الثقافي أو التنمية الثقافية.وكما كنا قد أكدنا سابقا على أن **الظاهرة الإستعمارية هي ظاهرة شمولية** أي لهاعدة ملامح و مظاهر.

وأفضـــل ما ينطبق هذا المنظور عليه هو الإستعمار الفرنسي. فهذا الأخير كان أكثر طموحا من الاستعمار الإنجليزي في تنفيذ مشاريع وخطط الإستعمار الثقافي في الـــبلاد الـــتي ســقطت في قبضته[233].وجروح شعوب شمال إفريقيا(الجزائر وتونس والمغرب) شاهدة كما رأينا على طبيعة هذا الطموح الإستعماري الفرنسي[234]. ففرنسا سعت بكل جهودها أن تفقر وتشوه وتمحو المكونات الثقافية لهذه الشعوب الثلاثة .

وكـــانت اللغة الفرنسية أداة فعالة في إنجاح حركة **التغريب الثقافي** لدى المغاربيين بطريقة مباشرة أي غير مباشرة . ففرض إستعمال الفرنسية عوضا عن العربية في المؤسسات الإدارية وغير الإدارية وفي المعاهد المدرسية كانت استراتيجية أعطت نتائجها الثقافية الرابحة للاستعمار الفرنسي حتى يومنا هذا.

وفي مقابل نجاح الإستعمار الثقافي في تعزيز أسسه في مجتمعات المغرب العربي تقـلص إســتعمال اللغة الوطنية (العربية) في كل تلكم المؤسسات أو المعاهد. ولم يبق للعربية من مكان يعززها وينمي مقدرتها سوى جامع القيروانيين بفاس وجامع الزيتونية بتونس وجمعية العلماء الجزائريين المسلمين بالجزائر. **وبذلك دخلت هذه المجتمعات مرحلة التخلف الثقافي الذي ما زالت تشكو وتنزف منه حتى يومناهذا.**

ونـــتيجة هـــذا الوضـــع الثقافي الجديد: واقع التخلف الثقافي كما هو وارد في هذه الفصـــل برزت وتواصلت حتى الآن على مسرح مجتمعات المغرب العربي الثلاثة **إزدواجيـــة إيديولوجية** عمقت وتعمق أكثر في جرح التخلف الثقافي الذي بليت به أفراد وجماعات ومؤسسات هذه البلدان منذ مجيء فرنسا الإستعمارية . فمن جهة: أصـــبح و لا يـــزال يـــنظر إلى **الفرنسية** على أنها لغة الحضارة ، لغة العلم، لغة الإقتصـــاد ، لغـــة الدبلوماســـية، لغـــة الإدارة العصرية ، لغة التفاهم بين الأمم . وباختصار فإنها **لغة العصر** أو الحداثة. ومن ناحية أخرى، تنظر الأيديولوجيا الثانية والمنتشرة بين كثير من مواطني هذه المجتمعات حتى الآن إلى **الـــلغة العربية** على أنها لغة الشعر ولغة القرآن : أي الدين .وبذلك فهي **لغة رجعية وتقليدية** . وبعبارة أخـــرى فهـــي لا تصـــلح أن تكون لغة العصر الحديث. ومن هذه الثنائيات يمكن تسجيل الحركات الإجتماعيةالتالية:

---

[233] يبدو أن هناك فرقا بين الاستعمار الثقافي الانجليزي والفرنسي. فالأول كان أقل وحشية. فاللغات المحلية مثل السواحلية سمح بتدريسها مثلا في كل من تانزانيا وكينيا ولكن مع الاستعمار الفرنسي أصبحت الفرنسيةمنذ عهد الاحتلال حتى اليوم هي اللغة الطاغية ولغة الطبقة الحاكمة.
انظر: L.J. Calvet,Linguistique et colonialisme (Paris-Payot 1974 pp 84-85)

[234] أي زائر وملاحظ للوضع اللغوي والثقافي لهذه المجتمعات اليوم لا بد أن يجد آثار الإستعمار الثقافي متفشية في الظاهر والباطن

1/ الصــراع فــي خضــم هذه المجتمعات بين هؤلاء الذين يريدون التأصيل الــثقافي و أولــئك الذيــن يرون في المحافظة على النمط الغربي السبيل الأنجع لخروج هذه المجتمعات من التخلف .

2/هــناك الفــريق الآخر (المزدوج الثقافة) الذي يريد الجمع بين صنوي الثنائية (العــربي و الفرنســي) **غير المتزنين**. و يبدو إن هذا الموقف هو موقف الأغلبية لهذه المجتمعات الثلاثة .

و دراسة الواقع الراهن بروح علمية لحركية المجتمع التونسي والجزائري والمغــربي تقتضــي الأخذ بعين الاعتبار لحقيقة الإزدواجية في التركيبة اللغوية الــثقافية لهــذه المجتمعات .وبعبارة أخرى، **فإن مجتمعات المغرب العربي الثلاثة تعــاني اليــوم مــن فقدان التكامل الثقافي**[235] الذي يعطي الأولويةإلى لغته وثقافته الوطنيتين. وهذا ما نجده في المجتمعات المتقدمة.وظاهرة فقدان التكامل الثقافي أو الإزدواجيــة الــثقافية المشار إليها آنفا تساعد على تفسير ظاهرة **الغربة** Aliénationفي إشكالها العديدة كظاهرة الغربة التي تسيطر على فريق تجاه الآخر و الغــربة الــثقافية التي تؤدي بصاحبها غالبا إلى الانتساب الثقافي والحضاري المــتذبذبين أو حتى إلى نكران الذات الحضارية و الثقافية نفسها .ورغم ما للبنية الــثقافية المجــتمعية مــن أهمية في حركية المجتمعات تأخرا أو تقدما نجد **تجاهلا كــاملا** - كمــا رددنــا هــذا فــي كامل هذه الفصل - لدى خبراء التنمية والتخلف المعاصــرين لــدور الــتكامل أوالانقســام الــثقافي في عملية التنمية والتخلف في المجتمعات النامية.

سابعا: آثار التغريب اللغوي و الثقافي

إن **الــتغريب اللغوي** الذي تشكو منه الجزائر و تونس و المغرب هو تهديد خطير لكيــان و شخصــية و هوية هذه المجتمعات[236] لأن اللغة ليست وسيلة تخاطب فقط كما يدعي المدعون و إنما اللغة هي أيضا الوعاء الفكري و الثقافي للحضارات. فعن طريق تعلم اللغة نكتشف العالم الخارجي و نســجل مــا اكتشفناه في داخلنا فيصبح ما تجمع عندنا من ارتسامات دليلا آمرا للســلوك الفردي و الجماعي . ولنا أمثلة من شمال إفريقيا نفسها تومئ إلى خطرما يأتي من:

1 – تعلم اللغة الأجنبية والثقافية الإستعماريتين فقط أو2 – تعلم اللغة الأم (العربية) وثقافــتها إلى جــانب تعلم أكثر تفوقا وتمكنا في اللغة الفرنسية وثقافتها (الإزدواجية الــلغوية الثقافيةغير المتزنة) . **فهذان النوعان من التكوين اللغوي الثقافي أديا إلى ظاهــرة "الاستعداد" للانسلاخ من الذاتية اللغوية الثقافية المغاربية والانضمام إلى**

---

[235] أحمد زكي بدوي معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (بيروت مكتبة لبنان1987) ص92

[236] (العاشوري عبد العزيز اللغة العربية والهوية الثقافية وتجارب التعريب المستقبل العربي العدد27(مايو1981)

الذاتيـــة الـــلغوية الثقافية الفرنسية. وهذا مثال على مدى مصداقية مقولة **مخاطر غزو الرموز الثقافية** التي صدّرنا بها الفصل الأول لهذا الكتاب .
فيذكر عـــلي فهمـــي فـــي دراســـة له أن فرحات عباس ذا التكوين اللغوي الثقافي الفرنسي ولفيفا من أعضاء قدماء الصادقية (ذوي التكوين اللغوي المزدوج) بتونس جسدوا حال التذبذب إزاء قضية المحافظة أو التخلي عن الذاتية الوطنية والإرتماء في أحضان التجنيس الفرنسي[237] وتقابل العينات هذه الشخصيات التونسية والجزائرية ذوات الـــتكوين المـــتجذر فـــي اللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية. فالمدافعة الصـــامدة وغيـــر المتذبذبة للطاهر بن عاشور و محمد الخضر حسين عن ثقافة المجـــتمع التونسي العربي الإسلامي في تلك الظروف الصعبة جعل المتذبذبين من قدمـــاء الصادقية يرجعون إلى جبهة الحظيرة الوطنية ، أي إلى الإنتماء إلى تونس العربية المسلمة. وغني عن الذكر الإنتساب الفخور لإبن باديس إلى الذاتية العربية الإســـلامية. فكـــان ايمانـــه الراسخ في الجزائر كمجتمع له شخصيته وذاتيته ذات الجذور العميقة في التربية العربية الإسلامية لا كما ظن الفرنسيون أو الجزائريون المهيمـــن عليهم لغويا وثقافيامن طرف فرنسا: أن الجزائر جزء من القطر الفرنسي ومـــن الحضـــارة والثقافة الفرنسيتين . فجاء **الشيخ ابن باديس** ذو التكوين اللغوي الـــثقافي العـــربي الإسلامي الأصيل يعلن في وضوح للجميع (للإستعمار الفرنسي والمشككين الجزائريين على حد سواء) أن:

شـــعب الجزائر مسلم — وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله — أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له — رام المحال من الطلب
هذا لكم عهدي به — حتى أوسد في الترب
فإذا هلكت فصيحتي — تحيا الجزائر والعرب

فالجـــلي مـــن هذه الأمثلة هو **وجود الإرتباط بين العامل اللغوي والتكوين الثقافي** (عـــربي، فرنســـي أو مـــزدوج) لـــلفرد ولـــلجماعة ، **واتجاه انتسابهم الثقافي والحضـــاري**[238]. ومن هنا يبطل الإعتقاد السائد بأن اللغة ليست إلا وسيلة تفاهم بين البشر. **فاللغة** في الحقيقة **أكثر من ذلك**. فعن طريقها يلج المرء إلى خبايا الثقافات بمـــا فيهـــا ثقافته الاصلية. فمن أهم وظائفها تنشئة الفرد إجتماعيا. وما الشخصية

---

237 فهمي علي، الثقافة العربية كمحور للمقاومة ضد التبعية في المغرب العربي، **شؤون عربية**العدد5 (يوليو1981)ص123-125

238) أما الطريقة المباشرة لعملية التعريب الثقافي فهي المتمثلة في قوانين السلطة الفرنسية الاستعمارية ازاء نشر اللغة والثقافة الفرنسيتين وتقليص مكانة اللغة والثقافة الوطنيتين في مجتمعات المغرب العربي الثلاثة انظر: R.Bidwell, Morroco Under Colonial Rule(London Cass 1973)pp.237-256 أما الطريقة للباشرة في نشر اللغة والثقافة الفرنسيتين فهي التي جعلت قسما من الشعب – المثقفين اولا وقبل كل شيء ملغة وثقافة المستعمر– يشجع ويدافع عن استعمال الفرنسية بدل اللغة العربية. وعلى سبيل المثال حركة الشباب التونسي في العشريات بالقطر التونسي انظر: Charles Micaud, Tunisia:The Politics of Modernization,London Pall Mall Press1964 pp 22-37

الإنســانية فــي النهاية إلا انعكاس كبير لهذه العملية . فتأثير اللغة وثقافتها هو إذن أساسي في أي محاولة علمية تود فهم حركية مجتمعات المغرب العربي في الوقت الــراهن وفي المستقبل . فعندما نريد أن نعرف من هم القادة السياسيون ؟ ومن هم المســيرون للإقتصــاد العصــري؟ ومن هم رجال التعليم؟ وبين من ومن تحتد أو **تنفرج الصراعات في هذه المجتمعات؟** علينا ألا ننسى – ونحن نرغب في الإجابة– **عامل بنياتها الثقافية** . فالإلمام بطبيعة ونوعية **البنى الثقافية** أمر لازم لأي تفهم مكين بشؤون هذه المجتمعات.

ثامنا: التركيبات اللغوية الثقافية في المغرب العربي

قــبل أن نتطرق إلى ظاهرة التركيبات الثقافية في المغرب العربي يجدر أن نسلط الضــوء عــلى التركيــبات الثقافية[239] في المجتمعات المسمات بالمتقدمة اليوم مثل مجتمعات أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية .

يتصــف النظام التعليمي العام في كل من المجتمع الفرنسي والأمريكي المعاصرين **بمرحلتين تكوينتين** هما:

- مرحلة التكوين اللغوي الثقافي القاعدي الأساسي .
- مرحلة التكوين اللغوي الثقافي ما بعد القاعدي الأساسي .

أمــا مــدة المرحلة التعليمية الأولى فعادة تنتهي بانتهاء التعليم الإبتدائي والثانوي. وبعــبارة أخرى، فإنها مرحلة التجانس اللغوي والثقافي لجميع المواطنين. في هاته الفــترة يتعلم التلميذ ويتقن لغته قبل أي لغة أخرى . يتعرف التلميذ ايضا إلى ثقافته الوطــنية **أكــثر** مــن أي ثقافة أخرى وذلك عن طريق دراسة التاريخ والجغرافيا والآداب والفلســفة وغيرها من المواضيع **التي تعزز فيه وعي إنتسابه إلى ثقافته وحضارته الأصليتين** .

وأمــا مرحلة ما بعد الدراسة الثانوية فهي الفترة التي تبدأ فيها ظاهرة التخصصات بمــا فــي ذلك التخصصات اللغوية والثقافية . ففي هذه المرحلة يبدأعادة المواطن الأمريكي أو الفرنسي المتعلم المرحلة الدراسية العليا بإجادة وإتقان اللغات الأجنبية [240]. ونادرا ما يكون إتقانه التحدثي لهذه اللغة أحسن من إتقانه اللغة الأم (الإنجليزية

---

239 يتكلم علماء التنمية عن ظاهرة الثنائية الاقتصادية في المجتمعات النامية ويغفلون-عن قصد أو غير قصد-ظاهرة الثنائية اللغوية والثقافية في تلك المجتمعات.

240 نعــني هــنا اللغات التي يتعلمها الشخص عن طريق التعلم المدرسي لا تلك التي يتعلمها من تنشئته العائلية حيث تكون هناك لغة او لغات اخــرى تســتعملها العائلة او البيئة الاجتماعية المحلية.وفي ما يخص تعليم اللغات الأجنبية في الولايات المتحدة .فإن الشعب الامريكي اليوم من الشــعوب الاكثر تاخرا في ميدان تعلم اللغات الاجنبية في المدارس والمعاهد والجامعات.وفي هذا الصدد نشرت مجلة امريكية اكاديمية ملفا حول هــذا الوضع المزري لمجتمع متقدم كالولايات المتحدة الأمريكية.وثانيا للشعب الامريكي على ذلك كتب أحد المشاركين في هذا العدد الخاص حول تعليم اللغات ما يمكن ترجمته كما يلي:"مرحبا بكم في الولايات المتحدة التي لا يتكلم شعبها إلا الانجليزية"واقترح كاتب هذه الكلمات أن تكــتب هــذه العــبارة على لافتات في كل المطارات وموانئ ومداخل الحدود الامريكية The Annals of the American Academy of Political and Social Science Fall1979 انظر مقالنا: Forcing languages need to be included in education reform, The Register-Guard,Eugene Oregon(USA,Nov.21.2000)

أو الفرنسية) . وفي المرحلة الدراسية العليا يمكن أن تفوق معرفته للثقافات (الثقافة) الاجنبية معرفته الأولية لثقافته هو.فما يكسبه الأمريكي والفرنسي وغيرهما من أبناء وبنات المجتمعات المتقدمة في المرحلة الدراسية العليا من تعلم للغات (لغة) ولثقافات (ثقافة) **أجنبية** يعد زادا إضافيا لما كان قد تحصل عليه من تكوين لغوي ثقافي وطني أساسي في المرحلة الإبتدائية والثانوية. فالأمريكي أو الفرنسي يظل بذلك التكوين القاعدي دائما قادرا أن يكتب ويتكلم بسهولة بلغته الوطنية في كل شؤون الحياة اليومية بسيطها ومعقدها.. وهو كذلك يمسك معرفة أساسية لثقافته الوطنية التي تلقاها في السنوات التكوينية. **فهذا النموذج من التكوين اللغوي والثقافي هو المعمول به في المجتمعات المتقدمة على العموم.** فهو النمط الطبيعي الشائع بين كل فئات تلك الشعوب . وهو بذلك يرسي أسس التجانس، وبالتالي **التضامن اللغوي والثقافي** في المجتمع.

1/ نمط التكوين الثقافي واللغوي في المغرب العربي :

وهذا عكس ما نجده في معظم المجتمعات التي رزحت سابقا تحت السيطرة الإستعمارية . فالإستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي لمجتمعات المغرب العربي أفرز **انقسامات لغوية ثقافية ذات طبيعة جديدة** لم تكن موجودة قبل دخوله هذه المجتمعات[241]. إن أصل هذا **التمزق اللغوي الثقافي** المنتشر يرجع إلى فقدان وحدة التكوين اللغوي الثقافي القاعدي الأساسي في كل من تونس والمغرب والجزائر أيام الإستعمار. وهكذا فإن ظاهرة اللاتجانس اللغوي الثقافي في مجتمعات عاشت هذا التجانس من قبل ، ولمدة طويلة[242]هي وليدة مجيئ وتخطيط الاستعمار الفرنسي. **فالتكوين اللغوي الثقافي للشمال الإفريقي في ظل الإستعمار الفرنسي كان أمرا غير طبيعي** . فما سميناه هنا بالتكوين اللغوي الثقافي القاعدي الأساسي كان فرنسي اللسان والثقافة خاصة لمعظم الجزائريين . وقلة هم الذين كانوا من المغاربيين محظوظين فدخلوا مرحلة التعليم الابتدائي. ومنهم – وهم قلة القلة– من أتموا التعليم الثانوي[243]. وهكذا بدأت **عملية التشويه اللغوي والثقافي** على مستوى المتعلمين الذين أصبحوا فيما بعد **أصحاب سلطة ومسؤولية** ، سواء قبل استقلال هذه الشعوب أو بعدها. وإن حرمان هؤلاء المتعلمين من تكوين لغوي ثقافي وطني وقومي أصيل في السنوات التكوينية لأسس الشخصية القاعدية ، **ليمثل أخطر ما حققه الإستعمار** في هذه الربوع والذي ما زالت تأثيراته القومية سائدة بين التونسيين والمغاربة والجزائريين إلى يومنا هذا . فهي إستراتيجية إستعمارية ماهرة **في إحداث الغربة والقطيعة بين أهل المغرب العربي وبين لغتهم وقيمهم وتقاليدهم وانتسابهم الثقافي والحضاري** . وباختصار، فإنها علمية تهدف إلى خلق

241 وحتى إن وجدت خلافات لغوية وثقافية نظرا لوجودالعربية والبربريةوما يتبعهما من ملامح ثقافية،اجمع كثير من الباحثين على تشابههما وتلاحمهما.فان طبيعة الاختلاف ذات جذورداخلية (وطنية قومية) لا خارجية(غزو الفرنسية زثقافتها هذه الشعوب العربية البربرية)

242 (البشير بن سلامة،الشخصية التونسية :خصائصها ومقوماتها (تونس: موسسة عبد الكريم بن عبد الله 1973) ص72

243 المجلة العدد 78ص44-46

أزمات في الشخصية والهوية بين كثير من هؤلاء المتعلمين[244]. ثم دفع البعض إلى الإنســلاخ الكامل من الإنتساب إلى مقومات الثقافة العربية الإسلامية . وهذا ما كان ليحصــل بســهولة لو أن الفرد المغاربي في عهد الإستعمار أعطي زادا لغويا ثقافيا وطــنيا مــثل نظيــره الأمــريكي أو الفرنسي في مرحلة السنوات التكوينية أي في المرحلتين الإبتدائية والثانوية.

وإن برامج التعليم لفترة ما بعد الإستقلال لدى هذه الشعوب لن تفلح هي الأخرى في اســترجاع الأصالة اللغوية الثقافية الطبيعية لأفراد وجماعات هذه المجتمعات ما لم **تؤمــم** (بالمعــنى الــلغوي والثقافي) **البرامج اللغوية الثقافية** للمرحلتين الإبتدائية والــثانوية في كل من الجزائر وتونس والمغرب. وهذه المجتمعات العربية الثلاثة ســوف تقترب لغويا وثقافيا أكثر من المشرق العربي إذا هي نجحت بحق في **تأميم مواردها اللغوية والثقافية**[245].

2/ أنواع التكوين اللغوي الثقافي في فترة الاستعمار:

إن خطــط الإســتعمار الثقافي الفرنسي في كل من الجزائر والمغرب وتونس كانت تهــدف بدرجــات مختــلفة إلى **فرنســة لسان وثقافة تلاميذ هذه المجتمعات** في المرحلــتين الابتدائية والثانوية على السواء . وقد نجحت خطة المستعمر في اعطاء تكويــن لغــوي وثقافي فرنسيين لمن كان له الحظ من صغار وشباب شمالي إفريقيا في الالتحاق بالتعليم الإبتدائي والثانوي . وخرجت الشلة المتعلمة (حولي 15 بالمائة) **بــتكوين لغوي وثقافي خلو من مقومات التكوين الوطني الأصيل** . أي أن حاملي الشهادة الإبتدائية والباكالوريا وغير الحاملين لها من المتعلمين يجهلون جهلا كبيرا لغــتهم الوطنية (العربية) ومكونات ثقافتهم العربية الإسلامية ، وأن فرنسة تكوينهم الــلغوي الثقافي قد ازدادت حدة عند هؤلاء الذين سافروا إلى المجتمع الأم (فرنسا) لمــتابعة التعــليم العالي هناك . وهذا الصنف من المتعلمين في فترة الإستعمار هم الذين نطلق عليهم **المفرنسين** في هذه المجتمعات ويشكل هؤلاء الأغلبية المتعلمة يومئذ في الجزائر خاصة[246].

أمــا ذوو الــتكوين اللغوي الثقافي المزدوج في أقطار المغرب العربي الثلاثة فهم غيــر كثيرين خاصة بالجزائر. فالصادقيون يمثلون هذا النوع اللغوي الثقافي في تونــس. والمدرســة الصادقية هي من تأسيس الصادق باي الذي رأى في تأسيس

---

[244] وتتمثل أزمة الضياع –ضياع الانتساب الثقافي واللغوي– في المثقف ثقافة فرنسية مثل فرحات عباس من الجزائر الدي وصف حيرته اليائسة هكذا: فقد استنطقت التاريخ والاحياء والاموات ولكن لم يخبرني أحد عن الامة الجزائرية". كتاب: A.Noushi, La naissance du nationalisme algerien,1914-1954(Paris Minuit,1962)p89

[245] التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي:بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت: المركز 1982)

[246] شريط عبد الله، من واقع الثقافة الجزائرية (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع)ص145

مـــثل هذه المدرسة نشر اللغة والثقافة كنافذة للعصرنة، من جهة، والمحافظة على الأصالة اللغوية والثقافية العربية الإسلامية، من جهة أخرى.
والصنف الآخر من المتعلمين والمثقفين لفترة ما قبل الاستقلال في الجزائر وتونس والمغـــرب هـــم ذوو الـــتكوين الـــلغوي الـــثقافي العربي الاسلامي مثل الزيتونيين والقيـــراونيين في تونس والمغرب ومن تثقف مثلهم في جامعي الزيتونة والقيروان أو فـــي المشـــرق العـــربي مـــن الجزائـــريين . ومجموعات المثقفين الزيتونيين والقيـــراونيين كـــانت أولى المجموعـــات المـــنظمة التي جابهت الإستعمار الثقافي الفرنســـي وما له من تشويه في صلب الشخصية التونسية والجزائرية والمغربية[247] .أمـــا غيـــر المتعلمين فهم طبعا البقية الباقية من سواد الشعب وهم الأغلبية ويمثل هـــؤلاء الفلاحـــون والـــتجار وربـــات الـــبيوت ...الخ، ويتأثر سلوكهم وتنظيماتهم الإجتماعية بالقيم والتقاليد العربية الإسلامية.

3/ أنواع التكوين اللغوي الثقافي بعد الإستقلال:

إن الـــتكوين الثقافي لصغار وشباب ما بعد الإستقلال في مجتمعات المغرب العربي الـــثلاثة يـــتجه نحو نوع من الإزدواجية اللغوية والثقافية. وهذا النمط من التكوين يبدو أنه أدى إلى تدهور في عنصري هذه الثنائية اللغويةالثقافية العربية الفرنسية[248] **. وتعـــريب كـــل مـــواد وبرامج التعليم في المرحلة الثانوية لم يتحقق في بعض مجتمعات المغرب العربي حتى الآن.**

ففي تونس وقع تعريب كل المواد في المرحلة الإبتدائية بانتهاءالسنة الدراسية 1981. لكـــن عملية تعريب العلوم في المرحلة الثانوية يبدو أنها لم تستمر ابتداء من إفتتاح الســـنة الدراســـية (ايلول/سبتمبر1981) ، وهذا يعني أن هناك **تعثرا وتذبذبا** وتحفظا فيمـــا يخـــص الإســـتمرار في التعريب . وهذا الرجوع في خطة التعريب لا يخدم طـــبعا تطويـــر اللغة الوطنية /العربية لمجتمع هو في حركية وتطور. وتبقى **بذلك ظاهرة القطيعة بين المجتمع ولغته الأصلية** متواجدة وهذا أمر غير طبيعي للعلاقة التفاعـــلية بين المجتمع ولغته . أما قضية التعريب في المغرب فهي ربما اسوأ مما هـــي عـــليه في تونس. فهناك تراجعات عديدة حتى في تعريب المرحلة الإبتدائية. وهكذا فالإزدواجية أو التعددية اللغوية واقع ملموس في المغرب[249].

فجذور التخلف الثقافي ترجع في نظرنا إذن إلى نوعية اللغة (أو اللغات) والثقافة الـــتي يتعلمها ويتقنها التلميذ في تونس والجزائر والمغرب بالمرحلتين الإبتدائية والثانوية . فإن هو تعلم وسيطر قبل كل شئ على لغته وثقافته فقد نجا من السقوط فـــي عقـــدة التخلف الثقافي وانعكاساتها على مستوى الشخصية الفردية والجماعية وبالـــتالي عـــلى مستوى السلوك. **وهكذا يصبح في رأينا التعليم الابتدائي والثانوي محـــور أي تغيير ناجح لظاهرة التخلف الثقافي.** ومعنى كل ذلك أن الحاصل على

[247] العزعوزي، أحمد "الابعاد الاجتماعية والسياسية للتعريب في المغرب العربي" شؤون عربية العدد7 (سبتمبر1981)ص93

[248] مجلة المجلة العدد78 ص44-46

[249] العزعوزي، المصدر نفسه ص135

شهادة إنتهاء التعليم الثانوي سوف يكون ذا زاد لغوي ثقافي وطني يجعله قادرا على أن يعبر بسهولة وعفوية بلغته الوطنية عن كل شيء يتعرض له من حياته . وفي الوقت نفسه يكون ذا قدرة أكبر في فهم واستعمال تراثه الثقافي الوطني. وعندئذ يصبح المازج للغة الوطنية بلغة أجنبية والذي له معرفة أكبر بثقافة الغير (على المستوى الثانوي) **مثلا حيا للمتخلف لغويا وثقافيا** لأنه يشكو من نقصان في معرفته للغة وثقافة المجتمع الذي ينتسب إليه . والمجتمعات المتقدمة، كما رأينا تعطي أبناءها وبناتها في المرحلة الإبتدائية والثانوية زادا لغويا وثقافيا وطنيين قبل أي تكوين آخر أجنبي . وإذا كان البعض يتباهى ويتبجح بتقليد الغرب العصري**فلم لا نقلده في نوعية التكوين اللغوي الثقافي التي ينشئ عليها شبابه في المرحلة الإبتدائية والثانوية؟**

ورغم ضخامة الجرح اللغوي والثقافي في الجزائر فإن انجازات التعريب في هذه البلاد على المستويات الثلاثة (الإبتدائي والثانوي والجامعي) تمشي بخطى وئيدة إلى الأمام[250]. فقد تمّ مثلا تعريب كامل التعليم الإبتدائي والثانوي في سنة 1982. وبالجامعة فقد تقدم التعريب في كثير من الميادين المعرفية خاصة العلوم الإجتماعية.هكذا يتضح أن البرامج التعليمية في المرحلة الابتدائية الثانوية التكوينية وخاصة في كل من المغرب وتونس لم **تؤمّن بعد تكوينا لغويا وثقافيا أساسيا وقاعديا ذا عمق وطني أصيل لا مراء فيه** . ولا يتم ذلك- كما أشرنا سابقا إلى سياسات الدول المتقدمة بهذا الشأن- إلا إذا **أمّمت موارد اللغة والثقافة الوطنية في تكوين كل أفراد وفئات هذه المجتمعات.**

تاسعا: مساهمة تلك الانواع الثقافية في تسيير المجتمعات المغاربية

إخترنا هنا ثلاثة قطاعات مهمة وذلك خلال فترة ما بعد الإستقلال لكل من تونس والمغرب والجزائر . وهذه القطاعات هي السياسي والإقتصادي -الإجتماعي والثقافي : (1) ونعني بالقطاع السياسي هنا المراكز السياسية المهمة والحساسة التي تشرف على تسيير وتوجيه المجتمع. فمنصب الوزير وكاتب الدولة يعد من أهم الوظائف السياسية بعد منصب الرئيس والملك في هذه المجتمعات في عهد ما بعد الإستقلال. (2) ونقصد هنا بالقاطع الإقتصادي - الإجتماعي المؤسسات الإقتصادية والإجتماعية العصرية مثل البنوك والإدارات ودواوين الخدمات الإجتماعية (الديوان القومي للتنظيم العائلي ...إلخ)، (3) وأخيرا يراد لقاطع الثقافي ميادين التعليم والتربية والنشر والتأليف والصحافة والإذاعة والبحث العلمي .

وتتوزع على العموم سيطرة الطبقات المتعلمة المشار إليها في القطاعات الثلاثة كالتالي :

---

[250] المصدر نفسه ص147-150

الجدول الرابع

القطاع الثقافي	القطاع الاقتصادي والاجتماعي	القطاع السياسي	
مزدوجو اللغة والثقافة والمعربون.	مزدوجو اللغة والثقافة ومفرنسو اللغة والثقافة	مزدوجو اللغة والثقافة ومتفرنسو اللغة والثقافة	من هم المسيطرون على القطاع ؟

ويتضح من هذا الجدول وانعكاساته الملاحظات التالية :

1/ إن هناك علاقة وثيقة بين **إتقان الفرنسية** من طرف المتعلمين المغاربيين في فترة ما قبل الإستقلال وما بعده وبين **أهمية المراكز** التي يعمل بها في مجتمعاتهم هؤلاء في أهم القطاعات (السياسي والإقتصادي -الاجتماعي) الحيوية.

2/ ومنها يصبح **عامل اللغة والثقافة** عاملا مهما في تحديد طبيعة **التدرج الهرمي الإجتماعي** في هذه المجتمعات . ففي تونس مثلا هناك إحتكار كامل منذ الاستقلال من طرف مزدوجي اللغة والثقافة أو مفرنسي اللسان والثقافة للمناصب السياسية المهمة (كالوزير وكاتب الدولة ...الخ).فلا يكاد يُولّى هذه المناصب السياسية السامية أي شخص من الصنف الذي سميناه سابقا بالمعربين الممثلين خاصة في الزيتونيين في المجتمع التونسي . فأصحاب التكوين اللغوي والثقافي العربي الإسلامي لا يزالون على العموم غير ممثلين بنسبة عادلة في المناصب العليا للقطاعين السياسي والإقتصادي الإجتماعي في كل من المغرب والجزائر وتونس .

3/ وكما أن المجتمع الأمريكي كان ولا يزال يوزع المناصب المهمة وفقا للون بشرة المترشح (التمييز العنصري) **فإن الوضع في مجتمعات المغرب العربي** مع وجود بعض الاختلافات النسبية بينهما، **يطبق فيه التمييز اللغوي الثقافي**. وهذه الحالة القائمة لا تساعد إلا على إستمرارية **التخلف الثقافي** كما جاء تعريفه في هذا الفصل . فاعطاء أصحاب تكوين اللغة والثقافة الوطنيتين **المكانة الهامشية** بخاصة في تسيير أهم قطاعات المجتمع سوف يؤخر قطعا موعد حلول ومعايشة الإستقلال الثقافي طالما استمرت داخليا هذه **المعاملة غير الطبيعية للغة والثقافة الوطنيتين ولحامليها** . فإن التبعية اللغوية والثقافية وما تجلبه من عقد نفسية وتشكك في مقومات وأسس الشخصية الوطنية، سوف يطول عمرها في الإرتباط بالمجتمع (المجتمعات) الأم بالخارج . وبعبارة أخرى، سوف يستمر حتما شبح ظاهرة التخلف الثقافي في مجتمعات المغرب العربي الثلاثة: تونس والجزائر والمغرب إذا لم تعط الأولوية للغة والثقافة الوطنيتين بهذه المجتمعات.

4/ ويبدو بيّناالآن أن مجتمعات المغرب العربي تشكو من إنقسامات وصراعات ذات طابع لغوي وثقافي [251]هذه الخاصية قد تكون أكثر عمقا في القارة السوداء.

---

[251] انظر: أطروحة صاحب الكتاب: The notion ofModernization in American Sociology- (Ph. D) Dissertation, Université de Montréal, Departementde sociologie,1979,p364-36

ونـــتيجة هذه الوضع المجتمعي اللغوي الثقافي فإن تونس والجزائر والمغرب تشكو من معضلة **ظاهرة الإزدواجيات** . ويمكن على الأقل حصر **خمسة أنواع** منها:

الـــنوع الأول يتمـــثل فـــي وجود ايديولوجيتين منذ عهد الإستعمار حتى اليوم ازاء ظاهـــرة اللغة. فهناك الإستعماريون ومن يدور في فلكهم بالامس واليوم وهم الذين يعلـــنون، مـــن جهة، أن **اللغة الفرنسية هي لغة الحضارة والتقدم** والعلم والعصر بيـــنما يصـــفون **لغة الضاد بالتقليدية والجمود** والتديّنيّة (لغة الدين) أي ليست لغة العصر ذي التطور والحركية الدائبة.

ويتمـــثل **النوع الثاني** من ظاهرة الإزدواجيات بمجتمعات المغرب العربي الثلاثة كمـــا يمكـــن إســـتنتاجه ممـــا ســـبق ذكره في زمرة المثقفين **المعربين** ،من جهة، و**المفرنسين**، من جهة أخرى. أما ذوو التكوين اللغوي الثقافي المزدوج فهم يمثلون **النوع الثالث** من **الإزدواجيات المتزنة** بين لغتي الإزدواجية وثقافتها.

أما**الصنف الرابع** فينعكس في **طبقات المثقفين** بكل أنواعها من ناحية وبقية الشعب الأمي، من ناحية أخرى.

أمـــا **الصنف الخامس** من ظاهرة الثنائية المتصفة بها هذه المجتمعات ، وهي صفة شـــائعة فـــي دول العـــالم الثالث، فهو المتمثل في الفكرة الشائعة والقائلة بأن **اللغة الوطنية يجب إستعمالها**، من جهة، في المجتمعات ولكنها لغة **لا تلبي حاجة العلوم والميادين العصرية**، من جهة أخرى. ويمثل هذه الإزدواجية الموقفية في عشرينات القرن الماضي جمعية الشبان التونسيين. وكثير من المتعلمين المغاربيين المفرنسين لا يزالون يعتقدون الشيء نفسه اليوم.

عاشرا: التبعية الثقافة لمفكري العالم الثالث :

إن **ظاهـــرة الصـــمت الطويلة حول معضلة التخلف الثقافي** التي صدرنا بها هذا الفصـــل وجعلـــنا من مجتمعات المغرب العربي الثلاثة المعاصرة ميدان ملاحظتنا وتســـاؤلاتنا عن طبيعة وأسباب وجود واستمرار هذه الظاهرة تجعلناالآن نجيب عن **تســـاؤل شـــرعي** طالمـــا خامـــر الـــروح العـــلمية.والسؤال هو: إذا كانت رؤى وايديولوجيات علماء التنمية والتخلف في الشرق والغرب قد حالت، كما رأين، بينهم وبيـــن معالجة ظاهرة التخلف الثقافي **فكيف يا ترى يصمت مفكرو التخلف والتنمية لـــلعالم الثالث** عن هذا الواقع الذي ينبغي أن يكونوا قد عايشوه منذ نشأتهم وما زال فـــي إمكـــانهم أن يلاقـــوا ملامحه الباطنية والظاهرية في مجتمعاتهم اليوم ؟ وعلى الخصـــوص كيـــف يقـــبل صمت النخبة الماركيسة إذا كانت ايديولوجيا الماركسيين جميعا متعاطفة مع شعوب العالم الثالث المستقلة؟

إن الإجابـــة عن هذه التساؤلات المحيرة يكمن في ظاهرة **التبعية الثقافية والفكيرية** الـــتي يتصف بها مركسيو العالم الثالث إزاء اسيادهم المفكرين في الشرق والغرب. وبعـــبارة أخـــرى، فهـــم **مقلدون حرفيا** لم يستطيعوا ان ينحرفوا عن تفكير القمة . **فتكويـــنهم اللغوي والثقافي عادة تكوين أجنبي أي بغير اللغة الوطنية وبعيد عن وعـــاء الثقافة الأصلية** وهكذا يصبح تكوينهم نفسه طرفا من أطراف مشكل نسيان

ظاهرة التخلف الثقافي. وهكذا يمكن وصف **التبعية الثقافية والفكرية لمفكري العالم الثالث الماركسيين بأنها تبعية كلاسيكية** يمكن تلخيصها كما يلي :

إن قضـــية عدم إعتناء مفكري العالم الثالث الماركسيين بظاهرة التخلف الثقافي في بلادهـــم تـــرجع، من جهة، إلى أرضية المنظور الماركسي المفسرة للظواهر بصفة عامــــة وإلى العلاقة التي تربط هؤلاء المفكرين بنظائرهم في العام المتقدم، من جهة أخرى.

أما **أرضية المنظور الماركسي** القديم والجديد فهي **مادية الطبيعة** . أي أن تفسير أي ظاهـــرة يجـــب أن يـــرجع إلى أسس وعوامل مادية . ونظرا لأن مكونات التخلف الـــثقافي المتطرق لها هنا غير مادية فإن التفكير الماركسي لا ينبغي أن ينتظر منه أي اهـــتمام جديـــر بالذكر . فرواد الماراكسية الأوائل كبوخارين ولينين لم يعطوا أهميـــة للإستعمار الثقافي كظاهرة بليت بها المجتمعات المستعمرة المستغلة. فكل مـــا اهتموا به هو الإستعمار الإقتصادي وحسب . فكتاب بوخارين الإقتصاد العالمي والإمـــبريالية 1917 وكـــتاب ليـــنين الإمبريالية المرحلة القصوى للرأسمالية 1917 يركـــزان عـــلى العوامل الإقتصادية لظاهرة الإستعمار الجديد والقديم فقط .وبعبارة أدق، فـــإن منظورهم الماركسي يعطي الأهيمة الكبرى- في تحليلاته للظواهر- إلى البـــنى الســـفلية ، ويغـــض الـــنظر عن أهمية البنى الفوقية ، ومن ثم يأتي إهمالهم للظواهر الثقافية. ويستوي في ذلك الماركسيون القدماء والجدد[252].

أمـــا علاقة مفكري العالم الثالث الماركسيين بنظائرهم الماركسيين في العالم المتقدم **فهـــي علاقـــة التابع بالمتبوع.** فظاهرة التخلف أو الإستغلال الثقافي لشعوب العالم الـــثالث مـــن طـــرف القوى الإستعمارية والإمبريالية يمكن أن يلاحظها أي دارس لقضـــية التخـــلف فـــي العـــالم الـــثالث ، خاصة إذا كان ينتسب ولادة وتنشئة إلى المجـــتمعات المتخـــلفة . فالأمـــر طبيعي أن يكون هؤلاء المفكرون واعين بقضية الإستغلال الثقافي الذي ما زالت مجتمعاتهم المستقلة تشكو منه. وكما يقال فإن أهل مكة أدرى بشعابها[253].

إذن فمـــا هو سر هذا الصمت الطويل عن ظاهرة التخلف الثقافي خاصة من طرف مفكري العالم الثالث الماركسيين؟ يبدو أن الإجابة على هذا التساؤل يمكن كشفها في **طـــبيعة العلاقـــة الـــثقافية** الـــتي تربط بين المفكرين الماركسيين من العالم المتقدم والمـــتأخر . فالمـــثقفون الماركســـيون العـــالم الثالث استقوا نظرياتهم وثقافتهم من معارف مفكري العالم المتقدم .وطبيعي أن تكون نظرتهم إلى ظواهر التخلف والنمو (بما في ذلك التخلف الثقافي) في العالم نظرة ليس فيها ابتكار : أي مطابقة لنظرة

---

[252] مثل مؤلف هذا الكتاب الذي لا يعطي الإمبريالية الثقافية أي أهمية: J. Jalée, L Impérialisme,Paris, Maspero,1970

[253] إن مفكري التخلف والتنمية من العالم الثالث أمثال سمير أمين وأنور عبد الملك وBabekar Sine، وCelsto Furtado لم يعطوا أهمية جديرة بالذكر في مؤلفاتهم إلى ظاهرة التخلف الثقافي في العالم الثالث الذي يدرسون.وفي ندوة "لقاءات مغربية (الصباح/تونس 10-10-1981) لم يهتم المثقفون المغاربة إلا قليلا بقضية التعريب في تونس والجزائر زالمغرب.

اسيادهم في المجتمعات الأم. وهكذا نرى أن قضية **التبعية الثقافية** ليست ظاهرة مقصورة على المجتمعات النامية والمتقدمة فقط ، كما سبق بيانه ، بل أنها ظاهرة تمس أيضا فئات خاصة من هذه المجتمعات نفسها . **وبذلك تتضاعف علاقة التبعية إلى علاقات تربط بين خيوط وأنسجة وبنى هذه المجتمعات العديدة** . وفي كل هذه الروابط العلاقية تبقى مراكز القوى كما هي: علاقة التابع بالمتبوع . **وغياب تفكير مفكري العالم الثالث الماركسيين حيال ظاهرة التخلف الثقافي مثال ميداني حي على ظاهرة تبعيتهم** . وهذا رغم نبذهم ومقتهم ايديولوجيا ونظريا لحقيقة التبعية التي تربط المركز بحاشيته.

حادي عشر : هل هناك من خروج من الإستعمار الثقافي؟

إن طبيعة التغيير الثقافي المجتمعي بطيئة التغيير معقدته[254]. ومن هنا فإن تجذير وتأصيل اكتمال التنمية الثقافية لمجتمعات المغرب العربي لن يتم في القريب العاجل ولكن هناك عدة عوامل لا بد من أن تلعب دورا مصيريا في تحقيقه وبسرعة أكبر إذا ما طبقت باقتناع وحماسة من طرف السلط المسؤولة وبقية فئات الشعب. وإلى جانب إعطاء الصدارة للثقافة واللغة لا بد أيضا من إعطاء ودون أي تذبذب المكانة الأولى والطبيعية للغة الوطنية (العربية) في المجتمعات الثلاثة[255]. ومعنى ذلك **أن تصبح العربية اللغة المستعملة بالكامل في كل ميادين هذه المجتمعات** . وبذلك تقوم اللغة الشعبية (الوطنية)بدورها الطبيعي في خدمة شعوب المغرب العربي . وتقوم بالتالي هذه المجتمعات عن طريق الإستعمال الشامل للغة الوطنية بخدمة وتطوير اللغة التي تواكب دائما حركية وتغير المجتمع. فيقضى عندئذ على **ظاهرة الغربة بين المجتمع ولغته** السائدة منذ الغزو الثقافي الإستعماري في بلاد المغرب العربي داخل الهياكل المدرسية والمؤسسات الإجتماعية والإقتصادية . وليس هناك من طريق غير متذبذب لمجتمعات المغرب العربي "المتخلفة لغويا وثقافيا " سوى تأميم التعليم الإبتدائي والثانوي بالمعنى اللغوي والثقافي لكلمة التأميم .وبعبارة أخرى، عليهم أن يقلدوا فرنسا، وهم أحرار،في المستوى الوطني الذي تتمتع به المرحلتان الإبتدائية والثانوية في التعليم الفرنسي . فإذا نجحوا في إعطاء لغتهم وثقافتهم **المكانة الأولى** في التكوين التعليمي الابتدائي والثانوي لابنائهم فإن **الحصانة اللغوية والثقافية الوطنيتين تكون قد اكتسبت المناعة اللازمة لهذه لشعوب ضد أي سقوط مذل من جديد في دائرة التخلف الثقافي وما يترتب عنه من حلقات مفرغة للعقد النفسية والاضطرابات السلوكية.**

ويرجع التلاحم العضوي بينهما إلى حالته الطبيعية . آنئذ نرى بأعيننا خطأنا الشائع حول ظاهرة اللغة . فالكثير منا يعتقد ثم يعلن أن اللغة العربية متأخرة واللغة

---

254 انظر مفهوم اغبرن للهوة الثقافية المشار اليه سابقا في هذا الفصل.

255 (في الوقت الحاضر تعلن دساتير تونس والجزائر والمغرب بأن اللغة العربية هي اللغة الوطنية لكن مشكلة اللغة البربرية يزداد طرحها في الجزائر والمغرب لكن هناك اجماع على أن العربية هي اللغة الوطنية في كل من هذين المجتمعين. ولذا فاستعمالنا لعبارة "اللغة الوطنية" يعني العربية المكتوبة والمحكية

الفرنسية متقدمة بطبيعتها. وهذا الموقف يعكس **كابوس الاستعمار الثقافي**، من جهة، وعدم تحليل علاقة اللغة بالمجتمع، من جهة أخرى . فاللغة أي لغة فرنسية ، أنجليزية ، عربية...إلخ، هي نتيجة المجتمع وليس العكس . فتطور اللغة أو تأخرها هو مرآة صادقة أولا وبالذات لوضعية المجتمع وليس العكس. فتطور اللغة أو تأخرها هو مرآة صادقة أولا وبالذات لوضعية المجتمع المستعمل هذه اللغة . فتقدم اللغة الانجليزية حاليا عن الفرنسية خاصة في بعض ميادين العلوم يعكس تفوق المؤسسات العلمية للمجتمع الأمريكي المعاصر على نظيراتها في المجتمع الفرنسي . **فاللغة ليست بطبيعتها إذن متأخرة أومتقدمة.وإنما هي مادة إجتماعية حركية تتطور و تتخلف بمدى إستعمالها في المجتمع**. والمجتمع المتطور الذي لا يستعمل طبيعيا لغته الأم (الوطنية) يساهم طبعا في إستمرارية ظاهرة التخلف الثقافي الموروثة من الإستعمار . ويكون بالتالي تقدمه وتطوره **مشوه المعالم** وخطير على مسيرة المجتمع بأسره. لأن التكامل الثقافي والتنمية هما رهان نجاح أي نهضة مجتمعية شاملة يمكن أن يكتب لها الإستمرار والتقدم المتزنان. ويساعد على الحسم في شأن التخلف الثقافي عاملان :

1/ ضرورة حملات التوعية الثقافية :

وما يساعد على تجذير اللغة الوطنية والثقافة العربية الإسلامية خاصة في كل القطاعات العصرية لهذه المجتمعات الثلاثة هو القيام بحملات توعية شاملة ومستمرة بين كل فئات شعوب المغرب العربي . ومحتوي هذه الحملات هو بيان وتبسيط **ملامح الإستعمار الثقافي** وإنعكاساتها على الشخصية الفردية والإجتماعية لهذه الشعوب، من جهة ، ومدى مساهمة التبعية الثقافية في توثيق عرى التبعية الكبرى للمجتمعات التابعة بالمجتمع الأم، من جهة أخرى. وقد أكد ابن خلدون منذ قرون أن المغلوب (التابع) يقلد الغالب (المجتمع الأم). وكم تصدق هذه الملاحظة الخلدونية على علاقة الغالب والمغلوب ثقافيا بعضهما ببعض . فواضح لكل ملاحظ للسلوك في عصرنا هذا أن أفراد وجماعات المجتمعات المغلوبة أو الهامشية تقلد تقليدا كبيرأو أعمى في كثير من الأحيان أنماط السلوك وغيرها السائدة عند المجتمعات الغالبة فتنتج عن ذلك تصرفات فردية وجماعية لا تنتفع منها بحق مسيرة المجتمع ككل . لأن التوريد المتطفل عن طريق التقليد الأعمى طالما سبّب لهذه المجتمعات النامية **إجهاضات إجتماعية وإقتصادية** هي أبعد ما تكون عن الحاجة إليها .

وإذا نجحت حملات التوعية الثقافية في **تعرية أخطار التبعية الثقافية** ليس فيما يخص تشويه أسس الشخصية القاعدية الفردية والإجتماعية لهذه المجتمعات فقط بل أيضا في إبراز الخطر الذي يهدد الحركة التنموية السوية بأسرها في مثل هذه

المجتمعات ، فإن جوا نفسانيا إيجابيا يكون قد وجد بين كل الفئات[256]. وهذا ما يساعد طـبعا على الدفع بحركة التجذر لهذه المجتمعات في اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية. وهذا يؤدي قطعا إلى التخلص من ضخامة عبء ظاهرة التخلف الثقافي الذي مازالت تعيشه هذه المجتمعات.

2/ أهمية دور القرار السياسي :

إن دور أصـحاب القـرار السياسي في إعادة المكانة الطبيعية للغة الوطنية والثقافة العـربية الإسـلامية فـي مجتمعات المغرب العربي دور ذو أهمية كبيرة جدا . **فالقـرار السياسي** يمكن له أن يغير وضعية اللغة والثقافة بسن القوانين التي من شـأنها لا المحافظـة على اللغة والثقافة والوطنيتين فقط ، بل أيضا تدعيم نموهما وتطورهما مع تطور المجتمع.

فالزائـر للمجـتمع التونسـي والجزائري يلاحظ مثلا غياب صرامة قانون لتعريب المحيـط فـي تونـس ووجـوده في المجتمع الجزائري . ففي تونس ترى لافتات الشـوارع مكـتوبة بالعـربية وتـارة بالفرنسـية وتارة أخرى بالعربية والفرنسية معـا.وطالما وجدنا في اللافتات المزدوجة اللغة التسمية الفرنسية مكررة مرتين أو ثلاث مرات بالحروف اللاتينية بينما كتابة المسمى نفسه بالحروف العربية لا تتعدى مـرة واحـدة. إضافة إلى هذه المعاملة المزرية للغة الوطنية فإن المرء طالما وجد التسـمية الفرنسـية **أكـثر اطـلالا** ووضوحا لاحتلالها مكانة الصدارة في الطرق الرئيسية.

أمـا فـي الجزائر اليوم فإن المرء يرى تعريب المحيط حقيقة لا مراء فيها في كل مـدن وقـرى المجـتمع الجزائري. ولم يقتصر المسؤولون الجزائريون في تبديل الحـروف اللاتيـنية بحروف عربية لكلمة Munoprix كما هو الحال في تونس . إنما أعطوهـا أيضا محتوى عربيا فأصبحت "الأروقة الجزائرية " . والأمثلة كثيرة من هـذا الـنوع . فـترجمة القرار السياسي إلى قوانين تدفع بحركة **التأصيل الثقافي والـلغوي** أمر تمارسه أيضا المجتمعات المتقدمة المهددة ثقافيا مثل مقاطعة **كيباك** الفرنسـية في كنذا . فقبل 1977 لم يكن هناك قانون يحمي المحيط اللغوي في هذه المقاطعة المحاطة بمحيطي الثقافة الانجليزية (الكندي الانجليزي والأمريكي) يهددان كيانهـا الثقافي وبالتالي هويتها الثقافية. وبمجيء الحزب الانفصاليLePartiQuébécois لهـذه المقاطعـة لـلحكم 1976 تمت المصادقة على قانون101 Bill الذي يجعل من الفرنسـية اللغة الرسمية الوحيدة في كيباك ، وبذلك تصبح الفرنسية هي لغة المحيط الرسـمية الوحيـدة فـي كل المدن والقرى بما في ذلك مدينة منتريال ، حيث هناك معظـم أفـراد الأقلية الكندية الانجليزية الذين يمثلون حوالي 20 بالمائة من سكان

---

[256] من محادثاتي عام1981 في تونس والجزائر مع الشباب الطالبي خاصة، وجدت أن هناك اتفاقا عاما على ضرورة التعريب. وهذا الموقف ينبغي أن يساعد على انجاح عملية التعريب متى وضعت خطط جدية.وعندئذ تبدأ مؤامرة العمى الجماعي في التفكك والإضمحلال.

المقاطعـــة. وهكـــذا يتضح أنّ ساسةالمغرب العربي سوف يلعبون دورا كبيرا [257]في سرعة تجذر اللغة والثقافة العربية الإسلامية في مجتمعاتهم النامية إذا هم أولا وعوا (أي تغلـــبوا عـــلى العمى الجماعي) ثم اقتنعوا بمدى أهمية **خطرالتخلف الثقافي** عـــلى مشـــروعات التنمية ككل بسنهم القوانين والسياسات التي تخدم التنمية الثقافية الذاتيـــة لمجـــتمعاتهم وبالـــتالي التقدم الشامل والمتكامل لمسيرة شعوبهم المستقبلية. وهكـــذا فـــإن فصل السياسة عن الثقافة في مجتمعات العالم الثالث المتخلفة (بما في ذلـــك لغويـــا وثقافيـــا) أمـــر غيـــر طبيعي . فكما تدخلت القيادات السياسية لهذه المجـــتمعات الجديدة في الدفع بتنمية الميادين الإقتصادية والإجتماعية يجب أن تقوم بالشـــيء نفســـه وبالحماسة نفسها إن لم نقل أكثر فيما يخص حركة التنمية اللغوية والثقافية كما حددنا معالمها في هذه الفصل

[257] ان قيادة الجزائر السياسية في عهدها الاول على الخصوص هي الوحيدة في المغرب العربي التي يمكن وصفها بعدم التذبذب في قضية التعريب.ورغم التشويه اللغوي والثقافي العميقين للمجتمع الجزائري فإن انجازات الجزائر في نشر عملية التعريب الشامل تتقدم .بينما أكد المشاركون التونسيون زالمغاربة على تذبذب وتردد سياسة التعريب في هذين البلدين في: ندوة التعريب ودوره في تدعيم الوحود العربي والوحدة العربية: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية (تونس-23-26-11-1981

الفصل الثاني
في سوسيولوجيا أسباب نجاح وتعثر توطين اللغة في كل من المجتمع الجزائري والتونسي والكيباكي

أولا : طبيعة الدراسة في هذا الفصل وأهدافها

إن التحديات التي تجابهها مجتمعات العالم الثالث **عديدة الرؤوس**. فمنها الإقتصادي والإجتماعي واللغوي والثقافي..إذ أن مسيرة التنمية، مثلها مثل مركب التخلف [258]، متشعبة الملامح مترابطتها، أي أنها كل لا يمكن تجزئة مكوناته . فجهود تجذير توطين اللغة الوطنية، وتنميتها في المجتمعات النامية تعد مظهرا من مظاهر التنمية التي تحتاجها كل عملية تنمية سليمة تمكن المجتمع النامي من كسب رهان الإستقلالية والتحرر من الموروث الإستعماري الذي يعطل تحقيق مشروع **التنمية الذاتية** . فمحاولات التعريب في مجتمعات المغرب العربي ومحاولة المجتمع التنزاني إستعمال اللغة السواحلية بدلا من الانجليزية أمثلة محدودة من أمثلة كثيرة تشهدها مجتمعات الجنوب منذ إستقلالها.

والحقيقة أن السعي إلى تنمية اللغة الوطنية وحمايتها من اللغات الأقوى إنتشارا يتعدى اليوم خريطة العالم الثالث ليشمل بعض مجتمعات العالم المتقدم. ففرنسا نفسها لجأت أخيرا إلى سياسات وتشريعات لإيقاف مد اكتساح لغة شكسبير للمجتمع الفرنسي[259]. كما أن مقاطعة **كيباك** الفرنسية في كندا لاذت هي الأخرى إلى سن القوانين لحماية اللغة الفرنسية، من ناحية، وتنميتها في وجه غزو اللغة الانجليزية، من ناحية أخرى[260] . فهذا الإهتمام المتزايد، في الجنوب والشمال ، بمشاريع **توطين اللغة الوطنية** يتطلب في نظرنا دراسة لمحاولة فهم العوامل الحاسمة التي تتوقف عليها عملية نجاح أوتعثر أو فشل توطين اللغة الوطنية في المجتمعات المتقدمة والنامية على السواء. وللقيام بذلك اخترنا من العالم الثالث تجربة التعريب في المجتمعين الجزائري والتونسي، من جهة، واخترنا من العالم المتقدم تجربة تحسين فرنسة المجتمع الكيباكي في كندا، من جهة ثانية. فدراستنا هي، إذن ، دراسة مقارنة ترمي **إلى إلقاء الضوء على طبيعة العوامل ذات التأثير في حركية مسيرة**

---

258 أنظر الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب

259 إن قرار مدير معهد باستور في باريس نشر المقالات العلمية بالانجليزية في مجلته **ANNALES** هو آخر حادثة هامة في تسرب غزو لغة شكسبير للمجتمع الفرنسي ، انظر المقابلة مع مدير هذا المعهد في جريدة : Le Monde 14/04/1989 p 12 وانظر أيضا culturelle

L (Mai 1981) et un dictionnaire 'influence américaine en France . LeMonde: Dossiers et documents officiel contre l' Abus du franglais Le Monde, 28-12-1988

,pp.1 et8

260 « Le Français au Québec," Le Monde 27/01/1989p .2.

توطيـــن الـــلغة الوطـــنية فـــي هذه المجتمعات الثلاثة. ومن منظورعلم الإجتماع الحديـــث، فـــإن أنسب منهجية يمكن إستعمالها في مثل هذه الدراسة هي **المـــنهجية الكيفية**.

ثانيا : منهجية الدراسة

ليـــس فـــي أدبيات العلوم الإجتماعية المعاصرة ما يمكن ذكره في الدراسات التي قـــامت بـــبحث مـــا نحاول إلقاء الضوء عليه هنا والمتمثل في محاولة التعرف إلى العـــامل، أو مجموعـــة العوامـــل المؤثرة ، سلبا أو ايجابا ، في قرار توطين اللغة القوميـــة فـــي المجتمعات التي كانت مستعمرة أو شبه مستعمرة قبل الحرب العالمية الـــثانية[261]. فموضـــوع بحثـــنا يتسم، إذن ، **بالندرة**، وهي من الأسباب التي تجعلنا نـــتوخى المـــنهجية الكيفية بدل المنهجية الكمية لفهم ودراسة كيفية اتخاذ القرارأو عدمـــه إزاء الـــلغة الوطنية ودراستها[262]. ومن الأسباب الأخرى التي تعزز شرعية تبني المنهجية الكيفية في مثل هذا البحث يمكن ذكر التالي :

أ - إن القـــرارات بخصـــوص توطين اللغة لا تقتصر على محيط واحد أو مجتمع واحد ، بل هي تشمل مجتمعات متباعدة جغرافيا ومختلفة حضاريا. وتنصح العلوم الإجـــتماعية المعاصـــرة بإستعمال المنهجية الكيفية في مثل هذه الحالة[263]. **فمنظور المقارنة** مناسب جدا في دراسة أوجه التشابه والإختلاف بخصوص اتخاذ أو غياب قـــرار توطيـــن اللغة القومية في كل من المجتمع الجزائري والتونسي والكيباكي. فمنهج المقارنة هنا هو الذي لجأ إليه عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر في محاولة للكشـــف عما يشابه الروح البروتستينية في الحضارات الشرقية ، لتفسير إمكانيات وجود أو غياب النظام الرأسمالي فيها.

ب- إن دراســـة **الظاهـــرة المعقدة**[264] تتطلب ، أيضا ، المنهجية الكيفية ، كما يؤكد ذلـــك اختصاصـــيو المـــنهجية في العلوم الإجتماعية. وكما سنرى ، فإن مجموعة العوامل المؤثرة في طبيعة قرار توطين اللغة هي عوامل ذات طبيعة معقدة.

ج- وفي النهاية نحن نهدف بمنهجيتنا الكيفية إلى الكشف عن طبيعة العامل أو نمط مجموعـــة العوامـــل الـــتي تؤثر في قرار القيادة السياسية بخصوص توطين اللغة الوطنية في المجتمعات الثلاثة. وباصطلاح ماكس فيبر نحن نبحث في هذه الفصل عـــن **الـــنموذج المـــثالي**[265] لذلـــك العامل، أو لتلك العوامل التي تساعد ، أو لا تســـاعد، مجـــتمعا في اتخاذ أوعدم اتخاذ قرار توطين اللغة الوطنية. وهذا كل ما

---

261 Jacques Leclerc, Langue et société (Québec: Mondia Editeurs, 1986) PP 207-274

262 Boudon.R., Les méthodes en sociologie Paris : P.U.F.1980, pp 86-123

263 المصدر نفسه ، ص 89

264 المصدر نفسه ص 90

265 المصدر نفسه ص 100-103

يمكـــن أن تطمح إليه العلوم الاجتماعية في بحثها عن تفسيرات للظواهر التي تهتم بدراستها، بخاصة إذا كانت **الظواهر قيد البحث ذات طبيعة معقدة.**

ثالثا : دور القرار السياسي في عملية توطين اللغة العربية في تونس والجزائر

إن دارس مـــلفات مشـــاريع الـــتعريب فـــي كل من تونس والجزائر، لفترة ما بعد الإستقلال، يجد أن قرار القيادة السياسية في هذين المجتمعين هو **العامل الحاسم** الذي ســـاعد أوعـــرقل تقـــدم عملية التعريب الشاملة في المجتمع الجزائري أو المجتمع التونســـي. ونعـــني هنا بمصطلح القيادة السياسية الأحزاب التي حكمت وتحكم كلا هذيـــن المجـــتمعين . فحـــزب جبهة التحرير الوطنية وحزب الدستور هما الحزبان الـــلذان يمثلان القيادة السياسية في العهد الأول من الإستقلال في كل من الجزائر وتونـــس على التوالي. فقرار القيادة السياسية الجزائرية بخصوص التعريب الكامل لمختـــلف ملامـــح المجتمع الجزائري وقطاعاته هو قرار مكن ، من ناحية، الشعب الجزائري من قطع خطوات مهمة على درب تجسيم التعريب الشامل[266]. ومن ناحية ثانية فقرار القيادة السياسية التونسية بشأن التعريب يتصف بالتذبذب والتراجع أحيانا وعـــدم الشـــمولية لـــلقطاعات المختلفة بالمجتمع التونسي[267].**ومن ثـــمّ فهناك علاقة ارتـــباط بيـــن القيـــادة السياسية وقرار التعريب في هذين المجتمعين المغاربيين.** وبعـــبارة أخـــرى ، فالقيادة السياسية تمثل متغيرا مهما ومؤثرا في مسيرة مشروع الـــتعريب فـــي هذيـــن البلدين[268]. وفي الحقيقة ليس هذا بغريب. فالدولة المتمثلة في القيادة السياسية والحزب الحاكم تكاد تتدخل في رسم كل المعالم المجتمعية في العالم الـــثالث وتجســـيمها[269]. فمشـــاريع التنمية ، مثلا، تخط وتنفذ في غالب الأحيان من أعـــلى، أي وفقـــا لمشـــيئة الســـلطة السياسية الحاكمة. وهذا التصرف منتظر في مجتمعات لا تكاد تمارس في معظمها المبادئ والتنظيمات الديمقراطية.

وبسبب غياب المعارضة السياسية القانونية في أغلبية مجتمعات الجنوب **فإن مصير شعوبها طالما أصبح رهين قرار القيادات السياسية** خيرا أو شرا. فالنظام السياسي في الجزائر، بقيادة الرئيس هواري بومدين ، لم يكن نظاما ذا أرضية ديمقراطية. ومـــن ثم كان قرار التعريب في الجزائر، في عهد بومدين على الخصوص **قرارا سياسيا فوقيا**، أي صادرا من القمة إلى القاعدة .

أمـــا في المجتمع التونسي فإن القيادة السياسية تحت زعامة الرئيس التونسي السابق الحـــبيب بورقيبة لم تأخذ قرارا حاسما وشاملا لمصلحة التعريب . إن غياب اتخاذ مـــثل ذلـــك القـــرار يعد هو **الآخر قرارا سياسيا فوقيا**، أي أنه قرارلا يستند إلى

---

[266] انظر : "اللغة العربية في الجزائر بين الماضي المظلم والحاضر المشرق " الشرق الأوسط 17-03-1989.ص

[267] عبد العزيز العاشروي " اللغة العربية والهوية الثقافية وتجارب التعريب " المستقبل العربي السنة 4 العدد 27(أيار/ماي1981)

[268] Julian Lincoln Simon/ Basic Research Methods in Social Science (New York : Random House , 1969) p 31.

[269] Ilpyong J/ Kim ed, Development and Cultural Change (New York: Paragon House Publishers, 1986).

الـــتزكية الشـــعبية. وفـــي كـــلا الحالتين يمكن القول إن قرار **التعريب في هذين المجـــتمعين المغـــاربيين هـــو قرار ذو إرتباط عضوي بالنخب السياسية الحاكمة فيهما منذ الإستقلال.**

رابعا : دور القرار السياسي في فرنسة المجتمع الكيباكي

إن أهميـــة قـــرار القيادة السياسية للبت في قضية التعريب في المجتمع الجزائري، نجـــد مـــثيلا لها في عملية تحسين فرنسة المجتمع الكيباكي في كندا . إن **مقاطعة كيـــباك** هي إحدى الماقطعات العشر المكونة للمجتمع الكندي الكبير. وهي المقاطعة الوحيـــدة الـــتي **توجـــد فيها أغلبية سكانية ناطقة بالفرنسية** تصل نسبتها إلى 80 بالمائة وتتحدث بقية السكان بالإنجليزيةكلغة رسمية، وقد حافظت الأقلية الإنجليزية الكندية في كيباك على إمتيازاتها،بما فيها حقها في إستعمال اللغة الإنجليزية في كل الميـــادين،دون أن تكـــون مجبرة على إستعمال الفرنسية، لغة الأغلبية في المجتمع الكيباكي . ويرجع هذا الوجود بين المجموعتين إلى تغلب الجانب الإنجليزي على الجانب الفرنسي في المجابهات العسكرية لعام 1760. **وهكذا انتقلت كيباك مـــن مســـتعمرة فرنسية إلى مستعمرة بريطانية.** وبدأ انتشار اللغةالإنجليزية أكثر فأكـــثر فيها بخاصة في القطاع الإقتصادي'63. لكن المجتمع الكيباكي شهد تحولات كـــبرى ، مثله مثل كثير من مجتمعات العالم الثالث، بعد الحرب العالمية الثانية. إن أشـــهر فترة تحول في تاريخ كيباك الحديث هي فترة ما يطلق عليه **الثورة الهادئة** فـــي الستينات[271]. وهي تتمثل خاصة في إسترجاع أهل كيباك السيطرة على الموارد الطـــبيعية لمقاطعـــتهم . وتـــأتي الطاقـــة الكهربائية التي تنتجها السدود المائية في الطـــليعة . كمـــا أن كيـــباك عرفت أثناء فترة الثورة الهادئة وبعدها ثورة تعليمية وإصلاحات إجتماعية عديدة تهدف كلها إلى تجسيم عبارة "لنكن أسيادا في وطننا "" Maitres chez nous". وبمـــجيئ الحـــزب الكيباكي الإنفصاليLe Parti Québécois إلى الحكـــم فـــي المقاطعة بعد انتخابات ديمقراطية ، زاد التركيز على أهيمة مقدرات شعب كيباك وطاقاته، وأصبح الإنفصال السياسي عن كندا من أولويات هذا لحزب. وتماشـــيا وفلســـفة " لنكن أسيادا في وطننا " قامت القيادة السياسية للحزب الكيباكي بسن التشريع اللغوي La Loi101عام 1977لإكمال فرنسة المجتمع الكيباكي على كل المستويات، أي جعل اللغة الفرنسية اللغة الرسمية في المعاملات المؤسستية العامة والخاصـــة. فأنشـــئ مجلس اللغة الفرنسية لمراقبة مدى إلتزام المؤسسات والأفراد ببـــنوْد التشريع اللغوي101. فيقع تتبع المنتهكين لهذا الأخير ومعاقبتهم. إن أهم ما يميـــزهذا التشـــريع هـــو كونـــه **قرارا فوقيا**[272]، مثلما هو الحال بالنسبة إلى القرار

---

270 انظر "Le français au Québec » مصدر سابق

271 (14) انظر : مصدر سابق J.Leclerc, La Modernisation du Québec (1960-1980):vers le 'français, langue d état

272 وهذا لا يعني أن الحكم السياسي في كيباك لم يكن دمقراطيا كما كان الأمر في الجزائر وتونس . وإنما نعني هنا بالقرار اللغوي الفوقي هو أن القيادة الساسية الكيباكية أخذت ذلك القرار دون أي استشارة شعبية أو ما يشبه ذلك.

الجزائري لمصلحة التعريب أو غياب القرار التونسي أو تردده بخصوص التعريب الشامل للمجتمع التونسي .

خامسا: علاقة طبيعة التكوين الثقافي للقيادة السياسية باتخاذ / تعثر القرار

إن علاقــة الإرتــباط بيــن القيادات السياسية الثلاث،من جهة، وإتخاذ القرار أو تعثره بخصوص توطين اللغة الوطنية من جهة ثانية، تتطلب منا تفسيرا لسبب هذا الإرتــباط. ونحن نعتقد بأن **التكوين الثقافي للقيادة السياسية ذو دور حساس في فهــم حيــثيات علاقــة الإرتــباط هذه.** ونعني بالتكوين الثقافي هنا الزاد المعرفي والــلغوي ومجموعــة المعايير والتقاليد والقيم والتصورات الإيديولوجية[273] وبذلك فــنحن نســتعمل مفهــوم الثقافة بمعناه الأنثروبولوجي السوسيولوجي المعاصر[274]. ولــلقيام بذلــك نركز إهتمامنا **على تحليل التكوين الثقافي للقيادة السياسية على ثلاثــة مســتويات** :الــتكوين الثقافي لأفراد القيادة السياسية ككل، والتكوين الثقافي لرئيس الحكومة /الحزب، والإيديولوجيا السياسية للقيادة ككل.

وبالنســبة إلى المســتوى الأول يمكــن القول إن التكوين اللغوي والثقافي للقيادات السياسية الثلاث، في كل من الجزائر وتونس وكيباك، تغلب عليه **الثنائية**. فالرئيس والــوزراء والمســؤولون الكبار في قيادتي الجزائر وتونس يعرفون عموما اللغتين العــربية والفرنســية وثقافتهما. بينما يتكلم معظم أفراد ا القيادة السياسية الكيباكية اللغــتين الفرنســية والإنجــليزية. **فالثنائية اللغوية و الثقافية سمة رئيسية عامة لــلقيادات السياســية وللفــئات المتعــلمة لهذه المجتمعات الثلاثة** . ومن منطلق إيبستيمولوجي يمكن النظر إلى الإزدواجية الثقافية واللغوية على أنها عامل مهم في تحــليل ظاهــرة اتخاذ أو تعثر القرارات على الخصوص. وللتعمق أكثر في متغير variable الثــنائية الــثقافية نحــتاج إلى توضيح طبيعتها . فيمكن تصنيف الثنائية الثقافية للقيادات السياسية الثلاث **إلى نوعين** :

1-**الثنائية الثقافية الكاملة** : وهي تلك الثنائية التي تُمكّن أفراد القيادة السياسية من معرفة متساوية تماما بين اللغتين وثقافتهما .ففي حالة القيادتين الجزائرية والتونسية

---

[273] ، يحمل مفهوم "التكوين الثقافي " كما نستعمله هنا أكثر ما يعنيه مصطلح "الايديولوجيا" في العلوم الاجتماعية الحديثة. فأشهر التعاريف لهذا المصطلح هو : الايديولوجيا هي نسق متكامل للأفكار والعقائد يفسر موقف الانسان من المجتمع ويؤدي إلى سلوك متفق مع تلك العقائد". انظر : Madeleine Grawitz, Lexique des sciences sociales (Paris : Dalloz 1988) p 198.

ونحن نعرف أن مفهوم الايديولوجيا هذا قد نشأ مع الفيلسوف الفرنسي Destutt de Tracy ثم تطور ونضج مع كارل ماركس وكارل مانهايم. وفي جميع استعمالاتها فإن التكوين اللغوي للشخص أو للمجموعة لم يعتبر مندمجا أو مؤثرا في نسق الايديولوجيا . ومن ثم جاءت شرعية التجائنا إلى مفهوم "التكوين الثقافي " لشموليته على عناصر أكثر ذات تأثير محتمل على قرار توطين اللغة الوطنية في المجتمعات الثلاثة قيد الدرس .

[274] انظر مفهوم (culture)في : Encyclopedia of Sociology (Guilford, Conn.: Dushkin Publishing Group, Inc, 1974) p 67-70 وحول مفهوم "Culturalisme et culture" انظر : R.Boudon , Dictionnaire critique de la sociologie (Paris : P.U.F.,1982 pp.133-141

تتمثل الثنائية الثقافية الكاملة لهما في تمكن أعضاء القيادة تمكنا متساويا من اللغتين العربية والفرنسية وثقافتهما . أما بالنسبة إلى القيادة السياسية الكيباكية فإن الثنائية الـثقافية لأفرادها تتحقق إذا كانت معرفتهم باللغتين الفرنسية والإنجليزية وثقافتهما متساوية تماما. إن هذا الصنف من الثنائية الثقافية **ظاهرة نادرة** الوجود بين الأفراد والمجموعـات البشـرية. أي أن وجـود أفراد ومجموعات يتقنون لغتين وثقافتين بالدرجة نفسها يظل مطمحا **مثاليا** ليس في متناول إلا الأقلية من الناس[275].

2- **الثـنائية الـثقافية غير المتوازنة**:وهي تلك الثنائية التي يغلب فيهاجانب لغوي ثقافي على الجانب الثاني[276] وهي **الأكثر انتشارا** بين الأفراد والمجموعات البشرية . وكمثال على ذلك أن يكون التكوين اللغوي والثقافي العربيين لدى القيادتين التونسية والجزائـرية مـتفوقا عـلى نظيره في اللغة والثقافة الفرنسيتين، والعكس صحيح أيضـا. ويصـدق الأمـر نفســه بالنسبة إلى التكوين اللغوي الثقافي الفرنسي - الإنجـليزي للقيادة السياسية الكيباكية ونتيجة لهذين النوعين من الثنائية الثقافية فإنه يمكن الحديث عن قرارات القيادات السياسية إزاء توطين اللغة كما هو مبيّن أسفله.

(1) إذا كانت الثنائية اللغوية الثقافية للقيادة السياسية ثنائية كاملة يكون من **الوجهة الـنظرية** قرار القيادات السياسية بالنسبة إلى تعريب أو فرنسة مجتمعاتها محايدا أي مجمدا ، ونرمز لكل بعلامة (±).

(2) إذا كـان الـتكوين الثقافي لأعضاء القيادات السياسية تكوينا يتغلب فيه جانب اللغة والثقافية الوطنيتين على جانب اللغة والثقافة الأجنبيتين . فينتظر على **مستوى أول** أن يعمـل هـذا النوع من الثنائية غير المتوازنة على الدفع بالقيادة السياسية لاتخـاذ قـرار لمصلحة توطين اللغة الوطنية، أي اتخاذ قرارات سياسية لتعريب المجـتمعين الجزائري والتونسي، من ناحية، وفرنسة المجتمع الكيباكي، من ناحية أخرى. ونرمز إلى ذلك القرار بعلامة (+). وقد يؤثر، **على مستوى ثان** ، الجانب اللغوي الثقافي الأجنبي الأقل ثقلا في تركيبة الثنائية للقيادة الساسية، في عدم اتخاذ هـذه الأخيرة قرارا لمصلحة توطين اللغة الوطنية ، ونرمز إلى ذلك بالعلامة (-) .إن **عـامل الايديولوجيـا** هـو الذي يساعد هنا على تفسير مثل ذلك القرار الذي يناقض منطق الثنائية الثقافية للقيادة السياسية . كأن يعتبر أفراد القيادة السياسية أن إستعمال اللغة والثقافة الأجنبيتين هو رهان لتحديث المجتمع ومن ثم يمكن النظر إلى هـذا المؤثـر الإيديولوجـي على أنه **متغير متدخل** كما تصطلح عليه العلوم

---

275 وهذا متفق تماما مع :

« Il y aura un bilinguisme parfait si "Les deux langues ont le même pouvoir de communication sur l'ensemble des rôles sociaux... »
Etant donné que cette performance se révèle plus souvent un idéal qu'une réalité, le binlinguisme de l'individu se présente la plupart des temps sous les diverses formes d'un bilinguisme différencié, donc inégal selon les situation de communication » . Leclerc Langue et société .op. p 184.

276 المصدر نفسه

الإجتماعية الحديثة[277].بمعنى أنه **عامل ذو تأثير غير مباشر** في طبيعة القرار الذي تتوصل إليه القيادة السياسية بالنسبة إلى توطين اللغة الوطنية.

(3)إذا كـــان التكوين اللغوي الثقافي الأجنبي هو الغالب في الثنائية اللغوية الثقافية لـــلقيادة السياســـية، فمن الناحية النظرية الموضوعية ينتظر من هذا التكوين ألاّ يســـاعد القيـــادة السياســـية عـــلى إتخاذ قرار لمصلحة التعريب أو الفرنسية في المجـــتمعات الـــثلاثة قيد الدرس هنا ، ونرمز إلى ذلك بعلامة (−). وأن أي قرار يعاكس ذلك قد تقوم به القيادتان الجزائرية والتونسية لمصلحة التعريب، من جهة، والقيادة الكيباكية لمصلحة الفرنسية من جهة أخرى ، يمكن تفسيره بتأثير المتغير المـــتدخل ذي الطـــبيعة الإيديولوجيـــة كمـــا سبق أن ذكرنا. ونوجزما رأينا، في الجدوليـــن التالي طبيعة تأثير الثنائية الثقافية من ناحية والعوامل الإيديولوجية من ناحية ثانية في قرار توطين اللغة الوطنية في كل من المجتمع الجزائري والتونسي والكيباكي.

الجدول الخامس

الثنائيةاللغوية الثقافية للقيادة السياسية وقرار توطين اللغة الوطنية

الفرنسية	قرارالتعريب	طبيعة الثنائية
	+ −	١− ثـــنائية ثقافيـــة كاملة (متوازنة):معرفة اللغتين والثقافتين بالمستوى نفسه
		٢−ثـــنائية ثقافية غير متوازنة : ثنائية يتفوق فيها جانب لغوي ثقافي على الجانب الآخر:
	−	أ − تفـــوق الجـــانب الفرنسي على الجانب العربي (الجزائر وتونس)
−		ب− تفوق الجانب الانجليزي على الجانب الفرنسي (كيباك)
	+	ت− تفـــوق الجانب العربي على الجانب الفرنسي (الجزائر وتونس)
+		ث− تفوق الجانب الفرنسي على الجانب الانجليزي (كيباك)

277 Grawitz .Lexique des sciences sociales p 378

الجدول السادس

الفرنسية	قرار التعريب	إيديولوجيا القيادة السياسية
	+	١- رغم تفوق الجانب الفرنسي على الجانب العربي (الجزائر، تونس)فإن قرار القيادة السياسية لصالح التعريب.
+		٢- رغم تفوق الجانب الانجليزي على الجانب الفرنسي (كيباك) فإن قرار القيادة الكيباكية لصالح اللغة الفرنسية.

وعند تطبيق بيانات هذين الجدولين على القيادات السياسية الثلاث وطبيعة قرارها من توطين اللغة الوطنية بمجتمعاتها تتضح الأمور التالية بالنسبة إلى قرار القيادة السياسية الكيباكية لفرنسة المجتمع الكيباكي. فإنه يفسر بالثنائية الثقافية غير المتوازنة التي تتصف بها هذه القيادة . فكل المعطيات عن الثنائية الثقافية لهذه القيادة تدل على أن الجانب الفرنسي لغة وثقافة يتفوق على نظيره الانجليزي عند معظم أفراد القيادة على الأقل. فتأثير الثنائية الثقافية لمصلحة توطين اللغة الوطنية تأثير مباشر هنا. ومن ثم فلا غرابة أن تصدر أول حكومة للحزب الكيباكي الإنفصالي التشريع اللغوي (La l oi 101) لإكمال فرنسة المجتمع الكيباكي[278] (انظر الجدول الخامس).

أما بالنسبة إلى قرار القيادة السياسية الجزائرية بالتعريب الشامل للمجتمع الجزائري فإن الثنائية الثقافية غير المتوازنة للقيادة لا تسمح في حد ذاتها بتفسير ذلك القرار. إذ أن الجانب الفرنسي يتفوق فيها على الجانب العربي . ومن هنا فقرار التعريب هو نتيجة لما سميناه **العامل الإيديولوجي**[279] أو المتغير المتدخل ذا التأثير غير المباشر (انظر الجدول السادس). وبخصوص تعثر وتذبذب قرار القيادة السياسية التونسية لمصلحة التعريب الشامل ، فإن تفسيره أكثر تعقيدا من تفسير قراري القيادتين الجزائرتين والكيباكية . فمن جهة ، ينحدر معظم أفراد القيادة التونسية في العهد البورقيبي من المدرسة الصادقية المعروفة بثنائيتها اللغوية والثقافية. ومن المفترض أن لايؤدي ذلك إلى تفوق الجانب الفرنسي من ثنائيتهم اللغوية الثقافية على الجانب العربي بصورة أوضح. ومن ذلك فيمكن القول إن الثنائية الثقافية للقيادة التونسية أكثر توازنا من الثنائية الثقافية لكل من القيادتين الجزائرية والكيباكية.وعلى هذا الأساس ، فالجدولان يساعدان على فهم وضعية التعريب في المجتمع التونسي الحديث:

---

278 « Le Français au Québec » p2

279 انظر "اللغة العربية في الجزائر بين الماضي للظلم والحاضر المشرق الاوسط، مصدر سابق.

أ – فغيـاب حـركة التعريب ، بخاصة في بعض القطاعات ، تجد تفسيرا في تفوق الجـانب الفرنسي على الجانب العربي في الثنائية الثقافية للقيادة السياسية التونسية، بسـبب تكويـنها الـثقافي الجامعي بالمجتمع الفرنسي. وبعبارة أخرى، فإن الثنائية الـلغوية الـثقافية غير المتوازنة يمكن أخذها بعين الاعتبار كعامل مؤثر في قرار القيادة في عدم تبني سياسة التعريب الشامل[280]

ب – أمـا صـفة الـتوازن الـتي تتسم بها الثنائية الثقافية للقيادة التونسية أكثر من غيـرها، كما أشرنا، فهي تعين على فهم ما عرف به قرار التعريب لهذه القيادة من **تذبـذب وتعـثر وتراجع** (±) . وهو ما يبينه الجدول الخامس، عندما يكون نمط الثـنائية الـلغوية الـثقافية للقيادة السياسية نمطا متوازنا (أو شبه متوازن) . وليس بالغـريب أن يؤدي متغير الثنائية الثقافية المتزنة إلى موقف التذبذب وعدم الوضوح لـدى القيادة السياسية التونسية الحديثة . وفي نظرنا أن مظاهر الثنائية في المجتمع التونسـي تـتعدى الثـنائية الـثقافية لـلقيادة السياسية لتشمل العديد من ملامح هذا المجـتمع. فالثـنائية في هذا الأخير أكثر بروزا وانتشارا مما هي عليه في كل من المجـتمع الجزائـري والكيباكي .فالقيادة الثنائية الثقافية (كالمجتمع الثنائي التركيبة، وكالفـرد الثنائي الإنتماء)، هي **أكثرترددا** في اتخاذ القرارات الواضحة والحاسمة . إن المجـتمع التونسـي الحديـث يمـثل عيـنة حية على ذلك . فالثنائية هي أحد المعطيـات الأساسـية للمجـتمع التونسـي اليوم. فموقع تونس الجغرافي هو على سـواحل افـريقيا الشـمالية المطلة على أوروبا. أما على المستوى الثقافي، فتونس الحديـثة تنتسب إلى الثقافة العربية الإسلامية، من ناحية، وإلى الثقافة الفرنسية على الخصـوص، مـن ناحيـة أخـرى. إن مزج كل الفئات التونسية بكثير أو قليل من الكـلمات والعـبارات الفرنسـية لعربيتها (الفرنكوآراب) هو مثال آخر على ظاهرة الثنائية [281]. أما وجود ملامح الحداثة جنبا إلى جنب مع مظاهر التراث والتقاليد في المجتمع التونسي المعاصر، فالأمر لا يحتاج إلى إيضاح.

فالثنائية الثقافية تكاد تمس كل المستويات الحساسة للمجتمع التونسي. والتركيبة النخـبوية التونسية ليست إستثناء لذلك . فتأسيس المدرسة الصادقة في العهد التركي كـان يهدف إلى تخريج نخبة مزدوجة الثقافة واللغة . وبمجيء الإستعمار الفرنسي إلى تونـس نشـأ **ثالوث نخبوي** : متخرجو الصادقية ، والمدارس الفرنسية والتعليم الزيـتوني[282]. لكـن ظاهرة الثنائية النخبوية لم تتلاش، على العموم، **للـتقارب الذي عـرفه الصادقيون والمدرسيون** فيما بينهم. ومن ثم جاءت **عزلة النخبة الزيتونية**، واسـتمرت الثـنائية النخـبوية في شكل جديد أكثر تعقيدا. **وأدت هذه الثنائية إلى**

---

280 انظر الهامش (15)

281 انظر الفصل الثالث للباب الثالث من هذا الكتاب

282 "المدرسيون" تغلب الفرنسة على تكوينهم اللغوي الثقافي ، بينما يتصف الصادقيون بالثنائية اللغوية والثقافة المتوازنة أو شبه المتوازنة كما رأينا أما الزيتونيون فأغلبيتهم ، خاصةقبل استقلال تونس ، كانت عربية اللغة والثقافة.

توتـــرات ومجابهـــات وصراعات بين الفريقين. كنتيجة لذلك فإن علاقتهما تتصف بالجفوة وتبادل التهم وتحامل بعضهما على البعض الآخر.

ومـــن ثـــم تـــأتي شـــرعية النظر إلى مدى تأثير متغير الثنائية اللغوية والثقافية في سياســـات أصـــحاب القـــرار بخصـــوص بعض القضايا المصيرية لتونس ما بعد الإســـتقلال. إن سياسات تعريب التعليم في المجتمع التونسي منذ الإستقلال سياسات مـــتذبذبة، فـــي أحسن الأحوال، كما رأينا. أما بالنسبة إلى تعريب الإدارة التونسية **فالوضـــع لـــم يحسم إلا أخيرابقرار رئاسي لصالح التعريب في اكتوبر 1999** . إن غيـــاب اتخـــاذ القرار الحاسم من طرف القيادة السياسية في قضية مصيرية كقضية التعريب، يدعو الباحث الاجتماعي إلى القول بإمكانية **وجود علاقة مباشرة أو غير مباشرة بين الثنائية اللغوية الثقافية في المجتمع التونسي الحديث**، على مستويات تكويـــن القيـــادة السياسية والنخب المثقفة والمؤسسات التعليمية من ناحية ، **وتعثر القـــرار السياســـي لمصلحة التعريب** ، من ناحية أخرى. فليس من الصعب التكهن بحصـــول تنفيذ اتخاذ قرار لمصلحة التعريب منذ زمن بعيد في المجتمع التونسي لو أن أصـــحاب القـــرار فـــي هذا الأخير كانوا أولا وقبل كل شيء ذوي تكوين ثقافي عربي اسلامي متين[283]. إن التهميش الحديث للهوية العربية الاسلامية ما كان ليحدث للشعب التونسي لولا تباهي القيادة السياسية، بزعامة بورقيبة ، بأهمية الثقافة واللغة الفرنســـيتين فـــي الثنائية التونسية. **وبعبارة علم الاجتماع** ، فإن الثنائية كزاد ثقافي لغـــوي وكعقـــلية ذهنية وكتركيبة اجتماعية، طالما أدت إلى سلوك متردد ومتذبذب ليس عند أصحاب القرار فحسب، بل عند بقية أفراد المجتمع وفئاته .

أمـــا بالنســـبة إلى القيادتين السياسيتين الجزائرية والكيباكية فإن إزدواجيتها الثقافية الـــلغوية تختـــلف، كما أشرنا ، عن الثنائية الثقافية للقيادة السياسية التونسية في عهد بورقيـــبة. فثنائيـــتا القيادتين الكيباكية والجزائرية يغلب فيهما الجانب الفرنسي على الجـــانب الإنجليزي، من ناحية، والجانب الفرنسي على الجانب العربي، من ناحية أخـــرى. قـــرار القيـــادة الكيباكية لمصلحة فرنسة المجتمع الكيباكي يفسره الجدول الخامس بما هو وارد في (ب)، بينما يفسر قرار القيادة الجزائرية لمصلحة التعريب فـــي المجـــتمع الجزائري بعامل إيديولجيا القيادة كما هو مبيّن في الجدول السادس. فالمـــثال الجزائري للتعريب يؤكد **أن تفوق الجانب الفرنسي على الجانب العربي،** فـــي الـــتكوين اللغوي الثقافي للقيادة الجزائرية، **ليس شرطا كافيا لاستمرار فرنسة المجتمع الجزائري نظرا لما لدور عامل الإيديولوجيا من تأثير في قلب الموازين.**

فمن هذا المنطلق يمكن القول إن أكثر ما يميز القيادات السياسية الثلاث هو اتصاف القيـــادتين الجزائـــرية والكيـــباكية بثنائية لغوية ثقافية غير متزنة، من جهة، واتسام القيادة التونسية بتكوين لغوي ثقافي متزن، من جهة ثانية. ولعل الذي زاد عمل هذا الـــنمط من الثنائية حدة في القطر التونسي هو الانتشار الأكبر لظاهرة الثنائية على

---

[283] يتفق هذا الفرض مع ما جاء في الجدول الخامس في (ب).

مستويات النخب الثقافية والمؤسسات التربوية (مثل المدرسة الصادقية)، الأمر الذي أدى، كما أشرنا، إلى **صراعات وتوترات بين شقي الثنائية**. وهو واقع لم يعرف منه كل من المجتمع الكيباكي والجزائري إلا الشيء القليل . فليس في المجتمع الكيباكي، مثلا، صراع بين المثقفين الجامعيين بخصوص لغة التدريس في الجامعة: أهي الفرنسية أم الإنجليزية ؟ فالجميع يدرسون بالفرنسية. أما قضية تعريب التدريس في الجامعة التونسية فهي ما زالت محل جدال وميدانا للفوضىوالتراجع . **إذ ليس هناك قانون جامعي يقنن لغة التدريس**. فالبعض يدرس بالعربية والبعض الآخر يدرس بالفرنسية المادة نفسها. فبعض الآثار السلبية لذلك تتمثل في تردي المستوى المعرفي للطلبة وعلاقات الأساتذة بعضهم بالبعض الآخ[284]

سادسا: علاقة توطين اللغة بالتكوين الثقافي لرئيس القيادة السياسية

يتشابه المجتمعان الجزائري والتونسي إلى حد كبير. فهما، من جهة مجتمعان عربيان إسلاميان ينتميان إلى الحضارة العربية الإسلامية. وهما، من جهة أخرى، سقطا تحت سيطرة الإستعمار الفرنسي وتأثرا به كثيرا، بخاصة على المستوىاللغوي الثقافي. كما أنهما متشابهان أيضا، كما رأينا، في كون كل منهماله قيادة سياسية ثنائيةاللغة والثقافة منذ الإستقلال. فالقيادة التونسية تتمتع بثنائية لغوية ثقافية متزنة أو شبه متزنة، بينما يغلب الجانب الفرنسي على الجانب العربي في الثنائية اللغوية الثقافية للقيادة الجزائرية. ورغم ذلك فقرار القيادة الجزائرية كان لمصلحة التعريب ، بسبب تأثيرعامل الإيديولوجيا. أما قرار التعريب في تونس فقد كان متذبذبا. وأرجعنا ذلك إلى عامل الثنائية المتزنة أو شبه المتزنة. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن بخصوص التعريب في كل من المجتمعين التونسي والجزائري هو: هل هناك عوامل أخرى ساعدت على جعل القرار السياسي بشأن التعريب يختلف من قيادة سياسية إلى أخرى في هذين القطرين، والحال أن معطيات التشابه كثيرة بين هذين المجتمعين المغاربيين وبين قيادتيهما الثنائية الثقافية واللغة؟

إن الذي يميز بين تركيبة القيادتين الجزائرية والتونسية لفترة ما بعد الاستقلال هو **التكوين اللغوي الثقافي لكل من رئيسي القيادتين**. فالتكوين اللغوي الثقافي للرئيس السابق الحبيب بورقيبة تكوين يغلب عليه ثقل اللغة والثقافة الفرنسيتين بينما كان تكوين الرئيس الهواري بومدين تكوينا تسطو عليه ملامح الثقافة العربية الاسلامية ، بسبب دراسته في كل من جامع الزيتونة وجامع الأزهر .

فالتكوين اللغوي الثقافي للقائد يمكن، إذن، اعتباره **عاملا ذا تأثير ما في تشكيل شخصية القائد وتصوره**، من ناحية، **وهيكلة مجتمعه** الذي يقود مسيرته، من ناحية أخرى. فمما لا ريب فيه **أن لتكوين بورقيبة اللغوي والثقافي الفرنسي دورا**

---

[284] إن ملاحظاتي في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية لجامعة تونس تفيد أن عامل لغة التدريس والامتحانات ما زال مصدرا للتوتر في هذه الكلية .

حاسما في ميله وتعاطفه الشديد مع الحضارة الغربية. وأدى هذا الإنجذاب الكبير إلى الغـــرب إلى برودة تحمسه، في المقابل، إلىكل ما هو عربي[285]. **ولا غرابة في أن يقـــع فـــي عهـــده التذبذب والتراجع، مرارا وتكرارا، في عملية التعريب في المجـــتمع التونسي**. كما أنه لا غرو أيضا أن **يكون الرئيس بومدين شديد الحماس لقضـــيةالتعريب**. إذ إن خلفيته اللغوية الثقافية تفسر بسهولة موقفه المنادي بالتعريب الشامل للمجتمع الجزائري .

إن مســـاهمة درو موقـــف الـــرئيس فـــي مسيرة التعريب في المجتمعين التونسي والجزائـــري لا يسهل انكارها . إذ إن نظام الحكم في كل من البلدين نظام رئاسي. أي **أن القـــرارات السياســـية الحاســـمة تـــتوقف فـــي الـــنهاية عـــلى تزكية أو معارضـــةالرئيس لها**. ويزداد بالتأكيد تأثير الرئيس في تلك القرارات في ظل نظام سياســـي غيـــر ديمقـــراطي كمـــا كان الحال في عهد بورقيبة وبومدين في كل من القطـــرين التونســـي والجزائـــري. أمابالنســـبة لدور التكوين اللغوي الثقافي لرئيس الـــوزراء ريـــني ليفاكRené Lesveques ووزارء مقاطعة كيباك (1976-1985) في أخذ القـــرار لمصـــلحة فرنســـة المجتمع الكيباكي ، فالمعطيات تفيد بأن التكوين اللغوي الـــثقافي لليفاك يشبه إلى حد كبير تكوين الرئيس الجزائري هواري بومدين. أي أن الـــتكوين الـــلغوي الـــثقافي لرئيس وزراء كيباك الراحل كان متجذرا أولا وقبل كل شـــيء فـــي اللغة والثقافة الفرنسيتين . ومع ذلك فتكوين ليفاك في اللغة الإنجليزية وثقافـــتها تكوين دسم. فطلاقته في الحديث بلغة شكسبير طلاقة مشهود له بها . كما أن له معرفة حسنة بالثقافة الإنجليزية.

مـــن هـــذه الخـــلفية يمكن الاستنتاج بأن ريني ليفاك كان **أكثر ميلا إلى الدفع بقرار تحســـين فرنسة المجتمع الكيباكي**. ومن ثم، لم تكن هناك صراعات وترددات بينه وبين بقية أعضاء القيادات السياسية بخصوص اتخاذ قرار فرنسة المجتمع الكيباكي الـــذي قـــاده بحمـــاس شـــديد وزير الثقافة آنذاك كميل لوران Camille Laurinوبعبارة أخـــرى، يمكن القول إن التكوين اللغوي الثقافي لرينه ليفاك في حد ذاته لا يمكن أن يكون إلا عاملا حاسما في اتخاذ القرار اللغوي التشريعي. إذ إن التكوين اللغوي الـــثقافي الأكثر تشبعا بالثقافة الفرنسية لأفراد القيادة السياسية الكيباكية كان متناسقا، إلى حـــد كـــبير ، مـــع الـــتكوين اللغوي الثقافي للقائد رينه ليفاك. ويختلف هذا مع الـــتكوين اللغوي الثقافي للرئيس هواري بومدين والعديد من أعضاء القيادة السياسية الجزائـــرية الذين كانت تغلب عليهم اللغة والثقافة الفرنسيتان. أي أن رئيس الوزراء الكيـــباكي لـــم يكـــن في حاجة إلى فرض قرار فرنسة المجتمع الكيباكي على بقية

---

[285] في مسامرة أدبية بتاريخ 5-04-1989 في نادي الكتاب التونسيين في العاصمة التونسية ، يقص الكاتب محمود المسعدي على الحاضرين كيف أن الأساتذة الفرنسيين ، في المدرسة الصادقية كانوا **يحقرون الثقافة العربيةالاسلامية** كما تدرس في جامع الزيتونة. ويعترف أن ذلك ساهم في غرس **عقدة مركب النقص** عند الكثيرين من خريجي الصادقية وحتى عند هؤلاء الذي ذهبوا إلى فترنسا وتخصصوا في دراسة الآداب العربية في الجامعات الفرنسية .

أعضـــاء القيـــادة السياسية ، كما كان يحتمل أن يقع ذلك من طرف الرئيس بومدين بخصـــوص قرار التعريب الشامل للمجتمع الجزائري . وعلى مستوى آخر، فالنظام السياســـي الديمقـــراطي لمقاطعة كيباك ما كان ليسهل عملية فرض قرار القائد على بقية أعضاء القيادة السياسية، كما هو الشأن في الأنظمة غير الديمقراطية مثل تونس والجزائر في عهد بورقيبة وبومدين.

سابعا: توطين اللغة وإيديولوجيا القيادة السياسية

إن العـــامل الـــثالث الذي نرى وجوب ترشيحه في عملية التأثير في القرارالسياسي لـــلقيادة السياســـية علىمســـيرة توطيـــن اللغة الوطنية في المجتمع، فهو يتمثل في **إيديولوجيا القيادةالسياسية** الحاكمة . وتعني الايديولوجيا هنا مجموعة العقائد والقيم والـــتوجهات الـــتي تتبـــناها تلك القيادة[286] . فالقيادة السياسية التونسية تحت زعامة الرئيس الراحل بورقيبة كانت شديدة التحمس لإيديولوجيا التحديث بمفهومها الغربي[287] فمشـــروع الحداثة بملامحها الغربية يمثل المطمح الرئيسي الذي تهدف تلك القيادة إلى تحقيقـــه. ومـــن ثـــم **جـــاء التمسك القوي للقيادة التونسية البورقيبية باللغة الفرنسية** كأداة لا بد منها، في نظرها، للنجاح في عملية التحديث. وهو توجه مماثل لمـــا اتـــبعه محمـــد عـــلي في مصر، والوزير خير الدين باشا في تونس ، من قبل فأرســـلت البعـــثات المصرية والتونسية إلى فرنسا، على الخصوص ، لتعلم اللغة الفرنســـية والتقـــنية الحديـــثة. كان تأسيس المدرسة الصادقية الثنائية اللغة والثقافة (عـــربية/فرنسية) في تونس شاهدا آخر على أن القيادة السياسية التونسية قبل العهد البورقيـــبي كـــانت هـــي الأخرى ترى أن الحداثة غير ممكنة من دون معرفة اللغة الفرنســـية وثقافتها . **وهكذا أصبح امتلاك اللغة الفرنسية وثقافتها رمزا أساسيا في اكتساب صفة الحداثة في المجتمع التونسي قبل الاستقلال وبعده**[288]. ويمكن اعتبار هذه الرؤية للحداثة سببا رئيسيا لتعثر القرار السياسي التونسي إزاء التعريب الشامل إلى يومنا هذا .

وعـــند تعليل العلاقة بين اللغة الفرنسية (أو أي لغة أخرى) وإنجاز مشروع الحداثة فـــي المجـــتمعات الـــنامية، نجد أن **علاقة الإرتباط بين الإثنين ليست ضرورية أو حتمية.** أي أن تعلم مجتمع معيّن من العالم الثالث للغة وثقافة مجتمع متقدم لا يقود، بالضرورة، المجتمع المتخلف إلى إكتساب رهان الحداثة كسلوك ونمط حياة فردي

---

[286] انظر : Grawitz, lexique des sciences sociales مصدر سابق

نريد أن نُفصّل في هذا الجزء طبيعة ايديولوجيا كل من القيادات الساسية الثلاثة وإمكانية التأثير في تعثر أو أخذ قرار بخصوص توطين اللغة الوطنية.

[287] Charles Micaud, Tunisia : The Politics of Modernization(London: Pall Mall Press, 1964).

[288] Gilbert Granguillaume, Arabisation et politique linguistique au Maghreb (Paris: Maisonneuve et Larose 1983) pp. 45-67 et141.

ومجتمعي. إن تاريخ ظاهرة الحداثة في المجتمعات المعاصرة يدل على أن **الحداثة حصـــيلة عوامـــل متعددة** تأتي في طليعتها التحولات التقنية والعلمية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية. فالحداثة بهذا الاعتبار هي نسق لا يتحقق على أرض الواقع إلا إذا اجــتمعت تلك العناصر بعضها مع البعض الآخر، وفي انسجام كامل. وليس مـــن المـــبالغة ، إذن القول **إن ربط الحداثة بلغة معينة وثقافة معينة هو تصور مشـــوه لطبيعتها.** فالمجتمع الياباني هو مجتمع حديث، ما في ذلك شك. ولم يصبح هـــذا المجتمع كذلك بسبب انتشار الفرنسية أوالإنجليزية وثقافتهما فيه. إن الذي بوأ الشعب الياباني الحداثةهو التحولات الجسيمة التي حققها على المستويات الاقتصادية والاجــتماعية والــثقافية والعلمية والتقانية. فمجرد استعمال مجتمع نام للغة وثقافة عصـــريتين لا يمكن أن يجتث جذور تخلف ذلك المجتمع وينقله نقلة حقيقية، ذهنيا، ومجـــتمعيا ، إلى مصـــاف المجـــتمعات الحديثة . إن مثل تلك الرؤية تمثل تفكيرا سطحيا يجهل عمق طبيعة تركيبة ظاهرة الحداثة نفسها.

أمـــا ايديولوجيا القيادة السياسية الجزائرية، تحت زعامة الرئيس الراحل هواري بومديـــن ، فقـــد كـــانت تركز على أهمية **الهوية العربية الاسلامية** في الشخصية الجزائـــرية مـــن ناحيـــة ، وتنمية المجتمع الجزائري تنمية مستقلة عن المستعمر الفرنسي القديم، من ناحية أخرى[289]. **فقرار التعريب الشامل** للمجتمع الجزائري يلبي الجـــزء العربي من هوية الشخصية الجزائرية. فعملية التعريب تهدف، أساسا، إلى إيقاف مظاهر الإستلاب الثقافي التي تعرضت لها الشخصية الجزائرية أثناء الفترة الإســـتعمارية الفرنســـية الممـــتدة بين عام1870-1962. وبالنسبة إلى تعزيز الجانب الإســـلامي من هوية الشخصية الجزائرية فقد أعلنت القيادة السياسية الجزائرية أن الإســـلام ليـــس دين الشعب الجزائري فقط، بل هو دين الدولة أيضا. كما **أن الدين الاســـلامي لا يتـــناقض مع النموذج الإشتراكي للتنمية** الذي تبنته القيادةالسياسية الجزائـــرية.فالميـــثاق (الدســـتور) الجزائري يطنب في نقاط التلاقي والإتفاق بين النسق الإسلامي والنسق الإشتراكي على عدة مستويات[290].

ولـــلوقوف عـــلى أســـباب تـــلك الإختلافات بين أيديولوجتي القيادتين ينبغي إلقاء الضوءعلىخلفيات هذين المجتمعين المغاربيين وقيادتهما قبل الإستقلال وبعده.

1/ لقـــد مكـــث الإستعمار الفرنسي على التراب الجزائري **مدة أطول** من بقائه على الأرض التونســـية . فطالت سيطرة فرنسا على الجزائر أكثر من قرن وربع قرن، بينما متد إحتلال فرنسا لتونس خمسة وسبعين عاما.

2/ يوصـــف الإستعمار الفرنسي للجزائر بأنه كان ذا **طبيعة إستيطانية**، أي أنه كان يهـــدف إلى ضـــم الجزائر إلى فرنسا. ومن هنا أطلقت السلطات الفرنسية عبارة Département Français على الجزائر، للتدليل على أن هذه الأخيرة هي مقاطعة فرنسية.

---

[289] المصدر نفسه ص 90-134

[290] Mostefa Lacheraf / L'Algérie: Nation et société (Alger: SNED, 1978).

ولذا عملت سلطات الإحتلال على دمج البلاد الجزائرية، إقتصاديا وعسكريا وإداريا وسياسيا وثقافيا، بالمجتمع الفرنسي الأم. ومن ثم كانت سياسة فرنسة الجزائر تهدف إلى **طمس معالم الشخصية الجزائرية** ومسخ مقوماتها الأساسية المتمثلة في ملامحها العربية الإسلامية. وهكذا كان الاستعمار الفرنسي للجزائر أكثر شراسة على كل المستويات من ذلك الذي عرفته تونس. **فالإستعمار اللغوي والثقافي للشعب الجزائري كان أكثر شناعة** من غيره في مجتمعات المغرب العربي. كان المستعمر الفرنسي يطمح إلى إحداث القطيعة الكاملة بين المواطن الجزائري ولغته وثقافته العربيتين. وهو مالم يحاول الإستعمار الإنجليزي تحقيقه في مستعمراته العديدة[291]. فاهتمام فرنسا بالجانب اللغوي الثقافي للإستعمار يدل على أنها كانت تدرك **أن غزو العقول لا يضاهيه الغزو العسكري ولا الغزو الاقتصادي للشعوب، إذ إن تحقيقه هو وحده الذي يُؤمّن تبعية الشعب الجزائري لفرنسا على الأمد البعيد.**

وما يميز تجربة الإحتلال الفرنسي للجزائر عن نظيرتها في تونس **طبيعة معركة التحرير** مع المستعمر الفرنسي في هذين القطرين المغاربيين. فمعركة التحرير التونسية كانت أقصر أمدا من معركة التحرير الجزائرية . كما أن هذه الأخيرة قد سالت فيها دماء جزائرية أغزر. ومن ثم أطلق عليها اسم **ثورة المليون شهيد.** وبعبارة أخرى، فإن المجابهة بين الطرفين الفرنسي والجزائري كانت مجابهة تتسم بالعنف، من جهة ، وندرة الحوار بينهما من جهة أخرى. وهو إلى حد كبير عكس ما وقع بين المستعمر الفرنسي وحركة التحرير في تونس.

إن هذه الملامح الثلاثة لتجربة الجزائر وتونس مع الإحتلال الفرنسي تشير إلى أن الجزائريين عانوا من الإستعمار الفرنسي أكثر من التونسيين، على كل المستويات. فهذه الظروف الموضوعية تساعد على فهم طبيعة سياسة القيادة الجزائرية لفترة ما بعد الاستقلال. وهي سياسة تتصف باختصار، بالرغبة في فك نير التبعية، بخاصة مع المستعمر الفرنسي . وهو توجه أساسي يفسره قانون " لكل فعل رد فعل مساو له في القوة ومعاكس له في الاتجاه". ومن هذا المنطلق يمكن ربط إستمرارية نفس مشروع التعريب في الجزائر من ناحية ، وتذبذبه /تراجعه في تونس، من ناحية أخرى، بعامل الظروف الموضوعية للتجربة الإستعمارية الفرنسية التي عاشها كل من المجتمعين الجزائري والتونسي .

وهكذا يبدو أن القرار السياسي الجزائري لمصلحة التعريب تضافرت على تجسيمه عدة عوامل متفاعلة بعضها مع البعض الآخر. هذه العوامل ، كما ذكرنا، هي : **التكوين الثقافي العربي الإسلامي للرئيس هوري بومدين وعمق آثار تجربة الإحتلال الفرنسي الشرس للمجتمع الجزائري وإيديولوجيا التنمية الذاتية والمستقلة التي تبنتها القيادة السياسية الجزائرية** . وكانت النتيجة شبه الحتمية

291 Jean-Louis Cavet, Linguistique et colonialisme : Petit traité de glottophagie (Paris Payot 1974) pp 84-85

لذلك هو توجه القيادة الجزائرية إلى إحداث قطيعة مع تركة الماضي وتخطيط مستقبل المجتمع الجزائري بعيدا عن التبعية للآخر. فقرار التعريب في الجزائر يندرج إذن في خطة **التحرر من التبعية الثقافية الفرنسية** . ولقد اعتبر البعض أن اتخاذ مثل ذلك القرار **ملمح من ملامح الثورة الجزائرية**[292]. إذ إن المجتمع الجزائري كان على قاب قوسين أو أدنى من الذوبان في بوتقة اللغة والثقافة الفرنسيتين ، وكذلك باعتبار **أن التحرر من الاستعمار الثقافي هو أصعب أنواع التحررات جميعا.** فتجارب معظم المجتمعات الإفريقية المستقلة حديثا تدل على أن إعطاء اللغة الوطنية مكانتها في هذه الأقطار لم يكتب له النجاح بسهولة . فليس من المبالغة إذن اعتبار مسيرة المجتمع الجزائري على درب التعريب **مسيرة ثورية.**

إن علاقة التفاعل بين العوامل المشار إليها هنا تفسر إلى حد كبير أسباب تعثر القرار السياسي لمصلحة التعريب في المجتمع التونسي الحديث. **فالتكوين اللغوي الثقافي للرئيس الراحل بورقيبة** تكوين ، كما أشرنا، يغلب عليه الإنجذاب إلى اللغة والثقافة الفرنسيتين . ومن هنا جاء **موقفه الفاتر أو المعارض لمشروع التعريب .**

أما بالنسبة إلى الإحتلال الفرنسي والمجابهة معه فقد كان أقل شراسة وعنفا في القطر التونسي . فتجربة الاحتلال الفرنسي لتونس لم تكن تسمح كما كان الوضع في الجزائر بتطبيق قانون" لكل فعل رد فعل مساو له في القوة ومعاكس له في الاتجاه"، وذلك لليونة طبيعة الاحتلال الفرنسي للقطرالتونسي. وبالنسبة إلى إيديولوجيا التنمية والتحرر من التبعية، فإن نظام الحكم السياسي في تونس في العهد البورقيبي عمل دائما على المحافظة على علاقات خاصة بفرنسا، وكان يتحاشى إحداث القطيعة مع المستعمر القديم[293] **.فهذا الارتباط الوثيق بفرنسا وبلغتها وثقافتها جعلت القيادة السياسية البورقيبية غير قدارة على اتخاذ قرار حاسم لمصلحة التعريب.**إذ إن مثل ذلك القرار يمثل قطيعة أوثورة على علاقات تبعية المجتمع التونسي للمجتمع الفرنسي الأم التي دامت ثلاثة أرباع القرن. كما أن قرارا سياسيا تونسيا لمصلحة التعريب يتناقض وتصورإيديولوجيا مشروع الحداثةعند القيادة السياسية التونسية بزعامة بورقيبة.**فالحداثة**، كما رأينا، **كانت تعني عند تلك القيادة الإبقاء على اللغة والثقافة الفرنسيتين والإرتباط الوثيق بالحضارة الغربية على العموم.**

فنحن، هنا إذن، **أمام رؤيتين إيديولوجيتين كبريين مختلفتين**، ففلسفة القيادة الجزائرية تعطي الأولوية إلى التنمية الذاتية المستقلة بينما تولي القيادة التونسية

---

292 عبد اللطيف عيادة ، سوسيولوجيا الثورة وفلسفتها في الفكر الجزائري المعاصر ، المستقبل العربي ، السنة 11، العدد117 (تشرين الثاني/نوفمبر1988) ص3-25 .

293 ، انظر : « Dépendance et aliénation cuturelle" dans : W/K. Ruf (et al.) indépendances et interdépendances au Maghreb (Paris : Centre national de la recherche scientifique.1974) pp 233-379

نمط التحديث الغربي أهمية قصوى. إن كلا من هذين الإطارين الإيديولوجيين هو، أساسا، حصيلة لعوامل الثنائية اللغوية الثقافية للقيادة والتكوين الثقافي لرئيسها وطبيعة التجربةالإستعمارية الفرنسية التي عاشها كل من المجتمع الجزائري والمجتمع التونسي. ولكن هذه الرؤية الايديولوجية نفسها تؤثر هي الأخرى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في تلك العوامل المؤثرة فيها . وبعبارة أخرى ، **هناك تأثير وتأثر**، على العموم ، **بين المنظور الايديولوجي والعناصر المكونة له بخصوص تعثر أو اتخاذ قرارلصالح التعريب.**

فمتغير الثنائية اللغوية الثقافية للقيادة السياسية يتوقع منه ، كما أشرنا ، أن يؤثر في طبيعة قرار توطين اللغة الوطنية. فالثنائية الثقافية للقيادة التونسية ذات التعاطف الكبير مع اللغة والثقافة الفرنسيتين لا بد من أنها ساهمت ، إلى حد ما ، **في ظاهرة التردد والتراجع** التي عرف بها **قرار التعريب عند القيادة التونسية البورقيبية** . وإن الإحجام عن أخذ القرار السياسي لمصلحة التعريب يتماشى والرؤية الإيديولوجية لهذه القيادة السياسية والمتمثلة في إنجاز مشروع التحديث على النمط الغربي . فعملية التأثير بين الثنائية اللغوية الثقافية من ناحية ، والرؤية الايديولوجية للقيادة من ناحية أخرى، هي عملية تبادليةفي اتجه واحد في الحالة التونسية.

أما القيادة السياسية الجزائرية فرغم ثنائيتهااللغوية الثقافية الأكثر فرنسة لغة وثقافة من الناحية الموضوعية فقد أخذت القرار لمصلحة التعريب . وهو أمر مفاجئ من حيث منطق الأمور. ويبرز هنا **أن قرار التعريب في المجتمع الجزائري الحديث كان متأثرا أساسا بالرؤية الإيديولوجية للقيادة السياسية** والمتمثلة في تحقيق مشروع التنمية الإشتراكية المستقلة ، بخاصة عن المستعمر القديم فرنسا. ومن ثم يمكن القول إن الثنائية الثقافية للقيادة لها تفاعل ثنائي مع ايديولولوجيا هذه القيادة : فمرة هناك تناسق بين طبيعة الثنائية الثقافية وإيديولوجيا القيادة[294]. وتارة أخرى يكون هناك تعارض بين الإثنين[295]. وهذا يعني أن متغيرالثنائية اللغوية الثقافية لا يؤثر بصورة حتمية ذات اتجاه واحد، بخصوص طبيعة قرار التعريب والرؤية الإيديولوجية للقيادة السياسية ، كما رأينا ذلك عند القيادتين الجزائرية والتونسية .

ثامنا : إيديولوجيا القيادة السياسية الكيباكيةوتوطين اللغة الفرنسية

نظرا إلى الأهيمة الحاسمة لإيديولوجيا القيادة السياسية في قرار توطين اللغة الوطينة ، فإن فهم اتخاذ قرار فرنسة المجتمع الكيباكي من طرف القيادة السياسية لهذا البلد يندرج في هذا الإطار . إن الرؤية الايديولوجية للحزب الكيباكي تحت قيادة رئيسه تتمثل في ثلاثة مبادئ اساسية : الإنفصال والإستقلال عن الفدرالية الكندية التي يتكون منها المجتمع الكندي الكبير وتنمية وتحديث المجتمع الكيباكي

---

294 ينطبق ذلك على القيادة التونسية تحت قيادة الرئيس الحبيب بورقيبة

295 ينطبق ذلك على القيادة الجزائرية تحت قيادة الرئيس هواري بومدين.

وفـــق مـــبدأ « Maitre chez nous » "أسياد في وطننا" وترسيخ عناصر الذاتية اللغوية الثقافية للشعب الكيباكي وتعزيزها.

بالنســـبة إلى المبدأ الأول فقد عملت القيادة السياسية الكيباكية على الانفصال بطرق ديمقـــراطية[296]. فقـــامت باســـتفتاء شـــعبي عام 1980 في مقاطعة كيباك حول مسألة إنفصـــال هـــذه الأخيرة سياسيا وإداريا عن كنذا . ولم تكن نائج الاستفتاء لمصلحة إنفصال كيباك عن المجتمع الكندي الكبير. ورغم فشل القيادة السياسية تحت زعامة ريـــنه ليفاك ،فإن فكرة الإنفصال مازالت نشيطة إلى يومناهذا. أما بخصوص المبدأ الـــثاني فقـــد بذلـــت جهـــود وتشرياعات من طرف الحكومات التي قادها الحزب الكيـــباكي، لتعزيز عملية تأميم الثورات الطبيعية والاقتصادية وإدماج أكبر للعنصر الكيباكي بخاصة في القطاعات الاقتصادية . وتبنت القيادة السياسية مشروعا تنمويا شـــاملا يشـــبه الـــنموذج الاشتراكي الديمقراطي المعمول به في بعض المجتمعات الأوروبية المعاصرة مثل السويد.

وفـــي الـــنهاية ، فـــإن المبدأ الثالث لايديولوجيا القيادةالسياسية الكيباكية يتمثل فيإ1 صـــدار هـــذه الأخيـــرة ما يسمى قانون "La loi 101" الذي يجعل**اللغة الفرنسية اللغة الرســـمية لمقاطعـــة كيباك.** فهي لغة اللافتات والإعلانات وهي اللغةالتي يجب أن يتعـــلمها أطفال المهاجرين الذين يقررون الإستقرار في المقاطعة . فأنشئ من أجل ذلـــك مجلس اللغة الفرنسية ، لمراقبة مدى تطبيق الأفراد والمؤسسات بنود التشريع الـــلغوي 101، وملاحقة المنتهكين له أمام المحاكم ومعاقبتهم إذا لزم الأمر. ويهدف هـــذا القـــانون إلىجعـــل مقاطعـــة كيباك فرنسية اللسان بالقدر نفسه الذي تعتبر به مقاطعة أنتاريو الكندي Ontario المجاورة إنجليزية اللسان . ويطمح هذا التشريع ، في الـــنهاية، إلى **صـــد التهديد اللغوي الثقافي الذي يتعرض له المجتمع الكيباكي** من العمـــلاق الأمـــريكي، مـــن جهـــة ، وبقيـــة المجتمع الكندي الإنجيليزي، من جهة أخرى.وفي ضوء ما سبق يتضح أن هناك تشابها أكثر بين الرؤيتين الايديولوجيتين لـــلقيادتين السياســـيتين في كل من الجزائر وكيباك . فالقيادتان تدعوان، من جهة ، إلى فـــك علاقـــة التـــبعية الإقتصادية والثقافية ...مع الآخر: فرنسا وكندا الإنجليزية والعمـــل، من جهة أخرى، **على تجذير المكونات الأساسية للثقافة الوطنية من لغة وحضارة في الشخصية القاعدية للمواطن الجزائري والكيباكي .**

الخلاصـــة : وهكـــذا ، يمكن إيجاز إيديولوجيات القيادات السياسية الثلاث في **ثلاثة أنمـــاط: فإيديولوجيا القيادة التونسية** تتبنى **مشروع التحديث على النمط الغربي .** وهـــو مشروع متناسق مع كل من التكوين اللغوي الثقافي لأعضاء القيادة ورئيسها، ومـــع طبيعة التجربة الإستعمارية الفرنسية اللينة التي تعرض لها المجتمع التونسي. أما **إيديولوجيـــا القيادة الجزائية** فهي تدعو إلى **التحرر من التبعية المستعمر القديم**

---

296 انظر « Projet de souveraineté du parti québécois, » Le Devoir (Montréal), 10/09/1988 p.A9

وبناء التنمية الذاتية المستقلة. ويمكن وصف الإيديولوجيا الجزائرية بأنها حصيلة رد فعل للتجربة الإستعمارية الفرنسية في الجزائر التي كانت ذات طبيعة بشعة على المستويين المادي والمعنوي. ويساهم التكوين الثقافي العربي الإسلامي للرئيس بومدين في تعزيز أسس إيديولوجيا القيادة السياسية الجزائرية. وبالنسبة إلى **إيديولوجيا القيادة السياسية الكيباكية** فهي تتمثل أساسا في الرغبة في **الإنفصال السياسي عن كندا**، وتحقيق مبدأ "**أسياد في وطننا** ". وهي رؤية إيديولوجيا تتماشى والتكوين الثقافي للقيادة السياسية الكيباكية، بقيادة رئيس الحزب الكيباكي الإنفصالي ليفاك. كما أنها متناسقة مع التجربة شبه الإستعمارية، إقتصاديا وثقافيا، التي تعرضت لها مقاطعة كيباك تحت الإحتلال الإنجليزي[297] الذي بدأ بانهزام الفرنسيين عام 1760. فيتبين من هذه المعطيات أن **القرار السياسي لهذه القيادات الثلاث بخصوص توطين اللغة الوطنية في هذه المجتمعات الثلاثة يرتبط في المقام الأول بالرؤية الإيديولوجية للقيادة السياسية** . وبعبارة أخرى ، **فإن الإيديولوجيا السياسية تمثل محركا رئيسيا في هندسة المجتمعات في العالمين النامي والمتقدم على السواء**. ومن هنا ، فإن التعرف إلى إيديولوجيا القيادة السياسية **يسهل علينا أكثر** من غيرها من المؤثرات مثل التكوين اللغوي الثقافي للقيادة[298]فهم أسباب القيام بالقرارات ، بما فيها قرار توطين اللغة الوطنية ، التي تتوصل إليها القيادات السياسية هنا وهناك. إن إعطاء أهمية كبرى لعامل الإيديولوجيا كمؤثر حاسم لفهم طبيعة قرار توطين اللغة الوطنية التي اتخذته القيادات السياسية في هذه المجتمعات الثلاثة ، يتماشى في رأينا وما يسمى **علم اجتماع فهم المؤثرات الداخلية لصاحب السلوك** (Verstehen Sociologie) الذي نادى عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر بتبنيه في أي تفسيرذي مصداقية للسلوك الإنساني . فالمجتمع التونسي كان أكثر أهلية من نظيره الجزائري من حيث توافر عناصر تركيبة ثقافية لغوية وتعليمية وطنية صالحة لحسم عملية التعريب الشامل. ولكن الذي حدث على أرض الواقع كان عكس المعطيات الموضوعية للتركيبة الثقافية اللغوية والتعليمية الوطنية في كلا المجتمعين. وكما رأينا فإن عامل ايديولوجيا القيادتين السياسيتين هو**العامل الحاسم** الذي يفسر تعثر قرار التعريب في العهد البورقيبي في المجتمع التونسي، من ناحية ، ونجاحه في المجتمع الجزائري في عهد بومدين، من ناحية ثانية.

---

[297] المصدر نفسه .

[298] (التكوين اللغوي الثقافي للقيادة الجزائرية الذي تغلب عليه الفرنسية لم يعرقل عملية التعريب في المجتمع الجزائي كما كان ينتظر، ويرجع ذلك كما بينا في هذا الفصل إلى تدخل عامل الايديولوحيا.

الفصل الثالث
المزج اللغوي كسلوك لغوي للإنسان المغاربي المغلوب

أولا : تعريف ظاهرة الدراسة و هدفها ومنهجها

يقصد بمصطلح **الفرنكوأراب** Le Franco -Arabe مزج العربية العامية بالفرنسية أثناء الحديث على الخصوص وهي ظاهرة إجتماعية لغوية تتصف بها مجتمعات المغرب العربي المعاصر الثلاثة : **الجزائر وتونس والمغرب.**

ويهدف هذا الفصل إلى توضيح أن ظاهرة الفرنكواراب هذه لا يمكن إعطاؤها تفسيرا وافيا دون النظر إليها **كعرض من أعراض تأثير عامل الإستعمار الفرنسي** بهذه المجتمعات في القرن التاسع عشر و القرن العشرين . فالنظريات الغربية المهتمة بدراسة ظواهر المزج اللغوي لا ينبغي الإعتماد عليها في فهم جذور ظاهرة الفرنكوأراب وذلك لأن **هذه النظريات تهمل كليا عامل الإستعمار** (علاقة الغالب بالمغلوب) كمؤثر حاسم في الإندفاع إلى الخلط اللغوي عند الطرف المهيمن عليه. و سيكون منهجنا لهذه الدراسة وصفا تحليليا ذا منظور تاريخي إجتماعي نفسي. أي أن فروضنا ومناقشاتنا لمختلف جوانب ظاهرة الفرنكوأراب تعتمد على **الملاحظات الميدانية والتحليل التاريخي الإجتماعي النفسي** لملامح ظاهرة الدراسة بمجتمعات المغرب العربي المعاصر.

ثانيا: بعض المعطيات عن طبيعة المزج اللغوي

يميز الباحثون في ميدان اللغة واللسانيات **نوعين** من المزج اللغوي أثناء الحديث:

1) وهو أن يلجأ المرء، وهو يتحدث بلغة ما إلى إستعمال لغة ثانية (في صورة كلمة أو جملة قصيرة أو طويلة)مستعملا لها كما تتطلب ذلك قواعدها و يسمى هذا الصنف من المزج اللغوي بالإنجليزية codes witching.

2)أما الصنف الثاني فيدعى بـ"الإعارة" borrowing وهو أن يستعير الفرد أثناء حديثه كلمة أو عبارة قصيرة من لغة ثانية ويكيفها من حيث نطقها وتركيبها مع اللغة التي يتحدثها . ولنضرب مثالين على ذلك من المغرب العربي:**مثال على الصنف الأول** :أنا ماشي (مغادر ،مسافر) le 25 aout أي 25أوت (أغسطس).

مثال على الصنف الثاني:الكرهبة (السيارة) ماتفنكسيونيش: أي أن السيارة (لا تشتغل : معطلة)

وتشمل الفرنكوأراب في مجتمعات المغرب العربي هذين الصنفين . علىأن الصنف الأول أكثر انتشارا بين مزدوجي اللغة المتعلمين . أما أسباب الميل إلى المزج اللغوي وفقا للدراسات و الكتابات الغربية في هذا الميدان فهي متعددة ونختصر ذكر أهمها في التالي:

بعض دوافع المزج الغوي

1- سد حاجة لغوية لكلمة أو جملة قصيرة أو طويلة.

2-عند إقتطاف كلام الغير.
3- للتنبيه و للتأكيد على تضامن الجماعة و ذاتيتها.
4-للتعبير عن الغضب أو السرية.
5- لتحديد العنوان.
6-بقصد أن لا يفهم أحد الأفراد الحاضرين الحديث.
7-بقصد رفع مكانة المتحدث، والرفع من مكانته و بقصد إظهار معرفته و خبرته.
8-لتطلب حالة المتحدث لذلك.
فأكثر هذه الأسباب قربا لتأثير عامل الإستعمار على المزج اللغوي هو رقم (7). ومع ذلك فليس هنالك ما يقنعنا بأن عامل الإستعمار مقصود في السبب (7) فالمطالع لتفاصيل مناقشات الدراسات الغربية حول الخلط اللغوي لا يجد ذكرا لعامل الإستعمار كأحد المؤثرات الهامة في هذا الصدد.

ثالثا . أصناف المازجين بالمغرب العربي

ومن الملاحظة الميدانية يمكن القول إن ظاهرة الفرنكوأراب منتشرة بين كل فئات المجتمع الجزائري و التونسي والمغربي. ويمكن ذكر **ثلاثة أنواع من المازجين للعربية بالفرنسية:**

1) **مزدوجو اللسان** (العامية الفرنسية) وهم أساسا هؤلاء الأفراد الذين تعلموا الفرنسية سواء في المدرسة أو خارجها و أصبح بعضهم قادرا على استعمالها في الحديث فقط بينما البعض الآخر وخاصة المتعلمين في المدارس الذين أتقنوا الفرنسية حديثا و قراءة و كتابة و تحريرا.
2) يمثل هذا الصنف ذوي **التكوين العربي** كالزيتونين بتونس والقرويين بالمغرب الأقصى. ومع ذلك فهم لا يستثنون من مزج بعض المفردات أو حتى جمل فرنسية بعاميتهم وذلك لإندماج هذه الكلمات و العبارات مع لغة الشارع إندماجا لا يميزها عن غيرها من مفردات العامية: لغةالحديث العام .
3) **المازجون الأميون** : إن تسرب الكلمات الفرنسية إلى لغة الفرد المغاربي يشمل كل الفئات الإجتماعية بمن فيهم الأميون . فكلمة الكميون (الشاحنة) هي الكلمة العامية التي تستعملها في الغالب هذه الأصناف الثلاثة من المازجين في تونس مثلا. ومن المتوقع أن يكون الصنف الأول من المازجين هو الذي تنتشر فيه فعلا ظاهرة الفرنكوآراب بدرجة تفوق بكثير استعمال الصنفين الآخرين لها . وذلك أولا لمعرفتهم للفرنسية وثانيا لوجود عوامل أخرى خاصة بهم تأتي مناقشتها فيما بعد . ومما يميز صنف المازجين الأميين هو كثرة استعمالهم للكلمات الفرنسية **بطريق الإعارة** المشار إليها سابقا.

رابعا : ملاحظات أساسية حول ظاهرة الفر نكو أراب

يمكن تسجيل **ثلاث** ملاحظات رئيسية بخصوص الفرنكوأراب كظاهرة لغوية إجتماعية بمجتمعات المغرب العربي:

1/ تمــزج كــل الفــئات الإجــتماعية المتعلمة والأمية كما رأينا عامياتها العربية بمفــردات وعــبارات فرنســية(طــبعا بنسب مختلفة) في كل من الجزائر وتونس والمغرب .

2/ تميــل الفــئات المتعــلمة تعلما أكثر تفرنسا إلى مزج عاميتها بنصيب أكبر من المعدل الشعبي العام من الكلمات والعبارات الفرنسية.

3/ فــي مجــتمعات المغــرب العــربي المعاصرة تميل النساء والفتيات المتعلمات والمثقفات على الخصوص إلى خلط عاميتهن العربية بالفرنسية أكثر من مجموعتي (1) و (2)..

فمن هذه الملاحظات الثلاث تنطلق دراستنا لظاهرة الفرانكوأراب . وعند التأمل في هــذه الملاحظــات يتجلى **عاملان** (متغيران) رئيسيان حول مزج العامية بالفرنسية عــند الجزائــري والتونســي والمغربي: (1) التعليم والثقافة (المتفرنسان) و (2) الأنوثة.

ويــبدو أن العلاقة بين المتغير (1) وظاهرة الفرنكو أراب علاقة لا غرابة فيها على العمــوم . أمــا المــتغير (2) **الأنوثة** فهو الذي يدعو لأول وهلة على الأقل للحيرة والتســاؤل . **مــا دخل عامل الجنس الأنثوي في زيادة استعمال الكلمات والعبارات الفرنســية مع العامية العربية يا ترى ؟** هل هناك أية شرعية ومنطقية لوجود مثل هذه العلاقة؟

خامسا : الفروض كأداة للبحث العلمي:

وللتعمق في فهم ظاهرة الفرنكوأراب كسلوك لغوي إجتماعي في مجتمعات المغرب العــربي المعاصــرة نــود طرح بعض الفروض . إذ أن هذه الأخيرة طالما تساعد الــباحث عــلى الحصــول على بعض الإجابات والاكتشافات الأكثر دقة أو علمية بخصوص الظواهر المدروسة . فالفرض كأداة بحث هو في النهاية جسر ضروري بيــن النظرية الموجودة والبحث الإضافي الذي يمكن أن يؤدي إلى اكتشافات جديدة تــزيد مــن معرفتنا حول الظاهرة قيد الدراسة. ويُعرَّف الفرض "بأنه تعميم مبدئي تظــل صحته وصلاحيته موضع اختبار". ومن الشائع في العلوم الإجتماعية الحديثة هــو أن يكون فرض (أو فروض) الباحث مستندا على نتائج بحث أو بحوث سابقة أخــرى ، إذ أن ذلك يعين على **تجمع زاد معرفي أكبر** حول نفس الظاهرة يؤدي بدوره إلى تعمق وفهم أفضل لها. لكن مصادر استنباط الباحث لفروضه لا تنحصر فقط. فيما ذُكر أعلاه ، فحدس العالم أو حتى تخمينه يمكن أن يسمح له بطرح بعض الفــروض حــول الظاهرة التي يود فهمها فهما أكثر دقة ومصداقية . وكذلك الشأن بالنســبة لما يسمى بالإستنتاج المنطقي. فهذا الأخير يساعد الباحث الفاحص لملامح ومتغيرات الظاهرة المدروسة على القيام باستنتاجات منطقية حولها تسمح له بطرح بعض الفروض التي تساعد على الغوص في طبيعة الظاهرة.

ويذهب كل من بروس بارق BruceBerg[299] إلى تحديد **أربعة مصادر** أخرى يستوحي منها الباحث بعض فروضها :

1/ أن الثقافة المجتمعية الخاصة التي ينشأ وينمو فيها الباحث هي بدون شك مصدر لكثير من فروضه .

2/ أن العلم (أي علم) هو مصدر في حد ذاته لنشأة الفروض .

3/ أن التمثيل analogy طالما يكون مصدرا لبعض الفروض المفيدة.

4/ أن الفروض يمكن أن تكون نتيجة لتجربة وعوامل شخصية ينفرد بها الباحث ويتفاعل معها بطريقته الخاصة.

سادسا : بعض الفروض العاملة لإفراز الفرنكوأراب

إن **الفرض الرئيسي** لدراسة ظاهرة الفرنكوأراب بمجتمعات المغرب العربي هو أن انتشار هذه الظاهرة بين مختلف فئات وطبقات هذه الشعوب يعود، في رأينا، إلى حد كبير إلى **مركب النقص** الذي يشعر به **الإنسان المغاربي** إزاء الطرف الفرنسي الغالب . وبعبارة أخرى، فإن فرضنا هذا يرى أن ظاهرة الفرنكوأراب تتأثر كثيرا **بعلاقة الغالب والمغلوب** التي سادت تعامل الطرفين : الفرنسي والمغاربي منذ القرن التاسع عشر. ومن ثم ففرض أهمية الغالب والمغلوب لا يساعد على تفسير ظاهرة الفرنكوأراب فقط وإنما أيضا على تفسير تصرفات إجتماعية وفردية أخرى في نفس هذه المجتمعات كما سوف نرى. والفرض المثالي هو ذلك الذي يثري العلم بمايولد من مجالات للبحث وفرص جديدة للبحث والإستقصاء[300]

ولإختبار مدى واقعية فرضنا الرئيسي هذا نطرح **خمسة فروض** نناقش مدى مصداقيتها في تفسير الفرنكوأراب قبل مناقشة فرضنا الرئيسي . وهذه الفروض هي كالتالي :

1/ إن إحتكاك الطرف الفرنسي بالطرف الجزائري والتونسي والمغربي منذ القرن التاسع عشر يؤدي إلى التأثر والتأثير اللغويين : عربي فرنسي (الفرنكو أراب) أوالعكس فرنسي -عربي (أربوفرانساي L'Arabo-Francais[301] بين الطرفين .

2/ إن معرفة الجزائريين والتونسيين والمغاربة للفرنسية هو سبب انتشار ظاهرة الفرنكوأراب بين هؤلاء .

3/ إن عجز العاميات العربية بالمغرب العربي على التعبير عن الكلمات والعبارات خاصة تلك التي لها علاقة بالأشياء العصرية يقود أهل مجتمعات المغرب العربي المعاصر إلى خلط حديثهم بعبارات وكلمات فرنسية.

---

299 Berg,B.L., Qualitative Research for The Social Sciences, Boston,Allyn and Bacon,2001 pp.15-20.

300 انظر مقال " Sex Drugs and the Extinction of Dinosaurs "في مجلة Discover لشهر مارس1984 ص67

301 (أ) نادرا أن تتأثر الثقافتان ببعضهما البعض بالتساوي.

(ب) إن الطرف التابع (المغلوب) هو الذي يميل إلى تقبل أو تبني العناصر الثقافية للطرف المهيمن (الغالب).

(ج) إن رغبة الفرد أو الجماعة لتحسين المكانة الاجتماعية عامل مهم في تفسير ظاهرة التقليد بين المجتمعات والثقافات.

4/ إن تأثيـــر ظروف تعلم اللغة (اللغات) الثانية هو عامل حاسم في إفراز ظاهرة الفرنكوأراب بين سكان هذه المجتمعات في العصر الحديث.
5/ إن الفـــرنكوأراب هـــي نتيجة لمركب النقص عند الفرد المغاربي إزاء الطرف الفرنسي الغالب.

فـــنحن نفترض أن كل متغير في الفروض الخمسة مثل متغير الإحتكاك في الفرض الأول يمكـــن أن يـــؤدي إلى إفـــراز ظاهرة الفرانكوأراب ، موضوع هذه الفصل. ولسبر مصداقية كل واحد منها نناقش كل فرض على حدة فيما يلي:

مناقشة الفرض الأول :

ففـــي عمـــلية الإحـــتكاك بين الطرف الفرنسي والطرف المغاربي في القرن التاسع عشـــر وحـــتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين على تربة المغرب العربي كـــانت شـــعوب الجزائـــر وتونـــس والمغرب تمثل **الأغلبية** بينما كان المهاجرون الفرنســـيون إلى هـــذه المجـــتمعات هـــم **الأقلية**. وقد ذهب بعض علماء الإجتماع المعاصـــرين خاصة في الولايات المتّحدة الأمريكية إلى القول بأن **الأقلية هي التي تنصـــهر في الأغلبية ثقافيا**. ومنه جاء مفهوم **بوتقة الإنصهار** Melting Pot. لكن هذا لم يحدث في احتكاك أهل المغرب العربي بالجانب الفرنسي . والدليل على ذلك هو **نـــدرة مزج الأقلية الفرنسية لفرنسيتها بكلمات وعبارات عربية** (فرنسي عربي). وبعـــبارة أخـــرى، فخلط الفرنسية بكلمات وعبارات عربية يكاد يكون غير موجود بيـــن المســـتعمرين والمقيمين الفرنسيين. فتعلم وإستعمال لغة الغير وثقافته لا يبدو أنهمـــا إذن نـــتيجة حـــتمية لمجـــرد وجود فرص إحتكاك بين المجموعات والفئات والشـــعوب ذات الـــلغات والقيـــم الثقافية المختلفة ومن ثم يمكن القول،من جهة، إن العوامـــل الحاســـمة فـــي تفسير ظاهرة الفرنكوأراب المنتشرة بين سكان مجتمعات المغـــرب العـــربي ونـــدرة ظاهرة المزج (فرنسي عربي) بين المحتلين والمقيمين الفرنســـيين هـــناك،من جهة ثانية، تتمثل **في عوامل غير عامل عدد السكان** في حد ذاته.

ولعـــل الـــذي يميـــز الطـــرفين المتفاعـــلين هو **طبيعة العلاقة** التي تربط بينهما . فالفرنســـيون كـــانت لهـــم الســـيطرة إلى حد كبير على مقادير هذه الشعوب على المســـتويات العســـكرية والإدارية والاقتصادية والثقافية بصفتهم مستعمرين . **فكفة الميـــزان في هذا الإحتكاك هي إذن لصالح الأقلية الفرنسية** . وعلى هذا الأساس جـــاء عـــدم تأثـــر الفرنســـيين التأثر الجدير بالذكر لغويا وثقافيا بشعوب المغرب العـــربي . بيـــنما تأثـــرت فئات هذه الشعوب المغلوبة (المستعمرة) رغم أغلبيتها الســـكانية بلغة المستعمر وثقافته . ولا زال هذا التأثر عميقا في هذه المجتمعات بعد مـــا يقـــارب مـــن نصـــف قرن من إستقلالها . ويتماشى هذا الواقع اللغوي الثقافي بالجزائـــر وتونس والمغرب مع ملاحظة ابن خلدون الشهيرة في كون " أن المغلوب مولع أبدا بالإقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده".

ومن هذه العلاقة: علاقة ميزان القوى بين المستعمِر (القوي) والمستعمَر(الضعيف) يمكـــن إعتــبار ظاهـــرة الفـــرنكوأراب كنتيجة طبيعية منتظرة لمثل هذا النوع من إحتكاك الشعوب حيث أن قوى الطرفين بعيدة على أن تكون متساوية.

فإستمرار تفشي هذه الظاهرة في مجتمعات المغرب العربي اليوم لا يمكن أن يُعزى فقــط إلى طــبيعة بطئ تغيير العناصر الثقافية للمجتمعات كما يذهب إلى ذلك عالم الإجــتماع الأمريكي أجبرن W.Ogburn في مفهوم الهوة الثقافية .ففي رأينا لا بد من ربـــط اســتمرارية الظاهـــرة إلى حـــد كبير باستمرار عدم تساوي القوى بين هذه الشعوب،من جهة، وفرنسا، من جهة أخرى . فميزان القوى لا زال على العموم بيد الجـــانب الفرنسي . ومادامت تلك هي الحال بين الطرفين **(علاقة الغالب بالمغلوب)** فمـــن اللاواقعية أن ينتظر المرء تلاشي ملامح هذه الظاهرة إلى غير رجعة وذلك رغم سياسات الإصلاح اللغوي التي قامت وتقوم بها بكل جدية بعض حكومات هذه الأقطار[302].

مناقشة الفرض الثاني :

ليس صحيحا قول البعض أن اللجوء إلى المزج اللغوي (عربية بالفرنسية أو عربية بالإنجــليزية الـــخ..) هو بالضرورة نتيجة حتمية لمعرفة الفرد للغتين أو أكثر. فمن الوجهـــة الـــنظرية قد يعرف الشخص أكثر من لغة دون أن يمزج بينها في سلوكه اللغوي .

إن مقارنـــة التركيـــبة الـــلغوية في مجتمعات البلاد الإسكندانفية (النرويج والسويد والدنمـــارك) المعاصرة بتلك التي تسود في مجتمعات المغرب العربي تكذب قطعا مـــثل هذا الإدعاء . فالفرد السويدي والدنماركي والنرويجي يعرف الإنجليزية كلغة ثانيـــة معرفة تساوي أو تفوق معرفة التونسي والجزائري والمغربي للفرنسية . ومع هـــذا "فالفـــرنكوأراب ظاهـــرة اجتماعية سائدة في الجزائر وتونس والمغرب بينما ظاهـــرة مزج الإنجليزية بإحدى لغات هذه المجتمعات الإسكندنافية لا يكاد يكون له وجود فضلا عن تواجدها كظاهرة إجتماعية منتشرة بين كل فئات ذلك المجتمعات. **فأســـباب المزج اللغوي أو عدمه** في هاتين المجموعتين من المجتمعات **ينبغي** إذن **أن يـــبحث عنها خارج مجرد معرفة الفرد المازج لأكثر من لغة** . ويبدو أن عامل ميـــزان القوى(علاقة القوى بالضعيف)المشار إليه في الفرض الأول عامل ذو ثقل إســـتراتيجي (ليـــس هـــو الوحيد طبعا)في تفسير ظاهرة الفرنكوأراب بمجتمعات المغـــرب العربي، من ناحية ، وغياب ظاهرة مزج اللغات الإسكندنافية بالإنجليزية، من ناحية أخرى.

مناقشة الفرض الثالث :

---

302 ، إن عملية التعريب تبدو متذبذة خصوصا في تونس والمغرب ، ويساعد هذا بالطبع على استمرار ظاهرة الفرنكوأراب وتفشيها الأوسع بين فئات هذين المجتمعين . لقد لاحظ أحد الأساتذة التونسيين (د. هشام جعيط) في ندورة حول التعريب (1981) أنه رغم تعريب التعليم أكثر فأكثر بالمجتمع التونسي إلا أن ذلك لم يقترن عند طلبة الجامعة التونسية بتبلور ذاتية عربية واضحة المعالم عندهم.

إن الخــلط الشــائع لــلعربية العامية بالفرنسية بين سكان الجزائر وتونس والمغرب اليــوم لا يقتصــر فحســب عــلى المفــردات والعبارات التي لا تملكها العامية أو الفصحى. بل يتعداه إلى إستعمالات أخرى تملكها قطعا كل من الفصحى والعامية. فالأرقــام 1-2-7-10-25-100، الخ لا يحتاج فيها الإنسان المغاربي إلى اللجوء إلى الفرنســية للتعــبير عنها[303]. ومع هذا فالجزائري والتونسي والمغربي المتعلم تعليما غــربيا خاصة **يفضل دائما استعمال الفرنسية عند تعامله مع الأرقام والتواريخ**. فنادرا مثلا أن يعطيك هذا الصنف المغاربي بطريقة عفوية رقم هاتفه بالعامية. ويمكن أن يعزى مثل هذا السلوك اللغوي إلى سببين :

1)إن الأرقــام تقترن خاصة في ذهن المتعلم والمثقف ثقافة عصرية بالدقة والعلمية الــتي تتصــف بهــا عــنده اللغة الفرنسية خلافا لما عنده من تصوريلصق التخلف بالعربية العامية خاصة.

2 - إن نطــق الأرقام بالفرنسية أمر غيرشاق مقارنة بنطقه بالعربيةالفصحى.إذ يحتاج ذلك إلى معرفةبنحو وصرف اللغة العربية. ومن ثم يصبح إستعمال الأرقام باللســان الفرنسي ميدانا **سهلا** وجذابا حتى لغير المتعلم العصري الذي يسعى هو الآخــر لتقليد الفرنسي والتقرب منه للتخلص من مركب النقص (لتعده عن المساواة مع الفرنسي) الذي يشعر به الإنسان المغلوب.

ومــن هــذه الخلفية يتضح أن عدم المساواة (إختلال ميزان القوى) بين المقلد لغويا (المغــاربي) والمقــلد لغويــا (الفرنســي) هــو **العامل الحاسم** في إفراز ظاهرة الفــرنكوأراب التي هي عبارة عن **محاولة رمزية** (لغة وثقافة) **لتغيير ميزان القوى والشــعور بالتســاوي** (أو عــلى الأقل القرب من ذلك) ولو ظاهريا مع الطرف الفرنسي المسيطر والمهيمن.

مناقشة الفرض الرابع :

إن الظــروف التاريخية والإجتماعية والثقافية التي يتعلم فيها الفرد اللغة الثانية (أو الثالثة..) تُحدد مدى استعداده وحساسيته لمزج لغته الأم باللغات الأخرى. وعلى ســبيل المثال فبينما تعلم الفرد الاسكندنافي الإنجليزية وذلك لحاجته العملية والعلمية لــلغة الإنجليزية ذات الشهرة والاستعمال العالميين في الميادين الحيوية لهذا العصر تعــلم ويتعــلم تــلميذ وطــالب مجتمعات المغرب العربي الفرنسية كلغة المستعمر الفرنسي وامتداداته[304].

---

[303] تذكرني هذه بحادثة بمسرح قرطاج بتونس في صيف 1974. كانت السهرة مع فرقة الدبكة اللبنانية . وفي فترة الاستراحة تحدث شخص تونسي في مضخم الصوت ليعلن أن أحد الحاضرين قد أضاع مفتاح سيارته . وكان يتكلم بالعامية التونسية. وعند وصوله إلى رقم رخصة السياقة قرأه بالفرنسية!

[304] فعلى مستوى التحرر اللغوي الثقافي من الاستعمار الفرنسي فلا تكاد توجد ايديولوجيا رسمية واضحة في كل من المجتمع التونسي والمغربي.

ومن هذا الواقع التاريخي الإستعماري لشعوب المغرب العربي الثلاثة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين جاء إبتلاء اللغة العربية كأحد ملامح اضطهاد المستعمِر للمستعمَر.فتمثل الإضطهاد اللغوي الفرنسي للسان العربي في تقليص مجالات إستعمالها في شؤون هذه المجتمعات خاصة في الميادين الحيوية لهذا العصر.**ومن ثم تخلفت اللغة العربية تخلف أهلها المستعمرين في القطاعات المجتمعية الأخرى .**

صحب هذا الواقع اللغوي الإستعماري واقع جديد على مستوى **نفسية الإنسان المغاربي** . فبرز عند الجزائري والتونسي والمغربي المتأثر بلغة المستعمر وثقافته على الخصوص **موقف شائع يحقر**، من جهة، **اللغة العربية وثقافتها** ، **ويحترم ويمجد اللسان الفرنسي وثقافته**، من جهة أخرى . وأول ما يتبادر للذهن في هذا المضمار هو **تأثر تركيبة شخصية الإنسان المغاربي من هذا الواقع اللغوي الثقافي الجديد**. ومن ملامح التركيبة النفسية الجديدة للفرد المغاربي هو ظهور أعراض **مركبات النقص** إزاء المستعمر الفرنسي ومن ثم أصبح **التلهف على تقليده حاجة نفسية عند هذا الإنسان المغلوب.**

فالفرنكوأراب كظاهرة لغوية إجتماعية هي بالقطع **ظاهرة ذات جذورإجتماعية نفسية للإنسان المغاربي المقهور** ، أفرزها الوضع الإستعماري (بما فيه من قهر شامل مس ويمس الجوانب المادية والمعنوية للإنسان المغاربي). وغياب عامل الإستعمار وما شابهه في تعلم فئات المجتمعات الإسكندنافية للغة الإنجليزية هو، في نظرنا، أساس ذو مصداقية في تفسير ندرة أو عدم وجود ظاهرة المزج اللغوي (اللغات الإسكندنافية ممزوجة بالإنجليزية) في المجتمع السويدي والدنماركي والنرويجي اليوم .

عوامل إستمرار الفرنكوأراب بعد الإستقلال :

بادئ ذي بدء لا بد من التأكيد أن حصول الجزائر وتونس والمغرب على الإستقلال لا ينبغي أن يعني إندثار ظاهرة الفرنكوأراب تماما بين عشية وضحاها بهذه المجتمعات . فظاهرة الفرنكوأراب هذه لم تصبح على ما هي اليوم من إنتشار في مجتمعات المغرب العربي المعاصرة إلا بعد زمن غير قصيرللإحتلال الفرنسي لها. فقد أقام الفرنسيون بالقطر الجزائري ما بين 1830و 1962 وفي تونس للفترة ما بين 1881 و 1956. أما المغرب فقد وقع تحت الاحتلال الفرنسي من 1912إلى 1956.ومن ثم فإن أي تقليص لظاهرة المزج اللغوي (الفرنكوأراب) في هذه الأقطار المستقلة لا يمكن أن يحدث بدون أخذ **عامل الزمن** في الإعتبار خاصة وأن دراسات العلوم الإجتماعية تؤكد **أن علمية التغيير الثقافي (ومنه اللغوي) عملية بطيئة** لكن سرعة أو بطء تقلص ظاهرة الفرنكوأراب لا تتأثر بعامل الوقت فقط وإنما أيضا بالعوامل التالية التي نناقشها فيما يلي:

1/ إن الإستعماراللغوي الثقافي الفرنسي ذو طبيعة شرسة إذا ما قورن بنظيره الإنجليزي. ولقد بلغت شراسته أقصى مداها بالجزائر حيث حاول الإحتلال الفرنسي

سلبها لغتها وثقافتها العربية الإسلامية ، ومنه ضرب **المقومات الأساسية لشخصيتها القومية** . ولعل هذا يفسر جزئيا، كما رأينا في الفصل السابق، منطق سياسة التعريب الجادة وغير المتذبذبة التي قامت بها الجزائر بعد الإستقلال . فممّا لا شك فيه إذن أن مجتمعات المغرب العربي قد ورثت زادا ثقافيا ذا ملمحين:

أ/ **الملمح اللغوي** : وهي الكلمات والعبارات الفرنسية التي أصبحت وكأنها جزء لا يتجزأ من مفردات وعبارات حديث عامة الناس. وبالتالي فالمواطن المغاربي العادي لا يكاد يشعر عند إستعمالها بأنها ذات أصل فرنسي. أما المغاربي المثقف أو المتخصص فطالما يستعمل عبارات وكلمات فرنسية سواء في مناسبات خاصة (مجال العلوم والتكنولوجيا مثلا) أو عامة ، وهو واع طبعا بأنها فرنسية . **وهذا الإرث الإستعماري اللغوي بنوعيه لا يزال منتشرا في مجتمعات المغرب العربي المستقلة .**

فعلى سبيل المثال نجد أن جيل ما بعد الإستقلال بالمجتمع التونسي قد ورث عبارات وكلمات فرنسية إستعملها ولا يزال يستعملها جيل ما بعد الإستقلال والقائمةطويلةجدا بهذا الصدد نقتصرعلى ذكرالقليل منها :

الكرطابلة (المحفضة).................................... Le cartable

الستيلو (القلم) .... Le stylo

الباتوار (المسلخ)...................................... L ' abattoir

الكار(الحافلة)... Le car

الفوسي (الخندق).. Le fossé

سافا (بخير)... ça va

(ب) **الملمح الثقافي** : نعني بهذا **التصور التحقيري للثقافة العربية** الذي نجح المستعمر الفرنسي في بثه خاصة بين المتعلمين المفرنسيين أو مزدوجي اللسان والثقافة (فرنسية وعربية) بالمغرب العربي قبل الإستقلال . إن النظرة التحقيرية للتراث الثقافي العربي لا تزال منتشرة عموما بين أجيال ما بعد الاستقلال في هذه المجتمعات رغم أن تعليم هذه الأجيال الناشئة اللسان العربي والثقافة العربية أكثر فأكثر خاصة في المرحلة الابتدائية. **وهذا التصور التحقيري للثقافة العربية بما فيه اللغة لا يساعد طبعا على توعية المواطن بضرورة استعماله للغة العربية المحكية أو الفصحى** . وعلماء الاجتماع المعاصرون وفي طليعتهم أجبرن Ogburn متفقون على أن تغيير الجوانب الثقافية "اللغة جزء من الثقافة " للمجتمعات عملية **بطيئة**، وذلك حتى في صورة عدم وجود العراقيل في وجه عملية التغيير هذه .

2/ إن استمرار ظاهرة الفرنكوأراب مرتبط إلى حد كبير **بسياسات التعريب** خاصة في مجالات التعليم والإدارة والبيئة (المحيط) بمجتمعات المغرب العربي المعاصرة.فنجاح عملية التعريب في هذه الميادين الثلاثة لابد أن يكون له إنعكاس

إيجـابي فـي الـتخفيف مـن ظاهرة الفرنكوأراب في كل من المجتمع الجزائري والتونسـي والمغربي، وقد أكد الفصل السابق أن عملية التعريب في هذه المجتمعات الـثلاثة قـد تأثـرت بموقف الحكم السياسي الذي بيده القرارات ، وسن القوانين ، وإحـداث الـتنظيمات والـبرامج اللازمة لتجذر حركة التعريب على مستوى عقلية الفرد، وعلى مستوى المؤسسات التعليمية والإدارية ، وعلى مستوى البيئة والحياة العامـة . فوجدناعند النظر إلى ملف التعريب بعد الإستقلال في هذه الأقطار الثلاثة نجـد أن سياسة التعريب أكثر حماسا وأقل تذبذبا في القطر الجزائري. ففي كل من تونـس والمغـرب عرفت سياسات تعريب التعليم مثلا التذبذب والنكوص. فمثلا، بيـنما عـربت كـل مـواد التعليم الإبتدائي في تونس بعد الإستقلال قرر النظام التربوي في هذا البلد في سنة 1981 تاريخ تخرج (أولى الصفوف الإبتدائية المعربة تماما) أن لا تستمر عملية التعريب الشاملة للتلميذ التونسي عندما ينتقل إلى المرحلة الـثانوية حيث تصبح الفرنسية **فجأة** هي لغة العلوم والرياضيات . وأثار هذا الحدث ولا يـزال يـثير مجادلات بين التربويين والآباء والمعربين حول إنعكاسات فرنسة العـلوم والرياضـيات فـي المرحلة الثانوية على مستوى عملية التعليم عند التلميذ وعـلى شخصيته وعلى مسيرة عملية التعريب ككل بالمجتمع التونسي . أما مشاكل الـتعريب في المغرب فهي أسوأ مما هي عليه في تونس. فتفيد الدراسات أن هناك تراجعات عديدة حتى في تعريب المرحلة الإبتدائية. وهكذا فظروف التعريب السائدة بالمجتمع التونسي والمغربي تشجع على إستمرار المزج اللغوي أو الفرنكوأراب.

أمـا ما يعرف عن سياسة التعريب في الجزائر لفترة ما بعد الإستقلال فهي سياسة تتصـف بالإسـتمرارية وعـدم الـتذبذب. ويرجع في نظرنا هذا الإتجاه التعريبي الصـامد بالقطر الجزائري إلى توفر قيادة سياسية أكثر إيمانا بالتعريب من القيادتين التونسـية والمغربية.رأينا أن ذلك يعود في جانب منه إلى التكوين الثقافي نفسه لتلك القيـادات. فمثلا، كان التكوين الثقافي واللغوي عند الرئيس هواري بومدين (الذي أصـبحت فـي عهـده عملية التعريب قضية وطنية ومصيرية) تكوينا تغلب عليه ملامـح الثقافة العربية الإسلامية التي تعلمها في كل من جامعي الزيتونة والأزهر. أمـا التكوين الثقافي للرئيس بورقيبة والملك الحسن الثاني فهو تكوين مزدوج اللغة والـثقافة، لكـن تسطو عليه الثقافة الفرنسية خاصة عند الرئيس بورقيبةالذي تلقى دراسته العليا بفرنسا[305].

ومـن ثـم أصـبحت **سياسـة الـتعريب في عهد بومدين مبدأ من مبادئ الثورة الجزائـرية** تركـز على أهميته بنود الميثاق الجزائري.وهكذا صار من غير السهل للمعارضـين، وهـم بالطبع موجودون، لسياسة التعريب في المجتمع الجزائري أن يحدثـوا أي إرتـباك يذكـر أثـناء حكم الرئيس بومدين. ولم يقتصر حماس النظام الجزائري في عهد بومدين على تعريب قطاعات التعليم فحسب، بل شمل أيضا كلا

---

305 انظر الفصل السابق.

مـــن قطـــاع الإدارة والبيـــئة. فالمجتمع الجزائري قد عرّب تعريبا كاملا المحيط الجزائـــري بالمدن الكبيرة والمتوسطة والقرى. فأسماء المؤسسات الوطنية وأسماء الشـــوارع إلـــخ...، أصـــبحت لا تكـــتب إلا باللسان العربي ، أما البيئة التونسية والمغربية فلا تزال مزدوجة اللغة في أغلب الأحيان وهذا الواقع التعريبي الشامل لـــلمحيط **يجعل المجتمع الجزائري حالة شاذة** بين المجتمعات العربية في المشرق والمغـــرب. وكل هذا يعني أن **ظاهرة الفرنكوأراب** لا بد أن تتأثر سلبا وإيجابا في مجـــتمعات المغرب العربي المعاصرة **بموقف الأنظمة الحاكمة في قضايا التحرر الـــثقافي والـــلغوي** .وبالتالي فمعطيات سياسة التعريب الجزائرية كما رأينا تشجع أكـــثر ممـــا هو عليه الوضع في كل من تونس والمغرب بخصوص تقلص ظاهرة الفرنكوأراب.

3/ ومـــن العوامـــل الـــتي تســـاعد على تقليص المزج اللغوي بين العربية العامية والفرنســـية **القيام بحملات توعية شعبية** تهدف إلى توعية المواطن بأهمية تراثه الـــلغوي والـــثقافي بالنســـبة لشخصـــيته و انتمائه الحضاري. فوسائل التوعية العصرية موجودة في مجتمعات المغرب العربي من ملصقات و جرائد ومجلات وتلفزيون ، وقد سُخِّرت وتُسَخَّر هذه الوسائل في القيام بحملات وقتية أو دائمة في ميـــادين الصحة والمرور والتنظيم العائلي الخ...، في مجتمعات المغرب العربي إلا أنـــه لا يعرف شيء يذكر عن حملات التوعية الشعبية في المجتمع التونسي مثلا، بخصوص توعية التونسي بأهمية لغته وثقافته ، وبالتالي تصفية حديثة من الكلمات والعـــبارات الفرنســـية، والإعتزاز بتراثه الثقافي العربي والإسلامي . ويتفق هذا الوضـــع الثقافي واللغوي السائد في تونس بعد الإستقلال مع مقولة عالم الإجتماع الفرنســـي بياربورديو PIERRE BOURDIEU التي تقول إن النظام (أي نظام تربوي أو ثقافي إلخ...) يحاول دائما أن يؤمن لنفسه الإستمرارية . وفي غياب حملات التوعية هذه ذهب البعض في كل من المجتمع التونسي والمغربي، بعد **الملاحظة الميدانية،** إلى القـــول **بأن ظاهرة الفرنكو أراب قد ازدادت منذ الإستقلال** بدل أن تقل وذلك لإنتشار قطاع التعليم بعد الإستقلال. أما ماكان يجري من حملات توعية في القطر الجزائـــري بخصوص إحترام وأهمية ما يسمونه باللغة الوطنية (أي اللغة العربية) فهـــو أمر ملموس كما أشرنا . وما تعريب المحيط كلية إلا عملية توعية تعريبية مســـتمرة لـــلمواطن الجزائري وللأجيال الشابة على الأخص ، وكمثال ثان على حمـــلات الـــتوعية الـــلغوية نذكر المجادلات والمناقشات التي نظمها حزب جبهة الـــتحرير الوطني الجزائري بين القاعدة والقمة حول اللغة والثقافة العربيتين في سنة 1980-1981 باعتبارهما المقومات الأساسية للمجتمع الجزائري.

4/ مـــن العوامل الأخرى التي لا بد أن تلعب دورها في قضية التخفيف من ظاهرة الفـــرنكوأراب هـــو هاجس **الإنتماء العروبي عند مواطن المغرب العربي.** وبعبارة أخـــرى، فكلما كان الانتماء العروبي للجزائري والتونسي والمغربي قويا كلما كان يميل أكثر إلى إستعمال اللسان الغربي حديثا وتحريرا.

فملاحظـات المشاركين في ندوة مجلة المستقبل العربي عدد 76 لسنة 1985 بعنوان الوعــي القومي في المغرب العربي تشير إلى أن **الوعــي القومي العربي ضعيف عمومــا بهذه المجتمعات**. ولعل مما زاد تدني الوعي القومي العربي عند التونسي والمغـربي فــي العصر الحديث هو المصادمات السياسية التي وقعت بين النظام التونســي والمغــربي وبيــن إيديولوجيات الوحدة العربية سواء كانت صادرة من مصرفي عهد عبد الناصر أو من البعثيين في الشام أو من ليبيا. وبالإضافة إلى كل ذلك فإن الفشل العربي في الصراع العربي الإسرائيلي في الوحدة العربية بالمشرق العــربي لايـبعث عــلى تعزيــز الإنتماء العروبي المتحمس عند مواطن المغرب العربي.

مناقشة الفرض الخامس :

يتبين من مناقشة الفروض الأربعة السابقة أن ميل الفرد المغاربي إلى مزج عاميته بالفرنســية يتأثر أساسا بطبيعة العلاقة التي ربطته وتربطه بالجانب الفرنسي . فقد رأينا في الفرضين الأول والرابع أن أسباب لجوءه إلى الفرنكو أراب تأثرت وتتأثر كثيرا بعامل **عدم التوازن في العلاقة بين الطرفين : أي علاقة المسيطِر والمسيطَر عليه .**

أمــا الفرض الثالث فقد أوضح أن الإزدواجية اللغوية (كمتغير) لا تؤدي حتما إلى المزج اللغوي.أما الفرض الثاني فقد أفصح أن لجوء المغاربي إلى استعمال الكلمات والعــبارات الفرنسية لا يرجع دائما إلى فقر عاميته لذلك. ومن ثم فإن ما جاء في هــذه الفروض يدل على أن **ظاهرة الفرنكوأراب بمجتمعات المغرب العربي ليست مســألة عشــوائية أو فوضوية** (كما يمكن أن يبدو لملاحظة مزج العامية المتزايد والمتــنوع بالأفعال والأرقام بالفرنسية) . فيبدو أن هناك **دلالة** في إستعمال مختلف هــذه الــرموز. وقد رأينا المعنى الخاص الذي **يجعل** الفرد المغاربي ينطق الأرقام بالفرنســية بدلامــن نطقها بعاميته. وهكذا يمكن تصنيف **ظاهــرة الفرنكوأراب** في صنف التصرفات (السلوكيات) الإنسانية التي ترجع أساسا إلى **تقليد الطرف الأقوى** وهو الجانب الفرنسي في هذه الحالة . وعملية التقليد الرموزية (الفرانكوأراب) لها انعكاساتها ووظائفها بالنسبة للمقلد.

فمن جهة، أكدت بحوث العلوم الاجتماعية الحديثة، (فضلا عما جاء في إشارات ابن خـلدون بهذا الصدد) أن من نتائج علاقة الغالب بالمغلوب هو شعور هذا الأخير **بمركبات النقص** أمام الطرف الغالب . ومن ثم تصبح ظاهرة التكالب على تقليد هذا الأخير أمرا طبيعيا. ومن جهة أخرى، **فإن لجوءالمغاربي للفرنكواراب تجعله يعتقد أنــه يحسِّــن ولو ظاهريا من وضعيته النفسية والإجتماعية إزاء الغالب بتقمصه لــرموزه الثقافية وفي مقدمتها الرموز اللغوية.** أما عندما يقع التوازن في ميزان القــوى بيــن الطرفين (كما هو الحال في علاقة المجتمعات الإسكندنافية بالمجتمع الإنجــليزي أو الأمريكي) فإن ظاهرة المزج اللغوي تصبح أساسا غير واردة عند الجانبين كما سبق ذكره.

سابعا : الفرنكوأراب كظاهرة يحتاج تفسيرها إلى علوم إجتماعية منبثقة من واقع العالم الثالث

ويتضح من مناقشة الفروض الخمسة السابقة أن متغير الإستعمار الفرنسي ذو تأثير حاسـم في إفراز ظاهرة الفرنكواراب بمجتمعات المغرب العربي منذ القرن التاسع عشـر. وفي نظرنا **أن أي دراسة للفرنكوأراب خالية من تأثيرات عامل الإستعمار** كواقع شامل عاشه ولا زال يتأثر برواسبه المجتمع الجزائري والتونسي والمغربي هـي في النهاية **دراسة قاصرة علميا ومشوهة لطبيعة الظاهرة المدروسة**. فاللغة مهمـا كـانت طبيعـتها (ممزوجة أو صافية) هي قطعا إفراز وإنعكاس للظروف والعوامل المختلفة التي تتأثر بها حياة المجتمع.

ومـن هنا يأتي كثير من **القصور في تطبيق النظريات الغربية** حول ظاهرة المزج الـلغوي عـلى ظاهـرة الفرنكوأراب كخصوصية لمجتمعات المغرب العربي لها خلفيـتها التاريخية الإستعمارية التي نسجت بين الطرفين المتفاعلين علاقة مستعمر بمسـتعمَر وقـوي بضـعيف ومتبوع بتابع أو علاقة مهيمن بمهيمن عليه أو قاهر بمقهـور. **فالدراسـات الغربية كالعادة لا تكاد تذكر عامل الاستعمار عند تحليلها لـبعض الظاهرات في مجتمعات العالم الثالث**. فمعضلة التخلف في هذه المجتمعات مـثلا تـرجعها العلوم الإجتماعية الغربية، كما رأينا، إلى عوامل ذاتية داخلية لهذه المجـتمعات مثل تركيبتها الإجتماعية أو قيمها الثقافية دون أن تقع الإشارة عموما إلى دور عامل الإستعمار الغربي في عملية التخلف هذه. ولا يمكن لمثل هذا النمط مـن المعـرفة أن تكون له المصداقية العلمية . إذ أن هذا الزاد المعرفي المتراكم يـتجاهل عـامل الإسـتعمار الحساس الذي أثر ويؤثر في حياة هذه الشعوب قبل إسـتقلالها وبعده، ومن ثم جاءت كثرة **إفلاس النظريات الغربية بخصوص معالجة قضايا التنمية والتخلف بالمجتمعات التابعة** .

إن ظاهـرة الفـرنكواراب في مجتمعات المغرب العربي لا ينتظر أن تلقى التفسير الشـافي فيما كتب إلى حد الآن في الغرب من كتب ودراسات حول ظاهرة المزج الـلغوي. **فالحلقة المفقودة** في هذا الزاد المعرفي هو مدى **تأثير عامل الإستعمار** كيفًـا وكمًّا في إفراز الخلط اللغوي في مجتمعات العالم الثالث. التي سقطت تحت هيمنة الإستعمار الغربي بأشكاله المختلفة. إن إسقاط متغير الإستعمار من معطيات ظاهرة المزج اللغوي هو بالتأكيد ممارسة بحثية لا يمكن وصفها بالروح العلمية .

إن إنكار واقع طبيعة الأشياء لا يؤدي إلا إلى تعميمات مشوهة لحقيقتها . فما قيل عـن أسباب المزج اللغوي ونوعيته في المجتمعات الغربية لا ينبغي أن يكون هو الأرضـية الوحيـدة التي نستوحي منها كل ما يمكن أن يبحث ويقال عن ظاهرة المـزج اللغوي في مجتمعات العالم الثالث . فالظاهرة الاجتماعية هي أساسا إفراز للعوامل والظروف الخاصة المحيطة بها أكثر من أن تكون نتيجة للمؤثرات العامة.

فالفرنكوأراب كظاهرة لغوية إجتماعية لا يمكن أن تكون إلا كذلك . **ومن هنا تأتي الحاجـة الشرعية لإرساء علوم إجتماعية منبثقة من واقع مجتمعات الجنوب بكل**

بكـــل خصائصـــها المميزة لها . عند ذلك فقط يمكن أن تخطو المعرفة العلمية إلى الأمـــام في فهم الجوانب المختلفة لهذه المجتمعات . وبالتالي تتضح الرؤية أكثر أمام المخططين الإجتماعيين الذين يهتمون بقضايا التخلف والتنمية على كل المستويات .

ثامنا : ظاهرة الفرنكوأراب وقانون الغالب والمغلوب لابن خلدون

إن الشـــعور بالدونيـــة للنفس (تحقير الذات) لدى الإنسان المغاربي أمام المستعمر الفرنســـي لا بد أن يكون، كما أكدنا، سابقا سببا مهما في تفسير ظاهرة الفرنكوأراب كمظهـــر تقـــليد لغوي وثقافي للغة وثقافة الغالب. ورغم أن ابن خلدون لم يشر إلى ظاهـــرة التقـــليد الـــلغوي بالاسم . إلا أن ما جاء في المقدمة عن أسباب التقليد بين الشـــعوب لا يســـتثنى ظاهـــرة التقـــليد اللغوي (مثل الفرنكوأراب) . فقول صاحب المقدمة" في أن المغلوب مولع أبدا بالإقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحوالـــه وعوائـــده " قانون عام حول ظاهرة التقليد بكل أنواعها ومظاهرها.ويرجع صـــاحب المقدمـــة ظاهرة التقليد بين الشعوب وبين الأفراد إلى **علاقة عدم التوازن والتســـاوي بين الغالب والمغلوب** "والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد بالكمال في مـــن غلبها وانقادت إليه ". وهكذا يبدو أن **عامل الشعور بالدونية في طلب شخصية الفـــرد المغـــاربي المقهـــور هو سبب رئيسي لتفسير وجود ظاهرة الفرانكوأراب الشـــائعة فـــي مجـــتمعات المغربي العربي المعاصرة**، وأن إنعدام وجود مثل هذا الشـــعور، كمـــا رأينا من قبل، لدى الفرد الإسكندنافي حيال الإنجليزي والأمريكي أدى إلى غيـــاب أو نـــدرة المـــزج اللغوي كظاهرة إجتماعية لغوية في المجتمعات الإسكندنافية. فبينما العلاقة بين المغاربي والفرنسي هي علاقة المستعمر بالمستعمر والـــتابع بالمتبوع فعلاقة الفرد الإسكندنافي بالإنجليزي أو الأمريكي بعيدة على أن تكون كذلك. فظروف (الفرض الرابع) اللغة الإنجليزية في المجتمعات الإسكندنافية تختـــلف عـــن تلك التي تعلمت فيها الأجيال المغاربية اللغة الفرنسية . فهذه الأخيرة تعـــلمها المغـــاربيون على أنها لغة الغالب: لغة التقدم والعلم والحداثة[306] على حساب اللغة العربية التي بدأ ينظر لها خاصة من طرف النخبة المتعلمة بالفرنسية على أنها لغـــة التقـــليد . بينما تعلم الإسكندنافيون اللغة الإنجليزية بإختيارهم ولأسباب عملية دون أن يمـــس ذلك لغات هذه المجتمعات بأي نوع مشوب بالدونية . ومن ثم فليس هـــناك مـــن سبب ذي ثقل لدفعهم إلى مزج لغتهم بالإنجليزية مثلما هو الحال عند المغاربيين.

تاسعا : ظاهرة الفرانكوأراب الأنثوية وعلاقة الغالب بالمغلوب

مـــن ملاحظاتـــنا المـــتكررة إلى ظاهرة مزج العامية العربية بالفرنسية عند النساء وفتيات مجتمعات المغرب العربي الثلاثة تبين لنا أن **الجنس الأنثوي** خاصة المتعلم والمثقف منه **يخلط عاميته العربية بكلمات وعبارات فرنسية أكثركن زميله المتعلم والمـــثقف فـــي هـــذه الأقطار الثلاثة**. ولقد كتبناهن هذه الظاهرة التي شدت تطلعنا

---

[306] انظر فصل: " On Language and Translation " في كتاب The Muslim Discovery of Europe by B. Lewis, NewYork, W.W.Norton Q Company,1982 pp.81-100

العلمي شدا وبالتالي أوليناها هذا الإهتمام الخاص[307].

فاتضـــح لـــنا من أن الميل الأكبر للأنثى المغاربية المتعلمة والمثقفة إلى اللجوء إلى الفرنســـية ممـــزوجة بالعامية العربية أو منفردة الإستعمال يرجع أساسا إلى **تحقير مـــزدوج** تعيشـــه وتشـــعر به خاصة متعلمات ومثقفات الجزائر وتونس والمغرب . فهناك من ناحية **الشعور بالدونية أمام المستعمر الفرنسي**:(علاقة الغالب المغلوب) الـــتي يشـــترك فيهـــا الرجال، كما رأينا، مع النساء في هذه المجتمعات. وهناك من ناحية ثانية شعور **المرأة خاصة المتعلمة والمثقفة بالدونية** مقارنة بنظيرها الرجل الـــذي تســـمح لـــه عقلية وتركيبة وتقاليد هذه المجتمعات بلعب أدوار أهم ، والقيام بمشـــاركات ومساهمات أكبر من بنات حواء في حياة نفس هذه المجتمعات. ومن ثم يتمـــتع الرجل أيضا بقسط أوفر من الحرية التي هي من أهم إفرازات التعلم والتثقف خاصـــة إذا كـــان غربيي النمط. فالدراسة والتعلم في المدارس الغربية أو المتأثرة بالـــنمط الغـــربي تغـــرّب،من جهـــة، المعلم والمتعلمة المغاربيين عن لغته وثقافته وبالـــتالي طالما **تخلق فيهما شعورا محقرا لثقافتهما ولغتهما العربية على حساب الإفتخار بمعرفة لغة وثقافة المستعمر**. ومن ثم إحداث إجهاض في تركيبة ذاتيتهما [308]. ومـــن جهـــة ثانية، فإن مثل هذا التكوين اللغوي الثقافي يضع المرأة المغاربية خاصـــة فـــي **تناقض** غير هين ، فهي تريد من ناحية تلبية رغبات الحداثة بمعناهما الغـــربي، لكـــنها، مـــن ناحية أخرى، تجد نفسها غير قادرة لإصطدام ذلك مع قوى وعوامـــل ثقافيـــة وتقـــاليد إجتماعية في هذه المجتمعات . ومن **هنا إتخذت ظاهرة الفـــرنكوأراب الأنـــثوية طابعـــا خاصـــا بهـــا** . فاللجوء إلى المزج اللغوي الأكثر (تفرنســـا)عـــند المـــرأة المغاربية والمتعلمة والمثقفة هو **حل تعويضي لكسب رهان المساواة مع الرجل** المتعلم والمثقف المغاربي الذي لا زال يتمتع بإمتيازات عديدة فـــي كل من المجتمع الجزائري والتونسي والمغربي . فالفرنسية كسلاح رمزي عند هـــؤلاء النساء المغاربيات **تقوم بوظيفتين** لديهن: (1) محاولة الإقتراب من صورة

---

[307] Dhaouadi, M., Un essai de théorisation sur le penchant vers l accent parisien chez la femme tunisienne, International Journal of the Sociology of Language,n°122,1996, pp.107-5 انظر أيضا ما جاء في دراسة « Sex, Covert Prestige and Linguistic Change in The Urban British English of Norwith" by Peter Trudill in Language in Society .op من الملاحظات التي تنطبق إلى حد كبير على السلوك اللغوي للمغاربيات المشار إليه هنا: « Men in our society can be rated socially by their occupation, their earning power, and perhaps by their other abilities. In other words, by what they do for the most part. However, this is not possible for women .It may be , there fore , that they instead to be rated on how they appeary Sincethey are not rated by their occupation or by their occupational success, other signals states, including speetch, are correspondingly more important"op. p.183

[308] انظر مقال Etre jeune au Maghreb بجريدة le Monde الأسبوعية بتاريخ 1984/08/1. انظر أيضا التأملات الواردة في خلاصة الكتاب التالي :

Grandguillaume,G., Arabisalion et politique linguistique au Maghreb, Paris, Maisonneuve et Larose, 1983, pp 157-161

ومكانـة الغـالب (الفرنســي) وذلــك بإستعمال **لغته قصد التخلص من الشعور بالدونيـة** أمـام الغالب. (2) إن إستعمال الفرنسية هو سلاح رمزي يستعمله الجنس اللطيف **كعملية احتجاج سلمي** على هذه المجتمعات التي لا تزال بها عراقيل كثيرة تقـف أمام مساواة الرجل بالمرأة . وبعبارة أخرى، **فإن نمط الفرنكوأراب الأنثوية بالمغـرب العـربي هـو حصيلة لصنفين من ممارسات القهر** التي تتعرض لها خاصـة المـرأة المغاربية المتعلمة والمثقفة تعليما وثقافة عصريتين (غربيتين): أ) القهـر الـناتج عن علاقة المستعمر بالمستعمر و(ب) القهر الناتج من تقاليد وعقلية مجـتمعات المغرب العربي بخصوص معاملات الأنثى المتطلعة إلى ممارسة الحياة العصرية .

عاشرا : الباحثون المغاربيون وظاهرة الفرنكوأراب

إن ظاهرة **الفرنكوأراب** كما وصفناهاهنا وفي أماكن أخرى من كتاباتناهي جزء من ظاهرة **التخلف الأخر** الكبرى التي ابتليت بها معظم شعوب العالم الثالث في العصر الحديــث . فهــي إلى حــد كبير إفرازة لغوية اجتماعية ملتصقة بظاهرة الإستعمار الفرنســي، ومــا لذلك من تأثير قهري مادي ومعنوي في هذه المجتمعات. ومن ثم فهي بعيدة أن تكون ظاهرة تقدم بحث كما يتخيل العديد من (الفرنكوأرابيين). ومن هــذا التصــور يمكــن فهــم أسباب إهمال دراستها من طرف الباحثين المغاربيين كعرض من أعراض التخلف لمجتمعاتهم. فعدم بحثهم للفرنكوأراب **كظاهرة تخلفية**[309] (ولا تقدميــة)هــو إذن أمــر منــتظر لا غــرابة فيه في **مناخ التبعية الثقافية الفرنســية**. إن صــمت الباحثين الاجتماعيين المغاربيين على دراسة هذه الظاهرة (كمــلمح تخلف لا تقدم) يرجع في حد ذاته إلى عامل **القهر الثقافي** الذي يعاني منه كــثير مــن المثقفين المتفرنسين (والفرنكوأرابيين) . فالتكوين الثقافي لهؤلاء طالما تطغى فيه الثقافة واللغة الفرنسية على اللسان العربي وثقافته . **ومن ثم تتشوه رؤى هؤلاء الباحثين حتى في إختيار موضوع البحث والكشف عن عمق طبيعته.**

ومهمــا كانت أسباب صمتهم عن دراسة الفرنكوأراب من الوجهة التي تطرق إليها هــذا الفصــل، فــإن هناك تساؤلات لا بد من إثارتها في هذا الصدد. لقد تبين أن الفرنكوأراب نوعان: صنف **ذكوري** والآخر **أنثوي**. وليست هناك دراسات معروفة لــدى الباحــثين المغــاربيين قــامت بهــذا التمييز بخصوص المزج اللغوي في مجتمعاتهم. وإذا كانوا فعلا لم يلاحظوا هذه الثنائية الذكورية/ الأنثوية للفرنكوأراب ، فذلــك يدعونــا إلى **التشــكك فــي مــدى اعتمادهم على الملاحظة الإجتماعية الموضوعية كمبدأ أساسي وأداة هامة لمنهجية الباحث الإجتماعي** . ومن المتوقع أن الــباحث الإجــتماعي قــد يضــل في دراسته إما لأنه ترك جانبا واقع مجتمعه الإجتماعي أو لأنه كان فاقدا لرهافة الحس في الملاحظة الإجتماعية. فالهروب من

---

[309] انظر مثلا " الدليل البليوغرافي " لمنشورات مركز الدراسات الاقتصادية والاجتماعية بتونس 1964-1979 حيث لا يبدو أن هناك دراسات تطرقت بصراحة لظاهرة الفرنكوأراب كملمح استعماري.

معطيــات الواقع الإجتماعي هو سبب رئيسي لفقر النظريات الاجتماعية فضلا عن غيابها عند المفكرين في القديم والحديث. إن الذي جعل العلامة العربي **ابن خلدون** يتفوق على من سبقه مثل أفلاطون والفارابي هو **إلتزامه بالواقع الإجتماعي العربي كــنقطة انطلاقــة في كل تنظيراته حول العصبية والدين والحكم والبدو والحضر ونشأة وسقوط الحضارات.** ومن ثم جاء تفكيره مصيبا لا لفهم المجتمع العربي في زمانه فحسب ، بل أن تنظيراته لا تزال تتمتع بمصداقية عالية لفهم المجتمع العربي اليوم في عديد من جوانبه.

وإذا كــان الباحــثون المغــاربيون قــد لاحظوها (أي ظاهرة الفرنكوأراب بثنائيتها وملامحهــا التخليفية) ولم يندفعوا إلى دراستها فالأمر يثير أيضا **عدة تساؤلات:** هل أهمــلوا الاعتــناء بهــا وإلقــاء الضوء عليها لأن في كشف طبيعتها الاستعمارية والتخــليفية تصادما، خاصة مع الرأي العام السائد، الذي لا يزال يرى بسبب غياب الــتوعية مــن طرف الحكام والمثقفين في استعمال الفرنسية (مزجا مع العربية أو عــلى انفراد) مؤشر تقدم لا تأخر ؟ وإذا كانت الإجابة بنعم على هذا التساؤل فإن الباحثين الإجتماعيين المغاربيين مدعوون باسم العلم والموضوعية إلى **تعمق أكبر** ، خاصــة في دراسة الظواهر ذات الحساسية الشخصية والإجتماعية لأنهم إذا تحاشوا دراســة ظاهــرة الفرنكوأراب كملمح تخلفي وذلك خوفا فقط من إثارة الحساسيات الإجــتماعية ، الــتي لا شــك أنها موجودة خاصة عند كثير من الفئات البرجوازية المــتغربة، **فإن تقاليد معايير العلمية والموضوعية في دراسة الظواهر الاجتماعية تكــون قــد صُوِّبت إليها ضربة جارحة.** وبهذا تكون الروح العلمية قد سلبت أعز أسســها (الحــرية والموضوعية) وذلك **لإستمرار تأثيرات القهر الإستعماري على الإنسان المغاربي** عالما كان أو باحثا أو حاكما أو محكوما .وضحية هذه المعطيات جميعــا تتمــثل في **عرقلة تقدم المعرفة الإجتماعية**، من جهة، وإمكانية استعمالها لكسب المعركة ضد التخلف بكل مظاهره المعنوية والمادية، من جهة أخرى.

الباب الرابع

التخلف الآخر بالمجتمع التونسي

الفصل الأول
ظاهرة المزج اللغوي عندنا*

أولا: ملاحظات صيفية عن لغتنا

أنـــا تونسي غادرت أرض الوطن منذ 1966 إلى أمريكا الشمالية حيث درست علم الإجتماع وعلم النفس في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا.وأنا الآن بصدد كتابة أطروحة شهادة الدكتوراه، وفي نفس الوقت أدرّس العلوم الإجتماعية بجامعة كـندية إنجـليزية وأخرى فرنسية . منذ مغادرتي لتونس إلى أمريكا الشمالية في السـنة المذكـورة أعـلاه لـم أكلأ جهدا في زيارة أرض الوطن كلما سمحت لي الظـروف بذلك . فزيارتي في صيف 1975 لتونس تعد المرة الرابعة التي أرجع فيها إلى الوطن زائرا للأهل والأصدقاء ولبعض المناطق من الجمهورية. وفي كل مـرة رجعـت فيها للزيارة حاولت شخصيا أن أتفهم بعض الملامح والظواهر في مجتمعـنا وحياتنا التونسية التي ربما أنا الآن أكثر تجربة لفهمها .وأعتقد أن حياتي ودراسـتي فـي مجتمع أمريكا الشمالية قد مدتني وتمدني بنظرة تحليلية خاصة في تطور المجتمعات وسلوك أفرادها بطريقة أقرب إلى الموضوعية والروح العلمية.

إن علماء النفس والإجتماع يدرسون فعلا، في الوقت الحاضر، الأفراد والمجتمعات حسـب طـرق ومقاييس جديدة تجعل الظاهرة النفسية والاجتماعية ممكنة الدرس موضوعيا وميدانيا. وهذا يعني أن هذه المحاولات في العلوم الاجتماعية تسعى إلى فهـم عـلمي للظواهر النفسية والاجتماعية بما للدلالة العلمية من معنى حديث في العـلوم كالفيـزياء والطبيعيات والكمياء. إلا أن المتخصص في العلوم الإجتماعية يـلاقى **أكـثر صـعوبات** من المتخصص في العلوم البحتة. إذ أن الظاهرة النفسية والإجـتماعية أثبتت للمختصين في هذا الميدان أنها ليست يسيرة المنال أحيانا لكل شغوف بفهمها. ولهذا فهي تتطلب عندئذ مقاييس ومعايير أكثر نضجا ودقة . وإذا كانت طبيعة الظاهرة النفسية والإجتماعية لا تخلو من تعقيدات جدية –قبل الوصول لفهمها– فإن هذا يملي علينا موقف التفهم حيال البحوث الإجتماعية والنفسية التي قد لا تظهر نضجا ودقة علمية في فروضها وخلاصاتها . **والمهم دائما في كل العلوم هو أن تتوالى المحاولات لفهم ما صعب فهمه وإكتشاف الجديد.**

فمـن الظواهر الإجتماعية التي وجدت نفسي مشدودا لمتابعتها وفهمها هذا الصيف فـي المجـتمع التونسي هي **ظاهرة المزج اللغوي (الفرنكوأراب)**. وأعني بالمزج الـلغوي هنا هو مزج دارجتنا التونسية خاصة بالكلمات والعبارات الفرنسية . فمما يلاحظ في هذا الصدد أن المواطن التونسي المازج يبلغ أوج المزج اللغوي عندما يسـتعمل اللغة الدارجة التونسية . وأما الفرد التونسي الذي يتكلم العربية الفصحى أحيانا فإنه نادرا ما يمزج بالفرنسية عربيته حتى وإن كان يتقن هذه الأخيرة . فغالبا

* هذا هو أول مقال أكتبه وأنشره حول التخلف الآخر

يقــع المزج عنده إذا اضطر إلى استعمال اصطلاح فرنسي شائع عند مخاطبيه أو بيئته . وهذه الملاحظة تومئ **إلى أن متكلم العربية الفصحى له نوع من الحصانة ضــد الانســياق فــي تيار المزج اللغوي المبالغ فيه.** وهذا يعني أن تكلم العربية الفصــحى عــند أفراد أمتنا يعطيهم شعورا ذاتيا أكثر بلغتهم وحضارتهم وهويتهم. ولهذا تجدهم عموما يمتعون أكثر من غيرهم في المجتمع التونسي من الانزلاق في المــزج الــلغوي المبالغ فيه . وفي نظري فإن القدرة- وليس حتى التطبيق الفعلي- عــلى التعــبير بالعــربية الفصـــحى بسهولة يُنقص من نسبة المزج عند المواطن التونســي، لأن أحــد الأسباب لتعاطي المزج اللغوي عند أي فرد وأي مجتمع هو فقدان القدرة على التعبيربسهولة ووضوح بلغة معيّنة عن كل شؤون الحياة.
إذن، فمتابعتي لهذا النوع من المزج اللغوي(مزج العامية التونسية بكمية لا بأس بها مــن الكــلمات والعبارات الفرنسية) في المجتمع التونسي مبنية على أن هذا المزج أكــثر وقوعا في مجتمعنا التونسي من المزج،مثلا، بين العربية الفصحى والفرنسية **وأكــثر نشازا** من المزج بين العربية الفصحى والعامية التونسية نظرا لقرب هاتين اللغــتين مــن بعضـــهما الــبعض وذلك لبعد العامية التونسية عن الفرنسية أصالة وتركيبا ونطقا ورنة . ومتابعتي لهذه الظاهرة مستندة على أن هذا النوع من المزج الــلغوي له انعكاسات نفسية وإجتماعية تختلف في طبيعتها عن انعكاسات النوعين الآخــرين من المزج اللغوي . **ثم أن ظاهرة هذا المزج اللغوي لم تقل انتشارا في الــبلاد التونســية بعــد حصولنا على الإستقلال التام** . كل هذا جذبني لكي أراقب حــدوث ظاهرة المزج وأنا أتجول في ربوع الجمهورية من شمالها إلى جنوبها هذه الصيفية (1975).
وقــبل أن أدلــي بــبعض الملاحظـــات عن انعكاسات هذه الظاهرة ، ظاهرة مزج الدارجـــة بالفرنسية، دعنا نفسح المجال لبعض الأمثلة والعينات لهذه الظاهرة عندنا حــتى تتكــلم عن نفسها كما شاهدتها شخصيا تحدث بين تونسيين من الشمال إلى الجنوب مدة تجوالي هذا الصيف.
1/ ذهــبت إلى المركـــز السياحي بسوسة بغية أخذ بعض الإرشادات السياحية. لما كـــنت بصـــدد جمع بعض التفاصيل عن أفضل الطرق للذهاب إلى جربة . وإذ أنا أتحـــدث مع المسؤول بالمركز السياحي دخل شاب تونسي في العشرين من عمره وطــلب بالعاميـــة من المسؤول إرشادات عن كيفية تقديم مطلب للشغل بالمصلحة السياحية . **فرد المسؤول على الشاب برد يحتوي على أكثر من النصف بالفرنسية** ذاكـــرا للشـــاب الأوراق اللازمـــة والعـــنوان الذي يجب إرسال الأوراق إليه. وإذا **بالشـــاب** وكأنـــه يـــتأثر بلغة المسؤول (ذي السلطة على الشاب حينئذ) **يشرع هو الآخر بمزج لغته الدارجة بالفرنسية** تقريبا بنفس نسبة المزج التي اتبعها المسؤول على المصلحة السياحية بسوسة.
2/ لمـــا كـــنت مارا بصفاقس في اتجاه جربة أردت مهاتفة صديق تونسي كي أبلغه تحيـــات صـــديق تونســـي له بكندا. فذهبت إلى نزل سياحي وسط المدينة باحثا عن

هـــاتف كي أهاتف منه صديق صديقي. أعطيت إلى الفتاة المكلفة بالمكالمات الهاتفية الـــرقم الهاتفي باللغة الدارجة التونسية، **فإذا بي أرى على وجه الفتاة نوعا من عدم الرضـــا** إمـــا أن يكون سببه عدم فهم الرقم بعاميتنا التونسية أو عدم رضاها وخجلها مـــن ذكر الرقم لها بالدارجة! لما رأيت هذا النوع من الحيرة في وجهها أعدت إليها نفـــس الرقم بالعامية التونسية، فإذا بها تفهم وتعي الرقم هذه المرة لكن تكرره لنفسها -ولـــربما تأنيبـــا لـــي- بالفرنســـية كأن **تكراره بهذه اللغة أعطاها سكينة ونضجا حضاريا ليس اللغة العربية قادرة عليه !.**

3/ ذهبت إلى مسرح قرطاج الأثري لأشاهد "كاركالا" ذلك البالي اللبناني . كان ذلك ليلة 9أوت1975 . قبل بدء هذا البالي أعلن مسؤول وهو يتكلم في مضخم صوت عن العـــثور عـــلى رخصة سياقة ضائعة . أخذ المسؤول يعطي أوصاف ونوع السيارة إلـــخ... ولمـــا حان ذكر رقم السيارة لم يستطع المسؤول أن يواصل الكلام بالدارجة التي بدأ بها هذا الإعلان ولاذ حينئذ إلى **ذكر رقم السيارة بالفرنسية !**

إن المـــثالين السابقين يشيران إلى نوع خاص من حب المزج اللغوي عندنا . ذلك أن كثيرا من التونسيين خاصة إذا كانوا في مصالح إدارية حكومية كالهاتف ومحطة القطـــار والمصالح السياحية يجدون أنفسهم يفضلون نطق الأرقام بالفرنسية عوضا عن الدارجة. وإني شخصيا لمست هذه الظاهرة لمسا فعليا عند احتكاكي بالمواطنين التونســـيين في مناسبات متعددة وجهات مختلفة من الجمهورية . وللمرء أن يتساءل لمـــاذا يـــلجأ التونســـي في كثير من الأحيان إلى ذكر الأرقام بالفرنسية عوضا عن العاميـــة ؟ فلا بد أن يكون لذلك تفسير . يمكن أن يكون راجعا إلى شعور بالرشاقة لـــدى الفـــرد المـــازج عند ذكر الرقم بالفرنسية . ويمكن أن يكون راجعا إلى عادة اكتسبها الفرد التونسي على مر السنين . والشغوف بهذه الظاهرة الخاصة في إمكانه أن يغـــوص في لب هذه الجزئية من المزج اللغوي عندنا.وقد ناقشنا ذلك في الفصل السابق.

4/ فـــي محادثـــاتي في الشمال والوسط والجنوب كنت **ألاحظ ظاهرة المزج اللغوي باطـــراد** . وكـــانت الكلمات الفرنسية تزداد في كلام محدِثيّ كلما علموا أني أعرف الفرنسية والإنجليزية وأن لي عددا من السنين في أمريكا الشمالية . كان الأمر هكذا حيـــنما كـــنت أتحدث مع شاب من الحزب الدستوري في البقالطة . كان هذا الشاب مسؤولا على مجموعة من الشبان المتطوعين لبناء ناد للشباب في هذه القرية . كان الشاب طالبا جامعيا ولكن حديثنا كان بعيدا عن المسائل العلمية، بل كان حديثا بسيطا يـــدور حـــول عـــدد الشبان المتطوعين ونوعية وعدد الأكلات التي تطهى لهؤلاء الشـــبان والحســـابات الماليـــة التي يتطلبها عدد هذه الأكلات . رغم بساطة حديثنا ومقـــدرة دارجتنا العربية -لغة الحزب الحاكم -اختار محدثي أن يكثر نسبة الكلمات الفرنســـية فـــي حديثه عن بعض التفاصيل. وكنت أتكلم معه دائما بالعامية **ولم يوح إليه ذلك أني غير مجذوب للمزج اللغوي** بل أني أفضل الصفاء اللغوي.

5/ ظاهـــرة المـــزج الـــلغوي لاحظـــتها عـــند الكهلة التونسيين مثل شوَّاش بعض المؤسسات عندنا. لاحظت أنهم يكثرون في المزج كلما علموا أني أعيش في أمريكا الشـــمالية منذ سنوات وأني أحسن الفرنسية والإنجليزية . ونفس الشئ يمكن أن يقال عـــن ســـلوك شبابنا التونسي الذي سمحت لي الفرصة أن أتحدث معه بعد أن عرف شيئا عن حياتي في الخارج وثقافتي. أعني هنا أن المرء يمكن له أن يلاحظ بسهولة هـــذه العلاقـــة بين الإكثار من المزج اللغوي عند كثير من التونسيين الذين يعرفون الفرنســـية أو شـــيئا منها إلى جانب الدارجة ومدى نصيب محدثّهم من اللغة والثقافة والحيـــاة الغربـــية. باختصـــار لاحظـــت أن محدثيَّ **أكثروا من الخلط اللغوي كلما اكتشـــفوا أن لـــي زادا مـــن الحضارة الغربية من حيث ثقافتي وعدد السنين التي قضيتها هناك.**

6/ مـــن الملاحظـــات الأخرى التي سجلتها أثناء احتكاكي بالمواطنين التونسيين أن ظاهـــرة المـــزج وصلت عند بعض الأفراد، على الأقل، إلى **عالم "اللاشعور"** أو السلوك "اللاإرادي ". يتضح هذا في حالات مع بعض الأصدقاء خاصة حيث أثيرت مشكلة المزج اللغوي ونوقشت وإتفق هؤلاء الأصدقاء على أن هذه الظاهرة ظاهرة مشينة للمواطن التونسي . لكن هؤلاء الأصدقاء أنفسهم يعودون في مناسبات أخرى إلى المـــزج الـــلغوي خاصة إذا تحدثوا عن أرقام أو تواريخ مثل 25أوت ... فإنهم كـــانوا يفضلون ذكر ذلك التاريخ بالفرنسية ... ! بهذه الأمثلة المحدودة من مجتمعنا التونســـي لا أقصـــد المجئ بالجديد لكل من يملك حاسة الملاحظة الإجتماعية. بل هدفـــي من هذه الأمثلة ذكر حالات واقعية شاهدتها تقع بين مواطنين تونسيين أثناء زيـــارتي لأرض الوطـــن هذه الصيفية. وإنها إذن ليست حالات خيالية يصعب على المرء التكهن بإمكانية وقوعها .

ثانيا: الدوافع النفسية والإجتماعية للمزج اللغوي

ولـــنفهم **دوافـــع المـــزج الـــلغوي** عند المازجين يجب على المرء أن يتفهم بعض وظائف اللغة:

أ/ من أولى وظائف اللغة التخاطب والتفاهم بين الأفراد والجماعات والمجتمعات.

ب/فـــي تقديري أن من مهام اللغة تلك **الوظيفة النفسية** التي تؤديها إلى المتكلم بها. أعني أن المتكلم بلغة ما في عصرنا الحاضر يمكن له أن يبلغ –عن طريق استعمال الـــلغة الـــتي يختارها –مطلبا ترغب في اقتنائه شخصيته كحب كسب صفة الحداثة والتحضـــر والمدنيـــة والبعد عن صفات أخرى لا تحبذ الاتصاف بها شخصيته مثل الـــبداوة والتخلف والتحجر العقلي إلخ...إن الفرد في عصرنا الحديث يتطلع إلى ما يســـمى بالحضارة المتقدمة. لأن هذه الحضارة رغم النقد الموجه إليها ما زالت لها قـــوة جـــذب في إرجاء المعمورة. ومحاولة الانتماء إلى هذه الحضارة المتقدمة –خاصة الحضارة الغربية –يحقق لدى الفرد طلبا نفسانيا هو **حب الشعور بالإنتساب إلى العـــالم المتحضر** وما لذلك من انعكاسات على شخصية الفرد وآفاق حياته . إن عالمـــنا المعـــروف بالمتحضر اليوم سمح للفرد بمكاسب كثيرة لم يكن هذا الأخير

قـــادرا حـــتى عـــلى الحلم بها قبل ظهور فكرة التقدم في أوروبا التي كانت مقرونة بمفهـــوم العـــلم. كل ذلك يجعل الأمر طبيعيا أن يحاول الفرد بكل الوسائل ، ومنها اللغة ، أن ينتسب-ولو قليلا- إلى حضارة التقدم أو الحضارة الغربية بصفة أخص.

وبمـــا أن الـــلغة عنصر رئيسي للإنتساب إلى أي مجتمع أو حضارة **فخيّل للفرد أن أقرب وأسهل الطرق للإنتساب إلى حضارة التقدم هو تكلم لغة الحضارة الغربية** ومزجها -بنسب أقل أو أكثر حسب المناسبات -باللغة العامية للمجتمع التونسي.هذه العمـــلية المختصرة توهم المازج أن عملية الإنتساب قد تمت إلى الحضارة الغربية المنشودة رغم أن عناصر أخرى مهمة في الإنتساب الصحيح إلى هذه الحضارة ما زالت مفقودة عند المازج التونسي الذي يخلط دارجته بالفرنسية بإفراط.

ج/ وفـــي تقديـــري أيضـــا أن استعمال المزج اللغوي يؤدي **وظيفة إجتماعية** إلى المـــازج شـــبيهة بالوظيفة النفسانية التي يتحصل عليها الفرد من الخلط اللغوي في مجتمعـــنا التونســـي. وهذه الوظيفة الإجتماعية تتلخص في أن الخلط اللغوي يعطي لخالطـــه تصورا **واعتقادا و شعورا بالإحترام والسطوة الإجتماعية** لدى المحتكين بـــه. فالمـــازج للعامية التونسية بالفرنسية كثيرا ما يعتقد أن تأثيره الإجتماعي يزداد قـــوة وصـــلابة إذا هـــو قام بعملية الانتساب هذه عن طريق امتطاء اللغة الفرنسية كوســـيلة إلى ذلـــك الهـــدف. هذا التصور الذي يشغل بال الفرد المازج يجعله في النهاية يشعر أنه من الفئة المتحضرة لمجتمعه وما لهذا التصور من انعكاسات على علاقـــة هـــذا الفـــرد ببقية مجتمعه من حيث مكانه في الهرم الإجتماعي لمجتمعه. باختصـــار فـــإن الخـــلط اللغوي قد يبوئ توهما أو واقعيا صاحبه مكانا مرموقا في التركيـــبة الإجـــتماعية لمحيطـــه. وهذا لعمري **كسب إجتماعي غير حقير للمازج اللغوي.**

و بالكســـبين **النفســـي والإجـــتماعي** يشـــعر المـــازج أنه بخلطه هذا يكسب علاقة إجـــتماعية وشعورا نفسانيا ساطعة شمسهما. وهذا السطوع يتمثل في شعور المازج الـــلغوي أنـــه لم يعد حقيرا نفسانيا وإجتماعيا . وأن علاقاته بأفراد المجتمع تحسن أكـــثر فأكثر إذا هو حافظ على المزج اللغوي في احتكاكه بأفراد مجتمعه الذين هم الآخرون لهم نوع من ذلك التصور وبذلك يشجعون المازجين على الإستمرار على الخـــلط **و يـــنعدم بذلـــك الشعور الإجتماعي الذي كان يمكن أن يلعب دور المقاوم لـــلمزج الـــلغوي فـــي المجتمع التونسي** . وشخصيا فإني لاحظت عدم وجودهذا الشـــعور الإجـــتماعي ضد ظاهرة المزج اللغوي في الأوساط التونسية بصفة عامة وخاصـــة بين أفراد مجتمعنا الذين لهم ثقافة أمتن في اللغة الفرنسية. وفي رأيي إن عـــدم وجـــود شـــعور وطـــني عام ضد ظاهرة الخلط اللغوي يضع مجتمعنا نفسه التونسي أمام **حقيقتين** :

1/إن نســـبة المـــازجين في مجتمعنا التونسي سوف تزداد بدل أن تنقص وذلك لعدم وجود المعارضة الجماعية العلنية للمزج اللغوي ولكثرة نسبة المواطنين التونسيين بعـــد الإســـتقلال -لتعميم النظام التربوي في كل أنحاء الجمهورية -القادرين على

إتقـــان قدر ما – على الأقل – من الفرنسية. فهذان العاملان في نظري يشيران إلى أن **ظاهـــرة الخـــلط اللغوي في مجتمعنا التونسي ليست في طريق الإنقراض ولا حتى في طريق الإصلاح الجزئي.**

2/ الحقيقـــة الـــثانية هي أن مشاريع التعريب عندنا لا تجد إلتزاما إجتماعيا دافعا. ولذلـــك فـــإن هذه المشاريع ستبقى حبرا على ورق ما لم تلق تشجيعا إجتماعيا جديا يحـــول قضية التعريب إلى واقع ملموس في حياة الفرد والجماعات والمجتمع بصفة عامة.

ثالثا: الإستقلال اللغوي الثقافي وحماية اللغة والهوية

ولسائل أن يسأل في هذا الصدد: هل المزج الغوي ضروري ؟ وهل يجب تشجيعه إجتماعيا وفرديا؟ وهل أن دوافعه يمكن الدفاع عنها في كل الحالات؟

أولا: إن المـــزج الـــلغوي يمكن أن ينظر إليه على أنه أصبح ضروريا خاصة في عصـــرنا الحاضـــر الذي صغر فيه العالم لوجود وسائل التواصل الحديثة وكنتيجة لذلـــك كـــثر عـــدد الأفراد الذين يعرفون على الأقل بعض المفردات والعبارات من لغـــات أجنـــبية أخـــرى. وعـــلى هذا الأساس فهذا النوع من المزج اللغوي ظاهرة منـــتظرة فـــي واقع جديد خاصة في عصرنا الحديث. فهذا النوع من الخلط اللغوي يختـــلف في دوافعه عن أنواع أخرى من المزج اللغوي. فهو مزج يستعمل بعض العبارات والمفردات المحدودة التي أخذت طابعا عالميا مثل "بلوجينس"، "التلفزيون" و"الراديو" إلخ. هذا النوع من الخلط اللغوي هو ضروري نوعا ما وغرض المازج أساســـا هو غرض استعمالي وعملي. فهو إذن مزج **لا يحتم علينا تأنيب فاعله** لأنه خـــلو إلى حـــد كبير، وفي غالب الحالات، من الدوافع النفسية والإجتماعية التي لها انعكاسات غير سليمة على الفرد والمجتمع.

ثانيا: أما المزج اللغوي الذي يترقب من ورائه الفرد نفعا نفسيا وإجتماعيا فهو الذي يتطـــلب تفهما أعمق و اتخاذ موقف جدي منه.ففي نظري إن هذا النوع من المزج **يغـــالط الفـــرد فـــي تقييم نفسه نفسيا وإجتماعيا.** وهو أيضا **تصور خاطئ** يحسبه المـــازج واقعـــا إجتماعيا هو جدير بتبوئه . فمن هذين الزوايتين يبدو أن هذا النوع مـــن **المـــزج اللغوي لا يؤدي إلا تصورا خاطئا للفرد حيال نفسه وحيال علاقاته بـــبقية المجتمع.** وإن السماح للمزج اللغوي كعنصر لتفريق مجتمعنا هو ضربة إلى وحدة الوطن التي تحتاج إلى العنصر اللغوي كموحد لا مفكك لنا. ورغم عدم وجود معارضة جماعية بارزة ضد الخلط اللغوي فإن نوعا من الشعور على الأقل المنتقد لخـــلط الـــلغوي موجود بين فئات وإن كانت هذه الفئات لا تمثل الأقلية.وهذا ما أعـــني بأن المزج اللغوي يمثل فعلا نوعا من **التمزق الاجتماعي** الذي لسنا بحاجة إليه ولا ينبغي لنا أن نكون فخورين به ونلهى بعضنا البعض بالنقد والفخر على أن ذلك عصري وهذا تقليدي. وفي اعتقادي أن تلافي هذا التمزق الاجتماعي ممكن إذا قمـــنا جديـــا **بنشر الوعي الإجتماعي** حول **سلبيات الخلط اللغوي** كما قمنا بحملات إجتماعية حول التنظيم العائلي ، حول النظافة ، حول محو الأمية إلخ...

إن نظامـــنا التربوي لا يعطي التلميذ ولا الطالب زادا كافيا من الثقافة العربية يمكنه من التعبير عن نفسه بسهولة باللغة العربية الفصحى . إن التعريب الجدي في صلب برامجـــنا التربوية يجب على الأقل أن يمكن المتحصل على شهادة الباكالوريا من التعبير عن نفسه في الحياة العامة وفي المسائل الثقافية والعلمية بلسان عربي متين.
وفـــي اعــتقادي أيضا أن حملات وطنية يجب أن تشن لصالح تطهير لغة المواطن التونســـي وإبراز انعكاسات الصفاء اللغوي على ثقافتنا وعلى ذاتية أفراد أمتنا. ولا بد أن يكون النظام السياسي عندنا وراء هذه الحملات دافعا ومشجعا على تغيير هذه العقــلية التي مازالت، ويا للأسف، رابضة نفسيا وإجتماعيا فيً مجتمعنا. وإذ نفعل ذلــك نكـــون قـــد ساهمنا جديا في **الخروج من دائرة التخلف** كما نحاول ذلك في مجـــالات أخرى كالإقتصاد والتنظيم العائلي والصحة العمومية ، التي قطعت فيها تونس بشهادة العالم أشواطا قيادية بين دول العالم الثالث.
والإستقلال اللغوي الثقافي هو كسب لم تتحصل عليه كثير من الدول التي تحصلت فعلا على إستقلالها السياسي والعسكري و... و....والإستقلال اللغوي الثقافي أظهر أنـــه لا يتبع بسهولة الإستقلال العسكري، والاستقلال الإقتصادي و ...و...بل يظل يجـــر أذياله. وفي تونس العهد البورقيبي**ما زال لنا طريق غير قصير للحصول على الإستقلال اللغوي الثقافي** الذي يسدد ضربة إلى ظاهرة الخلط اللغوي ويعطي دفعة حاســـمة لـــلغة الـــبلاد تربية وشعورا إجتماعيا. وحذار من أن نغالط أنفسنا بالوهم ونعـــتقد أنـــنا قد تحصلنا على الإستقلال اللغوي الثقافي. علينا أن نتمهل قبل إصدار مـــثل ذلـــك الحكم على أنفسنا. إذ أن **التخلف اللغوي الثقافي** أثبت عبر التاريخ في تجـــارب أمـــم متعددة أنه **ذو مقدرة مدهشة في التخنس عن العين المجردة وعن المواطـــن العـــادي**. وهذا ما عرضنا إلى تحليل أسبابه خاصة في الفصل الأول من هـــذا الكـــتاب. وخطره على الفرد والمجتمع غير واضح بسهولة للملاحظ العادي . ولكـــنه مـــع ذلك يبقى خطرا على الفرد ومجتمعه كبعض الأعراض التي هي غير واضـــحة لـــلملاحظة البسيطة ، ولكنها مع ذلك تخرب الجسم وقد تثبت في النهاية **أنها أكثر خطرا من تلك الأمراض التي تدركها العين المجردة والملاحظة والعادية بسهولة**. وفي نظري أن الاستقلال اللغوي والثقافي **واسترجاع الهوية التونسية** لها عناصرها الصامدة في الفرد التونسي المازج شعوريا أوغير اللاشعوري. ومن بين عناصـــر الهويـــة، لغة الوطن طبعا. وقد لاحظته يغار على لغته وذاته حتى عندما كـــان يتقن اللغة الفرنسية أحسن من إتقانه العربية. لاحظت هذه الغيرة تسطو جديا في سلوك وحتى في نبرات بعض شبابنا المثقف بالفرنسية. كنت راجعا من "حومة الســـوق" بجربة في حافلة نقل عمومي إلى النزل على الشاطئ حيث مكثت . كانت الحافـــلة ملآنة وكان كثير من الركاب واقفين. وكنت أحدهم في مؤخر الحافلة. كان بجانبي ثلاثة شبان تونسيين يبدو أنهم يدرسون في الجامعة التونسية. كانوا يتجاذبون أطـــراف الحـــدث بلهجة " باريسية" مع ثلاثة سياح فرنسيين أحدهم رجل كان هو الـــذي يقوم بمعظم المحادثة مع الشبان الثلاثة. وأثناء هذه المحادثة قال السائح لهم

وكأنــه يؤكد حقيقة: **إن الفرنسية هي اللغة الرسمية في البلاد!** واستنكر الشبان – بــنوع مــن الــلطف–على ما قاله السائح وأردفوا قائلين له إن محاولات التعريب موجــودة فــي قطاعــات كثيرة في البلاد، كوزارة الداخلية وبعض المواد أصبحت تــدرس بالعــربية بعد أن كانت تدرس بالفرنسية إلخ. هذا الموقف الذي وقفه شبابنا الــثلاثة حيــال الهوية واللغة يكشف بوضوح عن **وجود شعور داخلي عندنا يؤمن بشخصيتنا وحضارتنا ولغتنا.** ولم يقدر الشباب أن يمزجوا شخصيتهم وهم يتحدثون مــع الســائح بشخصــية وحضــارة ولغة فرنسا . فهذه الملاحظة تومئ إلى عمق شخصية وحضارة كل فرد ينتسب إلى أمة وحضارة معينة ، وأن الظواهر السطحية – كظاهرة المزج اللغوي –ربما تخفى صلابة وصمود عناصر أخرى في شخصية الفرد ونوع انتسابه الحقيقي إلى حضارة وثقافة معينتين.

فوجــود عناصــر شخصيتنا وحضارتنا لا يمكن إنكارهما حتى ولو كثر المزج في بلادنا وعلى هذا الأساس، أساس وجود صلابة مثل هذه العناصر في شخصيتنا فإنه يــبدو منطقيا **أن نقوم بحملات** تظهر هذه العناصر إلى عالم الجهر والسفور لا عالم الخجــل والخفــاء . وإذا تــم ذلــك **فإن الوعي الإجتماعي يقوم هو الآخر بوظيفة المــراقب والمدافع والحامي لكل ما يلمس شخصية مجتمعنا التونسي** مثل ظاهرة المزج اللغوي المنتشرة عندنا بكل حرية وخلاعة.

الفصل الثاني

سلوكات ومواقف التونسيين إزاء الالتزام الواعد بالتعريب

أولا: موضوع هذا الفصل

من الأشياء الرئيسية التي ينبغي أن يُسجلها الدارس للمسألة اللغوية **في المجتمع التونسي الحديث هو** أن هذا الأخير ليس ثنائي اللسان فحسب بالمعنى التقليدي المتعارف عليه. وإنما هو أقرب إلى أن يكون **ثلاثي اللغة**. فالدارجة التونسية والعربية الفصحى واللغة الفرنسية كلها مستعملة بهذا المجتمع لكن بدرجات مختلفة. فالفئات الأمية يطغى على كلامها استعمال العامية. أما المعربون كقدماء الزيتونيين فيغلب عليهم إستعمال العامية والفصحى. أما المتعلمون المزدوجو اللغة كالصادقيين ومن يشابههم من جيل الإستقلال فهم القادرون أكثر من غيرهم على استعمال اللغات الثلاث إن هم شاءوا ذلك. وفي النهاية فالفئات التونسية الأكثر تفرنسا ذات قدرة على استعمال كلٍّ من الدارجة والفرنسية. أما استعمالها للغة الضاد فمستواه هزيل على العموم.

إن الملاحظ المتعمق **لهذه التركيبة اللغوية الثلاثية** للمجتمع التونسي الحديث لا يسعه إلا أن يُقِرَّ بتلازم **وجود الصراعات والتواترات** بينها التي قد تصل حد التأزم والقطيعة أحيانا. وذلك لأسباب عديدة ليس هنا مجال ذكر كل خلفياتها[310]. ويكفينا في هذا الصدد ملاحظة عالم الإجتماع الألماني زمِلSimmel الذي أكد على أتسام التركيبات الثلاثية بقدر أكثر من الصراعات بسبب ورود إمكانية عقد **التحالفات** بين إثنين ضد ثالث...

وما نريد أن نركز عليه هنا في هذه التركيبة اللغوية الثلاثية هو موقف (اتجاه)[311] التونسي وسلوكه من إستعمال العامية والفصحى حديثا وكتابة. وبعبارة أخرى، هل أن التونسيين مهيأون -بعد أكثرمن أربعة عقود من الإستقلال- نفسيا وعمليا لتعريب حديثهم وحروف كتابتهم في كل قطاعات نشاطاتهم المجتمعية على المستوى العام والخاص؟ إن قضية التعريب مطروحة شعبيا ورسميا بالمجتمع التونسي. وإن تسييس الموضوع لم يخلُ من مشادات واتهمات عكست الصحف

---

[310] صراع العامية مع الفصحي عرفه المشرق والمغرب العربيان في العصر الحديث.فمما لا شك فيه أن العامية أعطيت أهمية بارزة في العهد البورقيبي فاحتل الشعر الشعبي مكانة مرموقة. وكان بعث العامية يتماشى مع أبراز قطرية تونس،من ناحية، في عهد مد تيار الوحدة العربية واضعاف دور الفصحى كرباط بالعروبة،من ناحية أخرى.هذا الخصام بين الفصحى والعامية فسح المجال لمحافظة الفرنسية على امتيازاها في تونس المستقلة.

[311] كلمة اتجاه/ موقف هي الأكثر استعمالا كمصطلح في أدبيات العلوم الاجتماعية العربية:(انظر: الاتجاهات التعصبية / د.معتز سيد عبد الله/ سلسلة عالم المعرفة 137 ماي 1989). تستعمل في هذه الدراسة كلمة موقف كمرادف لإتجاه.

والمجـــلات التونســـية الكثير منها. **إن تقييم مواقف وسلوكات التونسيين من لغة الضـــاد والدارجـــة** يعـــد فـــي نظرنا مسألة حساسة في هذه المرحلة الحاسمة التي يواجههـــا المجـــتمع التونسي من قضية التعريب. وبعبارة أخرى، هل أن التونسيين بصـــفة عامـــة وإطـــارات التعريب التونسية بصفة خاصة كاملة الإستعداد **موقفيا** لتفضيل استعمال اللغة العربية على اللغة الفرنسية (أو غيرها) في كل القطاعات؟

إن طـــرح هذا التساؤل بعيد كل البعد عن الفضولية. بل هو تساؤل جوهري بالنسبة لمعـــرفة تشـــخيص وإمكانيـــات الـــنجاح أو التعثر في مشروع التعريب في تونس الحديثة. إذ أن عملية التعريب الحقة والمتصفة بجد أدنى من التوترات والتعثرات لا يمكـــن أن تـــتم بمجـــرد إصـــدار القرارات وإحضار الهياكل والبُنى المعربة. إن دراســـات علم النفس الحديث برهنت أكثر من مرة على **أهمية الدوافع النفسية** في إنجـــاح أو إحـــباط المشـــاريع البشـــرية.ومن هذا المنطلق فسبر أغوار اتجاهات التونسيين من حيث افتخارهم وتحمسهم أو تحقيرهم ولا مبالاتهم موقفيا من استعمال لغـــة الضاد والعامية استعمالا مجتمعيا شاملا يصبح مسألة ذات **شرعية علمية**، من جهة، **وعملية**، من جهة ثانية.

ثانيا:العلاقة العضوية بين الموقف والسلوك

يحتم علينا كل من تخصصنا وموضوع الدراسة اللجوء إلى استعمال مفاهيم بسيطة مـــن العلوم الإجتماعية الحديثة. إن مفهوم **الموقف أداة رئيسية عند علماء النفس الإجتماعيين في فهم وتفسير السلوك الإنساني**. ويتفقون **أن الموقف هو عبارة عن اســـتعداد أو تهيؤ يحدد طبيعة تعامل الفرد مع الشيء الذي يتمحور حوله الموقف نفســـه**[312]. والمواقـــف الـــتي يتبناها الأفراد والجماعات هي أشياء مكتسبة يتعلمها الشـــخص أو الجماعـــة أثناء خضم تجارب الحياة. فالتونسي والتونسية لهما مواقف معيّـــنة إزاء اللغة الفرنسية وثقافتها والإنسان الإسرائيلي ودولته والتمييز العنصري فـــي جـــنوب إفـــريقيا والعمـــل وأخلاقياتـــه ومســـألة المســـاواة بيـــن الـــرجل والمـــرأة...الـــخ...ومما لا شك فيه أنها كلها اتجاهات تجذرت في شخصية التونسي والتونسية كنتيجة لتربيتهما المجتمعية داخل الوطن وخارجه.

فـــالموقف كأحد مكونات شخصية الفرد أو الجماعة يؤثر بالتأكيد على سلوك الأفراد والجماعـــات. ومـــن ثـــمّ يميل علماء النفس الاجتماعيون إلى الاعتماد كثيرا على اتجاهـــات الأفراد والجماعات للتنبؤ بسلوكها المستقبلي. هذا من ناحية، ومن ناحية أخـــرى فهـــم يستعملون سلوك وممارسات هؤلاء للتعرف على طبيعة مواقفهم إزاء الأشـــياء والأشخاص... وهذا يعني **أن العلاقة بين الاتجاهات و السلوكات البشرية هي علاقة عضوية ومتبادلة بين الطرفين**[313].

---

[312] Encyclopedia of : The Duskin Publishing Group, Inc. Guilford Conn. U.S.A.1973 p.20 Psychology

[313]) يؤكـــد علم النفس الاجتماعي أن السلوك الانساني ليس دائما بالضرورة انعكاسا أمينا لموقف الشخص. فسلوك الفرد قد يتعارض او لا يتفق تماما مع موقفه الحقيقي وذلك مثال على تعقيد السلوك البشري.

ومن هذه الرؤية التحليلية لمفهومي الموقف والسلوك وعلاقة التبادل بينهما نود أن نسلط-في البداية بمنهجية تاريخية- بعض الأضواء على **تأثير انتشار اللغة الفرنسية على صورة العربية الفصحى والدارجة عند التونسي في ظلال الاحتلال الفرنسي.** أي هل طرأ تغيير على الأقل في مواقف وسلوكات بعض الفئات التونسية من لغة الضاد أو العامية أو هما معا؟

ثالثا: الموروث الإستعماري وتحقير اللغة العربية وثقافتها

إن الملاحظة الميدانية لتعامل التونسي مع اللغة العربية على مستوى الموقف وعلى مستوى الممارسة تفيد أن **درجة الإعتزاز بلغة الضاد انتماء واستعمالا تشكو من فتور ملموس خاصة بين التونسيين ذوي التكوين المزدوج أو الأكثر تفرنسا.** ومما لا ريب فيه أن هذا الإتجاه النفسي لهذين الصنفين من التونسي المتعلم يرجع في المقام الأول إلى ذلك التكوين اللغوي الثقافي[314] وإلى الإيديولجيا الإستعمارية[315] المصاحبة له التي عملت السلطات الفرنسية على ترسيخها في ذهنية هذين النوعين من المتعلمين التونسيين بالتحديد.فالأستاذ محمود المسعدي يروي في مسامرة له في (5-4-1989) بنادي الكتاب التونسيين بالعاصمة كيف أن الأساتذة الفرنسيين بالمدرسة الصادقية عملوا على **تحقير اللغة والثقافة العربية** كما كانت تدرس يومئذ بجامع الزيتونة. ويعترف الأستاذ المسعدي أن ذلك ساهم في غرس **عقدة مركب النقص إزاء اللغة العربية وثقافتها** عند الكثير من خريجي الصادقية بما فيهم هؤلاء الذين ذهبوا إلى فرنسا للتخصص في دراسة العربية وآدابها في الجامعات الفرنسية. وإذا كان الأمر كذلك عند الصادقيين متزني الازدواجية اللغوية والثقافية فما بالنا بالتونسيين المتعلمين الذين يغلب على تكوينهم التعليمي الجانب الفرنسي لغة وثقافة؟

إن انتشار هذا الموقف التمجيدي للغة المستعمر وثقافته، من ناحية، **وانتشار نظيره المُحَقِّر للغة العربية وثقافتها** عند عدد لا يستهان به من هؤلاء المتعلمين والمثقفين التونسيين، من ناحية ثانية، ليس بالظاهرة الغريبة في ظروف لم تكن فيها موازين القوى متساوية بين الطرفين: التونسي والفرنسي. الإنسان التونسي كان هو المغلوب والمستعمر الفرنسي كان هو الغالب. وقانون صاحب المقدمة بخصوص علاقة المغلوب بالغالب، كما أشرنا مرارا، قانون معروف بالنسبة **لمن سوف يقلد من في تلك الظروف**[316]. ولذلك بالتأكيد انعكاسات مباشرة على اتجاهات وسلوكات التونسي المغلوب بخصوص فتور التزامه وتعاطفه وتحمسه لقضايا اللغة العربية

---

[314] التكوين اللغوي/الثقافي المزدوج أو الأكثر تفرنسا هو عبارة عن متغير variable (عامل مؤثر) بالنسبة للعلوم الإجتماعية والانسانية الحديثة. والأمانة العلمية تقتضي أن لا يُهمّش هذا المتغير في أي دراسة ذات مصداقية تتطرق إلى سلوكات واتجاهات التونسيين من استعمال اللغة العربية

[315] الدراسات العربية لظاهرة المزج اللغوي تكاد تُغفل تماما عامل الاستعمار في بروز الظاهرة في مجتمعات العالم الثالث التي تعرضت لعملية الاحتلال الاستعماري.انظر كما أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة في الفصول السابقة

[316] "المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب..."

وثقافتها كما سوف تفصح عن ذلك معطيات هذا الفصل وغيره المستندة على سلوكات ومواقف الفئات التونسية المختلفة من اللغة العربية لفترة ما بعد الاستقلال.

رابعا: مكانة اللغة العربية عند السلطة في تونس المستقلة

إن عالم النفس الإجتماعي يظل بالتأكيد مهتما بما أحدثه كسب المجتمع التونسي لإستقلاله(1965) على اتجاهات وممارسات التونسيين بخصوص اللغة العربية. ولمعرفة طبيعة هذا التغيير أو غيابه يلجأ إلى قياس مواقف التونسيين من لغة الضاد في مرحلة ما بعد الإستقلال أو دراسة سلوكاتهم إزاء اللغة العربية.إذ أن العلاقة عموما عضوية بين موقف الشخص وسلوكه، كما بينا. ومن هذا المنطلق نود إلقاء الضوء على سلوكات السلطة الحاكمة [317]في **العهد البورقيبي** بخصوص اللغة العربية وثقافتها. وتأتي شرعية إختيارنا لهذه العينة لكون أن تأثيرها على سلوكات ومواقف التونسيين إزاء لغة القرآن وثقافتها تأثير حاسم سلبا أو إيجابا.فإيديولجيا السلطة السياسية الحاكمة وممارساتها الفعلية في تشكيل ملامح المجتمع التونسي الجديد كلها عناصر ذات ثقل وطبيعة شبه حتمية خاصة في نظام سياسي لا يتصف بالديمقراطية. ومن هنا فالتركيز على فهم اتجاهات وسلوكات القيادة السياسية حيال اللغة العربية وثقافتها يصبح أرضية أساسية لفهم مواقف وتصرفات بقية التونسيين في المواقع المختلفة من نسق المجتمع التونسي ككل.

فلننظر الآن إلى بعض المؤشرات السلوكية للسلطة السياسية التونسية في **العهد السابق**[318]:

- تتصف سياسات تعريب التعليم في العهد البورقيبي **بالتذبذب** والإضطراب والتراجع.
- تصريح الرئيس بورقيبة في صيف 1987 بأن تعريب التعليم في تونس أدى إلى تردي مستوى التلاميذ والطلبة.
- وزير أول في العهد السابق عُرف عنه أنه قال كرد فعل على حركة التعريب يومئذ بأن ما يهم تونس في المقام الأول هو التقدم ولو كان ذلك عن طريق استعمال اللغة الصينية
- أوقف تماما أو حُدَّ من عدد البعثات الطلابية للمشرق العربي.
- إلغاء المرحلة الثانوية للتعليم الزيتوني كمريض للغة العربية وثقافتها.

– الغياب الكامل لشن حملات توعية وطنية بأهمية استعمال اللغة العربية والإعتزاز بها:فمنذ الإستقلال قامت السلط التونسية بالعديد من الحملات لتحسيس المواطن التونسي ببعض المشاكل والقضايا قصد تغيير سلوكه إلى ما هو أفضل. فشنت الحملات ضد الرمد وتنظيم النسل وتخصص برنامج الدكتور حكيم يوميا في تقديم الإرشادات والنصائح الغذائية والصحية. **إلا أن المجتمع التونسي لم يعرف أي**

---

[317] ت.بوتومور: النخبة والمجتمع /ترجمة جورج جحا/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت ط1، 1972

[318] ، فترة حكم الرئيس بورقيبة بين 1987-1956

حمــلة وطــنية تُذكــر تســعى لتوعية المواطن بأهمية العربية كلغة وطنية يجب الإعــتزاز بهــا والعمل على إعطائها الأولوية في الاستعمال. وليس هناك أي شيء يذكر كذلك بالنسبة لتنقية العامية من الكلمات والعبارات الفرنسية الكثيرة. تطرح هذه العيــنة المحدودة من السلوكات إزاء اللغة العربية على عالم النفس الإجتماعي القيام **بخطــوة ثانية** تتمثل في التعرف على موقف السلطة التونسية من لغة الضاد. إذ أن علاقة الارتباط بين الاتجاه والسلوك علاقة متينة . ويمكن أن يستنتج من المؤشرات الســلوكية أعــلاه: **أن موقــف أغلبية أعضاء القيادة السياسية التونسية في العهد البورقيــبي لــم يكــن متعاطفا بالقدر الكافي مع مشروع تعريب المجتمع التونسي تعريــبا شاملا**.أي أن أغلبية تلك القيادة لم تكن مقتنعة بمشروع التعريب الشامل ولا متحمســة له. ومــن ثم يُفهم على مستوى السلوك / الممارسة لها لماذا لم يُؤخذ أي قــرار رسمي واضح لصالح التعريب الشامل للمجتمع التونسي مدة الثلاثة عقود من الحكم البورقيبي.

أمــا حــركة السابع من نوفمبر فقد أصبحت تُعرف بأنها حركة تغيير شاملة بالنسبة للمجــتمع التونسي الحديث. ومُختَصّ العلوم الاجتماعية المهتم بالمسألة اللغوية يهمه أن يــتعرف عــلى ســلوكات ومواقــف القيادة الجديدة من قضية التعريب.إذ لذلك انعكاســات مباشــرة عــلى مواقــف وسلوكات المسؤولين والمواطنين العاديين في تعامــلهم مع اللغة الفرنسية[319].ومن ثم تأثير عام على عملية تعريب المجتمع. فعند فحص توجهات قيادة العهد الجديد بالنسبة لأهمية استعمال اللغة العربية يمكن إبراز المؤشرات التالية:

- إصــدار قــرار رئاسي في أكتوبر1999 لإكمال تعريب الإدارة التونسية مع نهاية عام2000.
- يُلقي رئيس الدولة خطاباته بالفصحى داخل أرض الوطن وخارجه بمافي ذلك عند زيارته الرسمية لفرنسا.
- تمــتين العلاقــات مــع المحيط العربي بما فيه الحكومات ذات النزعة المتحمسة للوحدة العربية مثل الجماهرية الليبية
- الهويــة العــربية الإســلامية للمجتمع التونسي أصبحت تشغل مكانا رئيسيا في الخطــاب الرسمي لقيادة ما بعد السابع من نوفمبر. فتوثيق الصلات مع المجتمعات العــربية والتركيز على الهوية العربية الإسلامية للشعب التونسي هي سلوكات يمكن أن يكــون لهــا تأثيــرات إيجابية على تبني مواقف أكثر وعيا واعتزازا وحماسا لاســتعمال الــلغة الوطنية بين المسؤولين وبقية أفراد الشعب كما يجسم ذلك القرار الرئاسي المشار إليه أعلاه..

ويمكــن أن يستوحي الباحث الإجتماعي من تلك السياسات للعهد الجديد بأن مواقف الســلطة تتســم بالجدية بخصوص عزمها على التقدم في إنجاح مشروع التعريب.

---

[319] النخبة والمجتمع، مصدر سابق

ولكـــن هناك **معطيات أخرى لا تزال مفقودة في ملف التعريب الشامل** الأمر الذي يجعـــل الـــباحث الاجـــتماعي لا يهـــتدي بسهولة إلى معرفة حقيقة طبيعة مواقف المسؤولين من إنجاز عملية التعريب الشامل في أقرب مدة :

- ضـــعف القـــرار السياسي الذي يلزم البلديات في كل مناطق المجتمع التونسي بتبني سياسات جدية لتعريب المحيط شكلا ومضمونا بحيث لا تستعمل الفرنسية في المحيط إلا عند الضرورة الملحة.
- غيـــاب قوانيـــن تـــلزم **الموظف التونسي** خاصة ذلك الذي يعمل في المؤسسات الحكوميـــة بـــأن **يتخاطب مع المواطن بالعامية أو بالفصحى**. ففي بلد مثل مقاطعة كيـــباك بكـــندا حيث ينتشر استعمال الإنجليزية إلى جانب الفرنسية، اللغة الرسمية لأغلـــبية سكان المقاطعة، قامت السلط السياسية بسَنّ قوانين تهدف إلى حماية اللغة الفرنسية وتنمية قدراتها الإستعمالية على كل المستويات بالمجتمع الكيباكي. وإن ما يسمى بقانونLa Loi 101 يعد من أشهر تلك التشريعات التي وضعت حدا لتردي اللغة الفرنسية. وسنناقش في الفصل القادم **مسألة تقنين اللغات** في المجتمعات.
- غيـــاب حمـــلات عبر وسائل الإعلام المختلفة لتحسيس المواطن بأهمية استعماله للغته العامية أو الفصحى

نقيـــة من تضخم رصيد الكلمات والعبارات الفرنسية كما هو الحال اليوم. ففي أحد الـــبرامج الإذاعيـــة أخيرا اقترح أحد المواطنين عبر الأثير أن تقوم حملات وطنية لتـــنقية العاميـــة التونسية من الكلمات والعبارات البذيئة التي هي كثيرة كما نعرف. فمشـــروع التعريب ذو رؤوس متعددة منها التقليل من استعمال الفرنسية في حديثنا. ألا ينبغي مثلا توعية التونسيين الذين لايزال عدد كبير منهم ينطق الأرقام بالفرنسية عوضا عن نطقها بالعربية. فالأرقام المستعملة عالميا هي أرقام عربية كما يعترف الغـــرب بذلك في قولهم:Arabic Numbers-Les chiffres arabes. أليس أكثر شرعية نطق أرقام عربية باللسان العربي من طرف الإنسان التونسي العربي؟

خامسا: المؤسسات الوطنية وموقفها وسلوكها من العربية

في محاولتنا للتعرف على موقف وسلوك التونسيين من استعمال العربية العامية أو الفصـــحى اخـــترنا مؤسستين وطنيتين هما الخطوط الجوية التونسية وكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس:

أ) شركة الخطوط التونسية

بالنســـبة لهذه المؤسسة سأسرد وقائع حدث عشته أنا شخصيا مع موظفي الخطوط التونســـية في الثمانيات من القرن الماضي. وهو، كما سوف نرى، يعكس الموقف والســـلوك لهؤلاء الموظفين من إستعمال اللغة الوطنية. رجعت من كندا إلى أرض الوطن لقضاء عطلة الصيف. واحتجت في يوم من الأيام الى الذهاب إلى الخطوط التونســـية لكـــي استوضح المسؤولين بها عن الرحلات الرابطة بين تونس والدار البيضـــاء في رحلة عودتي إلى كندا. قصدت فرع الخطوط التونسية بشارع الحرية دخـــلتُ قســـم الحجز وبيع التذاكر وجلست منتظرا مجيء دوري.عندها تقدمتُ إلى

الموظــف مستوضــحا إيـــاه عن بعض المعلومات الخاصة بإجراءات تأكيد رحلة الـــرجوع إلى مـــنريال عـــن طـــريق الدار البيضاء. **فإذا بالموظف لا يجيبني إلا بالفرنســية**. وتعمدت أن لا أقاطع حديثه حتى ينهي التفاصيل. عندئذ توجهت إليه سائلا بالعامية: لماذا يا أخ تُكلمني بالفرنسية والحال إني خاطبتك بالدارجة التونسية؟ **احمــرّ وجه الموظف خجلا** وقال سامحتي يا أخي عندك الحق... لكن تعودنا على الكــلام بالفرنســية مع الحرفاء في العمل! فقلت له: "تعرف يا أخي لو كنتُ بكندا وذهــبت إلى الشــركة الوطنية الكندية للطيران AirCanada للاستفسار عن أي شيء بخصوص الرحلات والحجز... لكن لي -كحريف- الحق في التخاطب مع موظفي هــذه الشــركة بالإنجــليزية أو الفرنســية(اللغتين الوطنيتين الرسميتين بكندا) وأن الموظــف يكون **ملزما** بمخاطبتي باللغة التي سألته بها عن المعلومات. أما أنت فقد عكســت الآية والحال أنك تمثل شركة وطنية يقول دستور بلادها في أول بنوده إن العــربية هـــي لغتها!" في هذه اللحظة بالذات بادرتني إحدى الموظفتين التونسيتين الموجودتين قرب الأخ الموظف قائلة بالفرنسية
"L'important Monsieur, c'est que vous avez compris" المهـــم يـــا ســـيدي أنك فهمت".
أجبتها وقد ازدادت الأمور توترا بيننا جميعا" بأنه للمؤسف يا أخت أن يكون موقفك وتصـــرفك مـــن اللغة العربية على هذا المستوى والحال أنك تمثلين رسميا شركة خطوط لدولة عربية!" إن هذه العينة السلوكية تشير بكثير من الوضوح إلى طبيعة **موقـــف الموظفيـــن مـــن اللغة العامية أو الفصحى إنه موقف بعيد كل البعد عن الاعتزاز باللغة الوطنية** وتفضيل استعمالها مع التونسيين على الفرنسية. ومما يلفت انتـــباه الـــباحث أن ســـلوك الموظفـــة التونسية الأكثر تحمسا للفرنسية يؤكد مقولة دراستين[320] في هذا الصدد والتي خلاصتها أن ميل المرأة التونسية إلى حب استعمال الفرنسية هو عبارة عن محاولة منها لكسب رهان الحداثة،من جهة، والاحتجاج على عـــدم مســـاواتها مـــع نظيرها الرجل، من جهة أخرى.وقد أشرنا إلى ذلك من قبل خاصة في الفصل الثالث من الباب الثالث وهو في نظرنا وضع **يطرح صعوبة أكبر فـــي دمج المرأة التونسية المزدوجة اللغة أو الفرنسية اللسان في عملية التعاطف ذهنيا وسلوكيا مع مشروع التعريب الشامل** الذي يواجهه المجتمع التونسي الحديث وكذلـــك الشأن بالنسبة **لإنتمائها إلى الهوية العربية الإسلامية** المنادى بها أكثر في العهد الجديد.

ب) كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس

إن اهتمامـــنا هنا يتمحور -كما هو الأمر في تقية هذه الفصل- حول معرفة طبيعة ســـلوكات ومواقـــف العامـــلين بهذه الكلية من اللغة العربية: عاميتها و فصحاها. واختيارنا لهذه الكلية بالذات يرجع أساسا إلى سببين:

---

[320] انظر دراستنا بالفرنسية: Les racines du franco-arabe feminin au Maghreb المجلة العربية للدراسات اللغوية المجلد٢ العدد٤، 1984ص62

1) أنها أكثر الكليات تعريبا وذلك لوجود سهولة أكثر في تدريس تخصصات العلوم الإنسانية والإجتماعية بالعربية

2) ولأني أعمل بهذه الكلية . ومن ثم فملاحظاتي حول موضوع هذا الفصل مستمدة من **الملاحظة بالمشاركة** كما تقول العلوم الإجتماعية والإنسانية.

تـتكون عيـنة الدراسة في الكلية من الأساتذة المدرسين بكل أصنافهم ومن الطلبة ومـن الإداريين. فبالنسبة لأعضاء هيئة التدريس واستعمالهم للغة العربية بصنفيها داخل الكلية فإنه يمكن تسجيل التالي:

- يتم التدريس في الكلية بالعربية وبالفرنسية أو بمزج منهما "الفرنكوأراب".
- يغـلب عـلى مداخـلات الأسـاتذة في الاجتماعات التي يدعو إليها عميد الكلية استعمال العامية واللسان العربي.
- تسـيطر الفرنسـية على العديد من مناقشات وكتابة محاضر الجلسات التي تعقدها أقسام الكلية دوريا أو من حين لآخر.
- فـي مـداولات الامـتحانات لدورتي جوان وجويلية **لا يكاد يستعمل الأساتذة إلا الفرنسية عند القيام بتسجيل درجات (أعداد) الطلبة أثناء مداولاتهم الشفوية**[321] .
- **يتصف حديث الأساتذة فيما بينهم بسطوة الفرنكوأراب كنمط لغوي.**

ولكـن يوجـد عـلى الطرفين فريقان: أحدهما لا يكاد يستعمل إلا العربية بنوعيها والآخـر لا يكـاد يستعمل إلا الفرنسية.ومن ملاحظاتنا فإن الفريق المعرَّب اللسان يمثل إحصائيا أصغر أقلية في عينة الأساتذة الجامعيين بالكلية.

إن محاولـة القيـام باسـتنتاجات حول طبيعة مواقف العينة الأستاذية[322] من اللغة العـربية واستعمالها بالمحيط الأكديمي لا يبدو مسألة بسيطة. أي أننا لا نستطيع أن نخـلص بسـهولة إلى القـول بأن أغلبية الأساتذة هم ضد التعريب. إن الملاحظة الميدانيـة تفيـد **أن هناك أقلية فقط** التي لها مواقف صريحة ضد التعريب. ومن ثم يمكـن تصـنيف مواقف الأساتذة بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية إزاء استعمال اللغة العربية في التدريس وفي الحياة العامة إلى **ثلاثة أصناف.**

1)موقف يعارض صراحة التعريب.

2)موقف متعاطف من حيث المبدأ مع ضرورة التعريب.

3)موقف متعاطف وملتزم سلوكيا بالممارسة الفعلية للتعريب.

وليـس مـن المبالغة في شيء القول بأن **أغلبية كبرى من عينة الأساتذة هذه لها مواقف من صنف2 أعلاه بالنسبة لاستعمال العربية.** وأن انتشار صنفي موقف1و3بين أسـاتذة الكلية يُعتبر انتشارا محدودا. وبالنسبة للموقف الوارد في صنف 3 فهو **في نظـرنا الموقف الأكثر ترشحا للتقدم حثيثا بتعريب الطلبة تعريبا فعليا لأنه موقف**

---

[321] ظاهرة تفشي عقدة نطق الارقام بالفرنسية عند التونسيين تعود في نظرنا إلى عاملين:1- اقتران نطقها بالفرنسية بالحداثة و2-نطقها بالفرنسية مسالة سهلة لخلوها من القواعد النحوية والصرفية. فنطقها يكاد يكون واذن في متناول الجميع أي دمقراطي الطبيعة.شرحناذلك في آخر الباب الثالث

[322] انظر دراسة محمد باشوش: "موقف الجامعيين إزاء قضية التعريب" مجلة الوحدة السنة الثالثة عدد33حزيران تموز1987ص131-143

متعاطف وملتزم سلوكيا بالممارسة الفعلية للتعريب. ولعل مما يُميزه عن الموقفين الآخرين هو رؤيته **وقناعته الواعية بالنسبة للمسألة اللغوية**. إنه موقف يستوحي اقتناعه والتزامه بالتعريب من المبادئ التالية: **لا تفاضل بين اللغات من الناحية الموضوعية وأن اللغة تتقدم او تتأخر وفقا لاستعمال أهلها لها، من جهة، وتقدم أو تخلف أهلها، من جهة ثانية**. وأن بعض اللغات كالفرنسية والإنجليزية جاءت مع مد الغزو الإستعماري المعاصر. وأن الناس في المجتمعات المتقدمة يحترمون ويستعملون أولا وبالذات لغتهم. ومن ثم **فالاعتزاز باللغة الوطنية أمر طبيعي والعمل على استعمالها في كل مشارب الحياة يجب أن يُصبح عادة صحية شائعة لا سببا في الشعور والسقوط في دوامة مركبات النقص.**

إن الأخذ بمشروع التعريب بطريقة حاسمة لا في كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية وحدها بل في كافة قطاعات المجتمع التونسي **يتطلب تجذير مبادئ الصنف الثالث** من المواقف المذكورة أعلاه. بذلك تصبح عملية تعريب المجتمع التونسي تعريبا شاملا وحقيقيا مسألة وقت ليس إلاّ. أما بالنسبة للغة الطلبة فتغلب عليها سمة التعريب. ففي عينة لـ 38طالبا وطالبة طُرح عليها في دورة جوان1989 السؤال نفسه بالفرنسية والعربية أجابت 100% من تلك العينة على السؤال بالعربية. كما أن العربية تغلب على السلوك اللغوي الشفوي لطلبة كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية. ويبدو أن موقف الطلبة متعاطف –إلى حد ما على الأقل – مع سياسة التعريب. وربما يعود ذلك أساسا إلى أن فصائل التنظيمات الطلابية متفقة عقائديا (إيديولجيا) على أهمية كسب رهان التعريب لتأصيل التونسي في محيطه العربي الإسلامي. وعند النظر إلى سلوك الهيكل الإداري بالكلية حيال استعمال اللغة العربية فانه يمكن القول بأن موقفهم من تعريب الإدارة هو على الأغلب من الصنف الثاني السابق الذكر.أي أنه موقف متعاطف مع التعريب كمبدإ وليس من حيث التطبيق.

سادسا: الفئات الإجتماعية ومواقفها وسلوكاتها إزاء العربية

إن الملاحظة الميدانية للسلوك اللغوي للفئات الإجتماعية التونسية المختلفة تفيد أن **استعمال الكلمات والعبارات والحروف الفرنسية متسعة الانتشار** على المستويين الشفوي والكتابي. فمزج العربية العامية بكلمات وعبارات فرنسية(الفرنكوأراب)ظاهرة متفشية بدرجات مختلفة بين كل الفئات التونسية بدون استثناء. فتلامذتنا لفترة ما بعد الإستقلال لا زالوا يستعملون كلمة الكرطابلة عوضا عن كلمة المحفظة وكلمة سبور عوض عن كلمة رياضة والقائمة طويلة بهذا الصدد ليس عند التلاميذ فحسب بل عند كافة الفئات كما أشرنا من قبل.وعلى مستوى انتشار اللغة الفرنسية في الاستعمال الكتابي نكتفي بذكر مثالين يعرفهما العام والخاص:

1) لا يزال التونسي بغض النظر عن مستواه التعليمي وفئته الإجتماعية يكتب عموما صكوكه المصرفية باللغة الفرنسية و2) لا يزال عدد كبير من التونسيين يكتبون عناوينهم وعناوين مراسليهم باللغة الفرنسية في مراسلات موجهة داخل

الجمهوريـــة.ويـــتكهن الباحث الإجتماعي بأن بعض هذه المراسلات قد يكون كتبت أيضـــا باللغة الفرنسية. وإن هي حررت باللسان العربي فتكون ظاهرة التناقض في السـلوك الــلغوي واضحة عند التونسي! من هذه الأمثلة المحدودة للسلوك اللغوي للتونســـي العـــادي لا يصعب الاستنتاج **بأن موقف هذا الأخير من قضية التعريب يميل إلى الصنف الثاني أكثر من قربه من الصنف الثالث المشار إليه سابقا.**

إن هــذا التشـــابه في الموقف من التعريب "موقف متعاطف مع التعريب من حيث المـبدإ" بيـن السلطة السياسية والنخبة الثقافية والفئات الاجتماعية التونسية المختلفة يساعد على صياغة بعض التصورات والفروض السوسيولجية لدى عالم الاجتماع الـــدارس لحركية المجتمعات. فالمجتمع عنده هو نسق إجتماعي:أي هو متكون من عناصـــر متفاعـــلة ومتأثرة ببعضها البعض. ولكن هذه العناصر غير متساوية في ثقـل تأثيرها على بنية وتوجهات المجتمع. فأصحاب القرار السياسي و المؤسساتي وأصـــحاب الفكـــر والمعرفة يتمتعون بقدرة تأثيرية أضخم. ومن ثم ففي نظر عالم الإجـــتماع **هناك علاقة مباشرة بين تبني جل التونسيين للصنف الثاني من مواقف الـــتعريب الثلاثة وبين انتشار هذا الموقف في المستويات العليا لتركيبة المجتمع التونسي الحديث**[323].

سابعا:التونسي الملتزم ونجاح عملية التعريب

إن التحـــليل النفســـي الإجـــتماعي لسلوكات ومواقف التونسيين من التعريب يشير بوضـــوح ، كما بينا، أن انتشار **الصنف الثالث** من المواقف الثلاثة "موقف متعاطف وملـــتزم سلوكيا بالممارسة الفعلية للتعريب"**هو الموقف المؤهل الوحيد الذي يسرع بـــتجذير عملية التعريب اعتقادا وممارسة.**فمثل هذا الموقف يعمل لصالح التعريب عـــلى **مستويين: شخصي وجماعي**.على المستوى الشخصي، فإن التونسي/التونسية المتبـــني لهذا الموقف سوف يصبح شخصيا مدفوعا **للمراقبة الذاتية** على التقليل أو التحاشي كلية استعمال الكلمات والعبارات الفرنسية أثناء حديثه مع الآخرين. فسوف يكون ملتزما بتعويض كلمة Blaça بكلمة بقعة وFeu rouge بإشارة ضوء وعبارة ça va **بلابـــاس** وهكذا دواليك. وبالنسبة لتعريب الجانب الكتابي من سلوكه اللغوي فهو لا يســـمح لنفســـه بكـــتابة الصـــكوك المصرفية بغير اللسان العربي ولا يكتب رسائل وعناوين مراسليه التونسيين داخل الجمهورية إلا بالعربية...**وبهذا الاقتناع والالتزام يدفـــع التونسي بعملية تعريب لغته حديثا وكتابة.وبالتزامه المتواصل بذلك يحدث قطيعـــة مع ذاته اللغوية السابقة**[324] فيصبح **فردا جديدا** تتصف لغته العربية بالنقاوة من المفردات والعبارات الفرنسية.

---

[323] النخبة والمجتمع مصدر سابق

[324] لا ينبعي أن يعني هذا الصنف من التونسيين أنه ضد تعلم اللغات الحية (الفرنسية والانجليزية..) وإنما يعني فقط انه ملتزم بمبدا احترام التحدث بلغة واحدة صافية مع متحدثيه. ففي حديثه مع التونسيين يريد عاميته اوفصحاه ان تحافظ على نقائها. وذلك ما يلمسه المرء في السلوك اللغوي لمواطني المجتمعات المتقدمة التي يعرف اهلها اكثر من لغة مثل المجتمعات الاسكندنافية، كما رأينا سالفا.

أمـــا بخصوص **الدور الاجتماعي للتونسي ذي الموقف الملتزم** بالتعريب فإنه يمكن ذكـــر مســـاهمتين لـــه تســـاعد بكـــل تأكيد على توسيع حركة التعريب في المحيط الاجتماعي الكبير:

1) هـــذا التونسي الملتزم بالتعريب يستطيع أن يساهم في **توعية الآخرين بضرورة الــتعريب** فـــي مجـــتمع عربي. ومما لا شك فيه أن الفرص كثيرة لذلك بالمجتمع التونسي الحالي. فمعرفته بشخصية التونسي وظروفه الاجتماعية والثقافية يمكن أن تساعده على نجاح أكبر في صياغة وتطبيق خططه التوعوية.

2) هـــذا التونســـي الملـــتزم بالتعريب سوف يكون له تأثير ذو وزن على مسيرة الــتعريب عندما تسند له خاصة وظيفة رسمية ذات شأن. فتلك فرصة قد تمكنه من تحســـين آليـــات عملية التعريب على الأقل في المجال الذي يشمله نفوذه.إن التحليل الموضـــوعي لخـــريطة التعريب المستقبلية بالمجتمع التونسي يشير إلى أن حجمها ســـوف يكـــبر باستمرار إذا تم **كسب رهان التعريب بسرعة على المستوى الشعبي وإذا ازدادت نسبة التونسيين الملتزمين بالتعريب بين أصحاب القرار والنخب بكل أصنافها.**

الفصل الثالث

تقنين المسألة اللغوية :تلك الحلقة المفقودة

أولا: الازدواجية اللغوية وغياب تقنينها

ليس من المبالغة في شيء وصف مسيرة التعريب بالمجتمع التونسي لفترة ما بعد الإستقلال بالتذبذب والتردد والتراجع وعدم الحماس والتناقض كما أكدنا ذلك من قبل[325]. فهذا الوضع وضع عام لا يقتصر على قطاع دون آخر. فهو بالتعبير السوسيولوجي يشمل كل النسق الإجتماعي(المجتمع)[326].فتدريس العلوم في المرحلة الإبتدائية باللغة العربية يقابله تدريسها باللسان الفرنسي في المرحلة الثانوية. أما في التعليم العالي فقد بدأت بوادر حركة التعريب في السنوات الأخيرة خاصة في تدريس العلوم الإنسانية والإجتماعية. ولكن هذه الحركة ما لبثت أن انتكست وتراجعت في بعض الأقسام، مثل قسم علم النفس بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس حيث أصبحت لغة موليار هي لغة التدريس الرئيسية.

أما الشارع والمحيط التونسيان فقد عرفا أيضا تراجعا أو تذبذبا في سياسة تعريبهما، الأمر الذي أدى ببعض الصحف إلى التساؤل عن أسباب هذا التراجع وما هو دور البلديات ووزارة الثقافة في ذلك[327].وعند الحديث عن اللغة المتداولة في ما يسمى بالمؤسسات العصرية مثل البنوك فحدث ولا حرَج، فالمعاملات هنا تغلب عليها اللغة الفرنسية في الوثائق والأوراق الخاصة بالإجراءات المالية. فالصكوك البنكية، مثلا، لا تكاد تكتب إلا بالحروف اللاتينية من طرف موظفي البنوك ومن طرف التونسي بصفة عامة سواء أكان هذا الأخير مثقفا أو متعلما أو نصف متعلم أو حتى شبه أميّ، فكأن كتابتها بلغة الضاد لا تستطيع على التعبير بالدقة الكاملة عن المبلغ المالي المراد!

وإذا ما تجولت في ربوع الجمهورية بالقطار فإنك سوف تلقى بالتأكيد في المحطات لغة موليار هي السيدة في الكثير من الإعلانات المكتوبة على السبورات حيث يُخبرُ رواد تلك المحطات بحركة القطارات، فتحسب نفسك في مدينة فرنسية ولا تونسية! وفي النهاية هل قمت بمراقبة حديث التونسية [328] والتونسي؟ هل قمت بتعداد نسبة الكلمات والعبارات الفرنسية التي يمنزج بها حديثهما بالعامية التونسية؟ فمن المؤكد أنك لم تسمع إلا نادرا، ونادرا جدا نطق الأرقام باللسان العربي... وذلك رغم أن

---

[325] عبد العزيز العاشوري،"اللغة العربية والهوية الثقافية و تجارب التعريب. المستقبل العربي السنة 4"العدد27(ايار/مايو1981)

[326] (Parsons, T., The Social System : Free Press1951 New-York

[327] جريدة الصباح "...بالرغم من تقدم التعريب في مستويات التعليم والادارة و الجهد للدول من اجل سيادة لغتنا الوطنية مع الانفتاح على الحضارات واللغات الاجنبية، بالرغم من ذلك فان الشارع التونسي يسير في اتجاه معاكس".

[328] انظر :محمود الذوادي"جذور ظاهرة الفرنكوآراب الاثنوية بالمغرب العربي شؤون عربية العدد22 ديسمبر١٩٨٢

الغـــربيين يطلقون على تلك الأرقام اسم الأرقام العربية. فالإزدواجية اللغوية، كما شـــرحنا من قبل، هي اذن ظاهرة إجتماعية شاملة تمسّ كل فئات المجتمع التونسي تقريبا. وقد تضافر على وجودها واستمرارها العديد من العوامل. فهي، من ناحية، وليدة الاحتلال الإستعماري الفرنسي لبلدان المغرب العربي[329]. ومن ناحية أخرى، تـــأتي الـــنخب الحاكمة والمثقفة في طليعة المؤثرات الداخلية المحلية التي ساعدت وتســـاعد على بقاء الهيمنة الفرنسية في الكثير من المجالات في المجتمع التونسي الحديث[330].

ورغـــم ذلـــك فإن المناداة، منذ **تغيير السابع من نوفمبر**، بالمصالحة مع الذات في القطـــر التونسي لا يمكن إلا أن تُثير قضية التعريب. ولعل في انعقاد ندوة التعريب فـــي اوائـــل عهـــد الـــتغيير مؤشـــرات على جدية القضية بين علماء تونس على الخصوص. فنحن نجتمع لا لنقرر مبدأ التعريب، بل لنتباحث أساسا في الآليات التي تســـاعدنا إلى كســـب رهـــان التعريب في العلوم الصحيحة في أقرب وقت وبأقل مـــتاعب. إن النجاح في معركة التعريب مرهون باستعمال عدة وسائل مجتمعة، إذ أن إعطـــاء الـــلغة العربية مكانة طبيعية تجعلها لغة المجتمع في كل شأن وعمل لا يمكن أن ينجز بمجرد تعريب كل مراحل التعليم من الإبتدائية إلى العالية. ولا يمكن أن يتم أيضا بمجرد توفير الجانب التقني المعرب مثل الحاسوب وغيره من التقنيات الحديثة.

نحـــن نرى أن عملية التعريب الحقيقية لا يمكن أن تترجم إلى واقع معاش بأي من هـــاتين الوسيلتين وحدهما: فاللغة ممارسة إجتماعية يومية في كل مناكب المجتمع وليست في تعلم لغة في المدرسة أو الجامعة أو كتابتها بالجاسوب.إنها وسائل تعين عـــلى تنمية مقدرات اللغة ما في ذلك شك، ولكنها تبقى وسائل قاصرة على جعلها **لغـــة المجـــتمع الطبيعية والعفوية في الاستعمال اليومي**، ومن ثم، فإن ما سميته **بتقـــنين المســـألة الـــلغوية في تونس** يصبح أداة فعالة وضرورية لا يمكن إلا أن تســـاعد عـــلى الدفع بعملية التعريب إلى الأمام. وحسب علمي، **فإن تقنين المسألة الـــلغوية لم يقع طرحه** من قبل في قضية التعامل مع الإزدواجية اللغوية بالمجتمع التونسي كاستراتيجية عملية تعمل في النهاية لصالح التعريب. ويحتاج هذا **الصمت** إزاء تقـــنين المســـألة اللغوية عند الباحثين التونسيين إلى بحث خاص تُستجلى فيه الأســـباب والخلفيات لذلك علما، كما أشرنا، أننا مجتمع مزدوج اللغة. والكثير من باحثينا على معرفة تامة **بإيجابيات تقنين المسألة اللغوية** في العديد من المجتمعات الغـــربية ذات اللسان المزدوج أو المتعدد وذلك من أجل صيانة وتنمية لغاتها والحد من التوترات والصراعات الناتجة عن ذلك. فدعنا إذن نتعرف على عينات من هذه

---

[329] عبد الاله بلقزيز، "المغرب الغربي والقضايا القومية العربية" **المستقبل العربي** السنة14 العدد152 أكتوبر 1991

[330] انظر الفصل الثاني من الباب الثالث من هذا الكتاب.

المجتمعات التي تعاملت مع الإزدواجية أو التعددية اللغوية بطريقة حضارية[331]. لو تبنينا مثلها منذ عهدنا الأول بالاستقلال ووفقا لمعطياتنا وجذورنا اللغوية الثقافية لكانت مسيرة التعريب في المجتمع التونسي أفضل بكثير مما هي عليه اليوم، وذلك بعد أكثر من خمسة وأربعين عاما من الإستقلال

ثانيا: المجتمعات البشرية بين أحادية اللغة وتعددها

من المسلمات البديهية أن عامل اللغة هو ركن أساسي لقيام ظاهرة التجمعات البشرية التي نسميها بالمجتمعات[332]. **فاللغة** بالنسبة إلى قيام المجتمع الإنساني تشبه في أهميتها دور **العمود الفقري** الذي لا يتم بدونه أي وجود للهيكل العضمي للجسم. ويمكن تصنيف المجتمعات البشرية إلى **ثلاثة** أنواع من حيث عدد اللغات (أو اللهجات) المستعملة بها. فهناك **المجتمعات الأحادية اللسان**، أي أن تعاملات أهلها في ما بينهم تتم عن طريق لغة واحدة، وهي ما يطلق عليها في مثل هذه المجتمعات باللغة الوطنية. فالمجتمعان الإيطالي والبرتغالي، على سبيل المثال، هما مجتمعان أحاديا اللسان. فاللغة الإيطالية هي سيدة الاستعمال في المجتمع الإيطالي وكذلك شأن اللغة البرتغالية في المجتمع البرتغالي. ومن ثم فعامل اللغة في هذين المجتمعات بعيد كل البعد عن أن يكون مصدر انقسامات فئوية أو نخبوية، وبالتالي **فاللغة هي مصدر تضامن وتلاحم لا مصدر توترات وصراعات في المجتمعين الإيطالي والبرتغالي**.أما الصنف الثاني من المجتمعات فهي تلك المجتمعات التي تُستعمل فيها لغتان(أو لهجتان). وذلك بسبب

أ)وجود مجموعتين بشريتين من أصلين لغويين مختلفين في المجتمع نفسه. فالمجتمع الكندي مثال حي على ذلك.فاللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية هما اللغتان الرسميتان لهذا المجتمع. ويعود ذلك إلى تاريخ تكوين المجتمع الكندي. فهذا الأخير هو مجتمع كوّن المهاجرون الفرنسيون والإنجليز أغلبية سكانه في الفترات الأولى من تكوينه. فالمهاجرون الفرنسيون استقر معظمهم في ما يسمى اليوم بمقاطعة كيباك أما السكان المنحدرون من أصل إنجليزي فأغلبيتهم موجودة في بقية المقاطعات الكندية التسع[333].

---

331 ونعني بحضارية هنا،هوتبني منهج يعترف أولابالازدواجية /التعددية اللغوية و يسن ثانيا القوانين المناسبة (الزاجرة/المشجعة) لاحترام اللغات. أما في المجتمع التونسي فالأمر يبقى فوضويا في التعامل مع واقع الازدواجية اللغوية، اذ لم يسن المسوولون أي قانون معروف وذي مصداقية عملية يضبط دون ضبابية أولوية التعامل
بين التونسيين بأي من اللغتين (العربية والفرنسية) في المجتمع التونسي. وهذا الموقف في حد ذاته هو عينة أخرى على حالة التذبذب المتصلة بماسياسة التعريب في المجتمع التونسي منذ الإستقلال.

332 M. Pei , The Story of Language(New York, New American Library1965)

333 إن الازدواجية اللغوية التي يعرفها المجتمع الكندي ككل وما تفرع عنها من اختلافات ثقافية تمس هوية الكيباكين على الخصوص تهدد بانفصال كيباك عن بقية المقاطعات الكندية الأخرى. انظر على سبيل المثال: W.Gaudner, The Trouble with Canada Toronto ,Stoddart 1988) and J.Leclerc, Langue et societé Quebec, Canada, Mondia editeurs,1986)

ب)أمـــا السبب الثاني لوجود **الإزدواجية اللغوية في** العصر الحديث فهو **ذو جذور استعمارية**، أي أن احتلال المستعمر الفرنسي لبلدان المغرب العربي مثلا بين1830-1962أدى إلى ظهـور الإزدواجيــة اللغوية المتمثلة في ازدواجية عربية/فرنسية، أو بربرية/فرنسية حديثا وكتابة (خاصة في الازدواجية العربية الفرنسية).

أمـــا الــنوع الأخير للاستعمال اللغوي في المجتمعات البشرية فهو يتمثل **في وجود أكـــثرمن لغتين أو لهجتين في المجتمع الواحد**[334]، أي أنه مجتمع متعدد اللغات او الــلهجات. فالمجتمع السويسري يستعمل رسميا أربع لغات وهي الألمانية والفرنسية والإيــطالية والرومانية. أما المجتمع الهندي فينتشر فيه عدد هائل من اللهجات إلى جــانب وجــود ثلاث لغات رئيسية، وهي الهندية والأردية(لغات وطنية)، من جهة، والإنجليزية (كلغة شبه رسمية، ذات جذور استعمارية) من جهة ثانية.

إن تــنوع اللغات أو اللهجات في صورتها الإزدواجية أو التعددية هو بالتأكيد **عامل حساس** بالنسبة إلى **إحداث التوترات والنزاعات بين فئات المجتمع الواحد،** مثله في ذلك مثل دور اختلاف التركيبة العقائدية في المجتمعات البشرية.وفي بعض الحالات فــإن المســألة اللغوية قد تصبح حتى آثارها خطيرة ومهددة حتى لكينونة المجتمع نفسه، وما يعرفه المجتمع الكندي الحديث في هذا الصدد شهادة بليغة على مصداقية ذلك.

ثالثا:ضرورة تنظيم المسألة اللغوية

عــند النظر إلى المسألة اللغوية في هذه الأصناف الثلاثة من المجتمعات يتضح أن هــناك فــروقا في التعامل معها. فالمجتمعات الأحادية اللغة لا تحتاج مثلا إلى سَنّ قوانيــن تحمي استمرار تعامل الناس باللغة الوطنية في شؤون حياتها كلها. فالأمر هــنا لا يتطلب التقنين. فاللغة الوطنية ليس لها من منافس، ومن ثم فهي تساير في نموهـــا وتطورهـــا نمـــو وتطـــور مجـــتمعها، كما انه لا خوف عليها من التفكك والانقـــراض طالمـــا لـــم تهدد المجتمع عوامل أخرى قد تؤدي إلى انحلاله وزواله النهائي. إن الوضع اللغوي في المجتمعين البرتغالي والإيطالي، المشار إليهما سابقا، يمثل عينة ميدانية على مدى صحة هذه الرؤية التحليلية.

أمـــا حـــال المجتمعات المزدوجة أو المتعددة اللسان فهو لا يمكن أن يكون مطابقا لنظيره في المجتمعات الأحادية اللغة. فوجود لغتين أو أكثر في مجتمع واحد يتطلب عمـــلا مقصـــودا مـــن طـــرف المســـؤولين عن تسيير المجتمع يهدف إلى **تنظيم الإزدواجية أو التعددية اللغوية بطريقة تخدم في النهاية مصلحة المجتمع ككل.** إن تدخـــل المســـؤولين في القضية اللغوية يعني قيامهم بـــسنّ تشريعات وقوانين تحدد طـــبيعة تعـــامل المجـــتمع مـــع اللغتين أو اللغات الموجودة فيه. فالمجتمع الكندي المعاصر، على سبيل المثال، هو مجتمع مزدوج اللغة رسميا. فالإنجليزية والفرنسية همـــا لغـــتا مؤسســـات الســـلطة السياسية الفيدرالية في هذا البلد. والقانون اللغوي

---

[334] المصدران نفسهما.

الفيدرالي يجعل من موظفي المؤسسات الفيدرالية موظفين يعرفون اللغتين الرسميتين. وأن للمواطن الكندي الحق في اختيار الفرنسية أو الإنجليزية في التعامل مع موظفي هذه المؤسسات . وإن الموظف الذي لا يلتزم بذلك يرتكب في نظر التشريع اللغوي **"جنحة" لغوية يعاقب عليها القانون.**

أما مقاطعة كيباك، التي هي جزء من المجتمع الكندي الكبير، فهي أيضا مزدوجة اللغة في تركيبتها السكانية. فأغلبية السكان من أصل فرنسي يمثلون80% وتمثل الأقلية الإنجليزية بقية سكان المقاطعة. **ومن ثم جاءت الحاجة في المجتمع الكيباكي إلى تنظيم المسألة اللغوية لصالح الأغلبية الناطقة باللسان الفرنسي.** فأنشأت حكومة هذه المقاطعة ما يسمى بديوان اللغة الفرنسيةL' Office de la langue française وهو ديوان مكلف بجعل لغة الأغلبية في هذه المقاطعة هي لغة كل المعاملات في المجتمع الكيباكي. فلغة اللافتات والإعلانات لشوارع مدينة منريال، رغم ضخامة الأقلية المتكلمة بلغة شكسبير فيها، هي اللغة الفرنسية فقط. وإن من يخالف ذلك فإنه يعرض نفسه للتتبع القضائي ويعاقب وفقا للقوانين اللغوية بمقاطعة كيباك التي يأتي في طليعتها قانون101 المشهور الصادر عام1977 والمشار إليه مرارا في الفصول السابقة. وكمثال آخر على سياسات تنظيم المسألة اللغوية في المجتمعات المتقدمة، فإن **المجتمع السويسري** عينة حية عن ذلك. فتقسيمه إلى وحدات ما يسمى بالكنتون (Le Canton) يعد تجسيما لتنظيم تعامل حضاري مع التعددية اللغوية التي يعرفها هذا المجتمع. فهذا الأخير مقسم إلى "كنتونات" ألمانية وفرنسية وإيطالية ورومانية. وإن كلا من هاته اللغات الأربع هي سيدة الإستعمال في "كنتوناتها". **ويعتبر الحل السويسري للتعددية اللغوية فيه نموذجا تضرب به الأمثال، إذ أنه مكن السويسريين من التعايش في مجتمع واحد دون نزاعات وتوترات خطيرة.**

وهكذا يتضح أن **تنظيم المسألة اللغوية** في المجتمعات المزدوجة والمتعددة اللسان **أمر ضروري** ولازم إذا أريد نمو وتطور تلك اللغات بطريقة طبيعية، من ناحية، وتحاشي الصراعات والتوترات والإنقسامات في المجتمع الكبير، من ناحية أخرى.

رابعا: غياب سياسة التحكم في الازدواجية اللغوية

إن الدارس لظاهرة الازدواجية اللغوية(عربية/فرنسية) بالمجتمع التونسي الحديث يجد **أن هذا الأخير خال** أساسا **من قوانين وهياكل مؤسسية تحدد بصورة رسمية طبيعية تعامل التونسي مع طرفي الإزدواجية:** اللغة العربية ولغة موليار. وهو وضع يتناقض مع طبيعة الأشياء . فالإزدواجية أو التعددية اللغوية في المجتمع الكندي والمجتمع السويسري قد تعامل معهما مسؤولو هذين المجتمعين بسن التشريعات والقوانين للحد من الإشكاليات التي تطرحها على المجتمع المسائل اللغوية.وفي غياب اللوائح والقوانين والأطر المتخصصة في التعامل مع ظاهرة الإزدواجية اللغوية بالمجتمع التونسي فإن المرء لا ينتظر إلا أن يرى ملامح متعددة **للفوضى اللغوية** هنا وهناك على ساحة هذا المجتمع.

وتبدأ ملامح الفوضى بما جاء في دستور تونس المستقلة حول لغة المجتمع التونسي. **فلغة الضاد هي لغة الرسمية للمجتمع التونسي حسبما جاء في أوائل بنود الدستور وليس هناك أي ذكر للفرنسية كلغة ثانية** أو كلغة استعمال في بعض القطاعات المجتمعية. وبعبارة أخرى، **فدستور البلاد يتجاهل واقع الإزدواجية** اللغوية التي يعايشها المجتمع التونسي يوم الاستقلال وبعده. ومن ثم لم تعمل القيادة السياسية منذ الاستقلال على إنشاء هياكل و تشاريع وقوانين تنظم السياسات والممارسات اللغوية في هذا المجتمع الجديد المنتسب أولا وقبل كل شيء إلى الحضارة العربية الإسلامية. **إن عدم الاعتراف بالإزدواجية اللغوية للمجتمع التونسي في دستور بداية الإستقلال يبدو أن فيه الكثير من التوجه الإيديولوجي والقليل من العزم والحزم لجعل لغة القرآن هي فعلا لغة المعاملات بين التونسيين في كل الميادين**. إذ أن الإعلان بصريح اللفظ في أول بند لدستور البلاد يُقرّ بأن لغة تونس هي العربية. أي أن تونس من هذا المنظور مجتمع أحادي اللسان. فهو مثل المجتمعين الإيطالي والبرتغالي المشار إليهما لا يتطلب هياكل وتشريعات وقوانين لتنظيم المسألة اللغوية. أما على أرض الواقع والممارسة فالمجتمع التونسي الحديث ليس مجتمعا مزدوج اللغة فحسب، بل هو مجتمع قد يطغى فيه استعمال الفرنسية على استعمال اللغة العربية حتى في الأمور التافهة مثل الإعلان عن نتائج الباكلوريا[335] وكتابة الصكوك المصرفية. والسؤال المطروح هنا: **لماذا لم تعترف السلطات التونسية رسميا بازدواجية لسان المجتمع التونسي** رغم أن السلط المسؤولة معروفة في العهد البورقيبي بتوجهاتها الغربية وانجذابها لإستعمال اللسان الفرنسي؟

خامسا: تقنين المسألة اللغوية يعمل لصالح التعريب

إن الهروب من الإقرار بأن استعمال الإزدواجية اللغوية واقع مجتمعي تونسي لا مراء فيه ينطوي **على تكتيك سياسي للنخبة الحاكمة في عهد بورقيبة**. فمن ناحية، تكتسب الصفوة الحاكمة تعاطفا شعبيا لإعلان في الدستور التونسي بأن اللغة العربية هي لغة البلاد، ومن ناحية أخرى، تُجنب نفسها واجب الالتزام بتقنين المسألة اللغوية لو أنها تبنت رسميا مبدأ الازدواجية اللغوية للمجتمع التونسي. إذ أن **تقنين الإزدواجية اللغوية** (عربية/فرنسية) لا يمكن أن يكون في النهاية إلا **لصالح التعريب**. وهذا في نظرنا، ما حاول العهد البورقيبي تحاشيه. فلو طرحت فكرة ازدواجية العربية بالفرنسية للتقنين في المجتمع التونسي الحديث لأخذ هذا التقنين خمسة بدائل:

أ)استعمال العربية حديثا وكتابة في التعامل بين التونسيين بالمجتمع التونسي، ويتفق هذا مع روح الدستور التونسي، كما رأينا.

---

335 ، انظر: محمود النوادي "موليير يعلن عن نتائج الباك" الصباح 26-6-1990

ب)إعطاء **الأولوية** للغة الضاد في كل المعاملات بالمجتمع التونسي، وهي سياسة لغوية تتماشى مع موقف الدستور التونسي من القضية اللغوية.
ت) تبـنـي الإزدواجية اللغوية (أي استعمال العربية والفرنسية)، **تناقض** مثل هذه السياسة ما نص عليه الدستور، من جهة، والرأي العام الشعبي من جهة أخرى.
ث)إعطـاء الأولويـة للفرنسية في الاستعمال . هناك **تناقض صارخ** بين مثل هذه السياسة اللغوية وما جاء في دستور البلاد وما أجمع عليه الرأي العام.
ج)استعمال الفرنسية (فرنسة المجتمع التونسي) فقط. هذا **تناقض مطلق** مع ما نادى بـه الدسـتور بإنتسـاب الشـعب التونسـي الثابت إلى الحضارة والهوية العربية الإسلامية.

لقـد كتب الكثير عن **تذبذب** مواقف وسياسات أصحاب القرار في تونس بخصوص قضـية الـتعريب. فقـال البعض بأن **العجز عن التعريب مرتبط باستمرار تبعية المجـتمع التونسي لغويا وثقافيا بفرنسا المجتمع الأم**[336] وذهب البعض الآخر إلى أن بطء عملية التعريب ترجع إلى عدم توفر الإطار التونسي وفقدان أدوات التعريب (الحاسـوب الآلـي العـربي، والمراجع العلمية بالنسبة إلى التعليم العالي...) في المجتمع التونسي الحديث.ويتضح من هذا الفصل **أن غياب تقنين مسألة الإزدواجية الـلغوية بالقطـر التونسـي هو عامل آخر ساهم ويساهم في تعطيل تقدم عملية الـتعريب في تونس المستقلة**. وبعبارة علم الإجتماع، فإن لعدم تقنين الإزدواجية الـلغوية انعكاسـات سلبية على المسيرة الطبيعية لعملية التعريب. **فصمت أصحاب القـرار عـن تقـنين المسألة اللغوية يعتبر أداة وظفت في كثير من الأحيان لغير صالح التعريب**. إن في عملية التقنين اللغوي تنظيما للتعامل مع المسألة اللغوية و تحسيسا للمواطن التونسي بأن لغته مؤهلة للاحترام والاستعمال **وأن في ذلك وضع حد للفوضى اللغوية في مجتمع لم يتخلص بعد من الإزدواجية اللغوية**.

إن الفصـل السـابق في هذا الكتاب حول مسألة توطين اللغة في كل من المجتمع الجزائـري والتونسـي والكيـباكي أثبتت أن نجاح التعريب أو تعثره (بالنسبة إلى الجزائـر وتونس)، أو نجاح فرنسة كيباك أو تعثرها مرتبط شديد الارتباط **بالقرار السياسي** لأصحاب في هذه المجتمعات الثلاثة.. إن تقنين المسألة اللغوية أو عدمه هـو بكل تأكيد قرار سياسي. ومسيرة التعريب الحثيثة والمنظمة و"المتحضرة" في المجـتمع التونسي الحديث هي **رهينة** أخذ قرار صريح بتقنين الإزدواجية اللغوية لصـالح لغـة الضاد: اللغة الوطنية. فهل سيكون ذلك من إنجازات أصحاب القرار السياسي لتغيير السابع من نوفمبر؟

---

[336] الطاهر لبيب، " العجز عن التعريب في مجتمع تابع" المستقبل العربي السنة 4 العدد29 (يوليو 1980) ص20-26

الفصل الرابع
القيادة التونسية سبّاقة لشعبها في تجسيم التعريب

إن النظر إلى مسيرة التعريب اليوم في المجتمع التونسي يقودنا إلى الحديث عن **صنفين من حركة التعريب** في هذا الأخير. يتمثل الصنف الأول في ما نريد أن نسميه **بالتعريب الرسمي الحكومي**. أما الصنف الثاني فنركز فيه على **حركة التعريب على المستوى غير الرسمي** في فضاءات إجتماعية رئيسية تمثل العمود الفقري لنجاح سياسات التعريب أو نكوصها وفشلها في المجتمع التونسي الحديث.

أولا: التعريب الرسمي الحكومي

تتصف حركة التعريب بالمجتمع التونسي منذ الاستقلال بالبطء والتردد والتذبذب أحيانا في عدة قطاعات. فمما لا شك فيه أن **سياسات التعريب في العهد البورقيبي كان ينقصها الكثير من الحزم والعزم والحماس،** وكان لذلك آثاره البالغة على عرقلة مسيرة التعريب على المستويين الرسمي وغير الرسمي، كما سنرى. لكن الأمور **تغيرت** بصورة جدية بالنسبة لمسيرة التعريب على المستوى الحكومي الرسمي **عندما صدر قانون رئاسي في شهر أكتوبر 1999يوصي بإكمال تعريب الإدارة التونسية الحكومية مع نهاية عام**2000 فمن جهة ، أصبحت اللغة العربية هي لغة مراسلات الإدارة الحكومية التونسية إلى المواطنين . ومن جهة ثانية، فقد أصبح من الواجب على **كل أنواع مراسلات التونسيين** إلى القطاعات الحكومية **أن تكتب باللسان العربي.** فحركة التعريب على المستوى الحكومي الرسمي هي الآن على قدم وساق. فالأساتذة الجامعيون والأطباء ورجال الأعمال... الذين تعودوا على كتابة مراسلاتهم وتقاريرهم باللغة الفرنسية إلى المسؤولين الحكوميين في الوزارات والإدارات التونسية أصبحوا مطالبين بتحرير كل ذلك **باللغة العربية. فالقرار الرئاسي** حسم إذن الأمر لصالح تعريب الإدارة الحكومية بالكامل **وأنهى عهد التردد والتذبذب** الذي ساد في المجتمع التونسي منذ الاستقلال بخصوص تطبيع العلاقة بالكامل بين التونسي ولغته الوطنية في الدوائر الحكومية، من ناحية، وفي تعامل المواطنين معها، من ناحية أخرى. وفي هذا الصدد، يلاحظ الباحث الإجتماعي المشاهد لانعكاسات هذا القرار الرئاسي على المتأثرين به **أمرين رئيسيين:**

1) تذكير هؤلاء بطريقة غير مباشرة بأن **اللغة العربية هي اللغة الوطنية** التي يجب أن يكون لها **الأولوية في التعامل بين التونسيين.** كما هو الأمر في المجتمعات المتقدمة على الخصوص. ومن المؤكد أن هذا كسب مادي ومعنوي لحركة التعريب في المجتمع التونسي على المدى البعيد.

2) تفيد ملاحظاتنا للمتأثرين بهذا القرار مباشرة وللشارع التونسي عموما بأن قرار التعريب هذا لا يكاد يلقى حماسا كبيرا. أما الرافضون للقرار فهم قلة أيضا ينتمون أساسا لفئة الفرنكوفونيين على الخصوص. أي أن **أغلبية الشعب التونسي تبدي**

استعدادا متواضعا للتأقلم مع متطلبات قرار التعريب بسبب ما يحدثه عند الكثيرين مـــن تغيير في عادات استعمال اللغة الفرنسية، من جهة ، وما تطلبه جهود اكتساب مهارة كافية في اللغة العربية للقيام بالعمل المطلوب، من جهة أخرى. ويضاف إلى ذلـــك نـــدرة أو غياب **الحملات الحكومية** قبل إصدار قرار التعريب أو أثناء تطبيقه لتوعية العاملين في الدوائر الحكومية والمجتمع التونسي بأهمية إنجاز **نيل الاستقلال الـــلغوي** فـــي تســـيير شـــؤوننا. فالعلوم الإجتماعية الحديثة ترى أن دور مثل تلك الحملات هام جدا في تحقيق مشروع التعريب حتى يقتنعوا نفسيا وفكريا بمشروعيته وإيجابيـــته الوطنيـــتين. **عـــندها تولد إقتناعات ودوافع جديدة في صلب شخصيات هـــؤلاء الأفراد والفئات الإجتماعية فتجعل منهم قوة مقتنعة وربما متحمسة لكسب رهان التعريب المجتمعي الكامل في مدة أقصر وفي ظروف أفضل.**

ثانيا: التونسي وفقدان تحمسه للغة العربية

إن المـــتفحص لمـــلف سياسات التعريب للمجتمع التونسي منذ الاستقلال يلاحظ أن **تلك السياسات لم تنجح في خلق عقلية تونسية واسعة تحترم بعفوية اللغة الوطنية (العربية) وتعتز بها.** أي أن تلك السياسات لم تفلح في تطبيع علاقة التونسي مع لغته الوطـــنية كما هو الأمر في العديد من المجتمعات المعاصرة حيث يستعمل المواطن بكـــل عفويـــة وارتيـــاح وحمـــاس لغته الوطنية في كل شؤونه حياته. لقد ركزت سياســـات الـــتعريب فـــي البلاد التونسية على تعريب المدرسة (حتى نهاية التعليم الأساســـي) وتعريب الإدارة كما رأينا. ولفهم الموقف غير المتحمس عند التونسيين إزاء استعمال لغتهم الوطنية حتى في أبسط شؤون حياتهم ينبغي الرجوع إلى جذور أســـباب هذا المشكل. وللتبسيط نقول **إن اللغة العربية لا تلقى احتراما عفويا كافيا في أربعة فضاءات إجتماعية رئيسية للمجتمع التونسي.** هذه الفضاءات هي الأسرة والمدرسة والإدارة والشارع.

ثالثا: الأسرة التونسية واللغة العربية

تفيـــد الملاحظات أن **الأسرة التونسية** المتعلمة على الخصوص **شبه فاقدة لوازع وحـــس احـــترام الـــلغة العربية.** ومن ثم فلا تكاد تكون لها مناعة تؤهلها لتحاشي اســـتعمال الكلمات والجمل الأجنبية في حديثها وكتابتها ثم القيام بتعويضها بمردفات وجمـــل عـــربية. ونـــتيجة لذلـــك يـــأتي استمرار انتشار ظاهرة **تسيب التونسيات والتونسيين في مزج اللسان العربي** بكلمات وجمل فرنسية لا حصر لها في حديثهم دون أي مراقبة للنفس ودون شعور بالذنب إزاء عدم احترام اللغة الوطنية التي هي **أم مكونات الهوية الوطنية الجماعية** عند كل الشعوب.

رابعا: دور المدرسة في نشر قيم احترام اللغة الوطنية

أمـــا المدرسة التونسية فلم تثبت أنها قادرة على بث وغرس ذهنية الإعتزاز باللغة العـــربية واحـــترامها قبل غيرها من اللغات. صحيح أنه تم تعريب لغة المرحلتين الإبتدائية والأساسية من المدرسة التونسية.ومع ذلك **فلا يكاد الدارس لملف التعريب في هذه الأخيرة يجد انتشارا للموقف المتحمس والمعتز باللغة الوطنية بين أغلبية**

كــل مـــن الـــتلاميذ ومعـــلميهم وأساتذتهم. ويمكن الاقتصار هنا على ذكر سببين رئيسيين لهذه الحالة:

1) اقــترنت قوانين وسياسات التعريب في البلاد التونسية بعد الإستقلال **بغياب شبه كامل لحملات التوعية الشعبية بأهمية التعريب** واحترام اللغة العربية والإعتزاز بها باعتــبارها الــلغة الوطنية في حين قامت وتقوم السلط التونسية المسؤولة بحملات توعيـــة مكثفة عبر وسائل الإعلام المختلفة في قضايا تعتبرها هامة لمسيرة المجتمع مــثل تنظيم النسل. وكما ذكرنا، فالدراسات الحديثة في العلوم الإجتماعية تشير إلى الــدور الهام الذي تلعبه حملات التوعية في الإفهام و الإقناع اللذين يساعدان كثيرا عــلى تغيير مواقف وتصورات ومعتقدات الناس. فسياسات التعريب التي لم تسبقها أو لم تصاحبها حملات توعية بمدى أهمية مشروع التعريب للهوية الوطنية التونسية يكون تقبل المواطنين لها وترحيبهم بها **ضعيفا** كما أبرزت ذلك ملاحظاتنا في القسم الأول مـــن هـــذا الفصـــل حول موقف التونسيين البعيد عن التحمس بالنسبة لقرار تعريب الإدارة التونسية بالكامل. ومن منظور علم الإجتماع الحديث، فإن السياسات الرســـمية للتعريب في الإدارة وغيرها من القطاعات تحتاج إلى **كسب رهان الجانب غيـــر الرســـمي(الشعبي) من المجتمع التونسي**. أي أنه لا يمكن الحديث عن نجاح حقيقـــي لسياســـات الــتعريب دون أن تمـــس هذه الأخيرة الشارع التونسي فيصبح المواطـــن التونسي يستعمل لغته الوطنية بكل عفوية وارتياح واحترام واعتزاز في كـــل شـــؤون حياتـــه الرسمية وغير الرسمية.ومما لا شك فيه أن **لحملات التوعية** المتواصـــلة بالمشـــروعية الوطنية لمشروع تحقيق التعريب **دورا حاسما في إنجاح حركة التعريب** على المستويين الرسمي والشعبي.

2) لـــم يـــنجح النظام التربوي التونسي لما بعد الاستقلال في تغيير الصورة الباهتة للغة العربية عند المعلم والتلميذ والأستاذ والطالب مقارنة بالصورة اللامعة التي عند هؤلاءعـــن الــلغات الأجنـــبية الغـــربية وتـــأتي فـــي طليعـــتها اللغـــتان الفرنسية والإنجـــليزية.فيـــتخرج مـــن المدرسة و الجامعة التونسيتين تلاميذ وطلبة يظهرون **احـــتراما أكثر** للغات الأجنبية منه إلى اللغة العربية. وهو **وضع يشبه إلى حد كبير وضـــع الـــلغة العـــربية بين أغلبية المتعلمين التونسيين غير الزيتونيين في عهد الإســـتعمار**. وتفيـــد بحوث العلوم الإجتماعية **أن النظرة الدونية للغة الوطنية هي مقدمـــة لتشويه ونسف وحتى إلغاء أسس وثوابت الهوية الوطنية**.وبناء على ذلك فالأمر إذن خطير وعاجل جدا يتطلب معالجة حاسمة **تمكن اللغة العربية من كسب رهان أولوية الإحترام و الإعتزاز الكاملين لدى التونسيين في المدرسة والجامعة**. إذ لـــو تحقـــق ذلك لوقع الإطمئنان على وضع ومكانة اللغة الوطنية في القطاعات الأخـــرى من المجتمع التونسي. فالفرد التونسي تعلم اللغات الأجنبية ويستعملها في المدرســـة ثـــم الجامعـــة وفي هذه الفضاءات تتكون عنده رؤاه وتصوراته الإيجابية وانحيازاته للغات الأجنبية على حساب اللغة العربية.

خامسا: اللغة العربية واحترامها المتواضع في الإدارة

إنـــه ليس منطقيا ولا واقعيا أن ننتظر من ذلك الفرد التونسي تغييرا مفاجئا في كل ذلـــك لصالح اللغة العربية عندما يتخرج من المدرسة أو الجامعة ويذهب للعمل في مؤسســـات المجتمع التونسي.فهناك أدلة كافية،حتى بعد تنفيذ القرار الرئاسي لإكمال تعـــريب الإدارة التونســـية مع نهاية عام2000، تفيد **استمرار انتشار فقدان التحمس والإحترام والإعتزاز باللغة الوطنية** بين هؤلاء الذين يطبقون قانون التعريب. وهذا متفق تماما، كما بينا، مع دراسات علم النفس الإجتماعي الذي يؤكد على أهمية دور **تغييـــر ذهنية ومعتقدات وانحيازات التونسيين السلبية إزاء اللغة الوطنية** بالنسبة لكســـب رهـــان مشروع التعريب. إذ بدون ذلك لا يتم التعريب على أسس صحيحة ومتيـــنة ولا يـــأتي بالنـــتائج المنـــتظرة لفقدان المسؤولين على ذلك جذوة الحماس والإقتناع الكامل بالمشروعية الوطنية لحركة التعريب بالمجتمع التونسي المستقل.

سادسا: الشارع التونسي وضعف اهتمامه باللغة العربية

وعندما ينزل خريجو مدارسنا وجامعاتنا وموظفو إداراتنا إلى الشارع التونسي هل يـــتغير موقفهم وسلوكهم لصلاح اللغة العربية؟ إن معظم مؤشرات الشارع التونسي اليـــوم تـــنفي مثل هذا التوقع. وكما أشرنا من قبل، فمزج العامية العربية التونسية بكـــلمات وجمل فرنسية كثيرة **(الفرنكوأراب) لا تزال هي وسيلة التواصل المفضلة بيـــن عامـــة التونســـيين** والمتعلمين منهم على الخصوص. **فحسّ مراقبة الألفاظ الأجنـــبية مفقودعـــند أغلـــبية التونسيين** المتحدثين بعاميتهم ناهيك عن محاولتهم تعويض تلك المفردات بمردفات عربية.

سابعا: العماء الجماعي إزاء اللغة الوطنية

إن هـــذا الوصف الشديد الإيجاز للمكانة غير المشرقة للغة العربية اليوم في أربعة فضـــاءات رئيسية للمجتمع التونسي يفسر ما يسميه علماء الإجتماع بظاهرة **العماء الجمـــاعي** لـــدى الشـــارع التونسي إزاء تعريب عاميته وتنقيتها من تلوث الكلمات والجمـــل الفرنســـية على الخصوص. وحتى نسمي الأشياء بأسماءها، **فإنه لا يكاد يوجـــد اليـــوم أي وعـــي مـــلموس وبالـــتالي أي تحمس لدى المواطن التونسي بمشـــروعية تعـــريب حديثه** كتكملة للمشروع الوطني في تعريب الإدارة التونسية الذي أنجز منه الكثير بفضل قرار السلطة السياسية العليا للبلاد. ونتيجة لذلك **العماء الجمـــاعي** المتفشـــي بين التونسيين إزاء أولوية التعامل باللغة الوطنية، فإن **الهوية الجماعيـــة التونســـية هـــي الأكثر تضررا** نظرا للعلاقة الوثيقة، التي أكدتها مرارا العـــلوم الإجـــتماعية الحديـــثة، بين لغة المجتمع وهوية أفراده. **وكمثال** عن العماء الجمـــاعي لدى التونسيين إزاء اللغة العربية أسوق هذه الحادثة التي وقعت في أول أســـبوع شـــهر مـــاي2001 بالمركز التجاري ماقرو بالمنار في ضواحي العاصمة التونســـية. ذهـــبت صحبة زوجتي لشراء بعض اللوازم المنزل فلاحظت أن **لافتات الإشـــهار لـــبعض المبيعات مكتوبة باللغة الفرنسية فقط !** ولما وصلنا إلى الخزينة لتســـديد ثمـــن مـــا وددنا شراءه لاحظت وجود لافتات قرب الخزينة بها معلومات

لـــلحرفاء وكلها مكتوبة بالفرنسية فقط ! قررت عندها أن أرفع احتجاجا للمسؤولين بهذا المركز التجاري. وبعد دفع ثمن مشترياتنا إلى السيدين المتواجدين في الخزينة ســألتهما عـــن سبب كتابة هذه اللافتات بالفرنسية فقط. لاحظت أن سؤالي فاجأهما وأدهشـــهما، فقال لي أحدهما إنه لا يتذكر بالمرة في السابق قيام أي حريف تونسي بالإحـــتجاج عـــلى تـــلك اللافتات المكتوبة بالفرنسية. وعندما أعلمتهما أني أرفع احـــتجاجي إلى مدير هذا المركز التجاري كأستاذ جامعي أشار أحدهما بأن الأساتذة الجـــامعيين الذين يتعاملون معهم يسود في حديثهم أكثر من غيرهم استعمال الكلمات والجمل الفرنسية. تبرز هذه الحادثة **شيئين هامين:**

1) يمـــثل غياب الإحتجاج لدى التونسيين على تلك اللافتات الفرنسية وكل ما يمس مكانـــة الـــلغة الوطـــنية **عماء جماعيا.** أي أن الغالبية الساحقة من التونسيين يرون بأعينهم تلك اللافتات المكتوبة بالفرنسية فقط لكنها لا تكاد تثير فيهم أي امتعاض أو أي احتجاج غيرة ودفاعا على اللغة العربية

"إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور."

2) لا يوجـــد أمل كبير في **إحداث نقلة نوعية في تعريب لسان التونسيين** كتابة أو حديـــثا وعـــلى المســـتويين الرســـمي والشعبي بدون أن تنجح المدرسة والجامعة التونســـيتان **في كسب رهان أطر تدريس من معلمين وأساتذة لا يشكون من مركب الـــنقص إزاء اللغات الأجنبية** مثل الفرنسية والإنجليزية والألمانية... فيكونون بذلك **مهيـــئين نفسيا لتطبيع علاقاتهم بالكامل مع اللغة الوطنية.** عندها فقط تأخذ مسيرة الـــتعريب طريقها الصحيح على المستويين الرسمي والشعبي **ويطوى سجل الخوف من متاهات الهوية الجماعية التونسية.**

وفـــي ضـــوء التشخيص الذي قدمناه في هذا الفصل لوضع اللغة العربية **بالمجتمع التونســـي** اليـــوم فإنـــه يمكن القول بأن هذا الأخير **يشكو من فقدان علاقة طبيعية وعضوية مع لغته الوطنية.**

ثامنا: العلاقة العضوية بين المجتمع ولغته

لـــو طـــلب مـــني تقييم حال اللغة العربية بالمجتمع التونسي اليوم لقلت إنه مجتمع يغـــلب عليه التعثر والتراجع أحيانا في مسيرته **في تطبيع علاقته مع اللغة العربية** الـــتي يؤكـــد الدستور التونسي في أول بنوده بأنها لغة البلاد. إن أول ما تعنيه كلمة تطـــبيع هـــنا هـــو استعمال اللغة العربية، اللغة الوطنية، في كافة شؤون التواصل والـــتفاعل بيـــن أفراد ومجموعات ومؤسسات المجتمع التونسي الحديث. **وهذا أمر طـــبيعي فـــي حيـــاة المجـــتمعات ذات السيادة الكاملة.** فاللغة الألمانية، على سبيل المـــثال، هـــي الـــلغة الطبيعية للتواصل والتفاعل في كافة شؤون وحركية المجتمع الألمـــاني المعاصر. وكذلك الشأن بالنسبة للغة الإيطالية ونظيرتها الإسبانية في كل من المجتمع الإيطالي والمجتمع الإسباني.ومن ثم فإن **إقصاء استعمال اللغة الوطنية بالكامل أو تهميش استعمالها** في بعض ميادين وقطاعات المجتمع **أمر غير طبيعي** مـــن الأســـاس. **إذ يشـــوه ويـــربك العلاقـــة العضوية التي تربط المجتمع بلغته.**

فالاستغناء عن هذه الأخيرة لصالح استعمال لغات أجنبية يحدث حتما **قطيعة بين المجتمع ولغته الوطنية** فيفقد المجتمع، من جهة، حركية تطوره الكامل والمتزن والسليم في نهاية المطاف. **وتتأخر اللغة،** من جهة ثانية، عن مسيرة تطور مجتمعها فتصبح وكأنها **عنصر غريب** عنه. إذ أنه لا يكاد يلقي الترحيب والاعتزاز به من الأفراد والمجموعات والطبقات الإجتماعية لهذا المجتمع. وبتبلور هذا الواقع وتصلبه عبر السنين يصاب المجتمع ولغته **بخسارة تلك العلاقة العضوية الطبيعية** التي يجب أن تربط بينهما.

تاسعا: علاقة الفرد بلغته

أما الجانب الثاني في مسألة تطبيع علاقة المجتمع بلغته فهو يتمثل في **العلاقة الشخصية** (الموقف النفسي) لمواطني المجتمع من اللغة الوطنية. **فمن الطبيعي بهذا الصدد أن تتصف علاقة المواطن بلغته الوطنية بحالة من العفوية والارتياح والتحمس في استعمال لغته الوطنية** في جميع شؤونه الشخصية والمجتمعية. ومن الطبيعي أيضا أن يتسم موقف المواطن من لغته بالاحترام لها والافتخار بها والدفاع عنها. وهذا ما يلاحظه المرء اليوم في كل المجتمعات التي **لم تصب بأزمة القطيعة للعلاقة العضوية** الرابطة بين المجتمع ولغته الوطنية. فالتفاعل بين خضم الحياة الإجتماعية في تلك المجتمعات ولغاتها الوطنية **تفاعل شامل** يمس كل شيء في المجتمع. فاللغات اليابانية والفرنسية والإنجليزية/ الأمريكية تحافظ اليوم كل منها في مجتمعها على قداسة العلاقة العضوية التي يجب أن تربط بطريقة طبيعية وتلقائية المجتمع بلغته الوطنية. وبتطبيقنا لهذه الرؤية التحليلية لعلاقة الفرد والمجتمع بلغتهما على وضع اللغة العربية اليوم في المجتمع التونسي يمكن الوصول إلى **وصف واضح المعالم لشأن اللغة الوطنية** به. أي أنني لا أسعى هنا إلى تحليل أسباب حالة اللغة العربية اليوم بالمجتمع التونسي. بل أكتفي **بوصف حال اللغة العربية** بهذا الأخير. وللقيام بذلك أقتصر على ذكر **عشرة أمثلة** من الواقع التونسي في بداية القرن الواحد والعشرين. ولنبدأ بالنظر إلى الطريقة التي يتعامل بها **الجانب المجتمعي والمؤسساتي** في المجتمع التونسي مع اللغة العربية:اللغة الوطنية.

عاشرا: تعامل المجتمع ومؤسساته مع اللغة العربية

يزخر الواقع التونسي بالأمثلة على فقدان تطبيع العلاقة بين المجتمع التونسي ولغته العربية. ونكتفي بذكر خمسة منها. 1) منذ الحصول على الإستقلال نشطت السلط التونسية في القيام بحملات لتحسيس المواطنين ببعض القضايا التي تعتبرها هامة للفرد والمجتمع. فحملات تحسيس التونسي بتناول تغذية صحية يقوم بها المعهد الوطني للتغذية يوميا عبر الإذاعة في برنامج نصائح"الدكتور حكيم". أما توعية المواطن التونسي بالتحكم في عملية الإنجاب فتتدرج منذ عقود في حملات ما يسمى ب"**التنظيم العائلي**". وهناك منذ سنوات حملات لصالح جمال البيئة وبالتالي ضد التلوث والعوامل المضرة بسلامة المحيط. وفي المقابل، **لم يعرف عن السلط**

التونســية قيامها بحملات شعبية عبر وسائل الإعلام لتحسيس التونسيين بتطبيع علاقاتهم مع اللغة العربية، رغم أن وضع اللغة الوطنية لا يزال بعيدا كل البعد عن حال التطبيع كما هو مبين هناو في فصول أخرى من هذا الكتاب.
والسؤال المشروع هنا هو:

لمـــاذا وقـــع ويقع هذا الصمت وهذا التهميش لقضية تطبيع التونسي لعلاقته مع اللغة العربية؟

2) يتجمع الفتيان والفتيات التونسيون وذووهم كل سنة في مدارسهم ومراكز **الإعلان عــن نــتائج امتحانات شهادة الباكلوريا**. ويقوم المسؤولون عن إعلان هذه النتائج باســتعمال العديــد من **الكلمات الفرنسية** مثل مؤجل ajourné، ناجح admis، و refusé راســب. وتستعمل أيضا كلمات فرنسية في الإعلان عن ملاحظات المستوى الذي نجــح به التلاميذ. فملاحظة حسن جدا، حسن، ومتوسط تعلن فقط كالتالي: trés bien, bien, passable . مما لاشك فيه أن استعمال كلمات فرنسية بدلا من مرادفاتها بالعربية يمثل **السياسة الرسمية لوزارة التربية** التونسية منذ الاستقلال حتى يومنا هذا (2001)إن هــذا **السلوك اللغوي** الرسمي والمؤسساتي المتواصل عبر السنين يشير بكــل وضــوح إلى **ضــعف الاحترام والإعتزاز باللغة الوطنية** لدى مسؤولي هذه الــوزارة. لقد نشرت لي جريدة **الصباح** في 26-6-1990 مقالا أعطته هذه الجريدة هذا العنوان"موليار يعلن عن نتائج الباك".

وبعد مضي أكثرمن إحدى عشرسنة على نشر هذا المقال لم تغير الوزارة سياستها. فنتائج شهادة الباكلوريا عندنا لا ينتظر أن يعلن عنها هذا العام بغير لغة موليار !

3) وكمـــا رأينا سابقا، توجد في الكثير من المجتمعات المزدوجة أو المتعددة اللغات **قوانيـــن** تحمـــي تلك اللغات وتعمل على احترامها وتطورها في المجتمع . فعلى ســبيل المــثال، تمثل اللغتان الإنجليزية والفرنسية اللغتين الرسميتين في المجتمع الكندي الحديث. يؤكد قانون اللغات للحكومة الاتحادية الكندية بأن لكل مواطن كندي الحق في التعامل مع المؤسسات الاتحادية بأي من اللغتين الرسميتين وأنه من حق المواطــن أن يقــدم قضية إستعجالية ضد المؤسسة إذا وقع التعامل معه بغير اللغة الــتي اختارها هو. ورغم الإزدواجية اللغوية السائدة في المجتمع التونسي، لم تقم الســلط التونســية بسن قوانين من هذا النوع تنظم المسألة اللغوية **وتجلب الاحترام لصـــالح الــلغة العربية**. إذ أن عدم تقنين الإزدواجية اللغوية لصالح اللغة الوطنية يشير، من ناحية، إلى فتور تحمس السلط التونسية لموقف الاحترام والاعتزاز بهذه الأخيــرة. ومــن ناحيــة ثانيــة، **يعطي الفرصة لاستمرار الاستعمال الواسع للغة الفرنسية في المجتمع التونسي**.

4)إن معايشـــة الوســط الأكـــاديمي في الكليات والجامعات التونسية تشعر الإنسان **الملاحــظ** بأن هذه المؤسسات الوطنية **بعيدة كل البعد عن تطبيع علاقاتها مع اللغة العــربية**. بل إن ما يعاينه المرء في العديد من هذه المؤسسات منذ أكثر من خمس سنوات هو **التراجع الفعلي في عملية التعريب** نفسها في الكثير من التخصصات في

جامعـــات وكـــليات الآداب والفنون العلوم الإنسانية والإجتماعية. وتكثر العينات في هـــذه الأخيرة التي تبرز **مدى غياب القرب من تحقيق المصالحة مع اللغة الوطنية** فـــي هذه المؤسسات الجامعية الوطنية وما يوحي به ذلك من احتقار وندرة الإحترام والإعـــتزاز بالـــلغة العربية. فما هي، مثلا، مكانة اللغة العربية في اجتماعات لجان أطـــروحات الدكتوراه التي تجتمع للنظر في بعض القضايا برئاسة العمداء؟ ولبيان ذلك بشفافية أقترح **إحداث المشهد التالي:** فقد نقل أن السيد عميد إحدى الكليات قد طرح، وكان يتحدث **بالعـــربية والفرنسية**، على الأساتذة الحاضرين موضوع طالب يـــرغب في تعديل عنوان موضوع رسالته. كان موضوع البحث في صلب الفلسفة العـــربية الإسلامية في عهد نهضتها. طلب العميد رأي الأستاذ المشرف الذي أجاب بـــدون **تـــردد بعـــربية ممزوجة بفرنسية** تطغى فيها هذه الأخيرة أحيانا على اللغة العـــربية. وبعـــد توضـــيحات المشـــرف تدخل أحد الزملاء لشرح وجهة نظره في الـــتعديل المقترح في عنوان أطروحة الطالب . **فطفق يتحدث بالفرنسية في قضية تمـــس الفكـــر العربي الإسلامي من قريب!**إن أحداث هذا المشهد الجامعي التونسي ليســـت بالتأكيد **استثناء** لما يجري في أماكن أخرى من كلياتنا وجامعاتنا وإنما هي **مشـــهد نمطـــي.** أي هي جزء من كل في جامعات وكليات الآداب والفنون والعلوم الإنسانية والإجتماعية بالمجتمع التونسي. ومما لا شك فيه أن الأمر **أسوأ بكثير** في جامعـــات وكليات العلوم التونسية حيث يطغى استعمال اللّغة الفرنسية على الأساتذة الجامعيين.

5) تشـــرف بلديات تونس وضواحيها على ما يسمى بحملات تعريب المحيط. لكن يبدو أن هذا الأخير يقتصر على كتابة **اللافتات الخارجية** لأسماء المراكز التجارية والمغـــازات والدكـــاكين ... بالـــلغة العربية إلى جانب اللغة الفرنسية. أما تعريب أســـماء حتى بعض المبيعات والمنتوجات الوطنية داخل **هذه الفضاءات** فهو أمر لا **يطـــالب** بـــه قانون البلديات. فالمركز التجاري برموقرو Promogro بالمرسى يكتب أسماء الغلال التونسية المعروضة للبيع باللغة الفرنسية. أما المركز التجاري "بساج le Passage" بقـــرطاج درمـــش، فيعـــلق إرشاداته للحرفاء حول شروط تسديد ثمن المشـــتريات بالصـــك المصـــرفي وليـــس نقدا. تكتب كل هذه الإرشادات للمواطن التونسي **باللغة الفرنسية**. وكذلك الشأن بالنسبة للمركز التجاري "مقني" بالمنزه.**فلا يكاد المرء يشعر** داخل هذاالأخير **بأنه في مجتمع يقر بأن اللغة العربية هي لغة الـــبلاد التونســـية!** ليســـت هـــذه العينات الثلاث إلاغيضا من فيض في العاصمة التونســـية وضـــواحيها.وهـــي كلها شواهد على أن **اللغة العربية لاتزال تشكو من غربة نكراء في مجتمعها.**

حادي عشر: فقدان العلاقة الحميمة بين التونسي ولغته

إن الســـلوك اللغوي للأفراد يتأثر كثيرا بموقف وممارسات المجتمع ومؤسساته من اللغة المتعامل بها. فعلما اللسانيات الإجتماعية Socio-Linguistics والنفس الإجتماعي يساعدان كثيرا على فهم وتفسير علاقة التونسي باللغة العربية في الأمثلة التالية:

1)وكما أكدنا من قبل، هناك غياب شبه كامل اليوم في المجتمع التونسي الحديث للوعي **بأهمية اللغة العربية كلغة وطنية**. فكلمة وطنية لا يستعملها لا الفرد التونسي ولا المؤسسة التونسية ولا النخب المثقفة ولا السلط المسؤولة كنعت للغة العربية كما هو الشأن بالمجتمع الجزائري، مثلا، وذلك رغم انتشار استعمال مفردة وطنية (أو قومية) من طرف السلط التونسية منذ الإستقلال في نعت الكثير من المؤسسات والشركات التونسية مثل مؤسسة الإذاعة والتلفزة الوطنية والمعهد القومي للتغذية.

2) فعدم استعمال كلمة وطنية كنعت للغة العربية في المجتمع التونسي الحديث يمكن أن ينظر إليه على أنه ذو دلالة ذات وزن كبير تتمثل في **إضعاف وعي التونسي بعلاقته باللغة العربية**. فإذا كانت إيديولوجيا السلط المسؤولة والنخب المثقفة تركز على **أهمية كل ما هو وطني**: أي تونسي، فإن **حرمان اللغة العربية من نعت "وطنية"** يفقدها الكثير من مكانتها ومشروعيتها في بؤرة وعي التونسيين وممارستهم. إذ تكون بذلك في تصورهم ووعيهم الشعوري واللاشعوري وكأنه **ليست جزء صميما من الوطنية التونسية !**

3) هناك مؤشرات عديدة تفيد أن **التونسي يفتقد إلى موقف الإحترام والإعتزاز باللغة العربية**. فلو كان مثل هذا الموقف غير منتشر بين عامة التونسيين لشاع **بالتأكيد نوعان**،على الأقل،من السلوك اللغوي بينهم: أ) تقلص ظاهرة المزج اللغوي (الفرنكوأراب) في حديث التونسيين. إذ أن موقف الإعتزاز والتقدير للغة الوطنية يحفز المواطنين على القيام بعملية مراقبة واعية ومتواصلة للتقليل من استعمال الكلمات والعبارات الفرنسية في العامية العربية التونسية.إن الاستماع إلى حديث التونسيين حيثما كانوا، لا يكاد يخلو في غالب الأحيان من كلمات وعبارات فرنسية مهما كان هذا الحديث قصيرا ومهما كانت طبيعة موضوعه.

ب) لو كان التونسي يفتخر بلغته الوطنية ويتحمس لها لوجدنا **سلوك التونسي المدافع عن اللغة العربية ظاهرة شائعة** بين كل شرائح المجتمع. لكن الملاحظة للواقع اللغوي التونسي تدل بأن هذه الظاهرة نادرة ونادرة للغاية **وتكاد تكون مفقودة تماما.**

4)تفيد الدراسات الميدانية الواحدة بعد الأخرى بأن **اللغة العربية** تقترن في ذهنية التونسي بالأمور **التراثية والتقليدية**. وهي بالتالي ليست، عنده، بلغة العصر والحداثة. ومن ثم فمن الصعب أن تكسب وده واحترامه القوي في عالم يهيمن عليه **صراخ عولمة وحداثة الغرب**.إن ما يجده المرء بدل ذلك شعور التونسي الواعي و اللاواعي بتحقير **لغته الوطنية وحتى الخجل** من استعمالها أحيانا ! إن مسألة مشروعية استعمال اللغة العربية في كل قطاعات المجتمع التونسي لم تشغل منذ الاستقلال إلا **بال أقلية صغيرة من التونسيين**. ومن ثم، فالوضع غير العادي والرديء للغة العربية في المجتمع التونسي الحديث لم يكن هما من هموم فئات وشرائح عريضة من الشعب التونسي المستقل. **فلم يعرف أن اللغة العربية قد**

أصبحت موضوع نقاش عام وجدي وذي نفس طويل منذ أكثر من أربعين عاما. كل ذلك يشخص بكثير من الشفافية بأن أغلبية التونسيين في عهد الاستقلال يتصفون **بمستوى ضعيف من الوعي** بالنسبة لأهمية مسألة **أولوية استعمال اللغة الوطنية** وتقديرها حق قدرها الأمر الذي يجعلهم يبدون وكأنهم في حالة **اللامبالاة أو حتى العداوة** أحيانا لمسألة توطين اللغة العربية والغيرة عليها !

5) كمواطن يلتزم باحترام اللغة العربية و الاعتزاز بها داخل المجتمع التونسي وخارجه، طالما أثِيرُ في لقاءاتي مع التونسيين أفراد وجماعات (طلبة الجامعة، المشاركين في الندوات والملتقيات) مسألة تعثر تطبيع التونسي لعلاقته مع اللغة العربية بالمعنى الوارد في هذا الفصل.**ولم أذكر مرة واحدة** أن أحدا قام بالاعتراض على ذلك.وأنا انتظر أن لا يكون الأمر مختلفا مع القراء التونسيين لهذا الفصل وغيره من فصول هذا الكتاب. أي أنهم سوف يكونون عموما عاجزين على تكذيب مصداقية هذه الملاحظات لأنهم هم أنفسهم **فاقدون للمواصفات** المذكورة هنا والتي تؤهلهم لتطبيع علاقاتهم مع اللغة العربية. فمن خلال العشرة أمثلة التي أوردتها يتضح أن **حالة اللغة العربية بالمجتمع التونسي قبل قرن كانت أفضل مما هي عليه الآن** من حيث انتشار استعمالها في شؤون هذا المجتمع ومن حيث التقدير والاحترام والعزة التي كانت تلقاها عند سواد الشعب التونسي. **فهل سوف يتغير شأن هذه اللغة الوطنية بالبلاد التونسية إلى حالة التطبيع الكامل على المستوى الفردي والجماعي في القرن الحادي والعشرين؟** أي هل سوف يقع **القضاء نهائيا** على هذا الملمح من **ظاهرة التخلف الآخر** بالمجتمع التونسي في القرن الحالي؟

الفهرس

الإهداء

توطئة

الباب الأول : حول طبيعة عالم الرموز الثقافية والتأثيرات بين المجموعات البشرية

الفصل الأول:

مفهوم عالم الرموز الثقافية عند الإنسان وفهم طبيعة عمليتي التأثير والتأثر الثقافيين بين الشعوب:............... 13

الرموز الثقافية كأداة فهم للغزو الثقافي............... 13

الرموز الثقافية حبلى باللمسات الماورئية 15

أنماط التأثيرات الثقافية بين المجموعات البشرية 15

الأمة العربية كظاهرة فريدة للانصهار في الرموزالثقافية للآخر..25

المجتمع الجزائري لم يكن مقاطعة فرنسية 27

الرموز الثقافية وخلود روابط الشعوب 28

الفصل الثاني:الوجه الآخر لعالم الرموز الثقافية كما تعكسه قراءة سوسيولوجية غيرعادية:................................ 29

عالمنا هذا البيت الصغير.......................... 29

عالم الرموز الثقافية ولمساته الميتافيزيقية............... 30

الدلالات الثلاث للمسات الميتافيزيقية.................. 32

اللغة ولمساتها الميتافيزيقية...................... 33

اللمسات الميتافيزيقية لقيم الحرية والعدالة والمساواة..... 35

مفهوم الروح الثقافية الرموزية عند الإنسان............. 39

حالات تطبيقية لمفهومنا للرموز الثقافية: 39

١ –الوطن العربي كنتيجة لعالم الرموز الثقافية...... 40

٢ – الرموز الثقافية والعلاقات المتوترة بين كندا وكيباك...41

٣ –التبعية الثقافية أخطر التبعيات جميعا 45

نحو علم اجتماع الرموز الثقافية 47

الباب الثاني: التخلف الآخر بالوطن العربي والعالم الثالث

الفصل الأول:

التخلف الثقافي النفسي كمفهوم بحث في مجتمعات الوطن العربي والعالم الثالث.................................. 49

ملاحظات في احتكاك الشعوب........................ 49

مفهوم التخلف الآخر.......................... 51
الإنسان حيوان ثقافي بالطبع.......................... 52
مفهوم التخلف الآخر ودراسة مجتمعات المغرب العربي:........ 53
١ – اللغة وتأثيرها على الآخرين.............. 53
٢ – المزج اللغوي أو عدمه.............. 53
٣ –جذور المزج اللغوي.............. 54
٤ – الشخصية وصراعات القيم 56
٥ – طبيعة علاقة الطرفين وصراعات الشخصية 57
تطبيق مفهوم التخلف الآخر علاً ثلاث فضايا عربية:.......... 58
١ –غياب علم إجتماع عربي.................. 58
٢ –ظاهرة تفشي السب 59
٣ –علاقة اللغة بالتنمية 59
العلم براء من نسيان التخلف الآخر.................. 60
الليبراليون وتحيزهم الثقافي.......................... 61
الراديكاليون وتفسيرهم المادي 61
التخلف مادي ومعنوي 63
من أسباب فقر نظريات التنمية والتخلف.................. 64
التخلف الآخر وعقدة التبعية 65
الفصل الثاني: بعض الجوانب الأخرى لمفهوم التخلف الآخر في الوطن العربي 67
مقدمة 67
الطبيعة النسقية لظاهرتي التخلف والتقدم.............. 67
التخلف الآخر كملمح تخلف لشخصية الإنسان النامي وللتنشئة الإجتماعية 68
الصياغة الإمبرقية لمفهوم التخلف الآخر 69
عدم تجانس التركيبة الثقافية للمجتمعات النامية.............. 72
التفكك الثقافي كميدان لبحوث العلوم الإجتماعية.......... 74
دراسة التخلف الآخر كفرصة لتوطين العلوم الإجتماعية بالوطن العربي والعالم الثالث 75
أسس نجاح ابن خلدون في ارساء نظرية إجتماعية عربية....... 77
الإتكال على الذات هو البديل للعلوم الإجتماعية بالوطن العربي والعالم الثالث 77
الإسهامات الإيبستيمولجية للعلوم الإجتماعية في دراسة الجانب الثقافي للإنسان 79
التخلف الآخر كوسيلة لتشويه وعي الشعوب التابعة.......... 80

الفصل الثالث: الوجه الآخر للأمن الثقافي العربي 83
مقدمة 83
الصمت عن الأمن اللغوي 84
مفهوم الأمية الجديدة 84
ملامح الأمية الجديدة عند أساتذة الجامعات العربية.......... 85
ملامح الأمية الجديدة عند الطلبة العرب 87
اللغات واللهجات في العالم العربي...................... 89
تقسيم الأدوار اللغوية بين الفصحى والعامية............... 93
مكانة الفصحى: 94
أ) بالمغرب العربي
ب)بالمشرق العربي
غربة الفصحى لا تكاد تطرح.............................. 97
الإنعكاسات الموقفية لتدهور الفصحى......................... 98
جذور تدهور أتقان الفصحى. 99
كيف تتحسن الفصحى...................................... 101
وضعية الفصحى بين التشاؤم والتفاؤل............... 102
الفصل الرابع: المجتمعات المتخلفة ومشكلة الثقة بالنفس 104
تعدد تسمية التخلف.. ... 104
التخلف بين الباطل والحقيقة......... 105
بطلان أسس هذا الإعتقاد.. 106
الإستعمار الحديث وظاهرتا التخلف والتقدم.................. 107
توعية شعوب العالم الثالث بتاريخها.......................... 107
دور التجذير الثقافي في ارجاع الثقة بالنفس...................... 109
الباب الثالث: التخلف الآخر بمجتمعات المغرب العربي
الفصل الأول: التخلف الآخر في المغرب العربي 113
ظاهرة الصمت الطويل 113
علاقة التخلف الآخر بالإستعمار....................................... 114
تعريف ظاهرتي التنمية والتخلف... 115
أسباب الإهتمام بالتخلف الإقتصادي..................................... 116
الدراسات الأكادمية والتخلف الآخر: 117
١ – المنظور الماركسي.. 118
٢ – المنظور الأمريكي 118
بعض مظاهر التخلف الآخر في المغرب العربي........... 119
آثار التغريب اللغوي والثقافي 122
التركيبات اللغوية والثقافية في المغرب العربي:........... 124

١ –نمط التكوين الثقافي اللغوي في المغرب العربي.... 125
٢ –أنواع التكوين اللغوي الثقافي في فترة الإستعمار..... 126
٣ – أنواع التكوين اللغوي الثقافي بعد الإستقلال......... 127
مساهمة تلك الأنواع الثقافية في تسيير المجتمعات المغاربية...128
التبعية الثقافية لمفكري العالم الثالث 130
هل هناك من خروج من الإستعمار الثقافي؟ 132
١ – ضرورة حملات التوعية الثقافية.................. 133
٢ –أهمية دور القرار السياسي 134
الفصل الثاني: في سوسيولوجيا أسباب نجاح وتعثر توطين اللغة في كل من المجتمع الجزائري والتونسي والكيباكي 136
طبيعة الدراسة وأهدافها 136
منهجية الدراسة 137
دور القرار السياسي في عملية توطين اللغة العربية في تونس والجزائر 138
دور القرار السياسي في فرنسة المجتمع الكيباكي 139
علاقة طبيعة التكوين الثقافي للقيادة السياسية باتخاذ/ تعثر القرار140
علاقة توطين اللغة بالتكوين الثقافي لرئيس القيادة السياسية ... 146
توطين اللغة وإيديولوجيا القيادة السياسية 148
إيديولوجيا القيادة السياسية الكيباكية وتوطين اللغة الفرنسية ... 152
خلاصة 153
الفصل الثالث: المزج اللغوي كسلوك لغوي للإنسان المغاربي المغلوب155
تعريف ظاهرة الدراسة وهدفها 155
بعض المعطيات عن طبيعة المزج اللغوي 155
أصناف المازجين بالمغرب العربي 156
ملاحظات أساسية حول ظاهرة الفرنكوأراب 156
الفروض كأداة بحث 157
بعض الفروض العاملة لإفراز الفرنكوأراب 158
–مناقشة الفرض الأول 159
– مناقشة الفرض الثاني 160
– مناقشة الفرض الثالث 160
– مناقشة الفرض الرابع 161
– عوامل أستعمال الفرنكوأراب بعد الإستقلال 162
– مناقشة الفرض الخامس 166
الفرنكوأراب كظاهرة يحتاج تفسيرها إلى علوم اجتماعية منبثقة من واقع العالم الثالث 167

ظاهرة الفرنكوأراب وقانون الغالب والمغلوب لابن خلدون. 168
ظاهرة الفرنكوأراب الأنثوية وعلاقة الغالب بالمغلوب.... 168
الباحثون المغاربيون و ظاهرة الفرنكوأراب 170

الباب الرابع: التخلف الآخر بالمجتمع التونسي

الفصل الأول: ظاهرة المزج اللغوي عندنا 173
ملاحظات صيفية عن لغتنا 173
الدوافع النفسية والإجتماعية للمزج اللغوي 176
الإستقلال اللغوي الثقافي وحماية الهوية 178

الفصل الثاني: سلوكات ومواقف التونسيين إزاء الإلتزام الواعد بالتعريب
موضوع هذا الفصل 181
العلاقة العضوية بين الموقف والسلوك 182
الموروث الإستعماري وتحقير اللغة العربية وثقافتها 183
مكانة اللغة العربية عند السلطة في تونس المستقلة 184
المؤسسات الوطنية ومواقفها وسلوكاتها إزاء العربية...... 186
الفئات الإجتماعية ومواقفها وسلوكاتها إزاء العربية........ 198
التونسي الملتزم ونجاح عملية التعريب 190

الفصل الثالث: تقنين المسألة اللغوية : تلك الحلقة المفقودة
الإزدواجية اللغوية وغياب تقنينها 192
المجتمعات البشرية بين أحادية اللغة وتعددها 194
ضرورة تنظيم المسألة اللغوية 195
غياب سياسة التحكم في الإزدواجية اللغوية 197
تقنين المسألة اللغوية يعمل لصالح التعريب 197

الفصل الرابع: القيادةالسياسية سبّاقة لشعبها في تجسيم التعريب
التعريب الرسمي الحكومي 199
التونسي وفقدان تحمسه للغة الغربية 200
الأسرة التونسية واللغة العربية....................... . 200
دور المدرسة في نشر قيم احترام اللغة الوطنية 200
اللغة العربية واحترامها المتواضع في الإدارة 202
الشارع التونسي وضعف اهتمامه باللغة العربية.......... 202
العماء الجماعي إزاء اللغة الوطنية 202
العلاقة العضوية بين المجتمع ولغته 203
علاقة الفرد بلغته 204
تعامل المجتمع ومؤسساته مع اللغة العربية 204
فقدان العلاقة الحميمة بين التونسي ولغته 206

طبع "تسوب للطباعة" 71 428 088



المؤلف في سطور

ولد المؤلف في هنشير الزريبة بمعتمدية قلعة الأندلس بولاية أريانة. أتم تعليمه الابتدائي في الكتاب والنظام المدرسي العام. زاول دراسته الثانوية في التعليم الزيتوني العصري فتحصل على شهادة التحصيل العصري. فاز بمنح وطنية وأجنبية مكنته من السفر إلى الخارج للدراسة بالعراق والولايات المتحدة الأمريكية وكندا. فنال من هاتين الأخيرتين شهادات الإجازة والماجستر والدكتورة في علمي النفس والاجتماع.

درّس في جامعات بالجزائر والسعودية وكندا وماليزيا.وهو اليوم أستاذ تعليم عال في علم الاجتماع بالجامعة التونسية.

صدر له كتابان بالإنجليزية(نحو علم اجتماع إسلامي للرموز الثقافية1996 وأضواء جديدة حول العقل العمراني الخلدوني 1997) وآخر بالعربية(الابتكارات في العلوم الاجتماعية الهامشية الخلاقة 1997 ترجمه من الفرنسية إلى العربية) شارك في خمسة كتب أخرى وذلك بالمساهمة بفصل واحد في كل واحد منها باللغتين : العربية والإنجليزية. يصدرله صحبة هذا الكتاب نظيره بلغة شكسبير حول نفس الموضوع كما ينشر له هذا العام كتاب باللغة العربية حول فكر ابن خلدون.

للمؤلف أكثر من مائة دراسة ومقال باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية منشورة في مجلات عربية وأجنبية. نال المؤلف منحة فولبرايت الأمريكية في سنة2000-2001 للذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة حال علم الاجتماع الأمريكي في نهاية القرن العشرين.

هذا الكتاب:

إن انتشار ملامح التخلف الآخر في مجتمع ما طالما يقود أفراده ومجموعاته إلى شعور بالغربة مع أنفسهم داخل منظومة رموزهم الثقافية الأصيلة. وعلى مستوى آخر فملامح التخلف الآخر تنطوي في نهاية الأمر على عملية إرباك وعدوان على معالم الشخصية والجماعية ذات الرباط الوثيق بالرموز الثقافية الأصيلة للمجتمع الأم. إن تقديم هذا الحصاد الفكري حول التخلف الآخر باللسان العربي يجسد، من جهة، فكرة مقاومة التخلف الآخر والقضاء عليه ومن جهة ثانية فإن نشر هذا الكتاب باللغة العربية حول موضوع جديد في أدبيات التخلف والتنمية في العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة يعطي بحق دلالات أعمق لمعنى توطين العلوم الاجتماعية في الو



9973-788-96-6

الثمن:7.500د.ت.